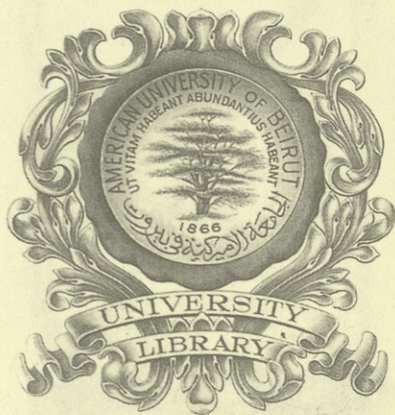
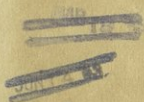


AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT



297.207
I1366A

FE 5 54
JN 154



297.207

I136 t.A

c.1

التبليغ

في أقسام القرآن

للعامة شمس الدين محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية المتوفى سنة ٧٥١

صححه وعلق هوامشه الفقير الى الله تعالى

محمد حامد الفقي

من علماء الأزهر الشريف

79540

الطبعة الأولى سنة ١٣٥٢ هجرية — ١٩٣٣ ميلادية

﴿ حقوق الطبع محفوظة ﴾

يطلب من المكتبة التجارية الكبرى بأول شارع نجيب على بصر

إصاها: مصطفى محمد

مطبعة حمادى

بحوار قسم الجمالية بالقاهرة

تليفون رقم ٥٥٤٨٠



﴿ فهرست كتاب التبيان في أقسام القرآن للعلامة ابن القيم ﴾

صفحة	رقم الفصل
٠٠	مقدمة المصحح
١	فصل ١ ما يقسم الله به
٣	» ما يقسم الله عليه
٨	» إقسامه تعالى على صفة الانسان وعلى الجزء
١٤	» من ذلك قوله تعالى (لا أقسم بيوم القيامة)
١٨	» » » (والشمس وضحاها)
٢٥	» سر ذكره تعالى قصة ثمود
٢٧	» ومن ذلك قوله تعالى (والفجر وليال عشر الخ)
٣٣	» » » » (لا أقسم بهذا البلد)
٤٣	» » » » (والتين والزيتون)
٥٥	» » » » (والليل إذا يغشى)
٦٩	» معنى قوله (إن علمنا للهدى) وتفصيل أنواع الهدى
٧٢	» ومن ذلك قوله (والضحي والليل)
٧٥	» » » » (والعاديات ضبحا)
٨٠	» بيان المقسم عليه في سورة العاديات
٨٣	» مقعول العلم في قوله (أفلا يعلم إذا بعثر الخ)
» »	» ومن ذلك قوله (والعصر)
٨٨	» » » » (والسماء ذات البروج)
١٠٠	» » » » (والسماء والطارق)
١٠١	» المقسم عليه في سورة (والسماء والطارق)

صفحة	رقم الفصل
١٠٨	فصل ومن ذلك قوله (فلا أقسم بالشفق والليل وما وسق) ٢٠
١١١	» جواب القسم في هذه الآية ٢١
١١٤	» ومن ذلك قوله (فلا أقسم بالخنس) ٢٢
١١٨	» معني عسيسة الليل وذكر خلاف العلماء فيه ٢٣
١٢٠	» المقسم عليه في قوله (فلا أقسم بالخنس الخ) ٢٤
١٢٨	» صفات القرآن وأنه ذكر عام وخاص ٢٥
١٣٢	» ومن ذلك قوله تعالى (والنازعات غرقا) ٢٦
١٤٢	» » » » (والمرسلات عرفا) ٢٧
١٤٧	» » » » (لا أقسم بيوم القيامة) ٢٨
١٥٦	» جمع الله لأوليائه بين جمال الظاهر والباطن ٢٩
١٥٧	» تضمن سورة القيامة اثبات قدرته تعالى على ما لا يفعله ٣٠
١٥٩	» تضمنها التائي والتثبت في طلب العلم ٣١
١٦١	» اثبات النبوة والمعاد بالعقل ٣٢
١٦٣	» ومن ذلك قوله (كلا والقمر الخ) ٣٣
١٦٨	» قوله تعالى (والليل اذ أدبر الخ) ٣٤
١٧٢	» المقسم عليه في هذه الآيات ٣٥
١٧٥	» قوله تعالى (فلا أقسم بما تبصرون) ٣٦
١٧٩	» ما تضمنه قوله (تنزيل من رب العالمين) ٣٧
١٩٤	» قوله (فلا أقسم برب المشارق) ٣٨
١٩٦	» قدرته تعالى على تبديل الخلق بخير منهم وتبديل امثالهم ٣٩
	واستبداله قوما غيرهم ووجه الجمع بين هذه الانواع

صفحة	رقم الفصل
٢٠٠	فصل تهديده تعالى للمشركين بعد اقامة الحجة عليهم بقوله (فذرهم يخوضوا ويلعبوا)
٢٠٣	» قوله (ن والقلم وما يسطرون)
٢٠٦	» السر في الاقسام بالقلم
٢٠٧	» مراتب الاقلام ، وقلم القدر
٢٠٨	» قلم الوحي
»	» قلم التوقيع عن الله عز وجل
٢٠٩	» قلم طب الابدان
»	» قلم التوقيع عن الملوك ونوابهم
»	» قلم الحساب
٢١٠	» قلم الحكم الذي تثبت به الحقوق
»	» قلم الشهادة
»	» قلم التعبير
٢١١	» قلم تواريخ العالم
»	» قلم اللغة
٢١٢	» قلم الرد على المبطلين ، وهو القلم الجامع
٢١٣	» المقسم عليه في سورة ن والقلم
٢١٩	» قوله (فلا أقسم بمواقع النجوم)
٢٢١	» المقسم عليه في هذه الآية وهو القرآن
٢٢٥	» وصف القرآن بأنه كريم
٢٢٦	» خلاص العلماء في الكتاب المكنون وترجيح انه
	اللوح المحفوظ

صفحة	رقم الفصل
٢٣٠	فصل لا يدرك القرآن الا القلوب الطاهرة
٢٣١	» ما يفيد قوله (تنزيل من رب العالمين)
٢٣٤	» توحيته تعالى المشركين لوضعهم الادهان في غير موضعه
٢٣٦	» ختام سورة الواقعة بأحوال القيامة الصغرى
٢٤٠	» طبقات الناس عند الحشر
٢٤٢	» قوله تعالى (والنجم اذا هوى)
٢٤٦	» » » (وما ينطق عن الهوى ان هو الا وحى يوحى)
٢٤٩	» صفات معلم الوحي
٢٥١	» رؤية الرسول ﷺ كانت لجبريل
٢٥٣	» رؤيته مرة ثانية عند سدره المنتهى
٢٦١	» معنى قوله (ما زاغ البصر وما طغى)
٢٦٢	» أنواع الاستطراد وأمثلة من الكتاب العزيز
٢٦٤	» قوله تعالى (والطور وكتاب مسطور)
٢٧٠	» المقسم عليه في هذه السورة
٢٧٢	» نعيم ارباب العلوم النافعة
٢٧٦	» من كمال نعيمهم إلحاق ذرياتهم بهم
٢٧٨	» قوله تعالى (والذاريات ذروا)
٢٨١	» الكلام على السحاب ووجه دلالة على قدرة الله
٢٨٤	» قوله تعالى (فالمقسمات أمرا) وبيان من هم
٢٨٨	» المقسم عليه وهو قوله (انكم لفي قول مختلف)
٢٩١	» جزاء من خلص من الفتن بالتقوى

صفحة	رقم الفصل
٢٩٣	فصل أحب القيام الى الله
٢٩٥	» آياته تعالى في الآفاق وفي الأنفس
٢٩٧	» اختلاف الآيات في أجناسها وصفاتها ومنافعها
٣٠٣	» السر في تبصير الله تعالى العباد بأنفسهم
٣٠٥	» العينان ووظيفتهما
٣٠٦	» الاذنان وسر شقتهما في جانبي الوجه
٣٠٧	» الانف وسر نصبه في وسط الوجه قائماً معتدلاً
٣٠٩	» الفم وأنه من العجائب
٣١٠	» اللسان والصلة بينه وبين القلب
٣١١	» سر خلقه تعالى اللسان عضوا لا عصب فيه ولا عظم
»	» الاسنان والشفقتان ووظيفتهما
٣١٣	» سر جعل الفم أكثر الأعضاء رطوبة . وفائدة اللعاب
٣١٤	» العبرة من حال الشعر ومنابته
٣١٦	» الحاجبان وأنهما وقاية العين مع الحسن والزينة
٣١٧	» شعر اللحية وأنه زينة ووقار
»	» شعر الانف والابط ومنافعهما
٣١٨	» حكمة الرب تعالى في اخلاء الكفين والجهة من الشعر
٣٢٥	» حال الانسان من مبدئه الى نهايته
٣٢٧	» حرارة الجسد وإلهابها الشهوة والسر العجيب في ذلك
٣٣٤	» الكلام في ماء المرأة وصفته ووظيفته في تكوين الجنين
٣٣٧	» سبب تفاوت مدة الحمل
	١٠١

صفحة	رقم الفصل	صفحة
٣٣٩	فصل أقل مدة الحمل	١٠٢
٣٤٠	» سبب الازدكار والابنات ارادة الله وحدها وتقنيد	١٠٣
	ماذهب اليه الطبيعون	
٣٤٥	» متى ينفخ الروح في الجنين ؟	١٠٤
٣٤٩	» أى عضو يتخلق من الجنين قبل الآخر ؟	١٠٥
٣٥١	» هل للجنين حركة واحساس قبل نفخ الروح فيه ؟	١٠٦
٣٥٣	» هل يتكون الجنين من ماءين وواطئين ؟	١٠٧
٣٦٢	» أدوار انتقال النطفة وأطوارها	١٠٨
٣٦٣	» أعضاء الغذاء ثلاثة أقسام	١٠٩
٣٦٤	» الأعضاء القابلة للفضلات: المرارة، والطحال. والكبد	١١٠
٣٦٦	» وظيفة القلب	١١١
»	» المعدة أربع قوى : جاذبة ، ومنضجة ،	١١٢
	ومسكة ، ودافعة	
٣٦٨	» موضع الكبد من المعدة	١١٣
٣٦٩	» الحكمة فى جعل صفقات الكبد أرق من صفقات	
	سائر عروق البدن	١١٤
٣٧١	» أحرز الصانع سبحانه موضع الكبد ووضعها	١١٥
»	الطحال ومافيه من القوائد والردعلى من زعم أنه لافائدة فيه	١١٦
٣٧٦	» الكبد والطحال متقابلا والمعدة بينهما	١١٧
»	» المعدة هى الآلة لهضم الغذاء واستمرائه ، والامعاء	١١٨
	تؤديه الى الكبد	

١١٩	فصل مختصر يجمع شتات ماسبق بايضاح وإيجاز	٣٧٨
١٢٠	الكبد عضو لحى تتخلله عروق غلاظ ورقاق	٣٨٣
١٢١	العروق الموصلة الى القلب : الوتين ، والابهر	٣٨٥
١٢٢	المرارة وضعها على الكبد ، ولها مجريان	٣٨٦
١٢٣	القوة العامة التى جعلها الله فى البدن لتنظيمه	»
١٢٤	الدم وهو الغذاء الحقيقى للبدن	٣٨٨
١٢٥	المادة البلغمية ووظيفتها	»
١٢٦	المادة الصفراوية وحاجة البدن اليها	٣٨٩
١٢٧	المرارة السوداء وما فيها من المنافع	»
١٢٨	حكمة الله فى أن جعل فى البدن أعضاء رئيسية	٣٩٠
١٢٩	السر فى استحقاق الاعضاء الرئيسية للرياسة	»
١٣٠	الاعضاء الخادمة : الرئء والشرايين . والمعدة والاوردة	٣٩١
١٣١	الاعضاء المرءوسة بلا خدمة	٣٩٢
١٣٢	الاعضاء التى ليست برئيسة ولا مرءوسة	»
١٣٣	عدد العظام على ما أحصاه المشرحون	٣٩٤
١٣٤	لفظ الرأس وله اطلاقان	٣٩٨
	على الانسان أن ينظر فى نفسه ليعرف ربه وصانعه ،	٤٠١
١٣٥	فيوحده ويعبده	
١٣٦	عجائب العين	٤٠٧
١٣٧	عجائب الاذنين	٤٠٩
١٣٨	عجائب الانف	٤١٠

صفحة	رقم الفصل
٤١١	فصل القلب ملك البدن ومعدن الحرارة الغريزية ١٣٩
٤١٢	» الصدر معدن العلم والحلم ١٤٠
٤١٦	» جنود القلب وأبوابه وطرقه ١٤١
٤١٧	» حال القلب مع الملك والشيطان ١٤٢
٤١٨	» المام الشيطان بالقلب ١٤٣
٤٢٠	» كيف يطرق الشيطان قلبك . وكيف تدفعه ؟ ١٤٤
٤٢١	» ثم قال الله تعالى (وفي السماء رزقكم) ١٤٥
٤٢٣	» قوله تعالى (فارب السماء والارض انه الحق) ١٤٦
٤٢٥	» ومن ذلك قوله (ق والقرآن المجيد) ١٤٧
٤٢٦	» » » (حم والكتاب المبين) ١٤٨
٤٢٧	» » » (والصافات صفوا) ١٤٩
٤٢٨	» قصة لوط عليه السلام مع قومه ١٥٠
٤٣٠	» قوله تعالى (فلا ، وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم - الآية) ١٥١

انتهى الفهرست ، والحمد لله وحده ، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده

مقدمة مصحح الكتاب

الفقير إلى عفو الله تعالى

محمد عامر الفقى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين ، الرحمن الرحيم ، مالك يوم الدين . والعاقبة
للمتقين ، ولا عدوان إلا على الظالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله
وحده لا شريك له رب العالمين ، وإله المرسلين ، وفاطر السموات
والأرضين ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله المبعوث رحمة للعالمين
ومحجة للساكنين ، وحجة على جميع المكلفين : أنار الله به الطريق
للمفلحين ، وأوضح بهديه سبيل السعادة للمهتدين . ووفق خير
الخلق وأحبهم إليه إلى الاستضاءة بنوره المبين ، وأن يشرفوا قلوبهم
بمحبة أكثر من أنفسهم والأهل الأقربين . اللهم صل وسلم وبارك
عليه في الملاء الأعلى وفي كل وقت وحين ، وزده ياربنا شرفاً
وكرماً ورفعة ، وارفع درجته في أعلى الفردوس الذي هو أعلى
عليين ، واجزه عنا أحسن ما جوزى نبي عن أمته في الغابرين ،
واجشرنا في زمرة مع الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين
والشهداء والصالحين ، بمنك وكرمك يا أرحم الراحمين .

(أما بعد) فلقد أكرم الله تعالى أشرف رسله بخير الكتب وأفضلها وأكثرها علماً وحكمة وبشرى للمحسنين، وملاً هذا الكتاب الكريم بغرر العلوم، ودرر المعارف، وجعله منبع السعادة والفلاح لكل من استمسك بعروته الوثقى وحبله المتين. وما يزال ذلك الكتاب على مدى الدهور وكر الأيام يؤتى متدبره وتاليه حق تلاوته من أسباب الهدى ورغد العيش ما هو هدى ورحمة للؤمنين. وإن القليل من العلماء هم الذين آتاهم الله تعالى من التوفيق وثاقب النظر، وقوة الذكاء، وصادق التقوى، وصافى القلوب - ما يجعل معاني هذا الكتاب وحكمه وعلومه، قريبة لأفئدتهم، سهلة على ألسنتهم، سريعة الجريان على أقلامهم

ومن أولئك الأفاضل القليلين الإمام العلامة المحقق شمس الدين محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية رحمه الله ورضي عنه وأرضاه: فقد وهبه الله تعالى من هاته الميزات أعظم حظ وأوفر نصيب.

نشأ ابن القيم رحمه الله تعالى في زمن تلبدت فيه غيوم البدع والكشافة، والفتنة بالآراء السخيفة، حتى كادت تحجب نور شمس الاسلام، وتطغى على صافى حكمه، وناصع آياته، وغدا الناس لا يعرفون للاسلام صورة، ولا للدين حقيقة، إلا ما ألفوا من هذه البدع والخرافات، وما زين لهم شياطين الجن والانس من هذه الآراء التي نبتت في رؤوس مكبلية بأغلال العصية المذهبية

العمياء التي تركت الناس في شبه جاهلية جهلاء . وكانت الحرب قد استعرت نيرانها بين جيوش البدع الكثيرة العدد ، المتحصنة بالملك والامارة ، والمتدعة بالغنى والجاه والسطوة ، وبين جيش الحق القليل العدد ، اللاتذ بحصن الحجة والبرهان ، واللاجئ الى جناب القرآن المبين ، وهدى سيد المرسلين والسلف الصالحين . وقائد جيش الحق وأميره هو الامام شيخ الاسلام أحمد بن عبد الحلیم ابن عبد السلام بن تيمية المتوفى سجين الظلم والجهل بقلعة دمشق سنة ٧٢٧ هـ .

وكان أعظم ميدان اشتد فيه سعي الحرب هو ميدان توحيد الأسماء والصفات . وتوحيد الالهية : أن يوصف الله بما وصف به نفسه من غير تحريف ولا تأويل ، ولا تشبيه ولا تمثيل . وأن لا يصرف شيء من العبادة ، خصوصاً منها الدعاء والنذر والاستغاثة والتوكل ، لأحد من خلقه لأملاك مقرب ، ولا نبي مرسل ، ولا ولي صالح من ميت أو حي

نظروا علامتنا ابن القيم إلى هذين الجندين المتطاحنين ، ووقف منهما على ربوة الانصاف مشرفاً ، ينظر إلى هذا مرة وإلى هذا أخرى ، ويستعرض سلاح الباطل ، وعتاده ، وكثرته ، وحصونه ، وما يحوطه من أبهة الملك والامارة ، وزينة المال وبهجة الجاه وزخرف الدنيا ، فتميل نفسه إلى الانضمام إلى صفوفهم والانضواء

تحت رايتهم ، لكنه يراجع نفسه ويقفها بزمाम قوله تعالى (وان تطع
أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله) وقوله (وقليل من
عبادى الشكور) وأمثال ذلك من الآيات التى تنصب على جذوة
هذه الكثرة وما يحيط بها من زخرف فاتن وزينة مغرية فتتركها
رمادا تذروه ريح العقل ، وتسفيه عواصف التفكير الصادق
والفكر الرزين ، فيترك علامتنا هذا ناحية ويولى وجهه إلى ناحية
الجيش الآخر ، فيرى من أسلحته وعتاده نور الهداية يسطع ، ويبصر
من قاداته وجنده قوة اليقين بحقهم - المدعم على أساطين كتاب الله
وهدى السلف - تزعزع ما يظنه الجاهلون جبالا من كتيب أو هام
الخرافين ، ويرى قائدتهم يصيح بخصمه : تعالوا الى ما أنزل الله والى
الرسول ، هلموا الى أصدق الحديث ، وخير الهدى ، ودعوا محدثات
البدع ، وضلالات الآراء غير المعصومة ، وطهروا عقولكم
وقلوبكم من العصية للآباء والأشياخ ، واعرفوا الرجال بالحق
لا الحق بالرجال ، واعرفوا قدر الصادق الذى لا ينطق عن الهوى
صلى الله عليه وسلم ولا تسووا به غيره ، بمن لم يؤت من العصمة مثل
ما آتاه الله الذى اصطفاه وأرسله رحمة للعالمين .

نظر علامتنا فرأى شيخ الاسلام ابن تيمية قائما يمينه القرآن
وبشماله سنة سيد الأكو ان يدفع بهما باطل خصومه الكثيرين
فتصفر منهم الوجوه وتخرس الألسنة ويصعق باطلهم ، وسرعان

ما يلجأون الى القوة الغاشمة وسلاح المفترى الظالم ، فيستغيثون بجملة
الحكام ، ويستجبرون بالدهماء والطغام في مداراة هذا الحزى عنهم :
بحسب ابن تيمية الظافر ، فيذهب المجاهد الصابر الى حبسه مسرورا بما يلاقى
في سبيل الله من أذى لا يهن ولا يحزن ، لأن العاقبة دائماً للمتقين
مالمثل أن رأى ذلك علامتنا ابن القيم فملك عليه كل حواسه ومشاعره
وانضم الى ذلك المجاهد العظيم يشد من عضده ، وينافح عن حقه ،
ويلقى ما يلقي من أذى في سبيل إعلاء كلمة الله ، واذلال كلمة الباطل
ولبنا على ذلك دهرا حتى آتاها الله النصر والظفر المبين ، فانقضت
غياهب البدع عن عقول كثير ممن أسعدهم الله بالانضواء تحت لواء هذين
الامامين ، وتكون لهما حزب قوى يناضل ويجاهد ، ويبث دعوة
الحق ، وينشر نور العلم الصحيح ، وبارك الله في ذلك الحزب المفلح
السعيد فجعل له خلفاء يرثون دعوته ، ويجاهدون كجهاده ، ويصبرون
كصبره ، ويقفون بعزيمة صادقة في وجه أنصار البدع ، ويكشفون
للناس دائماً عن زغليهم وتضليلهم ، لا يرهبون قوة ولا يخشون سطوة
وكذلك سيبقون قائمين لله بالحجة على الناس حتى يأتي أمر الله
وهم على ذلك ان شاء الله تعالى ، لا يضرهم من خذلهم

غاظ رؤساء الباطل ما أوتى حزب الله المفلح من نصر وظفر ،
وما هدى الله على أيديهم من قلوب استنارت بالحق بعد
العمى ، وما بصر من نفوس أفلتت من مرتع الجهالة والضلال
الشرك الى روضة العلم والهدى والتوحيد الصادق ، فعمدوا الى

سلاح آخر لا يلجأ اليه إلا الحمقى الأفا كون . ذلك أنهم أخذوا
يفترون الكذب على شيخ الاسلام ابن تيمية وتلميذه الامام
ابن القيم مالم يقولاه ، ويحرفون أقوالهما الطيبة عن مواضعها ،
ويلبسون الحق بالباطل ويكتمون الحق وهم يعلمون . ذلك ليشوهوا
سمعتهم عند الناس ، وليصرفوا عنهما الخلق حتى لا يستمعوا لقولهما ،
ولا يصغوا لحجتهم . فعملت هذه الفعلة الشنيعة بعض الأثر ،
وصرفت كثير من الناس وقتا ماعن مناهل كتب الشيخين ، وحرمتهم
من صافي وردها العذب ، وغلب ذلك على بعض الجاهلين المتعصبين
حتى خيل لهم جهلهم وصورت لهم عصيتهم كتبهما أفاعى أو عقارب
يخافون أن تلدغهم اذا هم لمسوها . فقد كنت ذات يوم من أيام سنة ١٣٣٠
هجرية أحمل جزءاً من فتاوى شيخ الاسلام ابن تيمية وكنت
حديث عهد بنورها . فلذا كنت بها وبأمثالها مغرماً حتى لا أفارقها
إلا عند النوم . فرآنى بعض أولئك وقد تأبطت هذا الجزء . فقال
ما هذا ؟ فقلت له : هذا كتاب لا يعينك - أريد أن أتق شره يومئذ -
فحاول أن يراه متشديداً . ومد يده فقلت له : ان هذا جزء من فتاوى
ابن تيمية . فقبض يده بسرعة مدهشة . وقال : أعوذ بالله ! . فهل رأيت
أعجب من هذا الجهل والحق والعصية العمياء ؟ !

ولكن طائفة الحق مازالت تعمل باذلة كل مجهود فى محاربة
هذه الفرى ، ودحض هذه الاكاذيب ، واجتثاث بذورها المفسدة من
رءوس أولئك المساكين حتى وصلت اليوم بحمد الله الى قسط

كبير من بغيتها ، وهى لا بد ان شاء الله واصلة الى ما هو أكثر من ذلك ، محققة كل ما يتمناه المخلصون لدينهم من الرجوع دائماً الى ما كان يدعو اليه الشيخان من التحاكم الى الكتاب والسنة وعمل الصحابة . والافتناع الصادق بأن هذا هو العلم الصحيح الذى يأخذ بالناس الى أسعد السعادة وأرغد العيش . كما قال ابن القيم رحمه الله :

العلم قال الله قال رسوله قال الصحابة هم أولو العرفان
لا العلم نصيبك للخلاف سفاهة بين الرسول وبين رأى فلان

ولقد أصبحنا بتأييد الله ، ثم بمجهود هذه الطائفة السلفية المباركة ، نسمع السنة أهل الفضل والعلم تلهج الثناء على الشيخين وتحض الناس على كتبهما ؛ لأنها أوضح السبل دلالة على سنة النبي صلى الله عليه وسلم الصحيحة ، وأقوى المعاول على هدم البدع والخرافات . وآية ذلك أن تسمع عظيم من جلة الشيوخ الكبار علماً وفضلاً وجاهاً يقول فى مجلس حافل بالعلماء : ان كتب شيخ الاسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم تشرح صدور الموحدين ، وتجلو قلوب المؤمنين ، وتنعش أرواح الصادقين ، حتى إنى قد أجدنى كثير من الأحيان سأمًا ومللاً فأعتمد الى كتاب لابن القيم أو لشيخه رضى الله عنهما ، فما أكاد أمتع ناظرى فيه حتى أجدنى كأنما نشطت من عقال ، ولو بقيت الليل كله أقرأ فيه ما سمعته ولا مللته ، وما ازددت به الا شغفاً ولا عليه إلا اقبالا وصدق الشيخ ، وربك حقاً ؛ فانك لست تجد هذا السرور ، ومتعة النفس الا فى كلام الله تعالى وكلام نبيه الصادق صلى الله عليه وسلم .

وكلام العلماء الذين آتاهم الله بصيرة في الدين ، وطهارة قلوب ،
وقوة اخلاص . فجعلوا مادة علمهم من هذين المنبعين العذيين ،
والموردين الصافين : كتاب الله تعالى ، وحديث الرسول الأكرم
صلى الله عليه وسلم

ولقد امتاز شيخ الإسلام ابن تيمية ، وتلميذه العلامة ابن القيم
من بين علماء عصرهم ، بما جعل لهما أثراً صالحاً يبق على مر
الأيام ، ولسان صدق يعطر الأندية والمجالس بحسن الثناء ،
عليهما ما توالى الجديدان : ذلك لأنهما أمعنا في القرآن تدبراً ، وغاصا
في بحاره تفكيراً ، بعد أن ملآ جعابهما من علوم السنة الطاهرة ،
وأترعا قلييهما من أقوال السلف الصالح . وأحاطا إحاطة نادرة
المثال بصنوف من ضروب الفلسفة ، ونظريات العلوم الرياضية
والفلكية ، وانكشف لهما عن دقيق فلسفة التاريخ ، وعلل الحوادث
فكان من كل هذه الفنون والعلوم والنظريات التي اجتمعت
لها مع الاخلاص لله ، والصدق في حبه وحب دينه ، وحب نبيه
صلى الله عليه وسلم ، حباً تغلغل في أعماق نفوسهما ، وامتزج ببلجيهما
ودمهما . ان فتح الله لهما من أبواب علوم القرآن ما أغلق نون
غيرهما . واستبان لهما من طرق العلم والهداية ما عمى على خصومهما
ففاض ذلك على لسانيهما حجباً في المجالس دامغة للشبهات
والشكوك ، وأعلاماً للحق مرفوعة . وتفجرت من أفلامهما على
الصحائف والأوراق غرراً ودرراً تفخر بها الأيام ، ويتنافس

في اقتنائها العلماء الأعلام . غير أن التليذ المفلح ابن القيم برز على
شيخه في ناحية التأليف والكتابة ، فإن فيها من رصانة الأسلوب
وتهذيب القول ، وانتقاء الألفاظ والمعاني ، وترتيب الحجج ،
وتنقيح المقدمات ، وسلاسة التعبير غير ما في كتب شيخه . فإن
ابن القيم كان يكتب وهو مطمئن البال هادئ الفكر ، في وسط
مكتبته ، وعلى أريكته . ولكن شيخه كان أكثر تأليفه املاء من
السجون ، أو خطباً في وسط عواصف الفتن ، وبين غارات
الخصومة . ولا يمكن أن يكون خطيب الثورة الا كذلك ، ولا بد
أن تكون آثار الثورة وما يكتب في حينها كذلك . ولكنك تراه
حين يأخذ قلبه ويستجم فكره ويجلس الى منضدته ويكتب مطمئناً
هادئاً ينتج من التأليف نتاجاً تخرله جبابرة العقول سجداً . اقرأ
إن شئت كتاب موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول ، في الرد
على الفلاسفة والمنطقيين ، وغير الموفقين من علماء الكلام . ثم
اقرأ كذلك كتاب منهاج السنة في الرد على ابن المطهر الرافضي
تجد من هذه وأمثالها شيئاً عجيباً . وكان كل وقت الشيخ في نزال
وخصام ، وحرب وطعان . ولم يترك له خصوصاً من الوقت ما يكفي
لوضع التأليف الهادئة المطمئنة إلا نورا يسيراً اختلسه اختلاسا

بمثل هذه المقالة التي سقناها آنفاً عن ذلك العالم الجليل - جزاه الله عن
العلم والدين أحسن الجزاء - وبما تبذل الطائفة السلفية من جهود صادقة
خرست ألسن المقترين وذل حزب الشياطين ، ونهضت كتب الشيخين

من كبوتها ، وبدأ نورها يسطع من المطابع في المسكاتب والمجالس .
فيجلو الغياهب ويكشف الظلمات ، وبدأت الثقافة الاسلامية الحققة
تفيض على قلوب أهل العلم وألسنتهم من سطورها . وحين ذاقوا من لذتها
واجتلوا من محاسنها شغفوا بها كل الشغف . فما يكاد يطبع واحد منها
الا وتتلقفه الأيدي من جميع الأقطار الاسلامية . فلا يلبث أن
تفرغ نسخته ، فيعاد طبعه ، وهكذا .

ومن خير الكتب التي غنى ابن القيم بها ، وأعطاهها من روحه
وقلبه مجهودا عظيما (كتاب التبيان في أقسام القرآن) - جمع قسم بمعنى
اليمين - فهو تعريف الموضوع . ظريف الأسلوب . قد تكلم فيه على
ما ورد في القرآن الكريم من إقسام الله تعالى ببعض المخلوقات
في الأرض والسماء . وبين الحكمة من ذلك ، ووجه الحلف بها مما
لا تجده مجموعا إلا في هذا الكتاب القيم

وطالما تمنى أهل العلم أن يكون العلامة المحقق ابن القيم وفق لتفسير كامل
للقرآن الكريم كله ، أو أن يمن الله تعالى علينا وعلى الناس بتفسير شيخ
الإسلام ابن تيمية . فلو أن هذه الأمنية تحققت لظهر للناس من
جديد آية من آيات الله تعالى أكرم بها هذين العالمين الجليلين .
وظهر لهم من علوم القرآن الكريم وأسراره العجيبة ما يعطف
القلوب عليه ، وينير لهم السبيل اليه . فيكونون من المفلحين في
الدنيا والآخرة . يعرف هذا من قرأ كتاب التبيان هذا أو قرأ تفسير

ابن القيم لسورة الفاتحة في أول مدارج السالكين ، أو آية المنافقين التي
في أول سورة البقرة في كتاب اجتماع الجيوش الإسلامية ، أو نحو ذلك
وقد طبع كتاب التبيان هذا لأول مرة في مكة المكرمة سنة ١٣٢١

ولكنها مع الأسف طبعة لم يعن مصححها بها أو لم يوفق للعناية
بها ، فجاء فيها تصحيف وتحريف كثير . وقد بحثنا عن نسخة خطية
منها حين أردنا الشروع في طبعا فلم نوفق . وحين ذهبنا إلى البقاع
الحجازية المقدسة في هذا العام سألت أهل العلم فيها وبحثت في مكاتبها فلم
أوفق للعثور على نسخة خطية منها . ولكنني بذلت فيها بمعاونة فضيلة
الأخ في الله الأستاذ المحقق الشيخ محمد محي الدين عبد الحميد المدرس
في كلية اللغة العربية - مجهودا أرجو أن نكون قد وفقنا فيه لخدمة
هذا الكتاب ، وإبرازه في ثوبه الجديد قرة لعين المخلصين لدينهم

ولقد عاوننا على إبرازه وأسعفنا بماله الحاج مصطفى محمد
صاحب المكتبة التجارية الذي نسأل الله أن يديم توفيقه للمساعدة
على خدمة العلم والدين

وإني سأتي فيما يلي ترجمة للعلامة ابن القيم من قلم تلميذه
العلامة الحافظ عبد الرحمن بن رجب التي ختم بها كتابه طبقات الحنابلة
الموجود بدار الكتب المصرية . قال رحمه الله :

محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد بن حريز الزرعي ثم الدمشقي
الفقيه الأصولي المفسر النحوي العارف ، شمس الدين أبو عبد الله

ابن قيم الجوزية . شيخنا . ولد سنة ٦٩١ وسمع من الشهاب النابلسي العابد ، والقاضي تقي الدين سليمان . وفاطمة بنت جوهر ، وعيسى المطعم ، وأبي بكر بن عبد الدايم وجماعة . وتفقه في المذهب وبرع وأفق . ولازم الشيخ تقي الدين وأخذ عنه ، وتفنن في علوم الاسلام . وكان عارفا بالتفسير لا يجارى فيه ، وبأصول الدين ، واليه فيهما المنتهى وبالحديث ومعانيه وفقهه ، ودقائق الاستنباط منه لا يلحق في ذلك . وبالفقه وأصوله بالعربية ، وله فيها اليد الطولى ، وبعلم الكلام وغير ذلك ، وعالم بالمعالم السلوك وكلام أهل التصوف وإشاراتهم ودقائقهم له في كل من هذه الفنون اليد الطولى . قال الذهبي في المختصر : عني بالحديث ومتونه ورجاله . وكان يشتغل في الفقه ويحيد تقريره وفي النحو ويدريه ، وفي الاصولين . وقد حبس مدة لانكاره شد الرحال إلى قبر الخليل . وتصدر للاشتغال ونشر العلم . قلت : وكان رحمه الله ذا عبادة وتهجد وطول صلاة الى الغاية القصوى وتاله ولهج بالذكر ، وشغف بالمحبة والانابة والافتقار إلى الله تعالى والانكسار والاطراح بين يديه على عتبة عبوديته ، لم أشاهد مثله في ذلك ، ولا رأيت أوسع منه علما ولا أعرف بمعاني القرآن والسنة وحقائق الايمان منه . وليس هو بالمعصوم ، ولكن لم أر في معناه مثله . وقد امتحن وأوذى مرات وحبس مع الشيخ تقي الدين ابن تيمية في المدة الاخيرة بالقلعة منفردا عنه . ولم يفرج عنه إلا بعد موت

الشيخ . وكان في مدة حبسه مشغلا بتلاوة القرآن بالتدبر والتفكير
ففتح عليه من ذلك خير كثير . وحصل له جانب عظيم من الاذواق
والمواجيد الصحيحة . وتسلط بسبب ذلك على الكلام في علوم
أهل المعارف والدخول في غوامضهم ، وتصانيفه ممتلئة بذلك . وحج
مرات كثيرة وجاور بمكة . وكان أهل مكة يذكرون عنه من
شدة العبادة وكثرة الطواف أمرا يتعجب منه . ولازمت مجالسه
قبل موته أزيد من سنة ، وسمعت عليه قصيدته النونية الطويلة في
السنة وأشياء من تصانيفه وغيرها . وأخذ عنه العلم خلق كثير من
حياة شيخه والى أن مات . وانتفعوا به ، وكان الفضلاء يعظمونه
ويسلمون له ، كابن عبد الهادي وغيره . وقال القاضي برهان الدين
الزرعي عنه : ماتحت أديم السماء أوسع علما منه . ودرس بالصدرية
وأم بالجوزية مدة طويلة . وكتب بخطه ما لا يوصف كثرة . وصنف
تصانيف كثيرة جدا في أنواع العلم . وكان شديد المحبة للعلم وكتابته
ومطالعة وتصنيفه . واقتناء كتبه . واقتنى من الكتب ما لا يحصى
لغيره . فمن تصانيفه :

١ اجتماع الجيوش الاسلامية . طبع في الهند سنة ١٣١٤ ، وفي مصر

سنة ١٣٥٠

٢ أخبار النساء

٣ أعلام الموقعين عن رب العالمين ، طبع في الهند سنة ١٣١٣ ، وفي مصر

سنة ١٣٢٥

- ٤ اغانة اللهفان في حكم طلاق الغضبان طبع في المنار سنة ١٣٢٢
- ٥ اغانة اللهفان من مصائد الشيطان طبع سنة ١٣٢٠
- ٦ أمثال القرآن
- ٧ بدائع القوائد طبع
- ٨ بطلان الكيمياء من أربعين وجها
- ٩ بيان الدليل على استغناء المسابقة عن التحليل
- ١٠ التبيين في أقسام القرآن سنة ١٣٢١ بمكة وهو هذا
- ١١ التحرير فيما يحل ويحرم من الحرير
- ١٢ التحفة المكية
- ١٣ تحفة المودود في أحكام المولود طبع الهند سنة ١٣٣٩
- ١٤ تفسير الفاتحة
- ١٥ تفسير المعوذتين
- ١٦ تفضيل مكة على المدينة
- ١٧ تهذيب مختصر سنن أبي داود وإيضاح مشكلاته ، والكلام على ما فيه
- ١٨ جلاء الأفهام في الصلاة على خير الأنام
- ١٩ جواب عابدى الصليان ، وأن مام عليه دين الشيطان
- ٢٠ الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي طبع مراراً
- ٢١ حادى الأرواح إلى بلاد الأفراح
- ٢٢ حرمة السماع
- ٢٣ حكم اغمام هلال رمضان

- ٢٤ حكم تارك الصلاة
٢٥ الرسالة الجليلة في الطريقة الحمديدية - نظم
٢٦ رفع التنزيل
٢٧ رفع اليدين في الصلاة
٢٨ الروح ، طبع في الهند سنة ١٣١٨
٢٩ روضة المحبين وترهة المشتاقين
٣٠ زاد المسافرين الي منازل السعداء في هدي خاتم الانبياء
٣١ زاد المعاد في هدي خير العباد ، طبع في الهند وفي مصر
٣٢ السنة والبدعة
٣٣ شرح أسماء الكتاب العزيز
٣٤ شرح الأسماء الحسنى
٣٥ شفاء العليل
٣٦ الصبر والسكن
٣٧ الصراط المستقيم في أحكام أهل الجحيم
٣٨ الصواعق المنزلة على الجهمية والمعتلة ، طبع مختصراً
٣٩ الطاعون
٤٠ طيب القلوب . ذكر المألوف ان في برلين نسخة منه
٤١ الطرق الحكيمة في السياسة الشرعية
٤٢ طريق المهجرتين . طبع في مصر ، وفي المكتبة الظاهرية بدمشق
نسخة بخط المؤلف
٤٣ عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين

٤٤ عقد محكم الاحياء بين السكلم الطيب والعمل الصالح المرفوع إلى
رب السماء

٤٥ الفتح القدسي

٤٦ الفرق بين الخلة والمحبة ومناظرة الخليل لقومه

٤٧ فضل العلم

٤٨ الفروسية المحمدية ، في المكتبة الظاهرية في السكواكب الدراري ،

٤٩ الفوائد

٥٠ الفوائد المشوق الى علوم القرآن وعلم البيان

٥١ الكافية الشافية في الفرقة الناجية

٥٢ » » في النحو

٥٣ الكبائر

٥٤ السكلم الطيب والعمل الصالح

٥٥ مدارج السالكين

٥٦ المسائل الطرابلسية

٥٧ معاني الأدوات والحروف

٥٨ مفتاح دار السعادة

٥٩ المهدي

٦٠ المذهب

٦١ نقد المنقول والمحك المميز بين المردود والمقبول

٦٢ نسكاح الحرم

٦٣ نور المؤمن

٦٤ هداية الحيارى من اليهود والنصارى

٦٥ الوابل الصيب من السكك الطيب

٦٦ الرسالة التبوكية ، طبعت في مكة سنة ١٣٤٩

وله رحمه الله تصانيف غير هذه لا تحصى كثرة ولا يمكن عز وجودها في هذا الزمان ونسجت عليها عناكب النسيان ، وكل تصانيفه مرغوب فيها بين الطوائف .

توفي رحمه الله وقت العشاء الأخيرة ليلة الخميس ثالث عشر رجب سنة ٧٥١ وصلى عليه من الغد عقيب الظهر بجامع جراح . ودفن بمقبرة الباب الصغير . وشيعه خلق كثير . ورؤيت له منامات كثيرة حسنة رضى الله عنه . وقد رأى قبل موته شيخه الشيخ تقي الدين رحمه الله في النوم وسأله عن منزلته ، فأشار الى علوها فوق بعض الاكابر ، قال له : وأنت كدت تلحق بنا ولكن أنت الآن في طبقة ابن خزيمة رحمه الله . قرأت على شيخنا الامام العلامة أبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب وأنا أسمع هذه القصيدة من نظمه في أول كتابه صفة الجنة :

وما ذاك إلا غيرة أن ينالها سوى كفئها والرب بالخلق أعلم
وإن حجب عنا بكل كريمة وحفت بما يؤذى النفوس ويؤلم
فله ما في حشوها من مسرة وأصناف لذات بها تنعم
ولله برد العيش بين خيامها وروضاتها والثغر في الروض يبسم
ولله واديها الذي هو موعد المزيدي لو فد الحب لو كنت منهم
بذيالك الوادي يهيم صباية محب يرى أن الصباية مغنم

ولله أفراح المحبين عندما
ولله أبصار ترى الله جهرة
فيا نظرة أهدت إلى الوجه نضرة
ولله كم من خيرة لو تبسمت
فيا لذة الأبصار إن هي أقبلت
ويا خجلة الغصن الرطيب إذا انثت

ويا خجلة
فان كنت ذا قلب عليل بحبها
ولا سيما في ثمتها عند ضمها
تراها إذا أبدت له حسن وجهها
تفكه منها العين عند اجتلائها
عنا قيد من كرم وتفاح جنة
وللورد ما قد ألبسته خدودها
تقسم منها الحسن في جمع واحد
لها فرق شتى من الحسن أجمعت
تذكر بالرحمن من هو ناظر
إذا قابلت جيش الهموم بوجهها
فيا خاطب الحسناء ان كنت راغباً
ولما جرى ماء الشباب بغصنها
وكن مبغضاً للخائنات لحبها

البحرين حين تبسم
فلم يبق إلا وصلها لك مرهم
وقد صار منها تحت جيدك معصم
يلذ بها قبل الوصال وينعم
فواكه شتى طلعها ليس يعدم
ورمان أغصان بها القلب مغرم
وللخمر ما قد ضمه الريق والفم
فيا عجباً من واحد يتقسم
بجملتها ان السلو محرم
فينطق بالتسييح لا يتلثم
تولى على أعقابه الجيش يهزم
فهذا زمان المهر فهو المقدم
تيقن حقاً أنه ليس يهرم
فتحظى بها من دونهن وتنعم

وكن أيما مما سواها فانها
صم يومك الأدنى لعلك في غد
وأقدم ولا تقنع بعيش منعص
وإن ضاقت الدنيا عليك بالمرها
فحي على جنات عدن فانها
ولكننا سبي العدو ، فهل ترى
وقد زعموا أن الغريب اذا نأى
وأي اغتراب فوق غربتنا التي
وحى على السوق الذي فيه يلتقى ال
فما شئت خذ منه بلا ثمن له
وحى على يوم المزيد الذي به
وحى على وادٍ هنالك أفيح
منابر من نور هناك وفضة
وكشبان مسك قد جعلن مقاعدا
فيهاهم في عيشهم وسرورهم
اذا هم بنور ساطع أشرقت له
حلى لهم رب السموات جهرة
سلام عليكم يسمعون جميعهم
يقول: سلوني ما اشتيتهم فكل ما
فقالوا جميعا : نحن نسألك الرضى

لمثلك في جنات عدن تأيم
تفوز بعيد الفطر والناس صوم
فما فاز بالذات من ليس يقدم
ولم يك فيها منزل لك يعلم
منازلك الاولى وفيها الخيم
نعود الى أوطاننا ونسلم ؟
وشطت به أوطانه فهو مغرم
لها أضحت الأعداء فينا تحكم ؟
محبون ذاك السوق للقوم يعلم
فقد اسلف التجار فيه وأسلهوا
زيارة رب العرش فالיום موسم
وتربته من أذفر المسك أعظم
ومن خالص العقيان لا تتقصم
لمن دون أصحاب المنابر يعلم
وأرزاقهم تجرى عليهم وتقسم
باقطارها الجنات لا يتوهم
فيضحك فوق العرش ثم يكلم
بآذانهم تسليمة اذ يسلم
تريدون عندي ، انى انا أرحم
فانت الذى تولى الجميل وترحم

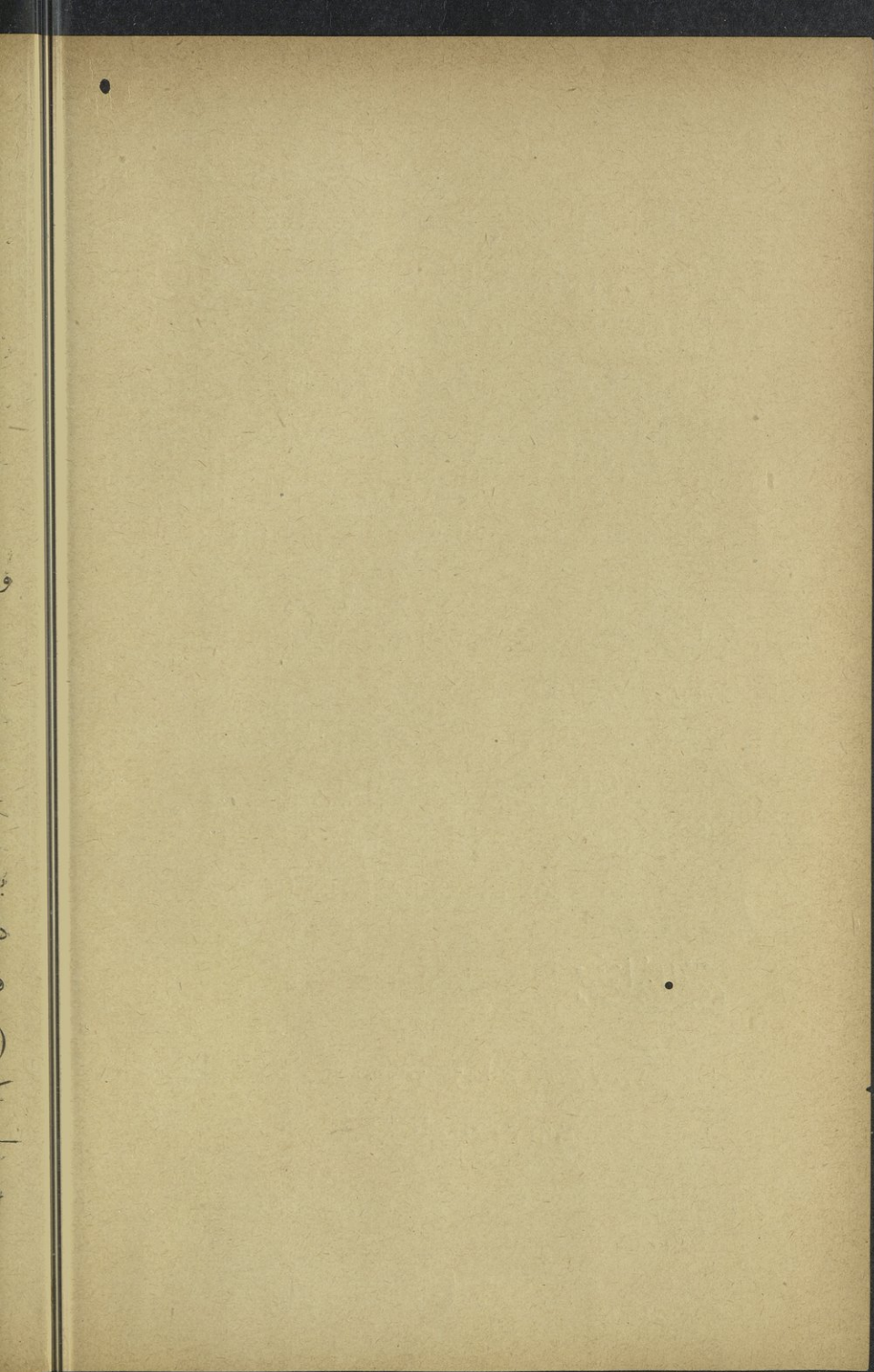
فيعطيم هذا ، ويشهد جمعهم عليه ، تعالى الله فאלله أكرم
 فيا بائعاً غالٍ يبخس معجل كأنك لا تدري ، بلى سوف تعلم
 فان كنت لا تدري فتلك مصيبة وان كنت تدري فالمصيبة أعظم
 انتهى ما ترجم به الشيخ الحافظ ابن رجب لشيخه العلامة
 المحقق ابن القيم رحمهم الله أجمعين ، ورضى عنهم ، ورضى عنا باتباعهم
 والاهتداء بهديهم إلا أننا زدنا على مؤلفات الشيخ التي ذكرها ابن
 رجب وسقناها على ترتيب الأخ احمد افندي عبيد في مقدمة كتاب
 روضة المحبين الذي طبعه بدمشق .

وصلى الله على أفضل الخلق ، وأشرف الأنبياء وخاتم المرسلين
 سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ، وسلم تسليماً كثيراً . ورضى الله عن
 كل من عمل على إحياء سنن ذلك النبي الكريم . وبذل وسعه في دلالة
 الناس عليها وتنزيهاها عن إلحاد الملحدين وتحريف المبطلين ، وغلو
 الغالين . وجهالة الجاهلين . والحمد لله أولاً وآخراً وظاهراً وباطناً .
 وكتبه العبد الفقير الى عفو الله الغنى بفضل الله

محمد حامد البققي

القاهرة المحروسة في الثامن من المحرم سنة ١٣٥٢

الثالث من شهر مايو سنة ١٩٣٣



بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(وبه أستعين)

الحمد لله رب العالمين (والصلاة والسلام على خاتم المرسلين
وعلى آله وصحبه)

(١) فصل

في أقسام القرآن (١)

وهو سبحانه يقسم بأمر على أمور . وإنما يقسم بنفسه الموصوفة
بصفاته ، وآياته المستلزمة لذاته وصفاته . وإقسامه ببعض المخلوقات
دليل على أنه من عظيم آياته

فالقسم إما على جملة خبرية — وهو الغالب — كقوله تعالى
(٥١ : ٢٣ فَوَرَبُّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ) وإما على جملة طلبية ،
كقوله تعالى (١٥ : ٩٢ فَوَرَبُّكَ لَنَسَآءُ لَهُمْ أَجْمَعِينَ تَعْمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

(١) هذا الابتداء على غير ما يعرف من عادة ابن القيم رحمه الله . فربما
كان هذا جزءا من كتاب . والله أعلم

مع أن هذا قد يراد به تحقيق المقسم عليه ، فيكون من باب الخبر .
وقد يراد به تحقيق المقسم

والمقسم عليه يراد بالقسم توكيده وتحقيقه . فلا بد أن يكون
ما يحسن فيه ذلك ، كالأمور الغائبة والخفية إذا أقسم على ثبوتها .
فأما الأمور الظاهرة المشهورة ، كالشمس ، والقمر ، والليل ، والنهار
والسماء ، والارض ، فهذه يقسم بها ولا يقسم عليها

وما أقسم عليه الرب فهو من آياته . فيجوز أن يكون مقسما
به ولا ينعكس

وهو سبحانه يذكر جواب القسم تارة ، وهو الغالب . وتارة
يحذفه . كما يحذف جواب لو كثيرا . كقوله تعالى (١٠٢ : ٥) كَلَّا لَوْ
تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ) وقوله (١٣ : ٣١) وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ
الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ (٨ : ٥٠) وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ
كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ (٣٤ : ٥١) وَلَوْ تَرَى إِذْ فُزِعُوا فَلَا فَوْتَ (٦ : ٣٠)
وَلَوْ تَرَى إِذْ وَقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ) ومثل هذا حذفه
من أحسن الكلام ، لأن المراد أنك لو رأيت ذلك لرأيت
هو لا عظيما ، فليس في ذكر الجواب زيادة على ما دل عليه الشرط .
وهذه عادة الناس في كلامهم ، إذا رأوا أمورا عجيبة وأرادوا أن
يخبروا بها الغائب عنها يقول أحدهم : لو رأيت ما جرى يوم كذا

بموضع كذا؟ ومنه قوله تعالى ١٦٥: ٢ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرْوْنَ
الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ (فالمعنى في أظهر
الوجهين : لو يرى الذين ظلموا في الدنيا اذ يرون العذاب في الآخرة ،
والجواب محذوف : ثم قال : (أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا) كما قال تعالى
(وَلَوْ تَرَى إِذْ فُزِعُوا فَلَا فَوْتَ) (وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ
كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ) أى لو ترى ذلك الوقت وما فيه

وأما القسم ، فان الحالف قد يحلف على الشيء ثم يكرر القسم ،
فلا يعيد المقسم عليه ، لأنه قد عرف ما يحلف عليه . فيقول : والله انى
عليه الف درهم ، ثم يقول : ورب السموات والأرض ، والذي
نفسى بيده ، وحق القرآن العظيم ، ولا يعيد المقسم عليه ، لأنه
قد عرف المراد

والقسم لما كان يكثر في الكلام اختصر ، فصار فعل القسم
يحذف ويكتفى بالباء ، ثم عوض من الباء الواو في الأسماء الظاهرة
والتاء في أسماء الله كقوله (٥٧ : ٢١) وَتَاللَّهِ لَا كِيدَ إِلَّا أَصْنَامُكُمْ)
وقد نقل : ترب السكبة . وأما الواو فكثيرة

(٢) فصل

إذا عرف هذا . فهو سبحانه يَقْسِمُ على أصول الايمان ، التي يجب

على الخلق معرفتها ، تارة يقسم على التوحيد ، وتارة يقسم على أن القرآن حق ، وتارة على أن الرسول حق ، وتارة على الجزاء والوعد والوعيد ، وتارة على حال الانسان

فالأول كقوله (٣٧ : ١) وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ٢ فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا ٣

فَالْبَاقِيَاتِ زَكَاةً ٤ إِنَّ إِلَهُكُمُ لَوَاحِدٌ (والثاني كقوله (٥٦ : ٧٥)

فَلَا أُفْسِمْ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ٧٦ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعَاهدُونَ عَظِيمٌ ٧٧

إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ (وقوله (٤٤ : ١) حَمِّ ٢ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ٣

إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ ((٤٣ : ١) حَمِّ ٢ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ٣

إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا) إذا جعل ذلك جواب القسم كما هو

الظاهر ، وإن قيل : بل الجواب محذوف كان كقوله :

(٣٨ : ١) ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ) فانه هنا حذف الجواب . ومن

قال : إن الجواب هو قوله (٦٤ : ١) إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاضَعُ أَهْلُ النَّارِ)

فقد أبعد النجعة

والقسم على الرسول كقوله (٣٦ : ١) يَس ٢ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ٣

إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ٤ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) إذا قيل هو الجواب .

وان قيل الجواب محذوف كان كما ذكر . ومنه (٦٨ : ١) ن وَالْقَلَمِ ٢

وَمَا يَسْطُرُونَ ٣ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةٍ رَبِّكَ بِمَخْنُونٍ ٤ وَإِنْ لَكَ لَأَجْرًا

غَيْرُ مَمْنُونٍ) ومنه (٥٣ : ١ والنَّجْمِ إِذَا هَوَى ٢ مَاضِلٌ صَاحِبُكُمْ
وَمَا غَوَى ٣ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى) إلى آخر القصة ، ومنه قوله
(٦٩ : ٣٨ فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ٣٩ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ٤٠ إِنَّهُ لَقَوْلُ
رَسُولٍ كَرِيمٍ ٤١ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ) وقوله
(٨١ : ١٥ فَلَا أُقْسِمُ بِالْحُنَاسِ ١٦ الْجَوَارِ الْكُنَاسِ ١٧ وَاللَّيْلِ إِذَا
عَسَسَ ١٨ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ١٩ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ٢٠ ذِي
قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ)

وأما القسم على الجزاء والوعود الوعيد في مثل قوله (١: ٥١) وَالذَّارِيَاتِ
ذُرُوًّا ٢ فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ٣ فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ٤ فَالْمُتَقِمَاتِ أَمْرًا ٥ إِنَّمَا
تُوعَدُونَ لَصَادِقٍ ٦ وَإِنِ الدِّينَ لَوَاقِعٌ) ثم ذكر تفصيل الجزاء و ذكر
الجنة والنار ، و ذكر أن في السماء رزقهم وما يوعدون . ثم قال (٢٣) فَوَرَبُّ
السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَخَلْقٌ مِّثْلُ مَا أَنْتُمْ تَنْطِقُونَ) ومثل قوله (١: ٧٧) وَالْمُرْسَلَاتِ
عُرْفًا ٢ فَالْمَاصِغَاتِ عَصْفًا ٣ وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا ٤ فَالْفَارِقَاتِ فَرَقًا
٥ فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا ٦ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ٧ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ) ومثل
(٥٢ : ١) وَالطُّورِ ٢ وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ ٣ فِي رَقٍ مَنشُورٍ ٤ وَالْبَيْتِ
الْمَعْمُورِ ٥ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ٦ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ٧ إِنَّ عَذَابَ
رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ٨ مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ)

وقد أمر نبيه أن يقسم على الجزاء والمعاد في ثلاث آيات .
 فقال تعالى (٦٤ : ٧ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا . قُلْ : بَلَى
 وَرَبِّي لَتُبْعَثَنَّ) وقال تعالى (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا
 السَّاعَةُ قُلْ : بَلَى ، وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ) وقال تعالى (١٠ : ٥٣
 وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقُّ هُوَ ؟ قُلْ إِيَّيَّيَّ إِنَّهُ لَحَقٌّ ، وَمَا أَنْتُمْ
 بِمُعْجِزِينَ) وهذا الآن المعاد إنما يعلمه عامة الناس بأخبار الأنبياء ، وإن
 كان من الناس من قد يعلمه بالنظر . وقد تنازع النظار في ذلك ، فقالت
 طائفة انه لا يمكن علمه الا بالسمع ، وهو الخبر ، وهو قول من لا يرى
 تعليل الافعال ، ويقولون لا ندرى ، ما يفعل الله الابداعة أو خبر .
 كما يقوله جهم بن صفوان ومن اتبعه . والاشعري وأتباعه ، وكثير
 من أهل الكلام في الفقه والحديث من أتباع الأئمة الأربعة . بخلاف
 العلم بالصانع . فإن الناس متفقون على أنه لا يعلم الا بالعقل ، وإن
 كان ذلك مما نهت الرسل عليه . وصفاته قد تعلم بالعقل ، وتعلم
 بالسمع أيضاً . كما قد بسط في موضع آخر

وأما القسم على أحوال الانسان فكقوله (٩٢ : ١) وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى ٢
 وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى ٣ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ٤ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى)
 الآية . ولفظ السعي هو العمل . لكن يراد به العمل الذي يهتم به

صاحبه ويحتهد فيه بحسب الامكان . فان كان يفتقر الى عدو بدنه
 عدا ، وان كان يفتقر الى جمع أعوانه جمع ، وان كان يفتقر الى
 تفرغ له وترك غيره فعل ذلك . فلفظ السعى في القرآن جاء بهذا
 الاعتبار ، ليس هو مرادفا للفظ العمل ، كما ظنه طائفة . بل هو عمل
 مخصوص ، يهتم به صاحبه ويحتهد فيه . ولهذا قال في الجمعة (٦٢: ٩) فاسعوا
 الى ذكر الله () وهذه أحسن من قراءة من قرأ (فامضوا الى ذكر الله)
 وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال « اذا أقيمت الصلاة فلا
 تأتوها تسعون ، وأتوها تمشون ، وعليكم السكينة . فما أدركتم فصلوا ، وما
 فاتكم فأتموا (١) » فلم يهتم بالسعى الى الصلاة فان الله أمر بالسعى اليها ،
 بل نهاهم أن يأتوا اليها يسعون ، فنهاهم عن الاتيان المتصف بسعى
 صاحبه ، والاتيان فعل البدن ، وسعيه عدو البدن ، وهو منهي
 عنه . وأما السعى المأمور به في الآية فهو الذهاب اليها على وجه
 الاهتمام بها والتفرغ لها عن الأعمال الشاغلة ، من بيع وغيره ، والاقبال
 بالقلب على السعى اليها . وكذلك قوله في قصة فرعون لما قال له موسى
 (٧٩ : ١٨) هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى ١٩ وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى ٢٠
 فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى ٢١ فَكَذَّبَ وَعَصَى ٢٢ ثُمَّ أَذْبَرَ سَعْيَهُ ٢٣ فَحَشَرَ فَنَادَى
 فهذا اهتمام واجتهاد في حشر رعيته ومناداته فيهم . وكذلك قوله

(٢: ٢٠٥) وَإِذْ آتَوْنِي سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا) هو عمل بهمة واجتهاد
ومنه سعى الساعي على الصدقة ، والساعي على الأرملة واليتيم . ومنه قوله
(إِنْ سَعَيْكُمْ لَسِئْتُمْ) وهو العمل الذي يقصده صاحبه ويعتني به ،
ليترتب عليه ثواب أو عقاب ، بخلاف المباحات المعتادة ، فانها لم تدخل
في هذا السعى . قال تعالى (٩٢: ٤) فَأَمَّا مَنْ أُعْطِيَ وَاتَّقَى ٦ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ٧
فَسَنِّيئِهِ دَلِيلٌ يَشْرَى ٨ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى ٩ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ١٠ فَسَنِّيئِهِ
لِلْعُسْرَى (ومنه قوله تعالى (١٧ : ١٩) وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا
سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ) وقوله (٥ : ٣٣) إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ
وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا)

(٣) فصل

وأقسم على صفة الانسان بقوله (١٠٠ : ١) وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا ٢
فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا ٣ فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا ٤ فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا ٥ فَوَسَطْنَ
بِهِ جُمْعًا ٦ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ) وأقسم على عاقبته ،
وهو قسم على الجزاء . في قوله (١٠٣ : ١) وَالْمُضِرِّ ٢ إِنَّ الْإِنْسَانَ
لَفِي خُسْرٍ ٣ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصَوْا بِالْحَقِّ
وَتَوَّصَوْا بِالصَّبْرِ) وفي قوله (٩٥ : ١) وَالتَّيْمِينَ وَالزَّيْتُونَ ٢

وَطُورِ سَيْنِينَ ٣ وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ٤ أَمَدُ خَلْقِنَا الْإِنْسَانَ فِي
أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ٥ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ٦ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا
وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ

وحذف جواب القسم، لانه قد علم بأنه يقسم على هذه الأمور،
وهي متلازمة. فمضى ثبت أن الرسول حق ثبت القرآن والمعاد.
ومضى ثبت أن القرآن حق ثبت صدق الرسول الذي جاء به، ومضى
ثبت أن الوعد والوعيد حق ثبت صدق الرسول الذي جاء به. ومضى
ثبت أن الوعد والوعيد حق ثبت صدقه وصدق الكتاب الذي جاء به
والجواب يحذف تارة ولا يراذ ذكره، بل يراذ تعظيم المقسم به.
وأنه ما يحلف به. كقول النبي صلى الله عليه وسلم «من كان حالفاً
فليحلف بالله أولي صمت» (١) ولكن هذا يذكّر معه الفعل، دون
مجرد حرف القسم. كقولك: فلان يحلف بالله وحده، وأنا أحلف
بالحالق لا بالخلق، ونحو ذلك. والنصراني يحلف بالصليب والمسيح،
وفلان أكذب ما يكون اذا حلف بالله

وقد يكون هذا النوع بحرف القسم مجرداً، كما في الحديث: «كانت
أكثر يمين رسول الله صلى الله عليه وسلم «لا، ومقلب القلوب» (٢)

(١) رواه مالك والبخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي
وابن ماجه عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما
(٢) رواه أحمد والبخاري وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه عن ابن عمر

وكان بعض السلف اذا اجتهد في يمينه قال: والله الذي لا اله الا هو ،
وتارة يحذف الجواب وهو مراد ، إما لكونه قد ظهر وعرف ، إما بدلالة
الحال كمن قيل له كُـلْ . فقال لا ، والله الذي لا اله الا هو . أو بدلالة
السياق ، وأكثر ما يكون هذا اذا كان في نفس المقسم به ما يدل على
المقسم عليه ، وهى طريقة القرآن ، فان المقصود يحصل بذكر المقسم
به ؛ فيكون حذف المقسم عليه أبلغ وأوجز . كمن أراد أن يقسم على
أن الرسول حق . فقال : والذي أرسل محمداً بالهدى ودين الحق
وأيده بالآيات البينات ، وأظهر دعوته ، وأعلى كلمته ونحو ذلك
فلا يحتاج الى ذكر الجواب ، استغناء عنه بما في القسم من الدلالة
عليه ، كمن أراد أن يقسم على التوحيد وصفات الرب ، ونعوت
جلاله . فقال : والله الذي لا اله الا هو ، عالم الغيب والشهادة ، الرحمن
الرحيم ، الأول الآخر ، الظاهر الباطن ، وكمن أراد أن يقسم على
علوه فوق عرشه . فقال : والذي استوى على عرشه فوق سمواته
يصعد اليه الكلم الطيب ، وترفع اليه الأيدي ، وتخرج الملائكة
والروح اليه ، ونحو ذلك . وكذلك من حلف لشخص أنه يحبه
ويعظمه . فقال : والذي ملأ قلبي من محبتك واجلالك ومهابتك ،
ونظائر ذلك - لم يحتج الى جواب القسم . وكان في المقسم به ما يدل
على المقسم عليه . فمن هذا قوله تعالى (ص . وَالْقُرْآنَ ذِي الذِّكْرِ)
فان في المقسم به من تعظيم القرآن ووصفه بأنه ذى الذكر ، المتضمن

لتذكير العباد ما يحتاجون اليه ، وللشرف والقدر ، ما يدل على المقسم عليه ، وكونه حقاً من عند الله ، غير مفترى ، كما يقوله الكافرون . وهذا معنى قول كثير من المفسرين - متقدميهم ومتأخريهم : ان الجواب محذوف ، تقديره : ان القرآن حق . وهذا مطرد في كل ما شأنه ذلك . وأما قول بعضهم : ان الجواب قوله تعالى (٣) كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قُرُونٍ) فاعترض بين القسم وجوابه بقوله (٢) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ) فبعيد ، لأن « لم » لا يتلقى بها القسم ، فلا تقول : والله كم أنفقت مالا . وبالله كم أعتقت عبداً . وهؤلاء لما لم يخف عليهم ذلك احتاجوا أن يقدرُوا ما يتلقى بها الجواب ، أى لكم أهلَكنا . وأبعد من هذا قول من قال : الجواب في قوله (١٤) إِنْ كُلُّ إِلَّا كَذَبَ الرُّسُلَ) وأبعد منه قول من قال : الجواب (٥٤) إِنْ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ) وأبعد منه قول من قال : الجواب قوله (٦٤) إِنْ ذَلِكَ لَحَقُّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ) وأقرب ما قيل في الجواب لفظاً ، وان كان بعيداً معنى ، عن قتادة وغيره : انه في قوله (بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا) كما قال (١٠٥٠) ق وَالْقُرْآنَ الْحَمِيدَ ٢ بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ) وشرح صاحب النظم هذا القول . فقال : معنى « بل » توكيد الخبر الذى بعده فصار كأن الشديدة في تثبيت ما بعدها . وقيل ههنا بمنزلة إن ، لأنه

يؤكد مابعده من الخبر ، وان كان له معنى سواه في نفي خبر متقدم ،
فكانه عز وجل قال : ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ، إِنَّ الَّذِينَ
كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ، كما تقول : والله ان زيدا لقائم . قال واحتج
صاحب هذا القول بأن هذا النظم وان لم يكن للعربية فيه أصل ،
ولا لها رسم ، فيحتمل أن يكون نظماً أحدثه الله عز وجل ، لما بينا
من احتمال (أن تكون) « بل » بمعنى ان . اهـ

وقال أبو القاسم الزجاج ، قال النحويون : ان « بل » تقع في
جواب القسم ، كما تقع إن ، لأن المراد بها توكيد الخبر . وهذا القول
اختيار أبي حاتم ، وحكاه الاخفش عن الكوفيين ، وقرره بعضهم
بأن قال : أصل الكلام ، بل الذين كفروا في عزة وشقاق ،
والقرآن ذي الذكر . فلما قدم القسم ترك على حاله . قال الاخفش :
وهذا يقوله الكوفيون ، وليس بحيد في العربية . لو قلت : والله
قام ، وأنت تريد قام والله ، لم يحسن . وقال النحاس : هذا خطأ
على مذهب النحويين ، لأنه اذا ابتدأ بالقسم وكان الكلام معتمدا
عليه لم يكن بد من الجواب . وأجمعوا أنه لا يجوز : والله قام عمرو ،
بمعنى قام عمرو والله . لان الكلام يعتمد على القسم . وذكر
الاخفش وجهاً آخر في جواب القسم ، فقال : يجوز أن يكون لصاد
معنى يقع عليه القسم ، لاندري نحن ماهو . كأنه يقول : الحق والله .

قال أبو الحسن الواحدى : وهذا الذى قاله الاخفش صحيح المعنى على قول من يقول (ص) الصادق الله ، أو صدق محمد . وذكر الفراء هذا الوجه أيضاً . فقال ، (حس) جواب القسم . وقال : هو كقولك وجب والله ، وترك والله ، فهى جواب لقوله (والقرآن) وذكر النحاس وغيره وجهاً آخر فى الجواب ، وهو انه محذوف تقديره : والقرآن ذى الذكر ، فالامر كما يقوله هؤلاء الكفار . ودل على المحذوف قوله تعالى (بل الذين كفروا) وهذا اختيار ابن جرير ، وهو مخرج من قول قتادة . وشرحه الجرجاني ، فقال «بل» رافع الخبر قبله ومثبت الخبر بعده . فقد ظهر ما بعده وظهر ما قبله ، وما بعده دليل على ما قبله . فالظاهر يدل على الباطن ، فاذا كان كذلك وجب أن يكون قوله (بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ) مخالفاً لهذا المضممر ، فكأنه قيل : والقرآن ذى الذكر إن الذين كفروا يزعمون أنهم على الحق ، أو كل ما فى هذا المعنى . فهذه ستة أوجه سوى ما بدأنا به فى جواب القسم . والله أعلم

ونظير هذا قوله تعالى (ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ . بَلْ عَجِبُوا) قيل جواب القسم (فَدَعَلِمْنَا) وقال الفراء : محذوف ، دل عليه قوله (أَإِذَا مِتْنَا) أى لتبعثن . وقيل قوله (بل عجبوا) كما تقدم بيانه

(٢) فصل

ومن ذلك قوله (٧٥ : ١) لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ٢ وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ
الْأَوَّامَةِ (فقد تضمن الاقسام ثبوت الجزاء ، ومستحق الجزاء .
وذلك يتضمن اثبات الرسالة ، والقرآن ، والمعاد . وهو سبحانه
يقسم على هذه الأمور الثلاثة ، ويقررها أبلغ التقرير ، لحاجة النفوس
الى معرفتهما ، والايمان بها . وأمر رسوله أن يقسم عليها ، كما قال تعالى
(وَيَسْتَنِمِئُونَكَ : أَحَقُّ هُوَ ؟ قُلْ : إِي ، وَرَبِّي ، إِنَّهُ لَحَقٌّ) وقال تعالى
(٣٠ : ٣٤) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ . قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَكُمْ .
وقال تعالى (زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا . قُلْ : بَلَى ، وَرَبِّي
لَيُبْعَثُنَّ) لَتُبْعَثُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (فهذه ثلاثة
مواضع لارابع لها . يأمر نبيه صلى الله عليه وسلم أن يقسم على ما أقسم

عليه هو سبحانه من النبوة ، والقرآن ، والمعاد

فأقسم سبحانه لعباده ، وأمر أصدق خلقه ان يقسم لهم ، وأقام
البراهين القطعية على ثبوت ما أقسم عليه ، فأبى الظالمون
الاجحودا وتكذبوا

واختلف في النفس المقسم بها ههنا ، هل هي خاصة أو عامة ؟ على

قولين ، بناء على الأقوال الثلاثة في اللّوامة . فقال ابن عباس : كل نفس تلوم نفسها يوم القيامة . يلوم المحسن نفسه أن لا يكون ازداد إحسانا . ويلوم المسيء نفسه أن لا يكون رجع عن إساءته . واختاره الفراء . قال : ليس من نفس ، برة ولا فاجرة ، الا وهي تلوم نفسها . ان كانت عملت خيراً قالت : هلا ازددت خيراً ؟ وان كانت عملت سوءا . قالت : ياليتني لم أفعل

والقول الثاني : أنها خاصة . قال الحسن : هي النفس المؤمنة ، وان المؤمن - والله - لا تراه الا يلوم نفسه على كل حالة ، لأنه يستقصرها في كل ما تفعل ، فيندم ويلوم نفسه ، وإن الفاجر يمتضى قدماً ، لا يعاتب نفسه

والقول الثالث ، أنها النفس الكافرة وحدها ، قاله قتادة ومقاتل . وهي النفس الكافرة تلوم نفسها في الآخرة على ما فرطت في أمر الله قال شيخنا (١) : والاظهر أن المراد نفس الانسان مطلقا . فان نفس كل إنسان لوامة ، كما أقسم بجنس النفس في قوله (٧ : ٩١) وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَنَّهُمْ فَجُورُهَا وَتَقْوَاهَا) فانه لا بد لكل إنسان أن يلوم نفسه أو

(١) هو شيخ الاسلام الامام المجتهد المطلق ، تقي الدين احمد بن عبد الحلیم بن عبد السلام بن تیمیة . ولد سنة ٦٦١ . وتوفي سنة ٧٢٨ رحمه الله ورضي عنه

غيره على أمر. ثم هذا اللوم قد يكون ذا وقد يكون مذمومًا كما قال تعالى
(٦٨: ٣٠) فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَّبِعُونَ آيَاتِنَا إِنَّا نَكْتُبُهَا عَلَيْهِمْ
وقال تعالى (٥: ٥٤) يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِنَا لَا يَخَافُونَ أَوْمَةَ لَا أَمْرَ (فهذا
اللوم غير محمود. وفي الصحيحين في قصة حاج آدم وموسى «أتلومني
على أمر قد رده الله عليّ قبل أن أخلق؟» فخرج موسى (١) فهو سبحانه

(١) رواه البخارى في عدة أبواب، قال الحنفى، الفتح (١١: ٤٠٧)
قال ابن عبد البر: هذا الحديث ثابت بالاتفاق. روى أبو هريرة
جماعة من التابعين. وروى عن النبي صلى الله عليه وآله من وجوه
أخرى من رواية الثقات الاثبات اه. قال الحافظ: وقع بن طريق
عشرة عن أبي هريرة، وهو عند مسلم والنسائي والترمذى وخزيمة
وأحمد من عدة طرق. وهو عن عمر عن النبي صلى الله عليه وآله وسيد
أبي داود وأبي عوانة. وعن جندب بن عبد الله عند النسائي
وعن أبي سعيد عند البزار. اه باختصار. وقد أطال الحافظ في شرحه
والإكلام على ما فيه من القوائد. قال ابن عبد البر: هذا الحديث أصل
عظيم لاهل الحق في اثبات القدر، وإن الله قضى أعمال العباد، فكل
أحد يصير لما قدر له بما سبق في علم الله. وليس فيه حجة للجبرية وإن
كان في بادىء الرأى يساعدهم. وقال القرطبي: إنما غلبه بالحجة، لأنه علم
من التوراة أن الله تاب عليه. فكان لومه على ذلك نوع جفاء. قال
الحافظ: وقد أنكر القدرية الحديث، لأنه صريح في اثبات القدر السابق

يقسم على صفة النفس اللوامة كقوله (إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ) وعلى جزأها كقوله (فَوَرَبِّكَ لَنَسْتَأْذِنَهُمْ أَجْمَعِينَ) وعلى تباين عملها كقوله (إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى) وكل نفس لوامة، فالنفس السعيدة تلوم على فعل الشر وترك الخير، فتبادر إلى التوبة، والنفس الشقية بالضد من ذلك

وجمع سبحانه في القسم بين محل الجزاء وهو يوم القيامة، ومحل الكسب، وهو النفس اللوامة. ونبه سبحانه بكونها لوامة على شدة حاجتها وفاقتها وضرورتها إلى من يعرفها الخير والشر، ويدلها عليه، ويرشدها إليه، ويأمرها إياه فيجعلها مريدة للخير، مرشدة له، كارهة للشر مجانبة له، لتخلص من اللوم ومن شر ما تلوم عليه، ولأنها متلومة مترددة، لا تثبت على حال واحدة، فهي محتاجة إلى من يعرفها ما هو أنفع لها في معاشها ومعادها فتؤثره، وتلوم نفسها عليه إذا

وتقرر النبي صلى الله عليه وسلم لا آدم على الاحتجاج به وشهادته بانه غلب موسى. وقد أطل الحافظ في الجواب على ذلك من وجوه عدة : منها ما قال ابن عبد البر : هذا مخصوص بآدم . لان المناظرة وقعت بينهما بعد أن تاب الله عليه . قال تعالى (فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه) فحسن منه أن ينكر على موسى لومه ، والا فلا يجوز لاحد أن يقول لمن لومه على ارتكاب المعصية : هذا سبق في علم الله وقدره قبل أن يخلقني فان الامة اجتمعت على لوم من وقعت منه المعصية . اهـ

فاتها ، فتوب منه ان كانت سعيدة ، ولتقوم عليها حجة عدله فيكون
لومها في القيامة لنفسها عليه لوما بحق ، قد أعذر الله خالقها وفطرها
اليها فيه . ففي صفة اللوم تنبيه على ضرورتها إلى التصديق بالرسالة
والقرآن ، وانها لا غنى لها عن ذلك ، ولا صلاح ، ولا فلاح بدونه
ألبته . ولما كان يوم معادها هو محل ظهور هذا اللوم وترتب أثره
عليه قرن بينهما في الذكر

(٥) فصل

ومن ذلك قوله تعالى (٩١ : ١) وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا ٢ وَالْقَمَرُ إِذَا تَلَاهَا ٣
وَالنَّهَارُ إِذَا جَلَّاهَا ٤ وَاللَّيْلُ إِذَا يَشَاهَا ٥ وَالسَّمَاءُ وَمَا بَنَاهَا ٦ وَالْأَرْضُ
وَمَا طَحَّاهَا ٧ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ٨ فَأَنهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ()
قال الزجاج وغيره : جواب القسم (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا) ولما طال
الكلام حسن حذف اللام من الجواب

وقد تضمن هذا القسم الاقسام بالخالق ، والمخلوق ، فاقسم بالسما
وبانيها ، والأرض وطاحيها ، والنفس ومسويها .

وقد قيل إن مصدرية ، فيكون الاقسام بنفس فعله تعالى ، فيكون
قد أقسم بالمصنوع الدال عليه . وبصنعتة الدالة على كمال علمه وقدرته
وحكمته وتوحيده . ولما كانت حركة الشمس والقمر ، والليل

والنهار أمراً يشهد الناس حدوثه شيئاً فشيئاً ، ويعلمون أن الحادث لا بد له من محدث ، كان العلم بذلك منزلاً منزلة ذكر المحدث له لفظاً . فلم يذكر الفاعل في الأقسام الأربعة

ولهذا سلك طائفة من النظائر طريق الاستدلال بالزمان على الصانع وهو استدلال صحيح قد نبه عليه القرآن في غير موضع . كقوله (٣ : ١٩٠) **إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ**) ولما كانت السماء والأرض ثابتتين حتى ظن من ظن أنهما قديمتان ذكر مع الأقسام بهما بانيهما ومبدعهما . وكذلك النفس ، فإن حدوثها غير مشهود ، حتى ظن بعضهم قدمها ، فذكر مع الأقسام بها مسوياً لها وفاطرها ، مع ما في ذكر بناء السماء وطحو الأرض وتسوية النفس من الدلالة على الرحمة والحكمة والعناية بالخلق ، فإن بناء السماء يدل على أنها كالقبة العالية على الأرض ، وجعلها سقفا لهذا العالم ، والطَّحْو هو مدُّ الأرض وبسطها ، وتوسيعها ليستقر عليها الأنام والحيوان ، ويمكن فيها البناء والغراس والزرع ، وهو متضمن لنضوب الماء عنها ، وهو مباحير عقول الطبائعيين ، حيث كان مقتضى الطبيعة أن يغمرها كثرة الماء ، فبروز جانب منها على الماء على خلاف مقتضى الطبيعة وكونه هذا الجانب المعين دون غيره ، مع استواء الجوانب في الشكل الكُرِّي ، يقتضى تخصيصاً . فلم يجدوا بداً أن يقولوا : عناية الصانع اقتضت ذلك . قلنا : نعم إذاً ، ولكن عناية من لا مشيئة له . ولا إرادة ولا اختيار ، ولا علم بمعين أصلاً ، كما تقولونه فيه

محال ، فعنايته تقتضى ثبوت صفات كماله ونعوت جلاله ، وأنه الفاعل يفعل باختياره ما يريد

وكذلك النفس أقسم بها وبمن سواها وألهمها فجورها وتقواها ، فان من الناس من يقول قديمة لا مبدع لها . ومنهم من يقول بل هي التي تبدع فجورها وتقواها ، فذكر سبحانه أنه هو الذى سواها وأبدعها ، وأنه هو الذى ألهمها الفجور والتقوى . فأعلمنا أنه خالق نفوسنا وأعمالها . وذكر لفظ التسوية ، كما ذكره فى قوله (٦٠: ٨٢) مَا عَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ٧ الَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ (وفى قوله (٧٢: ٣٨) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِى) إيذانا بدخول البدن فى لفظ النفس . كقوله (٧: ١٨٩) هُوَ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ (وَاحِدَةٍ) وقوله (٢٤: ٦١) فَسَلَّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ (٤: ٢٩) وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ (٢٤: ١٢) لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا) ونظائره . وباجتماع الروح مع البدن تصير النفس فاجرة أو تقية . وإلا فالروح بدون البدن لا تجور لها

وقوله (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا) الضمير مرفوع فى (زَكَّاهَا) عائد على (مَنْ) وكذلك هو فى (دَسَّاهَا) المعنى قد أفلح من زكى نفسه . وقد خاب من دساها هذا القول هو الصحيح ، وهو نظير قوله (٨٧: ١٤) (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى) وهو سبحانه إذا ذكر الفلاح علقه

بفعل المفلح ، كقوله (٢٣ : ١) قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ٢ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ) الى آخر الآيات وقوله (٢ : ٢) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ٣ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ٤ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) وقوله (٥١ : ٢٤) إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) ونظائره . قال الحسن : قد أفلح من زكى نفسه وحملها على طاعة الله ، وقد خاب من أهلكها وحملها على معصية الله . وقاله قتادة . وقال ابن قتيبة : يريد أفلح من زكى نفسه ، أى نماها وأعلاها بالطاعة والبر والصدقة واصطناع المعروف . وقد خاب من دساها أى نقصها وأخفاها بترك عمل البر وركوب المعاصي . والفاجر أبداً خفى المكان ، زَمِنَ المروءة ، غامض الشخص ، ناكس الرأس . فكأن المتصف بارتكاب الفواحش دس نفسه ، وقمعها . ومصطنع المعروف شهر نفسه ورفعها . وكانت أجواد العرب تنزل الرُّبَى ويقاع الأرض لتشهر أنفسها للمعتفين ، وتوقد النيران فى الليل

لطارقين . وكانت اللثام تنزل الاولاج والاطراف والاهضام (١)
لتخفي أماكنها على الطالبين . فأولئك أعلوا أنفسهم وزكوها ،
وأولئك أخفوا أنفسهم ودسوها . وأنشد :

وَبَوَّاتَ بَيْتَكَ فِي مَعْلَمٍ * رَحِيبَ الْمَبَاحَاتِ وَالْمَسْرَحِ

كَفَيْتَ الْعُقَاةَ طُلَّابَ الْقُرَى * وَنَبَّحَ الْكِلَابَ لِمُسْتَبَحِ

وقال أبو العباس : سألت ابن الاعرابي عن قوله (وقد خاب من
دساها) : فقال دسّى معناه دس نفسه مع الصالحين وليس منهم ، وعلى
هذا فالمعنى أخفى نفسه في الصالحين ، يُرى الناس أنه منهم وهو
منطو على غير ما ينطوى عليه الصالحون . وقال طائفة أخرى : الضمير
يرجع الى الله سبحانه . قال ابن عباس ، في رواية عطاء : قد أفلحت نفس
زكاها الله وأصلحها . وهذا قول مجاهد ، وعكرمة ، والسكبي ، وسعيد
ابن جبير ، ومقاتل ، قالوا : سعدت نفس وأفلحت نفس أصلحها
الله وطهرها ووفقها للطاعة ، حتى عملت بها ، وخابت وخسرت نفس
أصلحها الله وأغواها وأبطلها وأهلكها

قال أرباب هذا القول : قد أقسم الله بهذه الأشياء التي ذكرها ،
لأنها تدل على وحدانيته ، وعلى فلاح من طهره ، وخسارة من
خذه ، حتى لا يظن أحد أنه هو الذي يتولى تطهير نفسه وإصلاحها

(١) اليفاع المكان المرتفع . والولجة موضع أو كهف تستتر فيه المارة
الجمع أولاج . والهضم - بكسر الصاد - المطمئن من الأرض

بالمعصية من غير قَدَر سابق ، وقضاء متقدم . قالوا : وهذا أبلغ
 في التوحيد الذي سيقمت له هذه السورة . قالوا : ويدل عليه قوله
 (فَأَلْهِمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا) قالوا : ويشهد له حديث نافع عن ابن
 عمر عن ابن أبي مليكة (١) عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : انتهت نفسي
 ليلة فوجدت رسول الله صلى عليه وسلم وهو يقول « رَبِّ اعْطِ نَفْسِي
 تَقْوَاهَا ، وَزَكَاةَ أَنْتَ خَيْرَ مَنْ زَكَّاهَا أَنْتَ وَلِيِّهَا وَمَوْلَاهَا » قالوا
 فهذا الدعاء هو تأويل الآية ، بدليل الحديث الآخر : ان النبي ﷺ كان
 اذا قرأ (قد افلح من زكاه) وقف ثم قال « اللهم آت نفسي تقواها ،
 أَنْتَ وَلِيُّهَا وَمَوْلَاهَا ، وَزَكَاةَ أَنْتَ خَيْرَ مَنْ زَكَّاهَا (٢) » قالوا : وفي هذا
 ما يبين ان الأمر كله له سبحانه ، فانه هو خالق النفس وملهمها
 الفجور والتقوى . وهو مزيها ومُدْسِها ، فليس للعبد في الأمر شيء
 ولا هو مالك من أمر نفسه شيئاً

قال أرباب القول الأول : هذا القول ، وان كان جائزاً في العربية ،
 حاملاً للضمير المنصوب على معنى مَنْ ، وان كان لفظها مذكراً ،
 كما في قوله (١٠ : ٤٢) وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ) جمع الضمير ، وان

(١) كذا هنا . وفي تفسير ابن كثير قال الامام أحمد حدثنا وكيع عن نافع
 عن ابن عمر عن صالح بن سعيد عن عائشة وذكره . ثم قال ابن كثير : تفرد به
 (٢) رواه الحافظ ابن كثير في تفسيره من طريق الطبراني وابن أبي حاتم

كان لفظ من مفرداً ، حملاً على نظمها . فهذا إنما يحسن حيث لا يقع لبس في مفسر الضمائر ، وههنا قد تقدم لفظ من ، والضمير المرفوع في (زكاهها) يستحقه لفظاً ومعنى . فهو أولى به ، ثم يعود الضمير المنصوب على النفس التي هي أولى به لفظاً ومعنى . فهذا هو النظم الطبيعي الذي يقتضيه سياق الكلام ووضعه . وأما عود الضمير الذي يلي من على الموصول السابق وهو قوله (وَمَا سَوَّاهَا) وإخلاء جاره الملاصق له وهو (من) ثم عود الضمير المنصوب وهو مؤنث على من ، ولفظه مذكر دون النفس المؤنثة . فهذا يجوز ، لولم يكن للكلام حمل غيره أحسن منه . فأما إذا كان سياق الكلام ونظمه يقتضي خلافه ولم تدع الضرورة إليه ، فالحمل عليه ممتنع

قالوا : والقول الذي ذكرناه أرجح من جهة المعنى لوجوه :

﴿ أحدها ﴾ أن فيه إشارة إلى ما تقدم من تعليق الفلاح على فعل العبد واختياره ، كما هي طريقة القرآن ﴿ الثاني ﴾ أن فيه زيادة فائدة وهي إثبات فعل العبد وكسبه ، وما يثاب وما يعاقب عليه ، وفي قوله (فَأَتَاهُمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا) إثبات القضاء والقدر السابق . فتضمنت الآيتان هذين الأصلين العظيمين ، وهما كثيراً ما يقتربان في القرآن كقوله (٧٤ : ٥٤) إِنَّهُ تَذَكُّرٌ ٥٥ فَمَنْ شَاءَ ذَكَّرْهُ ٥٦ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ) وقوله (٢٨ : ٨١) لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ ٢٩ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ) فتضمنت الآيتان الرد على القدرية والجبرية

﴿الثالث﴾ ان قولنا يستلزم قولكم ، دون العكس . فان العبد اذا زكى نفسه ودساها فانما يزكىها بعد تزكية الله لها بتوفيقه واعانتة ، وانما يدسها بعد تدسية الله لها بخذلانه ، والتخلية بينه وبين نفسه . بخلاف ما اذا كان المعنى على القدر السابق المحض ، لم يبق للكسب وفعل العبد ههنا ذكر البتة

(٦) فصل

وذكر في هذه السورة ثمود ، دون غيرهم من الأمم المكذبة فقال شيخنا : هذا - والله أعلم - من باب التنبيه بالأدنى على الأعلى ، فانه لم يكن في الأمم المكذبة أخف ذنبا وعذابا منهم ، اذ لم يذكر عنهم من الذنوب ما ذكر عن عاد ، ومدين ، وقوم لوط ، وغيرهم . ولهذا لما ذكرهم وعادا قال (٤١ : ١٥) فَأَمَّا عَادُ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ؟ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ١٦ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى) وكذلك اذا ذكرهم مع الأمم المكذبة لم يذكر عنهم ما ذكر عن أولئك من التجبر والتكبر ، والأعمال السيئة ، كاللواط ، وبخس المسكيات والميزان ، والفساد في الأرض ، كما في سورة هود والشعراء وغيرهما . فكان في قوم لوط - مع الشرك - إتيان الفاحشة التي لم

يُسَبِّقُوا إِلَيْهَا . وفي قوم عاد - مع الشرك - التجبر والتكبر والتوسع في الدنيا ، وشدة البطش ، وقولهم (مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ؟) وفي أصحاب مَدْيَنَ - مع الشرك - الظلم في الاموال . وفي قوم فرعون - مع الشرك - الفساد في الارض والعلو . وكان عذاب كل أمة بحسب ذنوبهم وجرائمهم . فعذب قوم عاد بالريح الشديدة العاتية ، التي لا يقوم لها شيء . وعذب قوم لوط بأنواع من العذاب لم يعذب بها أمة غيرهم . فجمع لهم بين الهلاك والرجم بالحجارة من السماء ، وطمس الابصار ، وقلب ديارهم عليهم . بأن جعل عاليها سافلها ، واخسف بهم الى أسفل سافلين . وعذب قوم شعيب بالنار التي أحرقتهم وأحرقت تلك الأموال التي اكتسبوها بالظلم والعدوان . وأما ثمود فاهلكوا بالصيحة فماتوا في الحال . فاذا كان عذاب هؤلاء - وذنوبهم مع الشرك عقر الناقة التي جعلها الله آية لهم - فمن انتهك محارم الله واستخف بأوامره ونواهيه ، وعقر عباده ، وسفك دماءهم ، كان أشد عذابا . ومن اعتبر أحوال العالم قديما وحديثا ، وما يعاقب به من سعى في الأرض بالفساد ، وسفك الدماء بغير حق ، واقام الفتن واستهان بحرمات الله ، علم أن النجاة في الدنيا والآخرة للذين آمنوا وكانوا يتقون

﴿ قلت ﴾ وقد يظهر في تخصيص ثمود ههنا بالذكر ، دون غيرهم ، معنى آخر ، وهو أنهم ردوا الهدى بعد ما تيقنوه وكانوا مستبصرين به ، قد

ثلجت له صدورهم ، واستيقظت له أنفسهم ، فاختاروا عليه العمى والضلالة ، كما قال تعالى في وصفهم (٤١ : ١٦) وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى) وقال (١٧ : ٥٩) وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً أَى مَوْجِبَةً لَهُمُ التَّبَصُّرَةَ وَالْيَقِينَ ، وإن كان جميع الأمم المهلكة هذا شأنهم . فإن الله لم يهلك أمة إلا بعد قيام الحجة عليها ، لكن خصت ثمود من ذلك الهدى والبصيرة بمزيد . ولهذا لما قرنهم بقوم عاد قال (فَأَمَّا عَادُ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ؟) ثم قال (وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى) ولهذا أمكن عاداً المكابرة ، وإن يقولوا النبيهم (١١ : ٥٣) مَا جِئْنَا بِبَيِّنَةٍ) ولم يمكن ذلك ثمود ، وفدروا البينة عياناً ، وصارت لهم بمنزلة رؤية الشمس والقمر ، فردوا الهدى بعدتيقنه والبصيرة التامة ، فكان في تخصيصهم بالذكر تحذير لكل من عرف الحق ولم يتبعه . وهذا داء أكثر الهالكين ، وهو أعم الأدواء وأغلبها على أهل الأرض . والله أعلم

(٧) فصل

ومن ذلك قوله تعالى (٨٩ : ١) وَالْفَجْرِ ٢ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ٣ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ٤ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ٥ هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرِ ؟) قيل جوابه (إن

رَبَّكَ لَيْلًا مُرْصَادٍ) وهذا ضعيف لوجهين ((أحدهما)) طول الكلام
والفصل بين القسم وجوابه بجمل كثيرة ((والثاني)) قوله (إِنَّ رَبَّكَ
لَيْلًا مُرْصَادٍ) ذكر لتقرير عقوبة الله الأمام المذكورة، وهي عاد،
وتمود، وفرعون. فذكر عقوبتهم. ثم قال مقررًا ومحذرا
(إِنَّ رَبَّكَ لَيْلًا مُرْصَادٍ) فلانرى تعلقه بذلك دون القسم. وأحسن
من هذا أن يقال: إن الفجر في الليالي العشر زمن يتضمن أفعالا
معظمة، من المناسك، وأمكنة معظمة، وهي محلها، وذلك من
شعائر الله، المتضمنة خضوع العبد لربه، فإن الحج والنسك عبودية
محضة لله، وذل وخضوع لعظمته. وذلك ضد ما وصف به عادا
وتمود، وفرعون، من العتو، والتكبر، والتجبر. فإن النسك يتضمن
غاية الخضوع لله. وهؤلاء الامم عتوا وتكبروا عن أمر ربهم.
وفي صحيح البخارى عن ابن عباس رضى الله عنهما: عن النبي صلى
الله عليه وسلم قال « مامن أيام العمل الصالح فيهن أحب الى الله من
هذه الأيام العشر » قيل: يا رسول الله، ولا الجهاد في سبيل الله؟ قال
« ولا الجهاد في سبيل الله، الا رجل خرج بنفسه وماله لم يرجع من
ذلك بشيء » فالزمان المتضمن لمثل هذه الاعمال أهل ان يقسم
الرب عز وجل به

(والفجر) ان أريد به جنس الفجر، كما هو ظاهر اللفظ، فانه
يتضمن وقت صلاة الصبح، التى هى أول الصلوات. فافتتح القسم

بما يتضمن أول الصلوات ، وختمه بقوله (وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ)
 المتضمن لآخر الصلوات ، وان أريد بالفجر فجر مخصوص ، فهو
 فجر يوم النحر وليلته ، التي هي ليلة عرفة ، فتلك الليلة من أفضل
 ليالى العام ، وما رؤى الشيطان فى ليلة أدر ولا أحقر ولا أغيط
 منه فيها . وذلك الفجر فجر يوم النحر الذى هو أفضل الأيام عند
 الله ، كما ثبت عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « أفضل الأيام
 عند الله يوم النحر » رواه أبو داود باسناد صحيح . وهو آخر أيام
 العشر ، وهو يوم الحج الاكبر ، كما ثبت فى صحيح البخارى وغيره .
 وهو اليوم الذى أذن فيه مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم
 « إِنَّ اللَّهَ بَرِئٌ مِنْ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ » ، وان لا يحج بعد العام
 مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان » ولا خلاف ان المؤذن أذن
 بذلك فى يوم النحر ، لا يوم عرفة . وذلك بأمر رسول الله صلى الله
 عليه وسلم ، امثالا وتأويلا للقرآن

وعلى هذا فقد تضمن القسم المناسك والصلوات ، وهما المختصان
 بعبادة الله . والخضوع له والتواضع لعظمته . ولهذا قال الخليل عليه السلام
 (١٦٢ : ٦) اِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ وقيل لخاتم
 الرسل صلى الله عليه وسلم (١٠٨ : ٢) فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنحِرْ بخلاف حال المشركين
 المتكبرين الذين لا يعبدون الله وحده ، بل يشركون به ، ويستكبرون عن
 عبادته ، كحال من ذكر فى هذه السورة من قوم عاد ، وثمود ، وفرعون

وذكر سبحانه من جملة هذه الاقسام (الشَّعْع والوتر) . اذ هذه الشعائر المعظمة منها شفع ومنها وتر ، في الأمكنة والأزمنة والاعمال فالصفا والمروة شفع . والبيت وتر . والجمرات وتر ، ومِنَى ومُزْدَلِفَة شفع . وعرفة وتر . وأما الاعمال فالطواف وتر . وركعتاه شفع . والطواف بين الصفا والمروة وتر . ورمى الجمار وتر . كل ذلك سبع سبع ، وهو الاصل . فان الله وتر ، يحب الوتر . والصلاة منها شفع ومنها وتر . والوتر يوتر الشفع ، فتكون كلها وترا . كما قال النبي صلى الله عليه وسلم « صلاة الليل مثنى مثنى . فاذا خشيت الصبح فأوتر بواحدة تُؤْتِرُ لك ما قد صليت (١) » وأما الزمان فان يوم عرفة وتر ، ويوم النحر شفع . وهذا قول أكثر المفسرين . وروى مجاهد عن ابن عباس : الوتر آدم ، وشفع بزوجه حواء . وقال في رواية أخرى : الشفع آدم وحواء . والوتر الله وحده . وعنه رواية ثالثة : الشفع يوم النحر ، والوتر اليوم الثالث . وقال عمران بن حصين ، وقتادة : الشفع والوتر هي الصلاة . وروى فيه حديثا مرفوعا . وقال عطية العوفي : الشفع الخلق . قال الله تعالى (٧٨ : ٨) وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا (١) والوتر هو الله . وهذا قول الحكم . قال : كل شيء شفع والله وتر . وقال أبو صالح : خلق الله من كل شيء زوجين اثنين ، والله وتر واحد ، وهذا قول مجاهد . ومسروق ، وقال الحسن : الشفع والوتر العدد كله

(١) رواه أحمد والبخارى ومسلم وأصحاب السنن ، عن ابن عمر

من شفع ووتر . وقال ابن زيد : الشفع والوتر الخلق كله من شفع ووتر ، قال مقاتل : الشفع الأيام والليالي ، والوتر اليوم الذي لا ليلة بعده ، وهو يوم القيامة .

وذكرت أقوال آخر ، هذه أصولها . ومدارها كلها على قولين (أحدهما) أن الشفع والوتر نوعان للمخلوقات والمأمورات (والثاني) أن الوتر الخالق ، والشفع المخلوق . وعلى هذا القول فيكون قد جمع في القسم بين الخالق والمخلوق . فهو نظير ما تقدم في قوله (وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا) ونظير ما ذكر في قوله (٨٥: ٣٧ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ) وما ذكر في قوله (وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَى . وَالنَّهَارُ إِذَا تَجَلَّى . وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى) وقال ههنا (وَاللَّيْلُ إِذَا يَسْرِ) وفي سورة المدثر أقسم بالليل إذا أدبر . وفي سورة التكاوير أقسم بالليل إذا عسعس وقد فسر بأقبل ، وفسر بأدبر . فان كان المراد اقباله فقد أقسم بأحوال الليل الثلاثة ، وهي حالة اقباله ، وحالة امتداده وسريانه ، وحالة ادباره ، وهي من آياته الدالة عليه سبحانه

وعرف الفجر باللام اذ كل أحد يعرفه ، ونكر الليالي العشر ، لأنها انما تعرف بالعلم . وأيضا فان التنكير تعظيم لها . فان التنكير يكون للتعظيم .

وفى تعريف الفجر ما يدل على شهرته ، وأنه الفجر الذى يعرفه
كل أحد ولا يحمله

فلما تضمن هذا القسم ما جاء به ابراهيم ومحمد صلى الله عليهما وسلم
كان فى ذلك ما دل على المقسم عليه ، ولهذا اعتبر القسم بقوله تعالى
(هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِإِذَى حِجْرٍ ؟) فان عظمة هذا المقسم به يعرف
بالنبوة . وذلك يحتاج الى حِجْر بحجر صاحبه عن الغفلة واتباع الهوى
ويحمله على اتباع الرسل ، لئلا يصيبه ما أصاب من كذب الرسل
كعاد ، وفرعون ، وثمود .

ولما تضمن ذلك مدح الخاضعين والمتواضعين ذكر حال
المستكبرين المتجبرين الطاغين ، ثم أخبر أنه صب عليهم سوط
عذاب . ونكره إما للتعظيم ، وإما لأن يسيرا من عذابه استأصلهم
وأهلكهم ، ولم يكن معه بقاء ولا ثبات

ثم ذكر حال الموسع عليهم فى الدنيا والمُقْتَرَّ عليهم . وأخبر ان
توسيعه على من وسع عليه - وان كان اكراما له فى الدنيا - فليس
ذلك إكراما على الحقيقة ، ولا يدل على أنه كريم عنده ، من أهل
كرامته ومحبته ، وأن تقتيره على من قتر عليه لا يدل على اهانتة له ،
وسقوط منزلته عنده ، بل يوسع ابتلاء وامتحاناً ، ويقتّر ابتلاء
وامتحاناً . فيبتلى بالنعيم . كما يبتلى بالمصائب ، وسبحانه هو يبتلى عبده

بنعمة تجلب له نعمة ، وبنعمة تجلب له نعمة أخرى ، وبنعمة تجلب له نعمة أخرى ، وبنعمة تجلب له نعمة ، فهذا شأن نعمة ونقمة سبحانه

وتضمنت هذه السورة ذمّ من اغتر بقوته وسلطانه وماله . وهم هؤلاء الامم الثلاثة : قوم عاد ، اغتروا بقوتهم . وثمود ، اغتروا بجنانهم وعيونهم وزروعهم وبساتينهم . وقوم فرعون ، اغتروا بالمال والرياسة ، فصارت عاقبتهم إلى ما قصّ الله علينا . وهذا شأنه دائماً مع كل من اغتر بشيء من ذلك ، لا بد أن يفسده عليه ، ويسلبه إياه ثم ذكر سبحانه حال الانسان في معاملته لمن هو أضعف منه ، كاليتيم والمسكين . فلا يكرم هذا ، ولا يحضّ على طعام هذا . ثم ذكر حرصه على جمع المال وأكله ، وحبه له . وذلك هو الذي أوجب له عدم رحمته لليتيم والمسكين

ثم ختم السورة بمدح النفس المطمئنة ، وهي الخاشعة المتواضعة لربها ، وما تؤول إليه من كرامته ورحمته . كما ذكر قبلها حال النفس الأمّارة ، وما تؤول إليه من شدة عذابه ووثاقه

(٨) فصل

وأما سورة (لا أقسم بهذا البلد) فذكر فيها جواب القسم . وهو قوله (لقد خلقنا الانسان في كبد) وفسر الكبد بالاستواء وانتصاب القامة . قال ابن عباس ، في رواية مقسم : منتصباً على ٣ — التبيان

قدميه . وهذا قول أبي صالح ، والضحاك ، وإبراهيم ، وعكرمة ،
وعبد الله بن شداد . قال المنذر : سمعت أبا طالب يقول : الكبد
الاستواء والاستقامة . وفسر بالنَّصَب . هذا قول مجاهد ، وسعيد
ابن جبير ، والحسن ، ورواية عن علي ، وعن ابن عباس . قال الحسن :
لم يخلق الله خلقا يكابد ما يكابد ابن آدم . وقال سعي بن أبي
الحسن (١) : يكابد مصائب الدنيا وشدائد الآخرة . وقال قتادة :
يكابد أمر الدنيا والآخرة ، فلا تلقاه إلا في مشقة . وروى ابن
جريج عن عطاء عن ابن عباس قال : يعني حمله وولادته ، ورضاعه ،
وفصاله ، ونبت أسنانه وحياته ، ومعاشه ، ومماته . كل ذلك شدة .
قال مجاهد : حملته أمه كرها ، ووضعته كرها ، ومعيشته في شدة .
فهو يكابد ذلك ، وعلى هذا فالكبد من مكابدة الأمر ، وهي معاناة
شدته ومشقته ، والرجل يكابد الليل إذا قاسى هوْلَه وصعوبته ،
والكبد شدة الأمر ، ومنه تكبّد اللبن ، إذا غلظ واشتد . ومنه الكبد
لأنها دم يغلظ ويشتد . وانتصاب القامة والاستواء من ذلك ، لأنه
إنما يكون عن قوة وشدة ، فإن الإنسان مخلوق في شدة . بكونه في
الرحم ، ثم في القمط والرباط ، ثم هو على خطر عظيم عند بلوغه

(١) كذا في الاصل . وفي تفسير ابن كثير : وروى من طريق
أبي مودود ، سمعت الحسن قرأ هذه الآية فقال : يكابد أمر من أمر
الدنيا وأمر من أمر الآخرة

حال التكليف ، ومكابدة المعيشة ، والأمرو والنهي ، ثم مكابدة الموت وما بعده في البرزخ ، وموقف القيامة ، ثم مكابدة العذاب في النار ولا راحة له الا في الجنة

وفسر الكبد بشدة الخلق وإحكامه وقوته ، ومنه قول لبيد :

يَا عَيْنُ هَلَّا بِكَيْتِ أُرْبِدَ ، إِذْ قُمْنَا وَقَامَ الْخُصُومُ فِي كَيْدٍ ؟ (١)

أى في شدة وعناء . وهذا يشبه قوله تعالى (٢٨:٨٦) نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ قال ابن عباس : أى خَلَقْنَاهُمْ ، وقال أبو عبيدة : الأسر شدة الخلق يقال : فرس شديد الأسر . قال وكل شىء شدته : من قتب أو غيره ، فهو مأسور . وقال المبرد : الأسر القوى كلها . وقال الليث : الأسر قوة المفاصل والواصل . وشد الله أسرفلان ، أى قوى خلقه . وكل شىء جمع طرفاه فشد أحدهما بالآخر فقد أسر . وقال الحسن : شدنا أوصالهم بعضها إلى بعض ، بالعروق والعصب . وقال مجاهد : هو الشَّرَج ، يعنى موضع البول والغائط . إذا خرج الأذى تقبضا

والمقصود أنه سبحانه أقسم في سورة البلد على حال الانسان وأقسم سبحانه بالبلد الأمين وهو مكة أم القرى ثم أقسم بالوالد وما ولد . وهو آدم وذريته في قول جمهور المفسرين . وعلى هذا فقد تضمن القسم أصل المكان ، وأصل

(١) هومن قصيدة يرثى بها أخاه أربد . أولها :

ما إن تعدي المنون من أحد لا والد مشفق ، ولا ولد

السكان . فمرجع البلاد إلى مكة ، ومرجع العباد إلى آدم
 وقوله (وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ) فيه قولان (أحدهما) أنه من
 الاحلال ، وهو ضد الاحرام (والثاني) أنه من الحلول وهو ضد
 الظعن . فان أريد به المعنى الاول فهو حلال ساكن البلد ، بخلاف
 المحرم الذي يحج ويعتمر ، ويرجع ، ولان أمنه إنما تظهر به النعمة
 عند الحل من الاحرام . والافق حال الاحرام هو في أمان
 والحرمة هناك للفعل لا للمكان . والمقصود هو ذكر حرمة المكان
 وهي إنما تظهر بحال الحل الذي لم يتلبس بما يقتضى أمنه ، ولكن
 على هذا ففيه تنبيه ، فانه اذا أقسم به ، وفيه الجلال ، فاذا كان فيه
 الاحرام فهو أولى بالتعظيم والأمن . وكذلك إذا أريد المعنى الثاني ،
 وهو الحلول ، فهو متضمن لهذا التعظيم ، مع تضمنه أمراً آخر .
 وهو الاقسام ببلده المشتمل على رسوله وعبد ، فهو خير البقاع
 وقد اشتمل على خير العباد ، فجعل بيته هدى للناس ، ونبيه اماما
 وهاديا لهم ، وذلك من أعظم نعمه واحسانه إلى خلقه ، كما هو من
 أعظم آياته ودلائل وحدانيته وربوبيته ، فمن اعتبر حال بيته وحال
 نبيه وجد ذلك من أظهر أدلة التوحيد والربوبية

وفي الآية قول ثالث ، وهو أن المعنى : وأنت مُستحل قتلك
 وإخراجك من هذا البلد الأمين ، الذي يأمن فيه الطير والوحش
 والجاني . وقد استحل قومك فيه حرمتك ، وهم لا يعصِدون به

شجرة ، ولا يُنْفَرُون به صيدا . وهذا مروى عن شُرْحِيل بن سعد . وعلى كل حال فهي جملة اعتراض في أثناء القسم ، موقعها من أحسن موقع وأطفه

فهذا القسم متضمن لتعظيم بيته ورسوله

ثم أنكر سبحانه على الانسان ظنه وحسابه أن لن يقدر عليه من خلقه في هذا الكبد والشدة والقوة التي يكابد بها الأمور . فان الذى خلقه كذلك أولى بالقدرة منه وأحق ، فكيف يقدر على غيره من لم يكن قادرا في نفسه ، فهذا برهان مستقل بنفسه ، مع أنه متضمن للجزاء الذى ما طه القدرة والعلم ، فنبه على ذلك بقوله (اِيْحْسَبُ اَنْ اَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ اَحَدٌ) وبقوله (اِيْحْسَبُ اَنْ لَمْ يَرَهُ اَحَدٌ ؟) فيحصى عليه ما عمل من خير وشر ، ولا يقدر عليه فيجازيه بما يستحقه ؟

ثم أنكر سبحانه على الانسان قوله (اَهْلَكَتُمْ مَالًا لَبَدًا) وهو الكثير الذى يُلَبَّدُ بعضه فوق بعض ، فافتخر هذا الانسان باهلاكه وانفاقه في غير وجهه . إذ لو أنفق في وجوهه التى أمر بانفاقه فيها ، ووضع مواضعه ، لم يكن ذلك إهلاكا له ، بل تقربا به الى الله ، وتوصلا به الى رضاه وثوابه . وذلك ليس باهلاك له . فأنكر سبحانه افتخاره ، وتبجح به بانفاق المال في شهواته وأغراضه التى إنفاقه فيها إهلاك له

ثم وبخه بقوله (أَيْحَسِبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ؟) وأتى ههنا بلم ،
الدالة على المضى ، فى مقابلة قوله (أَهْلَكَتُمْ مَالاً لُبْدًا) فان ذلك
فى الماضى . أفيحسب أن لم يره أحد فيما أنفقه وفيما أهلكه ؟
ثم ذكر برهانا مقدرًا أنه سبحانه أحق بالرؤية وأولى من هذا
العبد الذى له عينان يبصر بهما . فكيف يعطيه البصر من لم يره ؟
وكيف يعطيه آلة البيان ، من الشفتين واللسان ، فينطق ، ويبين
عما فى نفسه ، ويأمر وينهى من لا يتكلم ولا يكلم ، ولا يخاطب ،
ولا يأمر ، ولا ينهى ؟ وهل كمال المخلوق مستفاد الا من كمال خالقه ؟
ومن جعل غيره عالما بنجدي الخير والشر - وهما طريقاها - أليس هو
أولى وأحق بالعلم منه . ومن هداه الى هذين الطريقين ، كيف يليق به أن
يتركه سدى ، لا يعرفه ما يضره وما ينفعه فى معاشه ومعاده ؟ وهل
النبوة والرسالة الا لتكميل هداية النجدين ؟ فدل هذا كله على اثبات
الخالق وصفات كماله ، وصدق رسله ، ووعدده .

وهذه أصول الايمان التى اتفقت عليها جميع الرسل من أولهم الى
آخرهم إذا تأمل الانسان حاله وخلقته وجده من أعظم الادلة على
صحتها وثبوتها . فتكفى الانسان فكرته فى نفسه وخلقته . والرسل
بعثوا مذكرين بما فى الفطر والعقول ، مكملين له ، لتقوم على العبد
حجة الله بفطرته ورسالته . ومع هذا فقامت عليه حجته ولم يقتحم
العقبة التى بينه وبين ربه ، التى لا يصل اليها حتى يقتحمها بالا حسان

الى خلقه بفك الرقبة، وهو تخليصها من الرق، ليخلصه الله من رق نفسه، ورق عدوه. وإطعام اليتيم والمسكين في يوم المجاعة، وبالاخلاص له سبحانه بالايمان الذى هو خالص حقه عليه. وهو تصديق خبره وطاعة أمره، وابتغاء وجهه، وبنصيحة غيره أن يوصيه بالبر والرحمة، ويقبل وصية من أوصاه بها، فيكون صابرا رحيما في نفسه، معينا لغيره على الصبر والرحمة. فمن لم يقتحم هذه العقبة، وهلك دونها هلك منقطعا عن ربه، غير واصل اليه، بل محجوبا عنه

والناس قسمان: ناج، وهو من قطع العقبة وصار وراءها. وهالك وهو من دون العقبة، وهم أكثر الخلق، ولا يقتحم هذه العقبة الا المضمرّون، فانهما عقبة كؤود شاقة، لا يقطعها الا خفيف الظهر. وهم أصحاب الميمنة. والهالكون دون العقبة الذين لم يصدقوا الخبر، ولم يطيعوا الأمر. فهم (أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤَصَّدَةٌ) قد أُطبقت عليهم؛ فلا يستطيعون الخروج منها؛ كما أُطبقت عليهم أعمال الغي والاعتقادات الباطلة، المنافية لما أُخبرت به رسله فلم تخرج قلوبهم منها. كذلك أُطبقت عليهم هذه النار، فلم تستطع أجسامهم الخروج منها

فتأمل هذه السورة على اختصارها، وما اشتملت عليه من مطالب العلم والايمان. وبالله التوفيق وأيضاً فان طريقة القرآن يذكر العلم والقدرة، تهديدا وتخويفا

لترتب الجزاء عليهما كما قال تعالى (٦ : ٦٥ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ
يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ) وقوله تعالى (٩٦ : ٨ أَرَأَيْتَ
الَّذِي يَنْهَى ٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّى ١٠ أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى ١١
أَوْ أَمَرَ بِالْتَّقْوَى ١٢ أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى ١٣ أَلَمْ يَعْلَمْ
بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى ؟) وقوله تعالى (٩ : ١٠٥ وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسِرَی
اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ) وقال (٤٣ : ٨٠ أَمْ يَحْسِبُونَ
أَنَا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ ؟ بَلَى ، وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ)
وهذا كثير جدافي القرآن . وليس المراد به مجرد الاخبار بالقدرة
والعلم ، لكن الاخبار مع ذلك بما يترتب عليهما من الجزاء بالعدل،
فانه اذا كان قادرا أمكن مجازاته ، واذا كان عالما أمكن ذلك بالقسط
والعدل، ومن لم يكن قادرا لم يمكن مجازاته . واذا كان قادرا لکنه غير عالم
بتفاصيل الأعمال ومقادير جزائهم لم يجاز بالعدل . والرب تعالى موصوف
بكمال القدرة، وكمال العلم، فالجزاء منه موقوف على مجرد مشيئته و ارادته
حينئذ يجب على العاقل أن يطلب النجاة منه بالاخلاص والاحسان، فهو
اقتحام العقبة المتضمن للتوبة الى الله تعالى ، والاحسان الى خلقه
وقال (فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ) وهو فعل ماض ، ولم يكرر معه
« لا » اما استعمالا لأداة « لا » كاستعمال « ما » واما اجراء لهذا
الفعل مجرى الدعاء . نحو فلا سلم ولا عاش . ونحو ذلك . وإما لأن

العقبة قد فسرت بمجموع امور : فاقترحابها فعل كل واحد منها .
فأغنى ذلك عن تكريرها . فكأنه قال : فلا فك رقة ، ولا أطعم ،
ولا كان من الذين آمنوا

وقراءة من قرأ (فَكٌ رَقَبَةٌ) بالفعل ، كأنها أرجح من قراءة
من قرأها بالمصدر . لان قوله (وما أدراك ما العقبة ؟) على حد قوله
(٣: ٦٩ وما أدراك ما الحاقة) (١٧: ٨٢) وما أدراك ما يوم الدين) (١٠: ١٠١)
وما أدراك ما هيئه ١١ نَارٌ حَامِيَةٌ) ونظائره ، تعظيما لشأن العقبة
وتفخيها لامرها . وهى جملة اعتراض بين المفسر والمفسر . فان قوله
(فَكٌ رَقَبَةٌ ١٣ أو إطعامٌ في يومٍ ذى مسغبة ١٤ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ
١٥ أو مسكينًا ذَا مَرْبَةٍ ١٦ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا) تفسير
لاقتحام العقبة مكان شاق كؤود يقتحمه الناس حتى يصلوا الى الجنة
واقترحابه بفعل هذه الامور . فمن فعلها فقد اقتحم العقبة . ويدل على
ذلك قوله تعالى (ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا) وهذا عطف على قوله
(فَكٌ رَقَبَةٌ) والاحسن تناسب هذه الجمل المعطوفة التى هى تفسير
لما ذكر أولا

وأيضافان من قرأها بالمصدر المضاف فلا بدله من تقدير ، وهو :
ما أدراك ما اقتحام العقبة ؟ واقترحابها فك رقة . وأيضا فمن قرأها
بالفعل فقد طابق بين المفسر وما فسر . ومن قرأها بالمصدر فقد

طابق بين المفسر وبعض مافسره ، فان التفسير ان كان لقوله (أَقْتَحِمَ)
طابقه بقوله (ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا) وما بعده دون (فَكُ رَقَبَةً)
وما يليه ، وان كان لقوله (الْعَقَبَةُ) طابقه (فَكُ رَقَبَةً وَاطْعَامٌ) دون قوله
(ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا) وما بعده ، وان كانت المطابقة حاصلة
معنى ، فخصولها لفظاً ومعنى أتم وأحسن

واختلف في هذه العقبة ، هل هي في الدنيا أو في الآخرة ؟
فقال طائفة : العقبة ههنا مثل ضربه الله تعالى لمجاهدة النفس والشیطان
في أعمال البر . وحكوا ذلك عن الحسن ومقاتل . قال الحسن : عقبة
والله شديدة : مجاهدة الانسان نفسه وهواه وعدوه والشیطان . وقال
مقاتل : هذا مثل ضربه الله ، يريد أن المعتق رقبة ، والمطعم الیتیم والمسکین ،
يقاحم نفسه وشیطانه ، مثل أن يتكلف صعود العقبة ، فشبه المعتق
رقبة في شدته عليه بالمكلف صعود العقبة ، وهذا قول أبي عبيدة .
وقالت طائفة : بل هي عقبة حقيقة ، يصعدها الناس . قال عطاء :
هي عقبة جهنم . وقال الكلبي : هي عقبة بين الجنة والنار . وهذا قول
مقاتل إنها عقبة جهنم . وقال مجاهد والضحاك : هي الصراط ،
يضر على جهنم . وهذا لعله قول الكلبي . وقول هؤلاء أصح
نظر أو أثر أو لغة . قال قتادة : فانها عقبة شديدة ، فاقحموها بطاعة الله
وفي أثر معروف « ان بين أيديكم عقبة كؤودا لا يقتحمها الا الخفون »
أو نحو هذا . وان الله سمى الايمان به ، وفعل ما أمر ، وترك ما نهى - عقبة .

فكثيرا ما يقع في كلام السلف الوصية بالتضمير لا قبحام العقبة . وقال بعض الصحابة : وقد حضره الموت ، فجعل يبكي ، ويقول : مالي لا أبكي وبين يدي عقبة كئود ، أهبط منها اما الى الجنة ، واما الى النار . فهذا القول أقرب الى الحقيقة ، والآثار السلفية ، والمألوف من عادة القرآن في استعماله (وَمَا أَدْرَاكَ) في الامور الغائبة العظيمة كما تقدم . والله أعلم

(٩) فصل

ومن ذلك اقسامه (١٠٥ : ١) بالتين والزيتون ٢ وطور سينين ٣ . وهذا البلد الامين) فأقسم سبحانه بهذه الامكنة الثلاثة العظيمة التي هي مظاهر انبيائه ورسله ، أصحاب الشرائع العظام ، والامم الكثيرة . فالتين والزيتون المراد به نفس الشجرتين المعروفتين ، ومنبتهما . وهو أرض بيته المقدس . فانها أكثر البقاع زيتونا وتينا . وقد قال جماعة من المفسرين : انه سبحانه أقسم بهذين النوعين من الثمار لمكان العزة فيهما . فان التين فاكهة مخرصة من شوائب التنغيص ، لا عجم له (١) وهو على مقدار اللقمة ، وهو فاكهة وقوت وغذاء . وأدم . ويدخل في الادوية . ومزاجه من أعدل الامزجة ، وطبعه طبع الحياة ، الحرارة ، والرطوبة . وشكله من أحسن الاشكال .

(١) العجم محركا ، وكغراب ، نوى كل شئ .

ويدخل أكله والنظر اليه في باب المفراحت . وله لذة يمتاز بها عن سائر الفواكه ، ويزيد في القوة ، ويوافق الباءة ، وينفع من البواسير والنقرس ، ويؤكل رطبا ويابساً . وأما الزيتون ففيه من الآيات ما هو ظاهر لمن اعتبر . فان عوده يخرج ثمراً ، يعصر منه هذا الدهن الذي هو مادة النور وصنع للآكلين ، وطيب ودواء ، وفيه من مصالح الخلق ما لا يخفى . وشجره باق على عمر السنين المتطاولة . وورقه لا يسقط . وهذا الذي قالوه حق ، ولا ينافي أن يكون منبته مراداً . فان منبت هاتين الشجرتين حقيق بأن يكون من جملة البقاع الفاضلة الشريفة . فيكون الاقسام قد تناول الشجرتين ومثبهما ، وهو مظهر عبد الله ورسوله وكلمته وروحه عيسى بن مريم ، كما أن طور سينين مظهر عبده ورسوله وكليمه موسى ، فانه الجبل الذي كلمه عليه وناجاه ، وأرسله الى فرعون وقومه

ثم أقسم بالبلد الأمين ، وهو مكة مظهر خاتم انبيائه ورسله ، سيد ولد آدم . وترقى في هذا القسم من الفاضل الى الافضل . فبدأ بموضع مظهر المسيح ، ثم ثنى بموضع مظهر الكليم . ثم ختمه بموضع مظهر عبده ورسوله ، واكرم الخلق عليه . ونظير هذا بعينه في التوراة التي أنزلها الله على كليمه موسى « جاء الله من طور سيناء ، وأشرق من ساعير ، واستعلن من فاران » فمجيئه من طور سيناء بعثته لموسى بن عمران ، وبدأ به على حكم الترتيب الواقع . ثم ثنى بنبوّة المسيح ، ثم ختمه بنبوّة محمد صلى الله عليه وسلم . وجعل نبوة موسى بمنزلة مجيء

الصبح ، ونبوة المسيح بعده بمنزلة طلوع الشمس واشراقها ، ونبوة محمد صلى الله عليه وسلم وعليهما بعدهما بمنزلة استعلانها وظهورها للعالم . ولما كان الغالب على بنى اسرائيل حكم الحس ذكر ذلك مطابقا للواقع . ولما كان الغالب على الامة السكاملة حكم العقل ذكرها على الترتيب العقلي ، وأقسم بها على بداية الانسان ونهايته . فقال (٤) لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ) أى فى أحسن صورة وشكل واعتدال ، معتدل القامة ، مستوى الحلقة ، كامل الصورة ، أحسن من كل حيوان سواه . والتقويم تصيير الشيء على ما ينبغي أن يكون فى التأليف والتعديل . وذلك صنعته تبارك وتعالى ، فى قبضة من تراب وخلقه بالمشاهدة من نقطة من ماء . وذلك من أعظم الآيات الدالة على وجوده ، وقدرته ، وحكمته ، وعلمه ، وصفات كماله . ولهذا يكررها كثيرا فى القرآن لمكان العبرة بها . والاستدلال بأقرب الطرق على وحدانيته ، وعلى المبدأ والمعاد

وتضمن إقسامه بتلك الأمكنة الثلاثة الدالة عليه وعلى علمه وحكمته - عنايته بخلقه بأن أرسل منها رسلا أنزل عليهم كتبه ، يعرفون العباد بربهم ، وحقوقه عليهم ، وينذرونهم بالله ونقمته ، ويدعونهم الى كرامته وثوابه

ثم لما كان الناس فى اجابة هذه الدعوة فريقين ، منهم من أجاب ومنهم من أبى ، ذكر حال الفريقين . فذكر حال الأكثرين ، وهم

المردودون الى أسفل سافلين . والصحيح أنه النار . قاله مجاهد ،
والحسن ، وأبو العالية . قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : هي
النار بعضها أسفل من بعض ، وقالت طائفة ، منهم قتادة ، وعكرمة ،
وعطاء ، والكلي ، وإبراهيم : انه أرذل العمر ، وهو مروي عن ابن
عباس . والصواب القول الأول ، لوجوه ﴿ أحدها ﴾ ان أرذل
العمر لا يسمى أسفل سافلين ، لافي لغة ، ولا عرف ، وإنما أسفل
سافلين هو سجين الذي هو مكان الفجار ، كما ان عليين مكان
الابرار ﴿ الثاني ﴾ أن المردودين الى أسفل العمر بالنسبة الى نوع
الانسان قليل جداً ، فأكثرهم يموت ولا يرد الى أرذل العمر ﴿ الثالث ﴾
ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات يستوونهم وغيرهم في رد من طال
عمره منهم الى أرذل العمر . فليس ذلك مختصاً بالكفار ، حتى
يستثنى منهم المؤمنين ﴿ الرابع ﴾ ان الله سبحانه لما أراد ذلك لم يخصه
بالكفار ، بل جعله لجنس بني آدم ، فقال (٥: ٢٢) وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ
مَنْ يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا) فجعلهم
قسمين ، قسماً متوفى قبل الكبر ، وقسماً مردوداً الى أرذل العمر ،
ولم يسمه أسفل سافلين ﴿ الخامس ﴾ انه لا تحسن المقابلة بين أرذل
العمر وبين جزاء المؤمنين ، وهو سبحانه قابل بين جزاء هؤلاء
وجزاء أهل الايمان . فيجعل جزاء الكفار أسفل سافلين . وجزاء
المؤمنين أجراً غير ممنون ﴿ السادس ﴾ * ان قول من فسره بأرذل العمر

يستلزم خلوا الآية عن جزاء الكفار وعاقبة أمرهم . ويستلزم تفسيرها
 بأمر محسوس . فيكون قد ترك الاخبار عن المقصود الأهم . وأخبر عن
 أمر يعرف بالحس والمشاهدة . وفي ذلك هضم لمعنى الآية . وتقصير بها
 عن المعنى اللائق بها * (السابع) * أنه سبحانه ذكر حال الانسان في مبدأه
 ومعاده . فبدؤه خلقه في أحسن تقويم ، ومعاده رده الى أسفل سافلين
 أو الى أجر غير ممنون . وهذا موافق لطريقة القرآن وعاداته في
 ذكر مبدأ العبد ومعاده . فما لأرذل العمر وهذا المعنى المطلوب
 المقصود اثباته والاستدلال عليه ؟ * (الثامن) * أن أرباب القول الأول
 مضطرون الى مخالفة الحس ، وإخراج الكلام عن ظاهره ، والتكلف
 البعيد له ، فانه ان قالوا : ان الذى يرد الى أرذل العمر هم الكفار
 دون المؤمنين كبروا الحس ، وان قالوا : ان من النوعين من يرد
 الى أرذل العمر احتاجوا الى التكلف لصحة الاستثناء . فمنهم من
 قدر ذلك بأن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لا تبطل أعمالهم ،
 اذ اردوا الى أرذل العمر ، بل تجرى عليهم أعمالهم التى كانوا يعملونها
 فى الصحة . فهذا - وان كان حقا - فان الاستثناء انما وقع من الرد لا من
 الأجر والعمل . ولما علم أرباب هذا القول ما فيه من التكلف خص
 بعضهم الذين آمنوا وعملوا الصالحات بقراء القرآن خاصة . فقالوا
 من قرأ القرآن لا يرد الى أرذل العمر . وهذا ضعيف من وجهين
 (أحدهما) ان الاستثناء عام فى المؤمنين ، قارئهم وأميينهم ، وانه لا دليل على

ما دعوه . وهذا لا يعلم بالحس ، ولا خبر يجب التسليم له يقتضيه والله أعلم
 * (التاسع) * أنه سبحانه ذكر نعمته على الانسان بخلقه في
 أحسن تقويم ، وهذه النعمة توجب عليه أن يشكرها بالايان
 وعبادته وحده لا شريك له ، فينقله حينئذ من هذه الدار الى أعلى
 عليين ، فاذالم يؤمن به ، وأشرك به ، وعصى رسله ، نقله منها الى أسفل
 سافلين ، وبذلك بعد هذه الصورة التي هي في أحسن تقويم صورة
 من أقيح الصور في أسفل سافلين . فتلك نعمته عليه ، وهذا عدله فيه
 وعقوبته على كفران نعمته * (العاشر) * أن نظير هذه الآية قوله تعالى
 (٨٤ : ٢٤) فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ٢٥ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
 فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (فالعذاب الاليم هو أسفل سافلين ، والمستنون
 هنا هم المستنون هناك ، والأجر غير الممنون هناك هو المذكور
 هنا والله أعلم

وقوله (غَيْرُ مَمْنُونٍ) أى غير مقطوع ولا منقوص ، ولا مكدر
 عليهم ، وهذا هو الصواب . وقالت طائفة : غير ممنون به عليهم ،
 بل هو جزاء أفعالهم . ويذكر هذا عن عكرمة ومقاتل ، وهو قول
 كثير من القدرية . قال هؤلاء : إن المنة تكدر النعمة . فتمام النعمة
 أن يكون غير ممنون بها على المنعم عليه . وهذا القول خطأ قطعاً ،
 أتى أربابه من تشبيه نعمة الله على عبده بانعام المخلوق على المخلوق .
 وهذا من أبطل الباطل . فان المنة التي تكدر النعمة هي منة

المخلوق على المخلوق . وأما منة الخالق على المخلوق فيها تمام النعمة ولذتها وطيبها . فانها منة حقيقة . قال تعالى (٤٩ : ١٧) يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قَلِيلًا لَتَمُنَّوْا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) وقال تعالى (٣٧ : ١١٤) وَلَقَدْ مَنَّا عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ ۖ وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ السَّكَرَةِ الْعَظِيمِ) فتكون منة عليهما بنعمة الدنيا دون نعمة الآخرة . وقال لموسى (٢٠ : ٣٧) وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى) وقال أهل الجنة (٥٢ : ٢٧) فَمَنْ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَّانَا عَذَابَ السُّمُومِ) وقال تعالى (٣ : ٦٤) لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ) الآية ، وقال (٢٨ : ٥) وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ) الآية . وفي الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم قال للانصار « ألم أجدكم ضالاً لا فهداكم الله بي ؟ ألم أجدكم عالة فأنقذناكم الله بي ؟ » فجعلوا يقولون له : الله ورسوله آمن . فهذا جواب العارفين بالله ورسوله . وهل المنة كل المنة الا الله المان بفضله الذى جميع الخلق فى منته ؟ وانما قبحت منة المخلوق لأنها منة بما ليس منه ، وهى منة يتأذى بها الممنون عليه . وأما منة المنان بفضله التى ما طاب العيش الا بمنته ، وكل نعمة منه فى الدنيا والآخرة فهى منة يمن بها على من أنعم عليه ، فتلك لا يجوز نفيا . وكيف يجوز أن يقال (م - ع التبيان)

انه لا منة لله على الذين آمنوا وعملوا الصالحات في دخول الجنة ؟ وهل هذا الا من أبطل الباطل ؟

فان قيل : هذا القدر لا يخفى على من قال هذا القول من العلماء ، وليس مرادهم ما ذكر ، وانما مرادهم أنه لا يمين عليهم به ، وان كانت لله فيه المنة عليهم ، فانه لا يمين عليهم به ، بل يقال : هذا جزاء أعمالكم التي عملتموها في الدنيا ، وهذا أجركم ، فأنتم تستوفون أجور أعمالكم لانمن عليكم بما أعطيناكم . قيل : وهذا أيضا هو الباطل بعينه ، فان ذلك الأجر ليست الأعمال ثمناله ، ولا معاوضة عنه . وقد قال أعلم الخلق بالله صلى الله عليه وسلم « لن يدخل أحد منكم الجنة بعمله » قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال « ولا أنا الا أن يتغمذني الله برحمته منه وفضل (١) » فاجبر أن دخول الجنة برحمته الله وفضله ، وذلك محض منته عليه وعلى سائر عباد ، وكما انه سبحانه المان بارسال رسله ، وبالتوفيق لطاعته وبالاعانة عليها ، فهو المان باعطاء الجزاء ، وذلك كله محض منته وفضله وجوده ، لاحق لأحد عليه ، بحيث اذا وفاه اياه لم يكن له عليه منة . فان كان في الدنيا باطل فهذا ليس منه في شيء .

فان قيل : كيف تقولون هذا وقد أخبر رسوله عنه بان حق العباد عليه اذا وحدوه أن لا يعذبهم (٢) وقد أخبر عن نفسه ان حقاعليه

(١) رواه البخارى ومسلم (٢) في حديث معاذ المتفق عليه « هل تدري يا معاذ ما حق الله على عباده وما حق العباد على الله ؟ » قلت : الله ورسوله أعلم . قال « حق الله على عباده أن يعيدوه ولا يشركوا به شيئا . وحق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به شيئا »

نصر المؤمنين ؟ قيل : لعمر الله هذان أعظم منته على عباده ، أن جعل على نفسه حقا بحكم وعده الصادق : أن يثيبهم ولا يعذبهم اذا عبدوه ووحده . فهذا من تمام منته ، فانه لو عذب أهل سمواته وأرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم ، ولكن منته اقتضت أن أحق على نفسه ثواب عابديه واجابة سائله

ما للعباد عليه حق واجب * كلا ، ولا سعى لديه ضائع ان عذبوا فبعده ، أو نُعموا * فبفضله ، فهو الكريم الواسع وقوله سبحانه (فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالذِّينِ) أصح القولين أن هذا خطاب للانسان ، أى فما يكذبك بالجزء والمعاد بعد هذا البيان ، وهذا البرهان ؟ فتقول انك لا تبعث ولا تحاسب ، ولو تفكرت فى مبدأ خلقك ، وصورتك ، لعلمت أن الذى خلقك أقدر على أن يعيدك بعد موتك ، وينشئك خلقا جديدا ، وان ذلك لو أعجزه لأعجزه وأعياء خلقك الأول . وأيضا فان الذى كمل خلقك فى أحسن تقويم بعد أن كنت نطفة من ماء مهين ، كيف يليق به أن يتركك سدّى ، لا يكمل ذلك بالأمر والنهى ، ويبان ما ينفعك ويضرك ، ولا تنقل لدار هى أكمل من هذه ، ويجعل هذه الدار طريقا لك إليها ، فحكمة أحكم الحاكمين تأبى ذلك وتقتضى خلافة ، قال منصور : قلت لمجاهد (فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالذِّينِ) عنى به محمد ؟ فقال : معاذ الله ، إنما عنى به الانسان . وقال قتادة : الضمير للنبي

صلى الله عليه وسلم ، واختاره الفراء . وهذا موضع يحتاج الى شرح وبيان

يقال : كذب الرجل ، اذا قال الكذب ، وكذبتة انا اذا نسبته الى الكذب ولو اعتقدت صدقته . وكذبتة اذا اعتقدت كذبه وان كان صادقا . قال تعالى (٣ : ١٨٤) فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلُ مَنْ قَبْلِكَ) وقال (٦ : ٣٣) فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ) فالاول بمعنى وان ينسبوك الى الكذب ، والثاني بمعنى لا يعتقدون انك كاذب ، ولكنهم يعاندون ويدفعون الحق بعد معرفته ، جحودا وعنادا ، هذا أصل هذه اللفظة ، ويتعدى الفعل الى الخبر بنفسه ، والى خبره بالباء ، وبني . فيقال : كذبتة بكذا ، وكذبتة فيه ، والاول أكثر استعمالا ومنه قوله (٥٠ : ٥٠) بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ) وقوله (وكذبوا بآياتنا)

اذا عرف هذا ، فقوله (فَمَا يُكَذِّبُكَ) يختلف في « ما » هل هي بمعنى أى شيء يكذبك ، أو بمعنى من الذى يكذبك ؟ فمن جعلها بمعنى أى شيء ، تعين على قوله أن يكون الخطاب للانسان . أى فأى شيء يجعلك بعد هذا البيان مكذبا بالدين ، وقد وضحت لك دلائل الصدق والتصديق ؟ ومن جعلها بمعنى فمن الذى يكذبك ، جعل الخطاب للنبي ﷺ . قال الفراء : كأنه يقول ، من يقدر على تكذيبك بالثواب

والعقاب ، بعدما تبين له من خلق الانسان ما وصفناه ؟ وقال قتاد :
فمن يكذبك أيها الرسول بعد هذا بالدين ؟

وعلى قول قتادة والفراء اشكال من وجهين * (احدهما) * اقامة ما
مقام من وأمره سهل * (والثاني) * ان الجار والمجرور يستدعى
متعلقا ، وهو يكذبك . أى فمن يكذبك بالدين ؟ فلا يخلو إما أن
يكون المعنى فمن يجعلك كاذبا بالدين ، أو مكذبا به ، ولا يصح
واحد منهما . أما الثانى والثالث فظاهر . فان كذّبه ليس معناه
جعلته مكذبا أو مكذبا . وانما معناه نسبته الى الكذب . فالمعنى على
هذا فمن يجعلك بعد كاذبا بالدين ، وهذا انما يتعدى اليه بالياء الفعل
المضاعف لا الثلاثى ، فلا يقال : كذب كذا ، وانما يقال كذب به .
وجواب هذا الاشكال ان قوله : كذب بكذا معناه كذب
المخبر به ثم حذف المفعول به لظهور العلم به ، حتى كأنه نسي
وعدوا الفعل الى المخبر به ، فاذا قيل من يكذبك بكذا ؟ فهو بمعنى
كذبوك بكذا سواء ، أى نسبوك الى الكذب فى الاخبار به ،
بل الاشكال فى قول مجاهد والجمهور ، فان الخطاب اذا كان
للانسان ، وهو المكذب . أى فاعل التكذيب ، فكيف يقال له :
مايكذبك ؟ أى يجعلك مكذبا . والمعروف كذّبه اذا جعله كاذبا
لا مكذبا . ومثل فسقه اذا جعله فاسقا ، لامفسقا لغيره

وجواب هذا الاشكال : ان صدّق وكذّب - بالتشديد -

يراد به معنيان * (أحدهما) * النسبة . وهي انما تكون للفعول كاذ كرتم
* (والثاني) * الداعي والحامل على ذلك ، وهو يكون للفاعل .
قال الكسائي : يقال ، ما صدق بكذا ، أو ما كذبك بكذا ، أى
ما حملك على التصديق والتكذيب

قلت وهو نظير ما أجرك على هذا ، أى ما حملك على الاجترأ عليه :
وما قدمك وما أخرك ، أى ما دعاك وحملك على التقديم والتأخير .
وهذا استعمال سائغ موافق للعربية وبالله التوفيق

ثم ختم السورة بقوله (أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ) وهذا
تقرير لمضمون السورة ، من إثبات النبوة ، والتوحيد ، والمعاد ، وحكمه
بتضمن نصره لرسوله على من كذبه ، وجحد ما جاء به ، بالحجة
والقدرة والظهور عليه ، وحكمه بين عباده في الدنيا بشرعه وأمره ،
وحكمه بينهم في الآخرة بشوابه وعقابه ، وان أحكم الحاكمين لا يليق
به تعطيل هذه الأحكام بعد ما ظهرت حكمته في خلق الانسان في
أحسن تقويم ، ونقله في أطوار التخليق ، حالا بعد حال ، الى أكمل
الأحوال . فكيف يليق بأحكم الحاكمين أن لا يجازى المحسن
باحسانه ، والمسيء بإساءته ؟ وهل ذلك إلا قدح في حكمه وحكمته ؟
فله ما أخصر لفظ هذه السورة ، وأعظم شأنها ، وأتم معناها .
والله أعلم .

(١٠) فصل

ومن ذلك قسمه سبحانه وتعالى : (٩٢ : ١) اللَّيْلُ إِذَا يَغْشَى ٢ وَالنَّهَارُ إِذَا تَجَلَّى ٣ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى) وقد تقدم ذكر القسم عليه وأنه سعى الإنسان في الدنيا ، وجزاؤه في العقبى . فهو سبحانه يقسم بالليل في جميع أحواله ، اذ هو من آياته الدالة عليه . فأقسم به وقت غشيانته ، وأتى بصيغة المضارع لانه يغشى شيئاً بعد شيء . وأما النهار فانه إذا طلعت الشمس ظهر وتجلّى وهلة واحدة . ولهذا قال في سورة الشمس وضحاها) وَالنَّهَارُ إِذَا جَلَّاهَا . وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَاهَا) وأقسم به وقت سريانه كما تقدم . وأقسم به وقت إداره . وأقسم به اذا عَسَعَسَ . ف قيل معناه أدبر ، فيكون مطابقاً لقوله (٣٣ : ٧٤) وَاللَّيْلُ إِذَا أَدْبَرَ ٣٤ وَالصُّبْحُ إِذَا أَسْفَرَ) وقيل : معناه أقبل ، فيكون كقوله (وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَى وَالنَّهَارُ إِذَا تَجَلَّى) فيكون قد أقسم باقبال الليل والنهار . وعلى الاول يكون القسم واقعا على انصرام الليل ومجيء النهار عقيبهما ، وكلاهما من آيات ربوبيته

ثم أقسم بخلق الذكر والأنثى ، وذلك يتضمن الاقسام بالحيوان كله على اختلاف أصنافه ، ذكره وأنثاه ، وقابل بين الذكر والأنثى ، كما قابل بين الليل والنهار . وكل ذلك من آيات ربوبيته . فان اخرج

الليل والنهار بواسطة الأجرام العلوية ، كإخراج الذكور والانثى بواسطة الأجرام السفلية . فأخرج من الأرض ذكور الحيوان وإناثه على اختلاف أنواعها ، كما أخرج من السماء الليل والنهار ، بواسطة الشمس فيها . واقسم سبحانه بزمان السعي وهو الليل والنهار وبالساعي ، وهو الذكور والانثى ، على اختلاف السعي ، كما يختلف الليل والنهار ، والذكور والانثى ، وسعيه وزمانه مختلف ، وذلك دليل على اختلاف جزائه وثوابه ، وأنه سبحانه لا يسوى بين من اختلف سعيه في الجزاء ، كما لم يسو بين الليل والنهار والذكور والانثى

ثم أخبر عن تفريقه بين عاقبة سعي المحسن وعاقبة سعي المسيء فقال (٥) فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ٦ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ٧ فَسَنِيْسِرُهُ لِلْيُسْرَى ٨ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى ٩ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ١٠ فَسَنِيْسِرُهُ لِلْعُسْرَى (فتضمنت الآيتان ذكر شرعه ، وذكر الأعمال وجزائها ، وحكمة القدر في تيسير هذا اليسرى ، وهذا اليسرى ، وأن العبد ميسر بأعماله لغاياتها ، ولا يظلم ربك أحداً . وذكر للتيسير اليسرى ثلاثة أسباب (أحدها) إعطاء العبد ، وحذف مفعول الفعل إرادة للإطلاق والتعميم ، أي أعطى ما أمر به وسمحت به طبيعته ، وطوعته نفسه ، وذلك يتناول إعطاءه من نفسه الإيمان والطاعة ، والاحلاص ، والتوبة والشكر وإعطاءه الاحسان ، والنفع بماله ، ولسانه ، وبدنه ، ونيته ، وقصده ، فتكون نفسه نفساً مطيعة باذلة ، لا لئيمة مانعة ، فالنفس المطيعة هي النافعة

الحسنة ، التي طبعها الاحسان واعطاء الخير اللازم والمتعدى ، فتعطى
خيرها لنفسها ولغيرها ، فهي بمنزلة العين التي ينتفع الناس بشرهم
منها ، وسقى دوابهم وأنعامهم وزرعهم ، فهم ينتفعون بها كيف شاءوا
فهي ميسرة لذلك ، وهكذا الرجل المبارك ميسر للنفع حيث حل .
فجزاء هذا أن ييسره الله لليسر كما كانت نفسه ميسرة للعطاء

(السبب الثاني) التقوى ، وهي اجتناب ما نهى الله عنه ، وهذا من
أعظم أسباب التيسير ، وضده من أسباب التعسير ، فالمتقى ميسرة عليه
أمر ديناه وآخرته ، وتارك التقوى وان يسرت عليه بعض أمور
ديناه تعسر عليه من أمور آخرته بحسب ما تركه من التقوى . وأما
تيسير ما تيسر عليه من أمور الدنيا ، فلو اتقى الله لكان تيسيرها عليه
أتم ، ولو قدر أنها لم تيسر له فقد يسر الله له من الدنيا ما هو انفع
له مما ناله بغير التقى ، فان طيب العيش ، ونعيم القلب ، ولذة الروح ،
وفرحها وابتهاجها من أعظم نعيم الدنيا ، وهو أجل من نعيم أرباب
الدنيا بالشهوات واللذات . وقال تعالى (٦٥: ٤) وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ
مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا) فأخبر أنه يُيسر على المتقى ما لا يسر على غيره . وقال تعالى
(٦٥: ٢) وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ)
وهذا أيضاً يسر عليه بتقواه . وقال تعالى (٦٥: ٥) وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ
يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا) وهذا ييسر عليه بازالة
ما يخشاه ، واعطائه ما يحبه ويرضاه . وقال (٢٩: ٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا

إِنَّ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ)
 وهذا يتيسر بالفرقان المتضمن النجاة ، والنصر ، والعلم ، والنور ،
 الفارق بين الحق والباطل ، وتكفير السيئات ، ومغفرة الذنوب
 وذلك غاية التيسير . وقال تعالى (٣ : ١٣٠) وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)
 والفلاح غاية اليسر ، كما أن الشقاء غاية العسر . وقال تعالى (٥٧ : ٢٨)
 يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ
 وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ) فضمن لهم سبحانه بالتقوى
 ثلاثة أمور : أعطاهم نصيبين من رحمته نصيبا في الدنيا ، ونصيبا في الآخرة
 وقد يضاعف لهم نصيب الآخرة فيصير نصيبين * (الثاني) * أعطاهم
 نوراً يمشون به في الظلمات * (الثالث) * مغفرة ذنوبهم وهذا غاية التيسير
 فقد جعل سبحانه التقوى سبب لكل يسر ، وترك التقوى سبباً لكل عسر
 * (السبب الثالث) * التصديق بالحسن ، وفسرت بلا إله إلا الله ،
 وفسرت بالجنة ، وفسرت بالخلف ، وهى أقوال السلف ، واليسرى
 صفة لموصوف محذوف ، أى الحالة والخسلة اليسرى ، وهى فعل
 من اليسرى . والأقوال الثلاثة ترجع الى أفضل الأعمال ، وأفضل
 الجزاء . فمن فسر بلا إله إلا الله فقد فسر لها بمفرد يأتى بكل جمع ،
 فان التصديق الحقيقى بلا إله إلا الله يستلزم التصديق بشعبها وفروعها
 كلها ، وجميع أصول الدين وفروعه من شعب هذه الكلمة . فلا
 يكون العبد مصدقاً بها حقيقة التصديق حتى يؤمن بالله وملائكته
 وكتبه ورسله ولقائه ، ولا يكون مؤمناً بالله إله العالمين حتى يؤمن

بصفات جلاله ونعوت كماله ، ولا يكون مؤمنا بأن الله لا إله إلا هو حتى يسلب خصائص الألَهية عن كل موجود سواه ، ويسلبها عن اعتقاده وإرادته ، كما هي منفية في الحقيقة والخارج ، ولا يكون مصدقا بها من نفي الصفات العليا ، ولا من نفي كلامه وتكليمه ، ولا من نفي استوائه على عرشه ، وأنه يرفع إليه الكلم الطيب والعمل الصالح ، وأنه رفع المسيح إليه ، وأُسرى برسوله صلى الله عليه وسلم إليه ، وأنه يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه ، إلى سائر ما وُصف به نفسه ووصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم ، ولا يكون مؤمنا بهذه الكلمة مصدقا بها على الحقيقة من نفي عموم خلقه لكل شيء ، وقدرته على كل شيء ، وعلمه بكل شيء ، وبعثه الأجساد من القبور ليوم النشور ، ولا يكون مصدقا بها من زعم أنه يترك خلقه سُدًى ، لم يأمرهم ولم ينههم على السنة رسله ، وكذلك التصديق بها يقتضى الإذعان والاقرار بحقوقها ، وهى شرائع الاسلام التى هى تفصيل هذه الكلمة بالتصديق بجميع أخباره ، وأمثاله أوامره ، واجتناب نواهيه ، هو تفصيل لا إله إلا الله . فالمصدق بها على الحقيقة الذى يأتى بذلك كله ، وكذلك لم تحصل عصمة المال والدم على الإطلاق إلا بها وبالقيام بحقها ، وكذلك لا تحصل النجاة من العذاب على الإطلاق إلا بها وبحقها . فالعقوبة فى الدنيا والآخرة على تركها ، أو ترك حقها

ومن فسر الحسنى بالجنة فسرهما بأعلى أنواع الجزاء وكأله . ومن فسرهما بالخلف ذكر نوعا من الجزاء . فهذا جزاء دنيوى ، والجنة الجزاء فى الآخرة فرجع التصديق بالحسنى الى التصديق بالايمان وجزائه . والتحقيق أنها تتناول الأمرين

وتأمل ما اشتملت عليه هذه الكلمات الثلاث - وهى الاعطاء ، والتقوى ، والتصديق بالحسنى - من العلم والعمل ، وتضمنته من الهدى ودين الحق . فان النفس لها ثلاث قوى : قوة البذل والاعطاء ، وقوة الكف والامتناع ، وقوة الادراك والفهم . ففيها قوة العلم والشعور ويتبعها قوة الحب والارادة ، وقوة البغض والنفرة . فهذه القوى الثلاثة عليها مدار صلاحها وسعادتها ، وبفسادها يكون فسادها وشقاوتها . ففساد قوة العلم والشعور يوجب له التكذيب بالحسنى ، وفساد قوة الحب والارادة يوجب له ترك الاعطاء . وفساد قوة البغض والنفرة يوجب له ترك الاتقاء ، فاذا كملت قوة حبه و ارادته باعطائه ما أمر به . وقوة بغضه ونفرته باتقائه ما نهى عنه . وقوة علمه وشعوره بتصديقه بكلمة الاسلام وحقوقها وجزائها . فقد زكى نفسه ، وأعدّها لكل حالة يسرى ، فصارت النفس بذلك ميسرة لليسرى .

ولما كان الدين يدور على ثلاث قواعد : فعل المأمور ، وترك

المحذور ، وتصديق الخبر . وان شئت قلت : الدين طلب ، وخبر
والطلب نوعان : طلب فعل ، وطلب ترك . فقد تضمنت هذه
الكلمات الثلاث مراتب الدين أجمعها . فالاعطاء فعل المأمور ،
والتقوى ترك المحذور . والتصديق بالحسن تصديق الخبر . فانتظم
ذلك الدين كله . وأكمل الناس من كملت له هذه القوى الثلاث ،
ودخول النقص بحسب نقصانها أو بعضها ، فمن الناس من يكون
قوة إعطائه وبذله أتم من قوة انكفائه وتركه ، فقوة الترك فيه أضعف
من قوة الاعطاء ، ومن الناس من يكون قوة الترك والانكفاف
فيه أتم من قوة الاعطاء والمنع ، ومن الناس من يكون فيه قوة
التصديق أتم من قوة الاعطاء والمنع ، فقوته العلمية والشعورية أتم
من قوته الارادية وبالعكس ، فيدخل النقص بحسب ما نقص من
قوة هذه القوى الثلاث ، ويفوته من التيسير اليسرى بحسب
ما فاتته منها ، ومن كملت له هذه القوى يسر لكل يسرى . قال ابن
عباس (فَسَيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى) أى نهيته لعمل الخير ، تيسر عليه أعمال
الخير . وقال مقاتل ، والكلبي ، والفراء : يسره للعود الى العمل الصالح
وحقيقة اليسرى أنها الخلة والحالة السهلة النافعة الواقعة له ،
وهى ضد العسرى . وذلك يتضمن تيسيره للخير وأسبابه ، فيجرى
الخير ، ويسر على قلبه ، ويديه ولسانه ، وجوارحه . فتصير خصال
الخير ميسرة عليه ، مذلة له منقادة ، لا تستعصى عليه ، ولا

تستصعب، لانه ميأ لها، ميسر لفعالها. يسلك سبلهاذ للا، وتقاد له
علماً وعملاً. فاذا خالته قالت هو الذى قيل فيه :

مبارك الطلعة ميمونها * يصلح للدنيا وللدن
(وأمان بخل) فعطل قوة الارادة والاعطاء عن فعل ما أمر
به (واستغنى) بترك التقوى عن ربه، فعطل قوة الانكفاف
والترك عن فعل ما نهى عنه (وكذب بالحسنى) فعطل قوة العلم
والشعور عن التصديق بالايمان وجزائه (فَسَنِّيْسِرُهُ الْعُسْرَى) قال
عطاء: سوف أحول بين قلبه وبين الايمان بى وبرسولى. وقال
مقاتل: يعسر عليه أن يعطى خيراً. وقال عكرمة، عن ابن عباس:
نيسره للشر. قال الواحدى: وهذا هو القول. لأن الشر يؤدى
إلى العذاب، فهو الخلة العسرى. والخير يؤدى الى اليسر، والراحة
فى الجنة، فهو الخلة اليسرى: يقول سنهيؤه للشر، بأن يجريه على
يديه. قال الفراء: العرب تقول قد يَسَرَّتْ غم فلان اذا تهيأت
للولادة، وكذلك اذا ولدت وغزرت ألبانها، أى يَسَرَّتْ ذلك
على أصحابها. انتهى

والتيسير للعسرى يكون بأمرين * (أحدهما) * أن يحول بينه
وبين أسباب الخير، فيجرى الشر على قلبه ونيته ولسانه وجوارحه
* (والثانى) * أن يحول بينه وبين الجزاء الأيسر، كما حال بينه وبين أسبابه

فان قيل : كيف قابل اتقى باستغنى ؟ وهل يمكن العبد أن يستغنى
عن ربه طرفة عين ؟

قيل : هذا من أحسن المقابلة ، فان المتقى لما استشعر فقره وفاقته
وشدة حاجته الى ربه اتقاه ، ولم يتعرض لسخطه وغضبه ومقتسه
بارتكاب ما نهاه عنه . فان من كان شديد الحاجة والضرورة الى
شخص ، فانه يتقى غضبه وسخطه عليه غاية الاتقاء ، ويجانب ما يكرهه
غاية المجانبة ، ويعتمد فعل ما يحبه ويؤثره . فقابل التقوى بالاستغناء
تبشيعا لحال تارك التقوى ، ومبالغة في ذمه ، بأن فعل فعل المستغنى عن
ربه ، لا فعل الفقير المضطر اليه الذي لا ملجأ له الا اليه ، ولا غنى له
عن فضله وجوده وبره طرفة عين . فله ما أحلى هذه المقابلة وما أجمع
هاتين الآيتين للخيرات كلها وأسبابها ، والشروع كلها وأسبابها .
فسبحان من تعرف الى خصائص عبادته بكلامه ، وتجلي لهم فيه ، فهم
لا يطلبون أثرا بعد عين ، ولا يستبدلون الحق بالباطل ، والصدق بالمين
وقد تضمنت هاتان الآيتان فصل الخطاب في مسألة القدر ،
وإزالة كل لبس واشكال فيها . وذلك بين بحمد الله لمن وفق لفهمه .
ولهذا أجاب بها النبي صلى الله عليه وسلم من أورد عليه السؤال الذي
لا يزال الناس يلهجون به في القدر . فأجاب بفصل الخطاب وأزال
الاشكال . ففي الصحيحين من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه
عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « ما منكم من أحد إلا وقد علم

مقعدُهُ من الجنة والنار» قيل : يا رسول الله ، أفلا ندع العمل ،
ونتكل على الكتاب ؟ قال «اعملوا ، فكل مُيسِّرٌ لما خلق له» ثم قرأ
(فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى) فقد
تضمن هذا الحديث الرد على القدرية والجبرية ، وإثبات القدر
والشرع ، وإثبات الكتاب الأول المتضمن لعلم الله سبحانه الأشياء قبل
كونها ، وإثبات خلق الفعل الجزائي . وهو يبطل أصول القدرية
الذين يمنعون خلق الفعل مطلقا ، ومن أقر منهم بخلق فعل الجزاء
دون الابتداء هدم أصله ، ونقض قاعدته . والنبي صلى الله عليه
وسلم أخبر بمثل ما أخبر به الرب تعالى « ان العبد ميسر لما خلق له »
لا مجبور . فالجبر لفظ بدعي . والتيسير لفظ القرآن والسنة . وفي
الحديث دلالة على أن الصحابة كانوا أعلم الناس بأصول الدين .
فانهم تلقوها عن أعلم الخلق بالله على الاطلاق . وكانوا اذا استشكلوا
شيئا سألوه عنه . وكان يجيبهم بما يزيل الاشكال ، ويبين الصواب .
فهم العارفون بأصول الدين حقا ، لا أهل البدع والاهواء من
المتكلمين ومن سلك سبيلهم

وفي الحديث استدلال النبي صلى الله عليه وسلم على مسائل أصول
الدين بالقرآن ، وارشاده الصحابة لاستنباطها منه ، خلافا لمن زعم
أن كلام الله ورسوله لا يفيد العلم بشيء من أصول الدين ، ولا يجوز
أن تستفاد معرفة الله وأسمائه وصفاته وأفعاله منه . وعبر عن ذلك
بقوله : الادلة اللفظية لا تفيد اليقين

وفي الحديث بيان أن من الناس من خلق للسعادة ، ومنهم من خلق للشقاوة ، خلافا لمن زعم أنهم كلهم خلقوا للسعادة ، ولكن اختاروا الشقاوة ، ولم يخلقوا لها . وفيه اثبات الاسباب ، وأن العبد ميسر للأسباب الموصلة له الى ما خلق له . وفيه دليل على اشتقاق السنة من الكتاب ، ومطابقتها له . فتأمل قوله ﷺ « اعملوا فكل ميسر لما خُلق له » ومطابقته لقوله تعالى (فَأَمَّا مَنْ أُعْطِيَ وَاتَّقَى - الى آخر

الآيتين) كيف انتظم الشرع والقدر ، والسبب والمسبب ؟

وهذا الذي أرشد اليه النبي صلى الله عليه وسلم هو الذي فطر الله عليه عباده ، بل الحيوان البهيم ، بل مصالح الدنيا وعمارتهان ذلك ، فلو قال كل أحد : إن قدر لي كذا وكذا فلا بد أن أناله . وإن لم يقدر فلا سبيل إلى نيله ، فلا أسعى ولا أتحرك ، لعُدّ من السفهاء الجاهل ، ولم يمكنه طرد ذلك أبدا ، وإن أتى به في أمر معين . فهل يمكنه أن يطرد ذلك في مصالحه جميعها ، من طعامه وشرابه ولباسه ومسكنه ، وهروبه مما يضاد بقاءه وينافي مصالحه ، أم يجد نفسه غير منفكة ألبته عن قول النبي صلى الله عليه وسلم « اعملوا فكل ميسر لما خلق له » ؟ فإذا كان هذا في مصالح الدنيا ، وأسباب منافعها ، فما الموجب لتعطيله في مصالح الآخرة ، وأسباب السعادة والفلاح فيها ، ورب الدنيا والآخرة واحد ؟ فكيف يُعطل ذلك في شرع الرب وأمره ونهيه ، ويُستعمل في إرادة العبد واعراضه (م ٥ - التبيان)

وشهواته ؟ وهل هذا الا محض الظلم والجمل ، والانسان ظلوم
جهول ، ظلوم لنفسه ، جهول بربه . فهذا الذي أرشد اليه النبي صلى
الله عليه وسلم ، وتلا عنده هاتين الآيتين ، موافقا لما جعله الله في عقول
العقلاء ، وركب عليه فطر الخلائق ، حتى الحيوان البهيم ، وأرسل به
جميع رسله ، وأنزل به جميع كتبه

ولواتكل العبد على القدر ولم يعمل لتعطلت الشرائع ، وتعطلت
مصالح العالم ، وفسد أمر الدنيا والدين ، وانما يستروح الى ذلك
معطلوا الشرائع ، ومن خلع ربة الاوامر والنواهي من عنقه ،
وذلك ميراث من اخوانهم المشركين الذين دفعوا أمر الله ونهيه ،
وعارضوا شرعه بقضائه وقدره ، كما حكى الله سبحانه ذلك عنهم في
غير موضع من كتابه كقوله تعالى (٦ : ١٤٨) سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا
لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا ، وَلَا آبَاؤُنَا ، وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ ، كَذَلِكَ كَذَّبَ
الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا ، قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ
فَتُخْرِجُوهُ لَنَا ؟ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ ، وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ١٤٩ قُلْ
فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ ، فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ) وقال تعالى (١٦ : ٣٥) وقال
الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا
آبَاؤُنَا وَلَا ، حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ ، كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ،
فَهَلْ عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ؟) وقال تعالى (٤٣ : ٢٠) وَقَالُوا لَوْ شَاءَ

الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ، مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ، إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ) وقال تعالى (٣٦ : ٤٧) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ . قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْطَعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ ؟ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)

فان قيل : فالاعطاء والتقوى ، والتصديق بالحسنى ، هي من اليسرى ، بل هي أصل اليسرى ، من يسرها للعبد أولاً ؟ وكذلك أضدادها ؟ قيل : الله سبحانه هو الذي يسر للعبد أسباب الخير والشر ، وخلق خلقه قسمين : أهل سعادة ، فيسرهم لليسرى ، وأهل شقاوة ، فيسرهم للعسرى . واستعمل هؤلاء في الأسباب التي خلقوا لغاياتها ، لا يصلحون لسواها ، وهؤلاء في الأسباب التي خلقوا لغاياتها لا يصلحون لسواها ، وحكمته الباهرة تأتي أن يضع عقوبته في موضع لا تصلح له ، كما يأتي أن يضع كرامته وثوابه في محل لا يصلح لهما ، ولا يليق بهما . بل حكمة آحاد خلقه تأتي ذلك . ومن جعل محل المسك والرجيع واحداً فهو من أسفه السفهاء

فان قيل : فلم جعل هذا لا يليق به الا الكرامة ، وهذا لا يليق به الا الالهانة ؟ قيل : هذا سؤال جاهل ، لا يستحق الجواب ، كأنه يقول : لم خلق الله كذا وكذا ؟

فان قيل : وعلى هذا ، فهل لهذا الجاهل من جواب ، لعله يشفي من جهله ؟ قيل : نعم ، شأن الربوبية خلق الاشياء وأضدادها ،

وخلق الملزومات ولوازمها ، وذلك هو محض الكمال . فالعلو لازم
وملزوم للسفل ، والليل لازم وملزوم للنهار ، وكمال هذا الوجود
بالحر والبرد ، والصحو والغيم . ومن لوازم الطبيعة الحيوانية الصحة
والمرض ، واختلاف الارادات والمرادات ، ووجود اللازم بدون
ملزومه ممتنع ، ولولا خلق المتضادات لما عرف كمال القدرة والمشية
والحكمة ، ولما ظهرت أحكام الاسماء والصفات . وظهور أحكامها
وآثارها لا بد منه ، إذ هو مقتضى الكمال المقدس ، والمملك التام .
وإذا أعطيت اسم المملك حقه - ولن تستطيع - علمت أن الخلق
والامر ، والثواب والعقاب ، والعطاء والحرمان ، أمر لازم لصفة المملك ،
وان صفة المملك تقتضى ذلك ولا بد ، وان تعطيل هذه الصفة أمر
ممتنع . فالمملك الحق يقتضى ارسال الرسل ، وانزال الكتب ، وأمر العباد ،
ونهيهم ، وثوابهم ، وعقابهم ، وإكرام من يستحق الاكرام ، واهانة
من يستحق الاهانة ، كما تستلزم حياة المملك ، وعلمه ، وإرادته ،
وقدرته ، وسمعه ، وبصره ، وكلامه ، ورحمته ، ورضاه ، وغضبه ،
واستواءه على سرير ملكه ، يدبر أمر عباده . وهذه الاشارة تكفي
اللييب في مثل هذا الموضع ، ويطلع منها على أرض موقفة ، وكنوز
من المعرفة . وبالله التوفيق

(١١) فصل

ثم قال تعالى (١٢) إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ١٣ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ) قيل : معناه ، ان علينا أن نبين طريق الهدى من طريق الضلال . قال قتادة : على الله البيان ، بيان حلاله وحرامه ، وطاعته ومعصيته . اختاره أبو اسحاق ، وهو قول مقاتل ، وجماعة ، وهذا المعنى حق . ولكن مراد الآية شيء آخر . وقيل : المعنى إن علينا الهدى والاضلال قال ابن عباس رضى الله عنهما ، فى رواية عطاء : يريد ، أرشد أوليائى الى العمل بطاعتي ، وأحول بين أعدائى وبين أن يعملوا بطاعتي . قال الفراء : فترك ذكر الاضلال ، كما قال (١٦ : ٨١ سَرَّائِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ) أى والبرد . وهذا أضعف من القول الاول ، وان كان معناه صحيحا . فليس هو معنى الآية . وقيل ، المعنى : من سلك الهدى فعلى الله سبيله ، كقوله (١٦ : ٩) وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ) وهذا قول مجاهد . وهو أصح الاقوال فى الآية . قال الواحدى : علينا للهدى ، أى إن الهدى يوصل صاحبه الى الله ، والى ثوابه وجنته . وهذا المعنى فى القرآن فى ثلاث مواضع : ههنا ، وفى النحل فى قوله (وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ) وفى الحجر فى قوله (١٥ : ٤١) هَذَا صِرَاطٌ عَلَىٰ مُسْتَقِيمٍ) وهو معنى شريف جليل ، يدل على أن سالك طريق

الهدى يوصله طريقه الى الله ولا بد ، والهدى هو الصراط المستقيم
فمن سنكبه أو صله الى الله ، فذكر الطريق والغاية ، فالطريق الهدى ،
والغاية الوصول الى الله . فهذه أشرف الوسائل ، وغايتها أعلى الغايات .
ولما كان المطلوب السالك الى الله تحصيل مصالح دنياه وآخرته لم يتم
له هذا المطلوب الا بتوحيد طلبه والمطلوب منه . فأعلمه سبحانه
أن سواه لا يملك من الدنيا والآخرة شيئاً ، وأن الدنيا والآخرة
جميعاً له وحده ، فاذا تيقن العبد ذلك اجتمع طلبه ومطلوبه على من
يملك الدنيا والآخرة وحده ، فتضمنت الآيتان أربعة أمور ، هي
المطالب العالية : ذكر أعلى الغايات ، وهو الوصول الى الله سبحانه ،
وأقرب الطرق والوسائل اليه ، وهي طريقة الهدى . وتوحيد
الطريق فلا يعدل عنها الى غيرها . وتوحيد المطلوب ، وهو الحق .
فلا يعدل عنه الى غيره . فاقبض هذه الامور من مشكاة هذه
الكلمات ، فان هذه غاية العلم والفهم . وبالله التوفيق

والهدى التام يتضمن توحيد المطلوب ، وتوحيد الطلب ، وتوحيد
الطريق الموصلة ، والانقطاع . وتختلف الوصول يقع من الشركة في
هذه الامور ، أو في بعضها ، فالشركة في المطلوب تنافي التوحيد
والاخلاص ، والشركة في الطلب تنافي الصدق والعزيمة ، والشركة
في الطريق تنافي اتباع الامر . فالاول يوقع في الشرك والرياء .
والثاني يوقع في المعصية والبطالة . والثالث يوقع في البدعة ومفارقة
السنة . فتأمل

فتوحيد المطلوب يعصم من الشرئ ، وتوحيد الطلب يعصم من المعصية ، وتوحيد الطريق يعصم من البدعة . والشيطان إنما ينصب فخه بهذه الطرق الثلاثة

ولما أقام سبحانه الدليل ، وأثار السبيل ، وأوضح الحجة ، وبين المحجة ، أئذ عباده عذابه الذى أعده لمن كذب خبره ، وتولى عن طاعته . وجعل هذا الصنف من الناس هم أشقا هم ، كما جعل أسعدهم أهل التقوى والاحسان والاخلاص . فهذا الصنف هو الذى يُحْتَب عذابه ، كما قال (١٧: ٩٢) وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ١٨ الذى يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى (فهذا المتقى المحسن لا يفعل ذلك الا ابتغاء وجه ربه ، فهو مخلص فى تقواه واحسانه

وفى الآية الارشاد الى أن صاحب التقوى لا ينبغي له أن يتحمل من الخلق ونعمهم ، وان حمل منهم شيئاً بادر الى جزائهم عليه ، لئلا يتبقى لاحد من الخلق عليه نعمة تجزى ، فيكون بعد ذلك عمله كله لله وحده ، ليس للمخلوق جزاء على نعمته

ونبه بقوله (تُجْزَى) على أن نعمة الاسلام التى لرسول الله صلى الله عليه وسلم على هذا الاتقى لا تجزى ، فان كل ذى نعمة يمكن جزاء نعمته بالانعمة الاسلام ، فانها لا يمكن المنعم بها عليه أن يجزى بها ، وهذا يدل على أن الصديق رضى الله عنه أول وأولى من ذكر فى هذه الآية ، وأنه أحق الامة بها . فان علياً رضى الله عنه تربى فى بيت

النبي صلى الله عليه وسلم ، فمرسول الله صلى الله عليه وسلم عنده نعمة غير نعمة الاسلام ، يمكن أن تجزى

ونبه سبحانه بقوله (إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى) على أن من ليس لمخلوق عليه نعمة تجزى لا يفعل ما يفعله إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى ، بخلاف من تطوَّق نعم المخلوقين ومنهم ، فانه مضطر الى أن يفعل لأجلهم ، ويترك لأجلهم ، ولهذا كان من كمال الاخلاص أن لا يجعل العبد عليه منة لأحد من الناس ، لتكون معاملته كلها لله ابتغاء وجهه ؛ وطلب مرضاته. فكذا أن هذه الغاية أعلى الغايات وهذا المطلوب أشرف المطالب فهذه الطريق أقصد الطرق اليه ، وأقربها وأقومها . وبالله التوفيق

(١٢) فصل

ومن ذلك اقسامه سبحانه: (١: ٩٣ الضحى والليل إذ أسجى) على إنعامه على رسوله صلى الله عليه وسلم ، وإكرامه له ، واعطائه ما يرضيه ، وذلك متضمن لتصديقه له ، فهو قسم على صحة نبوته ، وعلى جزائه فى الآخرة ، فهو قسم على النبوة والمعاد ، وأقسم بآيتين عظيمتين من آياته دالتين على ربوبيته ، وحكمته ، ورحمته ، وهما الليل والنهار فتأمل مطابقة هذا القسم ، وهو نور الضحى الذى يوافى بعد ظلام الليل للمقسم عليه ، وهو نور الوحي الذى وافاه بعد احتباسه عنه ، حتى قال أعداؤه : ودع محمداً ربه . فأقسم بضوء النهار بعد ظلمة الليل

على ضوء الوحي ونوره ، بعد ظلمة احتباسه واحتجابه . وأيضافان
فالق ظلمة الليل عن ضوء النهار هو الذى فلق ظلمة الجهل والشرك
بنور الوحي والنبوة . فهذان للحس ، وهذان للعقل . وأيضا فان
الذى اقتضت رحمته أن لا يترك عباده فى ظلمة الليل سرمداً ، بل هداهم
بضوء النهار إلى مصالحهم ومعاشهم ، لا يليق به أن يتركهم فى ظلمة الجهل
والغى ، بل يهديهم بنور الوحي والنبوة إلى مصالح دنياهم وآخرتهم
فتأمل حسن ارتباط المقسم به بالمقسم عليه ، وتأمل هذه الجزالة
والرويق الذى على هذه الألفاظ ، والجلالة التى على معانيها
ونفى سبحانه أن يكون ودع نبيه أو قلاه ، فالتوديع الترك ،
والقلى البغض ، فما تركه منذ اعتنى به وأكرمه ، ولا أبغضه منذ أحبه .
وأطلق سبحانه أن الآخرة خير له من الأولى وهذا يعم كل حالة يرقيه إليها
هى خير له مما قبلها ، كما أن الدار الآخرة خير له مما قبلها . ثم وعده بما تقر به
عينه ، وتفرح به نفسه ، وينشرح به صدره ، وهو أن يعطيه فيرضى
وهذا يعم ما يعطيه من القرآن ، والهدى ، والنصر ، وكثرة الاتباع ،
ورفع ذكره ، وإعلاء كلمته ، وما يعطيه بعد مماته ، وما يعطيه فى
موقف القيامة ، وما يعطيه فى الجنة ، وأما ما يغتر به الجاهل ، من
أنه لا يرضى وواحد من أمته فى النار ، أو لا يرضى أن يدخل أحد
من أمته النار !! فهذا من غرور الشيطان لهم ، ولعبه بهم ، فانه صلوات
الله وسلامه عليه يرضى بما يرضى به ربه تبارك وتعالى ، وهو
سبحانه يدخل النار من يستحقها من الكفار والعصاة ، ثم يحذر سوله

حدًا يشفع فيهم ، ورسوله أعرف به وبحقه من أن يقول : لا أَرْضَى
أن يدخل أحدا من أمتي النار على أن يدعه فيها ، بل ربه تبارك وتعالى
يأذن له ، فيشفع فيمن شاء الله أن يشفع فيه ، ولا يشفع في غير من
أذن له فيه ورضيه

ثم ذكر سبحانه نعمه عليه من إيوائه بعد يتمه ، وهدايته بعد
الضلالة ، واغنائه بعد الفقر . فكان محتاجا الى من يؤويه ويهديه
ويغنيه ، فأواه ربه ، وهداه ، وأغناه . فأمره سبحانه أن يقابل هذه النعم
الثلاث بما يليق بها من الشكر . فنهاه أن يَقَهَّرَ اليتيم ، وأن يَنْهَرَ
السائل ، وأن يَكْتُمَ النعمة ، بل يحدث بها . فأوصاه سبحانه باليتامى
والفقراء والمعلمين . قال مجاهد ، ومقاتل : لا تحقر اليتيم ، فقد كنت
يتيما . وقال الفراء : لا تقهره على ماله ، فتذهب بحقه لضعفه .
وكذلك كانت العرب تفعل في أمر اليتامى ، تأخذ أموالهم وتظلمهم
فغلظ الخطاب في أمر اليتيم . وكذلك من لاناصر له يغلظ في أمره ،
وهو نهى لجميع المكلفين

(وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ) قال أكثر المفسرين : هو سائل
المعروف والصدقة ، لا تنهره ، إذا سألك . فقد كنت فقيرا ، فاما
أن تطعمه ، وإما أن ترده ردًّا لَيْسًا . قال الحسن : أما إنه ليس
بالسائل الذي يأتيك ، ولكن طالب العلم . وهذا قول يحيى بن آدم
قال : اذا جاءك طالب العلم فلا تنهره . والتحقيق ان الآية تتناول النوعين

وقوله (وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ) قال مجاهد : بالقرآن .
وقال الكلبي : بمعنى أظهرها ، والقرآن أعظم ما أنعم الله به عليه ،
فأمره أن يقرئه ويعلمه . وروى أبو بشر ، عن مجاهد : حدث بالنبوة
التي أعطاك الله . وقال الزجاج : بَلَّغْ ما أرسلت به . وحدث بالنبوة
التي آتاك ، وهي أجل النعم ، وقال مقاتل : أشكر هذه النعمة التي
ذكرت في هذه السورة . والتحقيق ان النعم تعم هذا كله فأمر أن
لا ينهر سائل المعروف ، والعلم وأن يحدث بنعم الله عليه في
الدين والدنيا

(١٣) فصل

ومن ذلك اقسامه سبحانه به (١: ١٠٠) العَادِيَاتِ ضَبْحًا ٢ فالْمُؤَرِّيَاتِ قَدْحًا ٣
فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا ٤ وقد اختلف الصحابة ومن بعدهم في ذلك ،
فقال علي بن أبي طالب ، وعبد الله بن مسعود رضى الله عنهما :
هي إبل الحاج ، تعدو من عرفة إلى مزدلفة ، ومن مزدلفة إلى منى ،
وهذا اختيار محمد بن كعب ، وأبي صالح ، وجماعة من المفسرين .
وقال عبد الله بن عباس : هي خيل الغزاة ، وهذا قول أصحاب
ابن عباس ، والحسن ، وجماعة ، واختاره الفراء ، والزجاج ، قال
أصحاب الأبل : السورة مكية ، ولم يكن ثم جهاد ولا خيل تجاهد .
وانما أقسم بما يعرفونه وبألفونه ، وهي إبل الحاج إذا عدت من

عرفة الى مزدلفة ، فهي عاديات ، والضَّبْح والضَّبْع مد الناقة ضبعها في السير ، يقال ضبحت وضبعت بمعنى واحد ، وأنشد أبو عبيدة ، وقد اختار هذا القول :

فكان لكم أجرى جميعا وأصبحت * في البازل الوجناء في الآل تضبح
قالوا فهي تعدو ضبحا ، فتورى بأخفافها النار من حك الأحجار
بعضها ببعض ، فتشير النقع وهو الغبار - بعدوها . فيتوسط جمعا ،
وهي المزدلفة

قال أصحاب الخيل : المعروف في اللغة أن الضبح أصوات
أنفاس الخيل اذا عدون ، والمعنى والعاديات ضابحة ، فيكون ضبحا
مصدرا على الأول ، وحالا على الثاني . قالوا : والخيل هي التي
تضبح في عدوها ضبحا ، وهو صوت يسمع من أجوافها ، ليس
بالصهيل ولا الحممة ، ولكن صوت أنفاسها في أجوافها من شدة
العدو ، وقال الجر جاني : كلا القولين قد جاء في التفسير ، الا أن
السياق يدل على أنها الخيل ، وهو قوله تعالى (فالمُوريات قدحاً) والايراء
لا يكون الا للحافر ، لصلاته . وأما الخف فقيه لين واسترخاء . انتهى
قالوا : والضبح في الخيل اظهر منه في الابل ، والايراء لسنايب
الخيل أبين منه لا خفاف الابل . قالوا : والنقع هو الغبار ، وإثارة
الخيل بعدوها له أظهر من إثارة أخفاف الابل ، والضمير في به عائد
على المكان الذي تعدو فيه . قالوا وأعظم ما يشير الغبار عند الاغارة

إذا توسطت الخيل جمع العدو ، لكثرة حركتها واضطرابها في ذلك المكان . وأما حمل الآية في إثارة الغبار في وادي مُحَسَّرٍ عند الإغارة ، فليس بالبين ، ولا يشور هناك غبار في الغالب ، لصلاية المكان . قالوا : وأما قولكم إنه لم يكن بمكة حين نزول الآية جهاد ولا خيل تجاهد ، فهذا لا يلزم ، لانه سبحانه أقسم بما يعرفونه من شأن الخيل . إذا كانت في غزو ، فأغارت فأثارت النقع ، وتوسَّطَتْ جمع العدو . وهذا أمر معروف . وذكر خيل المجاهدين أحق ما دخل في هذا الوصف ، فذكره على وجه التمثيل لا الاختصاص . فان هذا شأن خيل المقاتلة . وأشرف أنواع الخيل خيل المجاهدين . والقسم إنما وقع بما تضمنه شأن هذه العاديات من الآيات البينات من خلق هذا الحيوان الذي هو من أكرم البهيم وأشرفه ، وهو الذي يحصل به العز والظفر ، والنصر على الأعداء ، فيعدوا طالبة للعدو وهاربة منه ، فيثير عدوها الغبار لشدة ، وتورى حوافرها وسنابكها النار من الأحجار ، لشدة عدوها ، فتدرك الغارة التي طلبتها حتى تتوسط جمع الأعداء ، فهذا من أعظم آيات الرب . تعالى ، وأدلة قدرته وحكمته ، فذكرهم بنعمه عليهم في خلق هذا الحيوان الذي ينتصرون به على أعدائهم ، ويدركون به ثأرهم كما ذكرهم سبحانه بنعمه عليهم في خلق الابل التي تحمل أثقالهم من بلد الى بلد ، فالابل أخص بحمل الأثقال ، والخيل أخص

بنصرة الرجال ، فذكرهم بنعمه بهذا وهذا ، وخص الاغارة بالضبح
لأن العدو لم ينتشروا اذ ذاك ولم يفارقوا محلهم ، وأصحاب الاغارة
حامون مستريحون ، يبصرون مواقع الغارة والعدو لم يأخذوا أهبتهم
بل هم في غرَّتْهم وغفلتهم ، ولهذا كان النبي صلى الله عليه وسلم اذا
أراد الغارة صبر حتى يطلع الفجر ، فان سمع مُؤَذَّنًا أمسك ، والأغار
ولما علم أصحاب الأبل أن أخفافها أبعد شيء من وري النار
تأولوا الآية على وجوه بعيدة . فقال محمد بن كعب : هم الحاج اذا
أوقدوا نيرانهم ليلة المزدلفة ، وعلى هذا فيكون التقدير : فالجماعات
الموريات ، وهذا خلاف الظاهر . وانما الموريات هي العاديات ،
وهي المغيرات . وري سعيد بن جبير عن ابن عباس : هم الذين
يغيرون ، فيورون بالليل نيرانهم لطعامهم وحاجتهم ، كأنهم أخذوه من
قوله تعالى (٧١:٥٦) أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ؟ وهذا إن أريد به
التمثيل ، وأن الآية تدل عليه فصحيح ، وإن أريد به اختصاص
الموريات فليس كذلك ، لأن الموريات هي العاديات بعينها . ولهذا
عطفها عليه بالفاء التي للتسبب ، فانها عدت فأورت . وقال قتادة :
الموريات هي الخيل توري نار العداوة بين المقتتلين ، وهذا ليس
بشيء ، وهو بعيد من معنى الآية وسياقها . وأضعف منه قول عكرمة :
هي الألسنة توري نار العداوة بعظيم ما تتكلم به وأضعف منه ما ذكر
عنه مجاهد : هي أفكار الرجال ، توري نار المسكر والخدعة في الحرب

وهذه الأقوال ان أريد أن اللفظ دل عليها وأنها هي المراد فغلط .
وان أريد أنها أخذت من طريق الإشارة والقياس فأمرها قريب
وتفسير الناس يدور على ثلاثة أصول : تفسير على اللفظ ، وهو
الذى ينحو اليه المتأخرون . وتفسير على المعنى ، وهو الذى يذكره
السلف . وتفسير على الإشارة والقياس وهو الذى ينحو إليه كثير
من الصوفية وغيرهم . وهذا لا بأس به بأربعة شرائط : أن لا يناقض
معنى الآية ، وان يكون معنى صحيحا فى نفسه ، وان يكون فى
اللفظ إشعار به ، وان يكون بينه وبين معنى الآية ارتباط وتلازم .
فاذا اجتمعت هذه الأمور الأربعة كان استنباطا حسنا

وأضعف من ذلك كله قول ابن جريج : قدحا ، يعنى : فالمنجحات
أمرأ ، يريد البالغين بنجحهم فيما طلبوه ، وعطف قوله (فَأَثَرُنْ ،
فَوْسَطُنْ) وهما فعلاان على العاديات ، والموريات لما فيه من معنى الفعل
وكان ذكر الفعل فى اثرن ووسطن أحسن من ذكر الاسم
لأنه سبحانه قسم أفعالنا الى قسمين : وسيلة ، وغاية ، فالوسيلة هي
العدو وما يتبعه من الايراء والاغارة ، والغاية هي توسط الجمع
وما يتبعه من إثارة النقع . فهن عاديات موريات مغيرات . حتى
يتوسطن الجمع ويثرن النقع . فالأول شأنهن الذى أعددن له ،
والثانى فعلهن الذى انتهين اليه والله أعلم

(١٤) فصل

فهذا شأن القسم ، وأما شأن المقسم عليه فهو حال الانسان ، وهو كون الانسان كنوداً بشهادته على نفسه ، أو شهادة ربه عليه ، وكونه بخيلاً لحبه المال ، والكنود للجمعة ، وفعله كند يكند كنوداً ، مثل كفر يكفر كفوراً ، والارض السكنود التي لا تثبت شيئاً ، وامرأة كندى أى كفور للعاشرة ، وأصل اللفظ منع الحق والخير ، ورجل كنود اذا كان مانعاً لما عليه من الحق . وعبارات المفسرين تدور على هذا المعنى . قال ابن عباس رضى الله عنهما ، وأصحابه رحمهم الله تعالى : هو الكفور ، وقيل هو البخيل الذى يمنع رفته ، ويجيع عبده ، ولا يعطى فى النأبة . وقال الحسن : هو اللوام لربه ، يعد المصائب ، وينسى النعم

وأما قوله (وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ) فقال ابن عباس : يريد أن ربه على ذلك لشهيد ، وقيل ن الانسان لشهيد على ذلك ، إن انكر بلسانه أشهد ربه عليه حاله ، ويؤيد هذا القول سياق الضمائر . فان قوله (وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ) للانسان فافتتح الخبر عن الانسان بكونه كنوداً ، ثم ثناه بكونه شهيداً على ذلك ، ثم ختمه بكونه بخيلاً بماله لحبه إياه . ويؤيد قول ابن عباس رضى الله عنهما أنه أتى بعلى . فقال

(وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ) أى مطلع عالم به . كقوله (ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ) ولو أريد شهادة الانسان لأتى بالباء . فقيل وانه بذلك لشهيد . كما قال تعالى (٩ : ١٧) مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِم بِالْكَفْرِ) فلو أراد شهادة الانسان لقال : وانه على نفسه لشهيد . فان كنوده المشهود به ، ونفسه هي المشهود عليها .

ثم قال تعالى (وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ) والخير هنا المال باتفاق المفسرين . والشديد البخيل من أجل حب المال ، فحب المال هو الذى حمله على البخل . هذا قول الاكثرين . وقال ابن قتيبة : بل المعنى : انه لشديد الحب للخير ، فتكون اللام فى قوله (لِحُبِّ الْخَيْرِ) متعلقة بقوله (لَشَدِيدٌ) على حد تعلق قولك : انه لزيد لضارب ، ومنعت طائفة من النحاة أن يعمل ما بعد اللام فيما قبلها ، وهذه الآيات حجة على الجواز . فان قوله (لِرَبِّهِ) معمول (لَكَنُودٍ) وقوله (عَلَىٰ ذَٰلِكَ) معمول (لَشَهِيدٌ) ولا وجه للتكلف البارد فى تقدير عامل مقدم محذوف يفسره هذا المذكور . فالحق جواز ان لزيد لضارب . فوصف سبحانه الانسان بكفران نعم ربه ، وبخله بما آتاه من الخير فلا هو شكور للنعم ، ولا محسن الى خلقه . بل ببخل بشكره ، ببخل بماله ، وهذا ضد المؤمن الكريم ، فانه مخلص لربه ، محسن الى

(م ٦ - التبيان)

خلقه . فالؤمن له الاخلاص والاحسان ، والفاجر له الكفر
والبخل . وقد ذم الله سبحانه هذين الخلقين المهلكين في غير موضع
من كتابه . كقوله (١٠٧ : ٤) فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ
سَاهُونَ الَّذِينَ هُمْ يُرَاؤُونَ ٧ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ) فالرياء ضد الاخلاص .
ومنع الماعون ضد الاحسان . وكذلك قوله تعالى (٤ : ٣٦) إِنَّ
اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ٣٧ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ
النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ)
فاختياله ونفره من كفره وكنوده ، وهذا ضد قوله (٢ : ٣) الَّذِينَ
يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ) وقوله
(٤ : ٣٦) وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَالَّذِينَ إِحْسَانًا - الْآيَةَ)
وكذلك ذكر الخلقين الذميين في قوله (٤ : ٣٧) وَالَّذِينَ يَنْفِقُونَ
أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ) ونظيره
(٤ : ٣٨) وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ
اللَّهُ) ونظيره ما تقدم في سورة الليل من ذم المستغنى البخل ، ومدح
المعطى المصدق بالحسنى . ونظيره قوله (١٠٤ : ١) وَيَلْ لِكُلِّ هُمَزَةٍ
لُحْمَةٌ ٢ الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ) فان الهمزة واللمزة من الفخر ،
والكبر ، وجمع المال وتعميده من البخل . وذلك مناف لسر الصلاة
والزكاة ومقصودهما

ثم خوف سبحانه الانسان الذي هذا وصفه حين يُبعث مافى القبور، ويحصل مافى الصدور، أى مُيز، وُجِعَ، وُيِّنَ، وأظهر، ونحو ذلك، وجمع سبحانه بين القبور والصدور، كما جمع بينهما النبي صلى الله عليه وسلم فى قوله «مأ الله أجوا ففهم وقبورهم ناراً (١)» فان الانسان يوارى صدره مافيه من الخير والشر، ويوارى قبره جسمه، فيخرج الربُّ جسمه من قبره وسرّه من صدره، فيصير جسمه بارزاً على الارض، وسره بادياً على وجهه. كما قال تعالى (١:٥٥) يُعَرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسَيِّئَاتِهِمْ وقال (١٦:٦٨) سَنَسِفُهُ عَلَى الْخُرُطُومِ

(١٥) فصل

ومفعول العلم «إِنَّ» علمت فيه، وكسرت لمكان اللام، وقيد سبحانه كونه خبيراً بهم ذلك اليوم - وهو خير بهم فى كل وقت - ايذاناً بالجزاء، وانه يجازيهم فى ذلك اليوم بما يعلمه منهم. فذكر العلم والمراد لازمه. والله سبحانه وتعالى أعلم

(١٦) فصل

ومن ذلك اقسامه (بالعَصْرِ) على حال الانسان فى الآخرة. هذه السورة

(١) رواه البخاري وغيره وذلك فى غزوة الاحزاب، وهى الخندق حين شغل المشركون النبي صلى الله عليه وسلم عن صلاة العصر

على غاية اختصارها لها شأن عظيم ، حتى قال الشافعى رحمه الله : لو فكر
الناس كلهم فيها لكفتهم

والعصر المقسم به ، قيل : هو أول الوقت الذى يلى المغرب من
النهار ، وقيل : هو آخر ساعة من ساعاته ، وقيل : المراد صلاة العصر .
وأكثر المفسرين على أنه الدهر . وهذا هو الراجح . وتسمية الدهر
عصراً أمر معروف فى لغتهم . قال :

ولن يلبث العصر ان يوم وليلة * إذا طلبا أن يدركا ما تيممّا
ويوم وليلة بدل من العصر ان . فأقسم سبحانه بالعصر لمكان العبرة
والآية فيه . فان مرور الليل والنهار على تقدير قدرة العزيز العليم
منتظم لمصالح العالم على أكمل ترتيب ونظام . وتعاقبهما واعتدالهما تارة ،
وأخذ أحدهما من صاحبه تارة ، واختلافهما فى الضوء ، والظلام ،
والحر ، والبرد ، وانتشار الحيوان ، وسكونه ، وانقسام العصر الى
القرون ، والسنين ، والاشهر ، والأيام ، والساعات وما دونها . آية
من آيات الرب تعالى ، وبرهان من براهين قدرته وحكمته

فأقسم بالعصر الذى هو زمان أفعال الانسان ومحلها على عاقبة تلك
الأفعال وجزائها ، ونبه بالمبدأ وهو خلق الزمان ، والفاعلين وأفعالهم
على المعاد ، وأن قدرته كالم تقصر عن المبدأ لم تقصر عن المعاد ، وان
حكيمته التى اقتضت خلق الزمان وخلق الفاعلين وأفعالهم ، وجعلها
قسمين خيراً وشرّاً تأبى أن يسوى بينهما ، وأن لا يجازى المحسن

باحسانه والمسيء باساءته ، وأن يجعل النوعين راجحين أو خاسرين ، بل الانسان من حيث هو انسان خاسر ، إلا من رحمه الله ، فهذه ووقفه للايمان والعمل الصالح في نفسه ، وأمر غيره به ، وهذا نظير رده الانسان الى أسفل سافلين ، واستثناء الذين آمنوا وعملوا الصالحات من هؤلاء المردودين

وتأمل حكمة القرآن لما قال (إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ) فانه ضيق الاستثناء وخصصه ، فقال (إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَّاصَوْا بِالصَّبْرِ) ولما قال (ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ) وسع الاستثناء وعممه ، فقال (إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) ولم يقل (وَتَوَّاصَوْا) فان التواصي هو أمر الغير بالايمان والعمل الصالح ، وهو قدر زائد على مجرد فعله . فمن لم يكن كذلك فقد خسر هذا الربح ، فصار في خسر . ولا يلزم أن يكون في أسفل سافلين . فان الانسان قد يقوم بما يجب عليه ولا يأمر غيره ، فان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مرتبة زائدة . وقد تكون فرضا على الأعيان . وقد تكون فرضا على الكفاية . وقد تكون مستحبة

والتواصي بالحق يدخل فيه الحق الذي يجب ، والحق الذي يستحب . والصبر يدخل فيه الصبر الذي يجب ، والصبر الذي يستحب . فهؤلاء إذا تواصوا بالحق وتواصوا بالصبر حصل لهم من الربح ما خسره

أولئك الذين قاموا بما يجب عليهم في أنفسهم ولم يأمروا غيرهم به ،
وان كان أولئك لم يكونوا من الذين خسروا أنفسهم وأهلهم . فمطلق
الخسار شيء والخسار المطلق شيء . وهو سبحانه انما قال (إِنَّ الْإِنْسَانَ
آفِي خُسْرٍ) ومن ربح في سلعة وخسر في غيرها قديطلق عليه أنه في
خسر وأنه ذو خسر ، كما قال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما : لقد فرطنا
في قرارات كثيرة (١) فهذا نوع تفريط ، وهو نوع خسر بالنسبة الى
من حصل ربح ذلك

ولما قال في سورة التين (ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ) قال (إِلَّا الَّذِينَ
آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) فقسم الناس الى هذين القسمين فقط . ولما
كان الانسان له قوتان قوة العلم وقوة العمل . وله حالتان حالة يأتمر
فيها بأمر غيره ، وحالة يأمر فيها غيره ، استثنى سبحانه من كمل قوته العلمية
بالايمان ، وقوته العملية بالعمل الصالح ، وانقاد لأمر غيره له
بذلك ، وأمر غيره به من الانسان الذي هو في خسر . فان العبد
له حالتان حالة كمال في نفسه ، وحالة تكميل لغيره ، وكاله وتكميله
موقوف على أمرين : علم بالحق ، وصبر عليه . فتضمنت الآية جميع
مراتب الكمال الانساني ، من العلم النافع ، والعمل الصالح ، والاحسان
الى نفسه بذلك ، والى أخيه به ، وانقياده وقبوله لمن يأمره بذلك

(١) رواه البخاري في باب فضل اتباع الجنادة . قال الحافظ : أي من عدم
المواظبة على حضور الدفن . لأن ابن عمر كان يصلي على الميت ثم ينصرف .

وقوله تعالى (وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر) ارشاد الى منصب الامامة في قوة الدين. كقوله تعالى (٣٢: ٢٤) وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون) فبالصبر واليقين تنال الامامة في الدين والصبر نوعان : نوع على المقدور ، كالمصائب . ونوع على المشروع . وهذا النوع أيضا نوعان : صبر على الأوامر ، وصبر عن النواهي . فذاك صبر على الارادة والفعل . وهذا صبر عن الارادة والفعل . فأما النوع الأول من الصبر فمشارك بين المؤمن والكافر ، والبر والفاجر ، لا يثاب عليه لمجرده إن لم يقترن به إيمان واختيار . قال النبي صلى الله عليه وسلم في حق ابنته «مُرُّهَا فَلْتَصْبِرْ وَلْتَحْتَسِبْ (١)» وقال تعالى (١١: ١١) إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ) وقال تعالى (٣: ١٢٥) بَلَى ، إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا) وقال (٣: ١٢٠) وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا) فالصبر بدون الايمان والتقوى بمنزلة قوة البدن الخالي عن الايمان والتقوى ، وعلى حسب اليقين بالمشروع يكون الصبر على المقدور . وقال تعالى (فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ) فأمره أن يصبر

(١) ابنته هي زينب . بعثت إليه أن ابنا لها قبض ، فأتتنا . فأرسل يقرىء السلام ويقول « إن الله ما أخذ وله ما أعطي وكل عنده بأجل مسمى - الحديث » رواه البخاري وغيره في كتاب الجنائز عن أسامة بن زيد

ولا يتشبه بالذين لا يقين عندهم في عدم الصبر . فانهم لعدم يقينهم
عُدُّ صبرهم وخفوا واستخفوا قومهم ، ولو حصل لهم اليقين والحق
لصبروا ، وما خفوا ولا استخفوا . فمن قلَّ يقينه قلَّ صبره ، ومن قلَّ
صبره خف واستخف ، فالموثق الصابر رزين ، لأنه ذولب وعقل ،
ومن لا يقين له ولا صبر عنده خفيف طائش تلعب به الأهواء
والشهوات ، كما تلعب الرياح بالشئ الخفيف . والله المستعان

(١٧) فصل

ومن ذلك اقسامه سبحانه بـ (١: ٨٥ السَّمَاءُ ذَاتِ الْبُرُوجِ) التي تنزلها
الشمس والقمر . وفُسرَت بالنجوم ، أو نوع منها . وفُسرَت بالقصور
العظام ، وكل ذلك من آيات قدرته وشواهد وحدانيته ، فإن السماء
كرة متشابهة الأجزاء ، والشكل الكروي ، لا يتميز منه جانب عن جانب
بطول ، ولا قصر ولا وضع ، بل هو متساوي الجوانب . فجعل هذه
البروج في هذه الكرة على اختلاف صورها وأشكالها ومقاديرها
يستحيل أن توجد بغير فاعل ، ويستحيل أن يكون فاعلها غير قادر ،
ولا عالم ، ولا مريد ، ولا حي ، ولا حكيم ، ولا مبين للفعول ، وهذا
ونحوه مما هدم قواعد الطبائية والملاحدة والفلاسفة الذين لا يثبتون
للعالم ربًّا بائنًا قادرًا ، فاعلا بالاختيار ، عالما بتفاصيله حكيمًا مدبرًا له .
فبروج السماء هي منازلها ، أو منازل السيارة التي فيها ، من أعظم

آياته سبحانه ، فلماذا أقسم بها مع السماء ، ثم أقسم باليوم الموعود وهو يوم القيامة ، وهو المقسم به وعليه ، كما أن القرآن يقسم به وعليه . ودال على وقوع اليوم الموعود باتفاق جميع الرسل عليه ، وبما عرفه عباده من حكمته وعزته التي تأتي أن يتركهم سُدىً ، ويخلقهم عبثاً . وبغير ذلك من الآيات والبراهين التي يستدل بها سبحانه على إمكانه تارة ، وعلى وقوعه تارة ، وعلى تنزيهه عما يقول أعداؤه من أنه لا يأتي به تارة . فالأقسام به عند من آمن بالله كالأقسام بالسماء وغيرها من الموجودات المشاهدة بالعيان

ثم أقسم سبحانه بالشاهد والمشهود ، مطلقين غير معينين ، وأعم المعاني فيه أنه المدرك والمدرَك ، والعالم والمعلوم ، والرأى والرئى وهذا أليق المعاني به ، وما عداه من الأقوال ذكرت على وجه التمثيل ، لا على وجه التخصيص

فان قيل : فما وجه الارتباط بين هذه الأمور الثلاثة المقسم بها ؟ قيل : هي بحمد الله في غاية الارتباط . والأقسام بهامتناول لكل موجود في الدنيا والآخرة ، وكل منها آية مستقلة دالة على ربوبيته وإلهيته ، فأقسم بالعالم العلوى ، وهي السماء وما فيها من البروج ، التي هي أعظم الأمكنة وأوسعها ، ثم أقسم بأعظم الأيام وأجلها قدرا ، الذى هو مظهر ملكه ، وأمره ، ونهيه ، وثوابه ، وعقابه ، وجمع أوليائه وأعدائه ، والحكم بينهم بعلمه وعدله ، ثم أقسم بما هو أعم

من ذلك كله ، وهو الشاهد والمشهود ، وناسب هذا القسم ذكر أصحاب الأخدود الذين عذبوا أولياءه ، وهم شهود على ما يفعلون بهم ، والملائكة شهود عليهم بذلك ، والأنبياء وجوارحهم تشهد به عليهم . وأيضا فالشاهد هو المطلع والرقيب ، والمخبر والمشهود وهو المطلع عليه المخبر به ، المشاهد

فمن نوع الخليفة إلى شاهد ومشهود وهو أقدر القادرين ، كما نوعها الى مرئى لنا وغير مرئى ، كما قال (٦٩ : ٣٨) فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ٣٩ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ) كما نوعها الى أرض وسماء ، وليل ونهار ، وذكر وأتى ، وهذا التنويع والاختلاف من آياته سبحانه - كذلك نوعها إلى شاهد ومشهود

وفيه سر آخر ، وهو أن من المخلوقات ما هو مشهود عليه ، ولا يتم نظام العالم إلا بذلك ، فكيف يكون المخلوق شاهدا رقيقا حفيظا على غيره ، ولا يكون الخالق تبارك وتعالى شاهدا على عباده ، مطلعا عليهم رقيقا ؟

وأیضا فان ذلك يتضمن القسم بملائكته وأنبيائه ورسله ، فانهم شاهدون على العباد ، فيكون من باب اتحاد المقسم به والمقسم عليه كما أقسم باليوم الموعود ، وهو المقسم به وعليه ، وأيضا فيوم القيامة مشهود ، كما قال تعالى (١١ : ١٠٣) ذَلِكَ يَوْمٌ تَجْمُوعُ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ) يشهده الله وملائكته والانس والجن ،

والوحش ، من آياته ، والمشهود من آياته .

وأيضاً فكلامه مشهود كما قال تعالى (١٧ : ٧٨) وَفَرَّغَ الْقُرْآنَ الْفَجْرُ
 إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا) تشهد ملائكة الليل وملائكة
 النهار . فالمشهود من أعظم آياته وكذلك الشاهد ، فكل ما وقع
 عليه اسم شاهد ومشهود فهو داخل في هذا القسم فلا وجه لتخصيصه
 ببعض الأنواع أو الأعيان إلا على سبيل التمثيل

وأيضاً فكتاب الأبرار في عليين يشهده المقربون . فالكتاب
 مشهود ، والمقربون شاهدون

والأحسن أن يكون هذا القسم مستغنياً عن الجواب ، لأن
 القصد التنبيه على المقسم به ، وأنه من آيات الرب العظيمة ، ويبعد
 أن يكون الجواب (قَتَلَ أَصْحَابُ الْأَخْذُودِ) الذين فتشوا أوليائه
 وعذبوهم بالنار ذات الوجود ،

ثم وصف حالهم القبيحة بأنهم قُودُوا على جانب الأخدود ،
 شاهدين ما يجري على عباد الله تعالى وأوليائه عياناً ، ولا تأخذهم
 بهم رأفة ولا رحمة ، ولا يعيرون عليهم ديناً سوى إيمانهم بالله
 العزيز الحميد الذي له ملك السموات والأرض ، وهذا الوصف
 يقتضى إكرامهم وتعظيمهم ومحبتهم ، فعاملوهم بضد ما يقتضى أن
 يعاملوا به . وهذا شأن أعداء الله دائماً ، ينقمون على أوليائه
 ما يتبغى أن يحبوا ويكرموا لأجله ، كما قال تعالى (٥ : ٥٩)
 قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ

وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ) وكذلك اللوطية نعموا من عباد الله تنزيههم عن مثل فعلهم ، فقالوا (٨٢ : ٧) أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنْاسٌ يَتَطَهَّرُونَ) وكذلك أهل الاشرار ينقمون من الموحدین تجريدهم التوحيد ، وإخلاص الدعوة والعبودية لله وحده ، وكذلك أهل البدع ينقمون من أهل السنة تجريد متابعتها وترك ما خالفها ، وكذلك المعتلة ينقمون من أهل الاثبات إثباتهم لله صفات كماله ونعوت جلاله . وكذلك الرافضة ينقمون على أهل السنة محبتهم للصحابة جميعهم ، وترضيهم عنهم وولايتهم اياهم ، وتقديم من قدمه رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم ، وتنزيلهم منازلهم التي أنزلهم الله ورسوله بها ، وكذلك أهل الرأي المحدث ينقمون على أهل الحديث وحزب الرسول أخذهم بحديثه وتركهم ما خالفه . وكل هؤلاء لهم نصيب ، وفيهم شبه من أصحاب الأخدود . وبينهم وبينهم نسب قريب أو بعيد

ثم أخبر سبحانه أنه أعد لهم عذاب جهنم وعذاب الحريق ، حيث لم يتوبوا ، وأنهم لو تابوا بعد أن فتنوا أوليائه وعذبوهم بالنار لغفر لهم ولم يعذبهم . وهذا غاية الكرم والجود . قال الحسن : أنظروا الى هذا الكرم والجود ، يقتلون أوليائه ، ويفتنونهم ، وهو يدعوهم الى التوبة والمغفرة . أنظروا الى كرم الرب تعالى ، يدعوهم الى التوبة وقد فتنوا أوليائه ، فخرقوهم بالنار ، فلا ييأس العبد من

مغفرته وعفوه ، ولو كان منه ما كان ، فلا عداوة أعظم من هذه العداوة ، ولا أكفر ممن حرق بالنار من آمن بالله وحده ، وعبدته وحده ، ومع هذا فلو تابوا لم يعذبهم ، وألحقهم بأوليائه

ثم ذكر سبحانه جزاء أوليائه المؤمنين ، ثم ذكر شدة بطشه وأنه لا يعجزه ، شيء فانه هو المبدى المعيد . ومن كان كذلك فلا أشد من بطشه ، وهو مع ذلك الغفور الودود ، يغفر لمن تاب اليه ويوده ويحبه ، فهو سبحانه الموصوف بشدة البطش ، ومع ذلك هو الغفور الودود ، المتوود الى عبادته بنعمه ، الذى يود من تاب اليه وأقبل عليه ، وهو الودود أيضا أى المحبوب ، قال البخارى فى صحيحه : الودود الحبيب ، والتحقيق أن اللفظ يدل على الأمرين ، على كونه واداً لأوليائه ومودوداً لهم . فأحدهما بالوضع ، والآخر باللزوم . فهو الحبيب المحب لأوليائه ، يحبهم ويحبونه ، وقال شعيب عليه السلام (١١ : ٩٠) إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ

وما أطف اقتران اسم الودود بالرحيم وبالغفور ، فان الرجل قد يغفر لمن أساء اليه ولا يحبه . وكذلك قد يرحم من لا يجب والرب تعالى يغفر لعبده اذا تاب اليه ، ويرحمه ويحبه مع ذلك ، فانه يحب التوابين ، واذا تاب اليه عبده أحبه ، ولو كان منه ما كان

ثم قال (ذُو الْعَرْشِ) فأضاف العرش الى نفسه ، كما تضاف اليه الاشياء العظيمة الشريفة . وهذا يدل على عظمة العرش ، وقربه منه

سبحانه ، واختصاصه به ، بل يدل على غاية القرب والاختصاص ، كما
يضيف الى نفسه « بذو » صفاته القائمة به . كقوله (ذُو الْقُوَّةِ)
(ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ) ويقال : ذو العزة ، وذو الملك وذو الرحمة
ونظائر ذلك . فلو كان حظ العرش منه حظ الأرض السابعة
لكان لا فرق أن يقال : ذو العرش ، وذو الأرض

ثم ووصف نفسه بالمجيد ، وهو المتضمن لكثرة صفات كماله
وسعتها ، وعدم احصاء الخلق لها ، وسعة أفعاله ، وكثرة خيره
ودوامه . وأما من ليس له صفات كمال ولا أفعال حميدة فليس له
من المجد شيء . والمخلوق انما يصير مجيدا بأوصافه وأفعاله . فكيف
يكون الرب تبارك وتعالى مجيدا ، وهو معطل عن الأوصاف
والأفعال ؟ تعالى الله عما يقول المعطلون علوا كبيرا ، بل هو المجيد
الفعال لما يريد . والمجد في لغة العرب كثرة أوصاف الكمال ، وكثرة
أفعال الخير . وأحسن ما قرن اسم المجيد الى الحميد ، كما قالت الملائكة لبيت
الخليل عليه السلام (١١ : ٧٣ رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ
الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ) وكما شرع لنا في آخر الصلاة أن نشئ على
الرب تعالى بأنه حميد مجيد ، وشرع في آخر الركعة عند الاعتدال
أن نقول « ربنا ولك الحمد ، أهل الثناء والمجد » فالحمد والمجد على
الاطلاق لله الحميد المجيد ، فالحميد الحبيب المستحق لجميع صفات
الكمال . والمجيد العظيم الواسع القادر الغني ، ذو الجلال والاكرام .

ومن قرأ (المجيد) بالكسر فهو صفة لعرشه سبحانه ، وإذا كان عرشه مجيدا فهو سبحانه أحق بالمجد . وقد استشكل هذه القراءة بعض الناس ، وقال : لم يسمع في صفات الخلق مجيد ، ثم خرجها على أحد الوجيين ، إما على الجوار ، وإما أن يكون صفة لربك . وهذا من قلة بضاعة هذا القائل . فإن الله سبحانه وصف عرشه بالكرم ، وهو نظير المجد . ووصفه بالعظمة . فوصفه سبحانه بالمجد مطابق لوصفه بالعظمة والكرم ، بل هو أحق المخلوقات أن يوصف بذلك ، لسعته وحسنه وبهاء منظره ، فإنه أوسع كل شيء في المخلوقات وأجمله ، وأجمعه لصفات الحسن ، وبهاء المنظر ، وعلو القدر والرتبة والذات ، ولا يقدر قدر عظمتة وحسنه ، وبهاء منظره إلا الله . ومجده مستفاد من مجد خالقه ومبدعه . والسموات السبع والأرضون السبع في الكرسي - الذي بين يديه - كحلقة ملقاة في أرض فلاة ، والكرسي فيه كذلك الحلقة في الفلاة . قال ابن عباس : السموات السبع في العرش كسبعة دراهم جعلن في ترس ، فكيف لا يكون مجيدا وهذا شأنه ؟ فهو عظيم كريم مجيد . وأما تكلف هذا المتكلف جره إلى الجوار ، أو أنه صفة لربك فتكلف شديد ، وخروج عن المألوف في اللغة من غير حاجة إلى ذلك

وقوله (فَعَمَّا لِمَا يُرِيدُ) دليل على أمور (أحدها) أنه سبحانه يفعل بإرادته ومشيئته (الثاني) أنه لم يزل كذلك ، لأنه لم يزل

كذلك ، لانه ساق ذلك في معرض المدح والثناء على نفسه ، وأن ذلك من كماله سبحانه . فلا يجوز أن يكون عادما لهذا الكمال في وقت من الأوقات . وقد قال تعالى (١٦ : ١٧) أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ ؟ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ؟ وما كان من أوصاف كماله ونعوت جلاله لم يكن حادثا بعد أن لم يكن (الثالث) أنه إذا أراد شيئا فعله ، فان « ما » موصولة عامة ، أى يفعل كل ما يريد أن يفعله . وهذا في إرادته المتعلقة بفعله . وأما إرادته المتعلقة بفعل العبد فتلك لها شأن آخر . فان أراد فعل العبد ولم يرد من نفسه أن يعينه ويجعله فاعلا لم يوجد الفعل وإن أراده ، حتى يريد من نفسه أن يجعله فاعلا ، وهذه هى النكته التى خفيت على القدرية والجبرية ، وخطبوا فى مسألة القدر لغفلتهم عنها ، فان هنا إرادتين : إرادة أن يفعل العبد ، وإرادة أن يجعله الرب فاعلا ، وليستا متلازمتين ، وان لزم من الثانية الاولى من غير عكس . فمضى أراد من نفسه أن يعين عبده ، وأن يخلق له أسباب الفعل فقد أراد فعله ، وقد يريد فعله ، ولا يريد من نفسه أن يخلق له أسباب الفعل ، فلا يوجد الفعل .

فان اعتاص عليك فهم هذا الموضع وأشكل عليك فانظر الى قول النبي صلى الله عليه وسلم ، حاكيا عن ربه قوله للعبد يوم القيامة « قد أردت منك أهون من هذا وأنت فى صلب أهلك : أن لا تشرك بى شيئا » ولم يقع هذا المراد ، لانه لم يرد من نفسه اعانته عليه وتوقيفه له

(الرابع) أن فعله سبحانه وإرادته متلازمان . فما أراد أن يفعله فعله ، وما فعله فقد أراده . بخلاف المخلوق ، فانه يريد ما لا يفعل ، وقد يفعل ما لا يريد . فما ثم فعّال لما يريد الا الله وحده

(الخامس) اثبات إرادة متعددة بحسب الأفعال ، وأن كل فعل له إرادة تخصه ، وهذا هو المعقول في الفطر ، وهو الذي يعقله الناس من الارادة ، فشانه تعالى أنه يريد على الدوام ، ويفعل ما يريد

(السادس) أن كل ما صلح أن تتعلق به إرادته جاز فعله . فاذا أراد أن ينزل كل ليلة الى سماء الدنيا ، وأن يحيى يوم القيامة لفصل القضاء ، وأن يرى نفسه لعباده ، وأن يتجلى لهم كيف شاء ، وأن يخاطبهم ويضحك اليهم ، وغير ذلك مما يريد سبحانه - لم يمتنع عليه فعله ، فانه فعال لما يريد . وإنما تتوقف صحة ذلك على إخبار الصادق به . فاذا أخبر به وجب التصديق به ، وكان رده ردا لكلامه الذي أخبر به عن نفسه . وهذا عين الباطل . وكذلك إذا أمكن إرادته سبحانه نحو ما شاء واثبات ما شاء أمكن فعله ، وكانت الارادة والفعل من مقتضيات كماله المقدس . وقد اشتملت هذه السورة على اختصارها من التوحيد على وصفه سبحانه بالعزة المتضمنة للقدرة والقوة ، وعدم النظر ، والحمد المتضمن لصفات الكمال ، والتنزيه عن أضدادها ، مع محبته وأهليته ، وملئكه السموات والارض ، المتضمن لكمال غناه ، وسعة ملكه ، وشهادته على كل شئ المتضمن لعموم اطلاعه على ظواهر

الامور وبواطنها ، واحاطة بصره بمرئياتها وسمعه بمسموعاتا وعلمه بمعلوماتها ، ووصفه بشدة البطش المتضمن لكمال القوة والعزة والقدرة ، وتفرد به بالابداء والاعادة المتضمن لتوحيد ربوبيته وتصرفه في المخلوقات بالابداء والاعادة وانقيادها لقدرته ، فلا يستعصى عليه منها شيء . ووصفه بالمغفرة المتضمن لكمال جوده واحسانه وغناه ورحمته . ووصفه بالودود المتضمن لكونه حبيبا الى عباده محبا لهم . ووصفه بأنه ذو العرش الذي لا يقدر قدره سواه ، وأن عرشه المختص به لا يليق بغيره أن يستوى عليه ، ووصفه بالمجد المتضمن لسعة العلم والقدرة والملك والغنى والجلود والاحسان والكرم . وكونه فعلا لما يريد المتضمن لحياته وعلوه وقدرته ومشيعته وحكمته ، وغير ذلك من أوصاف كماله

فهذه السورة كتاب مستقل في أصول الدين ، تكفي من فهمها فالحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب وتبارك الذي نزل الفرقان على عبده

ثم ختمها بذكر فعله وعقوبته بمن أشرك به ، وكذب رسله . تحذيرا لعباده من سلوك سبيلهم ، وأن من فعل فعلهم فعل به كما فعل بهم ، ثم أخبر عن أعدائه بأنهم مكذبون بتوحيده ورسالاته مع كونهم في قبضته ، وهو محيط بهم . ولا أسوأ حالا ممن عادى من هو في قبضته ، ومن هو قادر عليه من كل وجه ، وبكل اعتبار .

فقال (بَلْ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ . وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ)
فهذا أعجب عجب ممن كفر بمن هو محيط به ، وأخذ بناصيته قادر عليه .
ثم وصف كلامه بأنه مجيد ، وهو أحق بالمجد من كل كلام . كما أن
المتكلم به له المجد كله . فهو المجيد ، وكلامه مجيد ، وعرشه مجيد .
قال ابن عباس رضى الله عنهما : قرآن مجيد ، كريم . لأن كلام
الرب ليس كما يقول الكافرون : شعر ، وكهانة ، وسحر . وقد تقدم
أن المجد السعة ، وكثرة الخير ، وكثرة خير القرآن لا يعلمها الا
من تكلم به

وقوله (فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ) أكثر القراء على الجر ، صفة للوح .
وفيه إشارة الى أن الشياطين لا يمكنهم التنزل به ، لأن محله محفوظ
أن يصلوا اليه ، وهو في نفسه محفوظ أن يقدر الشيطان على
الزيادة فيه والنقصان . فوصفه سبحانه بأنه محفوظ في قوله (١٥ : ٩)
إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) ووصف محله بالحفظ في
هذه السورة . فالله سبحانه حفظ محله ، وحفظه من الزيادة والنقصان
والتبديل ، وحفظ معانيه من التحريف . كما حفظ ألفاظه من
التبديل ، وأقام له من يحفظ حروفه من الزيادة والنقصان ، ومعانيه
من التحريف والتغيير

(١٨) فصل

ومن ذلك اقسامه سبحانه : (١:٨٦ السَّمَاءُ وَالطَّارِقُ) وقد فسره بأنه
(النَّجْمُ الثَّاقِبُ) الذى يثقب ضوءه . والمراد به الجنس لانجم
معين . ومن عينه بأنه الثريا ، أَوْزُحَلْ ، فان أراد التمثيل فصحيح ،
وان أراد التخصيص فلا دليل عليه

والمقصود أنه سبحانه أقسم بالسما و نجومها المضيئة . وكل منها
آية من آياته الدالة على وحدانيته ، وسمى النجم طارقا ، لانه يظهر بالليل
بعد اختفائه بضوء الشمس ، فشبه بالطارق الذى يطرق الناس ، أو أهله
ليلا . قال الفراء : ما أتاك ليلا فهو طارق . وقال الزجاج ، والمبرد :
لا يكون الطارق نهارا . ولهذا تستعمل العرب الطروق فى صفة
الخيال كثيرا ، كما قال ذو الرمة :

ألا طرقت مئى هيو ما بذكرها وأيدى الشرىا جنح بالمغارب
وقال جرير :

طرقتك صائدة القلوب وليس ذا وقت الزيارة ، فارجى بسلام
ولهذا قيل : أول من رد الطيف جرير ، فلم يزل الناس على قبوله
واكرامه كالضيف . فالطيف والضيف كلاهما لا يرد . وقال الآخر :
ألا طرقت من آخر الليل زينب عليك سلام ، هل لمفات مطلب ؟

(١٩) فصل

والمقسم عليه ههنا حال النفس الانسانية ، والاعتناء بها ، واقامة الحفظة عليها . وانها لم تترك سدى ، بل قد أرصد عليها من يحفظ عليها أعمالها ، ويحصىها ، فأقسم سبحانه انه مامن نفس الا عليها حافظ من الملائكة ، يحفظ عملها وقولها ، ويحصى ما تكتسب من خير أو شر واختلاف القراء في «لَمَّا» فشدها بعضهم ، وخففها بعضهم . فمن قرأها بالتشديد جعلها بمعنى إلا ، وهى تكون بمعنى إلا فى موضعين * (أحدها) * بعد إن المخففة مثل هذا الموضع ، أو المثقلة مثل قوله (١١ : ١١) وإنَّ كَلَّا لَمَّا يُؤْفِقْنَهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ * (والثانى) * فى باب القسم ، نحو سألتك بالله لما فعلت . قال أبو على الفارسي : من خفف كانت عنده هى المخففة من الثقلية ، واللام فى خبرها هى الفارقة بين إن النافية والخفيفة وما زائدة ، وإن هى التى يتلقى بها القسم ، كما يتلقى بالمثقلة ومن قرأها مشددة كانت إن عنده نافية بمعنى ما ، ولما فى معنى إلا . قال سيبويه ، عن الخليل فى قولهم : نَشَدْتُكَ بالله لما فعلت . قال المعنى : إلا فعلت ثم نبه سبحانه الانسان على دليل المعاد بما يشاهده من حال مبدئه على طريقة القرآن فى الاستدلال على المعاد بالمبدأ . فقال (ه) فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ؟ (أى فليُنظر نظر الفكر والاستدلال ليعلم أن الذى ابتداء أول خلقه من نطفة قادر على إعادته

ثم أخبر سبحانه أنه خلقه من ماء دافق . والدَّفَقُ صب الماء ، يقال دفقت الماء فهو مدفوقٌ ودافقٌ ومندفق . فالمدفوق الذي وقع عليه فعلك ، كالمكسور ، والمضروب ، والمندفق المطاوع لفعل الفاعل تقول دفقته فاندفق ، كما تقول كسرتَه فانكسر . والدافق قيل انه فاعل بمعنى مفعول ، كقوله سر كاتم ، وعيشة راضية . وقيل : هو على النسب ، لا على الفعل ، أى ذى دفق ، أو ذات . ولم يرد الجريان على الفعل وقيل - وهو الصواب - انه اسم فاعل على بابهِ . ولا يلزم من ذلك أن يكون هو فاعل الدفق . فان اسم الفاعل هو من قام به الفعل ، سواء فعله هو أو غيره ، كما يقال : ماء جار ، ورجل ميت وان لم يفعل الموت ، بل لما قام به من الموت نسب اليه على جهة الفعل . وهذا غير منكر فى لغة أمة من الامم ، فضلا عن أوسع اللغات وأفصحها . وأما العيشة الراضية فالوصف بها أحسن من الوصف بالمرضية ، فانها اللائقة بهم ، فشبه ذلك برضاها بهم كما رضوا بها ، كأنها رضيت بهم ورضوا بها . وهذا أبلغ من مجرد كونها مرضية فقط فتأمله . وإذا كانوا يقولون : الوقت الحاضر ، والساعة الراهنة - وان لم يفعلا ذلك ، فكيف يمتنع أن يقولوا ماء دافق ، وعيشة راضية ؟

ونبه سبحانه بكونه دافقا على انه ضعيف غير متماسك ، ثم ذكر محله الذى يخرج منه ، وهو بين الصلب والترائب . قال ابن عباس :

صلب الرجل ، وترائب المرأة ، وهو موضع القلادة من صدرها .
والولد يخلق من المائين جميعا . وقيل : صلب الرجل وترائبها ، وهى
صدره ، فيخرج من صلبه وصدره ، وهذه الآية الدالة على قدرة
الخالق سبحانه نظير إخراج اللبن الخالص من بين القرث والدم
ثم ذكر الامر المستدل عليه والمعاد بقوله (إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ
لَقَادِرٌ) أى على رجعه اليه يوم القيامة ، كما هو قادر على خلقه من ماء
هذا شأنه . هذا هو الصحيح فى معنى الآية . وفيها قولان ضعيفان
* (أحدهما) * قول مجاهد : على رد الماء فى الاحليل لقادر * (والثانى) *
قول عكرمة والضحاك . على رد الماء فى الصلب . وفيه قول ثالث
قال مقاتل : ان شئت رددته من الكبر الى الشباب ، ومن الشباب
الى الصبا ، الى النطفة

والقول الصواب هو الاول لوجوه * (أحدها) * انه هو المعهود
من طريقة القرآن من الاستدلال بالمبدأ على المعاد * (الثانى) * أن ذلك
أدل على المطلوب من القدرة على رد الماء فى الاحليل * (الثالث) * انه
لم يأت لهذا المعنى فى القرآن نظير فى موضع واحد ، ولا أنكره أحد
حتى يقيم سبحانه الدليل عليه * (الرابع) * انه قيد الفعل بالظرف وهو
قوله (يَوْمَ تُبْطِلُ السَّرَائِرُ) وهو يوم القيامة ، أى ان الله قادر على
رجعه اليه حيا فى ذلك اليوم * (الخامس) * ان الضمير فى (رَجْعِهِ)
هو الضمير فى قوله (فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ) وهذا للانسان

قطعا لالماء* (السادس)* انه لا ذكر للاحليل ، حتى يتعين كون
المرجع اليه . فلو قال قائل : على رجعه الى الفرج الذى صب فيه لم يكن
فرق بينه وبين هذا القول ، ولم يكن أولى منه* (السابع)* ان رد الماء الى
الاحليل أو الصلب بعد خروجه منه غير معروف ، ولا هو أمر معتاد
جرت به القدرة ، وان كان مقدورا للرب تعالى ، ولكن هو لم
يجره ولم تجر به العادة ، ولا هو مما تكلم الناس فيه ، نفيًا أو اثباتًا ،
ومثل هذا لا يقرره الرب ولا يستدل عليه وينبه على منكريه ، وهو
سبحانه انما يستدل على أمر واقع ولا بد ، إما قد وقع ووجد أو سيقع
فان قيل : فقد قال تعالى (٧٥ : ٣) أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ لَنْ يَجْمَعَ
عِظَامُهُ ؟ بَلَى ، قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ) أى نجعله كخف البعير
قيل : هذه أيضا فيها قولان* (أحدهما)* هذا* (الثاني)* وهو الارجح -
أن تسوية بنانه إعادتها كما كانت ، بعد ما فرقتها البلى في التراب
* (الثامن)* أنه سبحانه دعا الانسان إلى النظر فيما خلق منه ليرده
نظره عن تكذيبه بما أخبر به ، وهو لم يخبره بقدرة خالقه على رد الماء
في إحليله بعد مفارقتها له ، حتى يدعو به الى النظر فيما خلق منه ، ليستصبح
منه صحة إمكان رد الماء* (التاسع)* أنه لا ارتباط بين النظر في مبدأ
خلقه ورد الماء في الاحليل بعد خروجه ، ولا تلازم بينهما ، حتى
يجعل أحدهما دليلا على إمكان الآخر ، بخلاف الارتباط الذى بين
المبدأ والمعاد ، والخلق الأول والخلق الثانى ، والنشأة الأولى والنشأة

الثانية . فانه ارتباط من وجوه عديدة ، ويلزم من إمكان أحدهما إمكان الآخر ، ومن وقوعه صحة وقوع الآخر . فحسن الاستدلال بأحدهما على الآخر

* (العاشر) * انه سبحانه نبه بقوله (إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ) على أنه قد وكل عليه من يحفظ عليه عمله ويحصىه ، فلا يضيع منه شيء . ثم نبه بقوله (إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ) على بعثه لجزائه على العمل الذى حفظ وأحصى عليه . فذكر شأن مبدأ عمله ونهايته ، فبدؤه محفوظ عليه ونهايته الجزاء عليه ، ونبه على هذا بقوله (يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ) أى تختبر . وقال مقاتل : تظهر وتبدو ، وبلوت الشيء إذا اختبرته ليظهر لك باطنه ، وما خفى منه . والسرائر جمع سريرة ، وهى سرائر الله التى بينه وبين عبده فى ظاهره وباطنه لله . فالإيمان من السرائر ، وشرائعه من السرائر . فتختبر ذلك اليوم ، حتى يظهر خيرها من شرها ، ومؤديها من مضيعها . وما كان لله مما لم يكن له . قال عبد الله بن عمر رضى الله عنهما : يبدي الله يوم القيامة كل سر فيكون زينا فى الوجوه ، وشينا فيها . والمعنى تختبر السرائر باظهارها ، واظهار مقتضياتها من الثواب والعقاب ، والحمد والذم .

وفى التعبير عن الأعمال بالسر لطيفة ، وهو ان الأعمال نتائج السرائر الباطنة ، فمن كانت سريرته صالحة كان عمله صالحا ، فتبدو سريرته على وجهه نورا واشراقا وحياء ، ومن كانت سريرته فاسدة كان عمله تابعا لسريرته ، لا اعتبار بصورته ، فتبدو سريرته على وجهه

سواداً وظلمة وشينا . وان كان الذى يبدو عليه فى الدنيا انما هو عمله لاسريرته ، فيوم القيامة تبدو عليه سريرته ، ويكون الحكم والظهور لها . قال الشاعر :

فان لها فى مضمرة القلب والحشا * سريرة حب يوم تبلى السرائر

ثم أخبر سبحانه عن حال الانسان فى يوم القيامة أنه غير متمتع من عذاب الله ، لا بقوة منه ولا بقوة من خارج ، وهو الناصر . فان العبد إذا وقع فى شدة ، فاما أن يدفعها بقوة أو قوة من ينصره . وكلاهما معدوم فى حقه . ونظيره قوله سبحانه (٢١ : ٤٣) لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِنْهَا يُصْحَبُونَ)

ثم أقسم سبحانه بـ (السَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ) فاقسم بالسما ورجعها بالمطر ، والأرض وصدعها بالنبات . قال الفراء . تبدى بالمطر ثم ترجع به ، فى كل عام . وقال أبو اسحق : الرجوع المطر ، لأنه يجىء ويرجع ويتكرر . وكذلك قال ابن عباس رضى الله عنهما : تبدى بالمطر ثم ترجع به . فى كل عام . والتحقيق أن هذا على وجه التمثيل . ورجع السماء هو اعطاء الخير الذى يكون من جهتها حالا بعد حال ، على مرور الأزمان . ترجعه رجعا ، أى تعطيه مرة بعد مرة . والخير كله من قبل السماء يجىء . ولما كان أظهر الخير المشهود بالعيان المطر فسر الرجوع به ، وحسن تفسيره به ومقابلته بصدع الأرض عن النبات ، وفسر الصدع بالنبات ، لانه

يصدع الارض أى يشقها . فاقسم سبحانه بالسما ذات المطر ،
والارض ذات النبات ، وكل من ذلك آية من آيات الله تعالى
الدالة على ربوبيته

واقسم على كون القرآن حقاً وصدقا فقال (إِنَّهُ الْقَوْلُ فَصْلٌ
وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ) كما أقسم في أول السورة على حال الانسان في مبدئه
ومعاده . والقول الفصل هو الذى يفصل بين الحق والباطل ، فيميز
هذا من هذا ، ويفصل بين الناس فيما اختلفوا فيه ، ومصيب الفصل
الذى ينفصل عنده المراد ويتميز من غيره ، كما قال : أصاب الفصل
وأصاب المرء . إذا أصاب بكلامه نفس المعنى المراد ، ومنه فصل
الخطاب . وأيضا فالقول الفصل ببيان المعنى ضد الالجمال . فكون
القرآن فصلا يتضمن هذه المعانى كلها ، ويتضمن كونه حقا ليس
بالباطل ، وجداً ليس بالهزل . ولما كان الهزل هو الذى لا حقيقة له -
وهو الباطل واللعب - قابل بين الفصل والهزل . وإنما يكيد المكذبون
ويحيلون ، ويخادعون لرده ، ولا يردونه بحجة ، والله يكيدهم كما
يكيدون دينه ورسوله وعباده ، وكيد سبجانه استدراجهم من حيث
لا يعلمون ، والاملاء لهم حتى يأخذهم على غرة ، كما قال تعالى
(٧ : ١٨٣) وَأْمُرْ لِي لَّهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ) فالانسان اذا أراد أن
يكيد غيره يظهر له إكرامه وإحسانه إليه حتى يطمئن إليه ، فيأخذه
كما يفعل الملوك ، فاذا فعل ذلك أعداء الله بأوليائه ودينه كان كيد

الله لهم حسنا لا قبح فيه ، فيعطيههم ويعافيههم وهو يستدرجهم ، حتى اذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة

ثم قال (فَمَهْلُ الْكَافِرِينَ أَمَلُهُمْ رُوَيْدًا) أى أنظرهم قليلا ولا تستعجل لهم ، والرب تعالى هو الذى يمهلهم . وإنما خرج الخطاب للرسول على جهة التهديد والوعيد لهم ، أو على معنى انتظر بهم قليلا . ورويدا فى كلامهم يكون اسم فعل ، فينصب بها الاسم نحو رويدا زيدا ، أى خله وأمهله ، وارقق به . الثانى أن يكون مصدرا مضافا الى المفعول ، نحو رويد زيدا ، أى امهال زيدا ، نحو ضرب الرقاب . الثالث أن يكون نعتا منصوبا ، نحو قولك : ساروا رويدا تقول العرب : ضعه رويدا ، أى وضعا رويدا . وفى حديث عائشة فى خروج النبي صلى الله عليه وسلم بالليل من عندها الى البقيع « فخرج رويدا ، وأجاف الباب رويدا (١) » ويجوز فى هذا الوجه وجهان أحدهما أن يكون حالا . والثانى أن يكون نعتا لمصدر محذوف ، فان أظهرت المنعوت تعين الوجه الثانى . ورويدا فى هذه الآية هو من هذا النوع الثالث . والله اعلم

(٢٠) فصل

ومن ذلك اقسامه (١٦: ٨٤ الشَّقَقِ ١٧ وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ١٨

(١) أجاف الباب : اغلقه والحديث رواه الامام احمد

والقمر إذا انسَقَ) فأقسم بثلاثة أشياء متعلقة بالليل * (أحدها) * الشفق ، وهو في اللغة الحمرة بعد غروب الشمس الى وقت صلاة العشاء الآخرة ، وكذلك هو في الشرع . قال الفراء ، والليث ، والزجاج ، وغيرهم : الشفق الحمرة في السماء . وأصل موضوع الحرف لرقعة الشيء . ومنه شيء شفق لا تماسك له لرقته ، ومنه الشفقة وهو الرقة . واشفق عليه اذا رق له . وأهل اللغة يقولون : الشفق بقية ضوء الشمس وحرمتها . ولهذا كان الصحيح أن الشفق الذي يدخل وقت العشاء الآخرة بغيوبته هو الحمرة ، فان الحمرة لما كانت بقية ضوء الشمس جعل بقاؤها حداً لوقت المغرب . فاذا ذهب الحمرة بعدت الشمس عن الأفق فدخل وقت العشاء . وأما البياض فانه يمتد وقته بطول ليله ، ويكون حاصله مع بعد الشمس عن الأفق . ولهذا صح عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه قال : الشفق الحمرة . والعرب تقول : ثوب مصبوغ كأنه الشفق ، اذا كان أحمر ، حكاه الفراء ، وكذلك قال الكلبي : الشفق الحمرة التي تكون في المغرب . وكذلك قال مقاتل : هو الذي يكون بعد غروب الشمس في الأفق قبل الظلمة . وقال عكرمة : هو بقية النهار . وهذا يحتمل أن يريد به ان تلك الحمرة بقية ضوء الشمس التي هي آية النهار . وقال مجاهد : هو النهار كله . وهذا ضعيف جداً . وكأنه لما رآه قابله بالليل وما وسق ، ظن أنه النهار . وهذا ليس بلازم

*(الثاني) * قسمه بالليل وما وسق ، أي وما ضم وحوى وجمع . والليل

وما ضمه وحواه آية أخرى ، والقمر آية ، واتساقه آية أخرى .
والشفق يتضمن إدبار النهار ، وهو آية ، واقبال الليل ، وهو آية
أخرى . فان هذا اذا أدبر خلفه الآخر ، يتعاقبان لمصالح الخلق .
فادبار النهار آية . واقبال الليل آية ، وتعقب أحدهما الآخر آية ،
والشفق الذي هو متضمن الامرين آية . والليل - آية . وما حواه
آية ، والهلل آية ، وتزايد كل ليلة آية ، واتساقه - وهو امتلاؤه
نورا - آية ، ثم أخذه في النقص آية . وهذه وامثالها آيات دالة على
ربوبيته ، مستلزمة للعلم بصفات كماله . ولهذا شرع - عند اقبال الليل
وادبار النهار - ذكر الرب تعالى بصلاة المغرب . وفي الحديث « اللهم
هذا إقبال ليلك وادبار نهارك ، وأصوات دعائك ، وحضور
صلواتك اغفر لي (١) » كما شرع ذكر الله بصلاة الفجر عند ادبار
الليل واقبال النهار . ولهذا يقسم سبحانه بهذين الوقتين كقوله
(٧٤: ٣٣) وَاللَّيْلِ إِذَا دُبِرَ ۝ وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ ۝ وهو يقابل إقسامه
بالشفق : ونظيره اقسامه ب(٨١: ١٧) اللَّيْلِ إِذَا عَسَسَ ۝ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ۝
ولما كان الرب تبارك وتعالى يحدث عن كل واحد من طرفي اقبال
الليل والنهار وادبارهما ما يحدثه ، ويبت من خلقه ما شاء . فينشر الارواح
الشیطانية عند اقبال الليل ، وينشر الارواح الانسانية عند اقبال النهار ،

(١) رواه أبو داود والترمذی عن أم سلمة ، قالت : علمني رسول الله
صلى الله عليه وسلم أن أقول عند اذان المغرب . وقال الترمذی حديث غريب

فيحدث هذا الانتشار في العالم أثره - شرع سبحانه في هذين الوقتين هاتين الصلاتين العظيمتين ، مع ما في ذلك من ذكره عند هاتين الآيتين المتعاقبتين ، وعند انصرام احدهما واتصال الأخرى بها ، مع ما بينهما من التضاد والاختلاف ، وانتقال الحيوان عند ذلك من حال الى حال ، ومن حكم الى حكم ، وذلك مبدأ ومعاد يومي ، مشهود للخائفة كل يوم وليلة ، فالحيوان والنبات في مبدأ ومعاد ، وزمان العالم في مبدأ ومعاد (أَوْ لَمْ يَرَوْا كَيْفَ يَبْدَأُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ؟ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ)

(٣١) فصل

وقوله (لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ) الظاهر أنه جواب القسم ، ويجوز أن يكون من القسم المحذوف جوابه ، ولتركبن وما بعده مستأنف وقرئ (وَلَتَرْكَبُنَّ) بضم الباء للجمع ، وبفتحها . فمن فتحها فالخطاب عنده للانسان ، أى لتركبن أيها الانسان . وقيل : هو النبي صلى الله عليه وسلم خاصة . وقيل : ليست التاء للخطاب ، ولكنها للغيبة ، أى لتركبن السماء طبقاً عن طبق . ومن ضمها فالخطاب للجماعة ليس إلا . فمن جعل الكناية للسماء قال : المعنى لتركبن السماء حالا بعد حال من حالاتها التي وصفها الله تعالى ، من الانشقاق ، والانفطار ، والطي ، او كونها كالمهل مرة ، وكالدّهان مرة ، ومورانها

وَتَفَتَّحَهَا ، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنْ حَالَاتِهَا ، وَهَذَا قَوْلُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ . وَدَلَّ عَلَى السَّمَاءِ ذِكْرَ الشَّفَقِ وَالْقَمَرِ . وَعَلَى هَذَا فَيَكُونُ قِسْمًا عَلَى الْمَعَادِ وَتَغْيِيرِ الْعَالَمِ

وَمَنْ قَالَ الْخُطَابَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَلَهُ ثَلَاثُ مَعَانٍ : لِتَرْكِبِنَ سَمَاءٍ بَعْدَ سَمَاءٍ ، حَتَّى تَنْتَهِيَ إِلَى حَيْثُ يَصْعَدُكَ اللَّهُ . هَذَا قَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي رِوَايَةٍ مُجَاهِدٍ ، وَقَوْلُ مَسْرُوقٍ وَالشَّعْبِيِّ ، قَالُوا : وَالسَّمَاءُ طَبَقٌ ، وَهَذَا يَقَالُ لِلْسَّمَوَاتِ السَّبْعِ الطَّبَاقِ . وَالْمَعْنَى الثَّانِي لِتَصْعَدَنَّ دَرَجَةً بَعْدَ دَرَجَةٍ ، وَمَنْزِلَةً بَعْدَ مَنْزِلَةٍ ، وَرَتَبَةً بَعْدَ رَتَبَةٍ ، حَتَّى تَنْتَهِيَ إِلَى مَحَلِّ الْقَرَبِ وَالزَّلَاقِي مِنَ اللَّهِ . وَالْمَعْنَى الثَّالِثُ لِتَرْكِبِنَ حَالًا بَعْدَ حَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ الْمُخْتَلِفَةِ الَّتِي نَقَلَ اللَّهُ فِيهَا رَسُولَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، مِنَ الْهَبْجَةِ ، وَالْجِهَادِ ، وَنَصْرِهِ عَلَى عَدُوِّهِ ، وَإِدَالَةِ الْعَدُوِّ عَلَيْهِ تَارَةً ، وَغَنَاهُ وَفَقْرَهُ ، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنْ حَالَاتِهِ الَّتِي تَنْقَلِفُ فِيهَا إِلَى أَنْ يَبْلُغَ مَا بَلَغَهُ إِيَّاهُ

وَمَنْ قَالَ : الْخُطَابَ لِلْإِنْسَانِ أَوْ لِمَجْلَمَةِ النَّاسِ فَالْمَعْنَى وَاحِدٌ ، وَهُوَ تَنْقَلِفُ الْإِنْسَانِ حَالًا بَعْدَ حَالٍ ، مِنْ حِينَ كَوْنِهِ نَظْفَةً إِلَى مُسْتَقَرِّهِ مِنَ الْجَنَّةِ أَوِ النَّارِ . فَكَمْ بَيْنَ هَذَيْنِ مِنَ الْإِطْبَاقِ وَالْأَحْوَالِ لِلْإِنْسَانِ وَأَقْوَالِ الْمُفَسِّرِينَ كُلِّهَا تَدُورُ عَلَى هَذَا . قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا : لِتَصِيرَنَّ الْأُمُورُ حَالًا بَعْدَ حَالٍ . وَقِيلَ لِتَرْكِبِنَ أَيُّهَا الْإِنْسَانُ حَالًا بَعْدَ حَالٍ ، مِنَ النَّظْفَةِ ، إِلَى الْعَلَقَةِ ، إِلَى الْمُضْغَةِ ، إِلَى كَوْنِهِ

حيا ، الى خروجه الى هذه الدار ، ثم ركوبه طبق التمييز بين ما ينفعه ويضره ، ثم ركوبه بعد ذلك طبقاً آخر ، وهو طبق البلوغ ثم ركوبه طبق الأشد ، ثم طبق الشيخوخة ، ثم طبق الهرم ، ثم ركوبه طبق ما بعد الموت في البرزخ ، وركوبه في أثناء هذه الأحوال أطباقاً عديدة ، لا يزال ينتقل فيها حالا بعد حال الى دار القرار. فذلك آخر أطباقه التي يعلمها العباد ، ثم يفعل الله سبحانه بعد ذلك ما يشاء

واختار أبو عبيدة قراءة الضم ، وقال : المعنى بالناس أشبه منه بالنبي صلى الله عليه وسلم ، فانه ذكر قبل الآية من يؤتى كتابه بيمينه ومن يؤتى كتابه بشماله ، ثم ذكر بعدها قوله (فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ؟) فذكر كونهم طبقا بعد طبق . قال الواحدى : وهذا قول أكثر المفسرين قالوا : لتركبن حالا بعد حال ، ومنزلا بعد منزل ، وأمرأ بعد أمر . قال سعيد بن جبير ، وابن زيد : لتكونن في الآخرة بعد الأولى ، ولتصيرن أغنياء بعد الفقر ، وفقراء بعد الغنى ، وقال عطاء : شدة بعد شدة . وقال أبو عبيدة : لتركبن سنة من كان قبلكم في التكذيب والاختلاف على الرسل

وانت إذا تأملت هذا المقسم به والمقسم عليه وجدته من أعظم الآيات الدالة على الربوبية ، وتغيير الله سبحانه للعالم ، وتصريفه له كيف أراد ، ونقله إياه من حال الى حال . وهذا محال أن يكون

بنفسه من غير فاعل مدبر له . ومحال أن يكون فاعله غير قادر ،
ولاحي ، ولا مريد ، ولا حكيم ، ولا عليم . وكلاهما في الامتناع سواء
فالمقسم به وعليه من أعظم الأدلة على ربوبيته ، وتوحيده ،
وصفات كماله ، وصدقه ، وصدق رسله . وعلى المعاد . ولهذا عقب
ذلك بقوله (فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ) إنكارا على من لم يؤمن بعد ظهور
هذه الآيات المستلزمة لدلولها أتم استلزام . وأنكر عليهم عدم
خضوعهم وسجودهم للقرآن المشتمل على ذلك ، بأفصح عبارة
وأبينها وأجزلها وأوجزها . فالمعنى أشرف معنى ، والعبارة أشرف
عبارة : غاية الحق بغاية البيان والفصاحة

(بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يَكْذِبُونَ) ولا يصدقون بالحق جحودا
وعنادا (وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ) بما يضمرون في صدورهم ويكتمونه ،
وما يسيرونه من أعمالهم وما يجمعونه ، فيجازيهم عليه بعله وعدله
(إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ)

(٢٢) فصل

ومن ذلك قوله سبحانه (١٥ : ٨١) فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنُوسِ ١٦ الْجَوَارِ
الْكُنُوسِ ١٧ وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ١٨ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ) أقسم

سبحانه بالنجوم في أحوالها الثلاثة . من طلوعها ، وجريانها ، وغروبها . هذا قول علي ، وابن عباس ، وعامة المفسرين . وهو الصواب

والخنس جمع خانس . والخنس الانقباض والاختفاء ، ومنه سمي الشيطان خناسا ، لانقباضه وانكماشه حين يذكر العبد ربه . ومنه قول أبي هريرة فانخنست (١) والكنس جمع كنس ، وهو الداخل في كناسه ، أي في بيته . ومنه تكنست المرأة اذا دخلت في هودجها . ومنه كنست الطباء ، اذا أوت الى أكناسها

والجوارى جمع جارية ، كغاشية وغواش . قال علي بن أبي طالب رضى الله عنه : النجوم تخنس بالنهار وتظهر بالليل . وهذا قول مقاتل وعطاء وقتادة وغيرهم . قالوا : السكوا كب تخنس بالنهار ، فتحذف ولا ترى ، وتكنس في وقت غروبها . ومعنى تخنس - على هذا القول - تتأخر عن البصر ، وتتوارى عنه باخفاء النهار لها . وفيه قول آخر ، وهو ان خنوسها رجوعها ، وهى حركتها الشرقية ، فان لها حركتين حركة بفعلها وحركة بنفسها ، فخنوسها حركتها بنفسها

(١) روى أحمد والبخارى ومسلم وأصحاب السنن عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم لقيه في بعض طرق المدينة وهو جنب ، فانخنس منه فذهب فاغتسل ، ثم جاء ، فقال له « أين كنت يا أبا هريرة ؟ » فقال كنت جنباً ، فكرهت أن أجالسك وأنا على غير طهارة . فقال « سبحان الله ، ان المؤمن لا يتنجس »

راجعة . وعلى هذا فهو قسم بنوع من السكواكب ، وهى السيارة .
وهذا قول الفراء . وفيه قول ثالث ، وهو ان خنوسها وكنوسها
اختفاؤها وقت مغيبها ، فتغيب فى مواضعها التى تغيب فيها . وهذا
قول الزجاج

ولما كان للنجوم حال ظهور ، وحال اختفاء ، وحال جريان ، وحال
غروب - أقسم سبحانه بها فى أحوالها كلها . ونبه بخنوسها على حال
ظهورها ، لأن الخنوس هو الاختفاء بعد الظهور ، ولا يقال لما لا يزال
مختفياً : انه قد خنس . فذكر سبحانه جريانها وغروبها صريحاً ،
وخنوسها وظهورها ، واكتفى من ذكر طلوعها بجريانها الذى
مبدؤه الطلوع . فالطلوع أول جريانها
فتمنن القسم طلوعها ، وغروبها وجريانها ، واختفاءها . وذلك
من آياته ودلائل ربوبيته .

وليس قول من فسرها بالظباء وبقر الوحش بالظاهر لوجوه
* (احدها) * أن هذه الاحوال فى السكواكب السيارة أعظم آية
وعبرة * (الثانى) * اشتراك أهل الارض فى معرفته بالمشاهدة والعيان
* (الثالث) * أن البقر والظباء ليست لها حالة تختفى فيها عن العيان
مطلقاً ، بل لاتزال ظاهرة فى القلوات * (الرابع) * ان الذين فسروا
الآية بذلك قالوا ليس خنوسها من الاختفاء . قال الواحدى : هو
من الخنس فى الانف ، وهو تأخر الارنبه وقصر القصبة ، والبقر
والظباء أنوفهن خنس والبقرة خنساء ، والظبي أخنس . ومنه سميت

الخنساء (١) لخنس أنفها . ومعلوم ان هذا أمر خفي يحتاج الى تأمل ،
وأكثر الناس لا يعرفونه . وآيات الرب التي يقسم بها
لا تكون الا ظاهرة جليلة يشترك في معرفتها الخلائق ، وليس
الخنس في أنف البقرة والظباء بأعظم من الاستواء والاعتدال في
أنف ابن آدم ، فالآية فيه أظهر * (الخامس) * أن كنوسها في أكتفها
ليس بأعظم من دخول الطير وسائر الحيوانات في بيته الذي يأوى
فيه ، ولا أظهر منه ، حتى يتعين للقسم * (السادس) * أنه لو كان جمعا
للظبي لقال الخنس - بالتسكين - لأنه جمع أخنس ، فهو كأحمر وحمُر
ولو أريد به جمع بقرة خنساء لكان على وزن فعلاء أيضا ، كحمرأ وحمُر
فلها جاء جمعه على فُعَل - بالتشديد - استحالة أن يكون جمعا لواحد
من الظباء والبقر . وتعين أن يكون جمعا لخانس ، كشاهد وشهَدَ ،
وصائم وصَوِّم ، وقائم وقَوِّم ، ونظائرهما * (السابع) * أنه ليس بالبين
اقسام الرب تعالى بالبقر والغزلان ، وليس هذا عرف القرآن
ولا عادته ، وإنما يقسم سبحانه من كل جنس بأعلاه ، كما أنه لما أقسم
بالنفوس أقسم بأعلاها ، وهي النفس الانسانية . ولما أقسم بكلامه
أقسم بأشرفه وأجله ، وهو القرآن . ولما أقسم بالعلويات أقسم
بأشرفها وهي السماء ، وشمسها وقمرها ، ونجومها . ولما أقسم بالزمان
أقسم بأشرفه ، وهو الليالي العشر . وإذا أراد سبحانه أن يقسم بغير

(١) هي تماضر بنت عمرو بن الشريد السامية الشاعرة الصحابية
رضي الله عنها

ذلك ادرجه في العموم ، كقوله (فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ) وقوله الذِّكْرَ وَالْأُنْثَى) في قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحو ذلك * (الثامن) * أن اقتران القسم بالليل والصبح يدل على أنها النجوم ، والافليس باللائق اقتران البقر والغزلان والليل والصبح في قسم واحد . وبهذا احتج أبو اسحاق على أنها النجوم . فقال : هذا أليق بذكر النجوم منه بذكر الوحش * (التاسع) * انه لو أراد ذلك سبحانه ليبينه وذكر ما يدل عليه ، كما انه لما أراد بالجوارى السفن قال (٤٢ : ٣٢ وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ) وهنا ليس في اللفظ ولا في السياق ما يدل على أنها البقر والظباء . وفيه ما يدل على أنها النجوم من الوجوه التي ذكرناها وغيرها * (العاشر) * أن الارتباط الذي بين النجوم التي هي هداية للسالكين ورجوعهم للشياطين وبين المقسم عليه - وهو القرآن ، الذي هو هدى للعالمين ، وزينة للقلوب ، وداحض لشبهات الشيطان - أعظم من الارتباط الذي بين البقر والظباء والقرآن . والله أعلم

(٢٣) فصل

واختلف في عسعة الليل ، هل هي اقباله أم إدباره ؟ فالأكثرون على ان عسعس بمعنى ولى وذهب وأدبر . هذا قول علي وابن عباس

وأصحابه . قال الحسن : أقبل بظلامه ، وهو إحدى الروايتين
عن مجاهد

فمن رجع الاقبال قال : أقسم الله سبحانه وتعالى باقبال الليل
واقبال النهار . فقوله (وَالصُّبْحُ إِذَا تَنَفَّسَ) مقابل لليل إذا
عسعس . قالوا : ولهذا أقسم الله : (بِاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى وَالنَّهَارَ إِذَا تَجَلَّى)
وبالضحى . قالوا فغشيان الليل نظير عسعسته ، وتجلي النهار نظير
تنفس الصبح ، اذ هو مبدؤه وأوله

ومن رجع أنه ادباره احتج بقوله تعالى (٧٤ : ٣٢ كَلَّا وَالْقَمَرَ
٣٣ وَاللَّيْلَ إِذَا أَدْبَرَ ٣٤ وَالصُّبْحَ إِذَا أَسْفَرَ) فأقسم بادبار الليل
واسفار الصبح ، وذلك نظير عسعسة الليل ، وتنفس الصبح ، قالوا :
والأحسن أن يكون القسم بانصرام الليل ، واقبال النهار . فانه عقيقه
من غير فصل . فهذا أعظم في الدلالة والعبرة ، بخلاف اقبال الليل
واقبال النهار ، فانه لم يعرف القسم في القرآن بهما ، ولان بينهما
زمننا طويلا . فالآية في انصرام هذا ومجيء الآخر عقيقه بغير
فصل أبلغ . فذكر سبحانه حالة ضعف هذا ، وادباره ، وحالة قوة
هذا وتنفسه . واقباله يطرد ظلمة الليل بتنفسه ، فكما تنفس هرب
الليل وأدبر بين يديه . وهذا هو القول . والله أعلم

(٢٤) فصل

ثم ذكر سبحانه المقسم عليه ، وهو القرآن ، وأخبر أنه قول رسول كريم ، وهو ههنا جبريل قطعاً . لأنه ذكر صفته بعد ذلك بما يعينه به . وأما الرسول الكريم في الحاقة فهو محمد صلى الله عليه وسلم لأنه نفى بعده أن يكون قول من زعم من أعدائه انه قوله . فقال (٦٩ : ٤١) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ ٤٢ وَلَا يَقُولِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَدْعُرُونَ) فأضافه الى الرسول الملوك تارة ، والى البشرى تارة ، وإضافته الى كل واحد من الرسولين إضافة تبليغ لا إضافة إنشاء من عنده ، والا تناقضت النسبتان . ولفظ الرسول يدل على ذلك . فان الرسول هو الذى يبلغ كلام من أرسله . وهذا صريح فى انه كلام من أرسل جبريل ومحمد صلى الله عليه وسلم ، وأن كلامهما بلغه عن الله ، فهو قوله مبلغاً ، وقول الله الذى تكلم به حقاً . فلا راحة لمن أنكر أن يكون الله متكلماً بالقرآن وهو كلامه حقاً فى هاتين الآيتين ، بل هما من أظهر الأدلة على كونه كلام الرب تعالى ، وانه ليس للرسولين الكريمين منه الا التبليغ ، فجبريل سمعه من الله ، ومحمد صلى الله عليه وسلم سمعه من جبريل ووصف رسوله الملوك فى هذه السورة بأنه كريم ، قوى ، مكين عند الرب تعالى ، مطاع فى السموات ، أمين ، فهذه خمس صفات تتضمن

تذكية سند القرآن ، وانه سماع محمد من جبريل ، وسماع جبريل من رب العالمين . فناهيك بهذا السند علوا وجلالة : قول الله سبحانه بنفسه تزكيتك الصفة الأولى كون الرسول الذي جاء به الى محمد صلى الله عليه وسلم كريما ليس كما يقول اعداؤه : ان الذي جاء به شيطان ، فان الشيطان حيث مخبث ، لئيم ، قبيح المنظر ، عديم الخير ، باطنه أقبح من ظاهره ، وظاهره أشنع من باطنه ، وليس فيه ولا عنده خير فهو أبعد شئ عن الكرم . والرسول الذي ألقى القرآن الى محمد صلى الله عليه وسلم كريم ، جميل المنظر ، بهي الصورة ، كثير الخير ، طيب مطيب ، معلم الطيبين . وكل خير في الأرض من هدى وعلم ومعرفة وإيمان وبر ، فهو مما أجراه ربه على يده وهذا غاية الكرم الصورى والمعنوى

الوصف الثانى انه ذو قوة كما قال فى موضع آخر (٥٣ : ٥ عِلْمُهُ شَدِيدُ الْقُوَى) وفى ذلك تنبيه على أمور

*) (أحدها) * انه بقوته يمنع الشياطين ان تدنوا منه ، وأن ينالوا منه شيئا ، وأن يزيدوا فيه أو ينقصوا منه ، بل اذا رآه الشيطان هرب منه ولم يقر به

*) (الثانى) * انه موال لهذا الرسول الذى كذبتموه ، ومعاضد له ، وموادله وناصر ، كما قال تعالى (٦٦ : وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ)

ومن كان هذا القوي وليه ، ومن انصاره ، وأعوانه ، ومعلمه ،
فهو المهدي المنصور ، والله هاديه ، وناصره

(الثالث) أن من عادى هذا الرسول فقد عادى صاحبه ووليه
جبريل ، ومن عادى ذا القوة والشدة فهو عرضة للهلاك

(الرابع) أنه قادر على تنفيذ ما أمر به لقوته ، فلا يعجز عن
ذلك ، مؤد له كما أمر به لأمانته ، فهو القوى الأمين ، وأحدكم إذا
انتدب غيره في أمر من الأمور لرسالة ، أو ولاية ، أو وكالة أو غيرها
فإنما ينتدب لها القوى عليه الأمين على فعله ، وإن كان ذلك الأمر
من أهم الأمور عنده انتدب له قويا آمينا معظما ذا مكانة عنده ،
مطاعا في الناس ، كما وصف الله عبده جبريل بهذه الصفات . وهذا يدل
على عظمة شأن المرسل ، والرسول ، والرسالة ، والمرسل اليه ،
حيث انتدب له الكريم القوى المسكين عنده ، المطاع في الملأ
الأعلى ، الأمين حق الأمين . فإن الملوك لا ترسل في مهماتها إلا
الاشراف ، ذوي الاقدار والرتب العالية

وقوله (عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٌ) أى له مكانة ووجاهة عنده ،
وهو أقرب الملائكة اليه . وفي قوله (عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ) إشارة ،
الى علو منزلة جبريل ، اذ كان قريباً من ذى العرش سبحانه
وفي قوله (مُطَاعٌ نَمَّ) إشارة الى أن جنوده وأعوانه

يطيعونه اذا ندبهم لنصر صاحبهم وخليله محمد صلى الله عليه وآله وسلم .
وفيه اشارة أيضا الى أن هذا الذى تكذبونه وتعادونه سيصير
مطاعا فى الارض ، كما أن جبريل مطاع فى السماء ، وأن كلام الرسولين
مطاع فى محله وقومه . وفيه تعظيم له بأنه بمنزلة الملوك المطاعين فى
قومهم ، فلم ينتدب لهذا الأمر العظيم الا مثل هذا الملك المطاع
وفى وصفه بالامانة إشارة الى حفظه ما حمله ، وأدائه له على وجهه
ثم زهده رسول البشرى وزكاه عما يقول فيه أعداؤه . فقال (وَمَاصًا حَبِيبُكُمْ
يَعْمَلُونَ) وهذا أمر يعلمونه ولا يشكون فيه ، وان قالوا بالسنتهم
خلافه ، فهم يعلمون انهم كانوا كاذبين

ثم أخبر عن رؤيته صلى الله عليه وآله وسلم لجبريل . وهذا يتضمن
أنه ملك موجود فى الخارج ، يرى بالعيان ، ويدركه البصر ، لا كما
يقوله المتفلسفة . ومن قلدتهم : أنه العقل الفعال ، وأنه ليس مما يدرك
بالبصر ، وحقيقته عندهم أنه خيال موجود فى الازهان لا فى الالعيان .
وهذا مما خالفوا به جميع الرسل وأتباعهم ، وخرجوا به عن جميع
الملل . ولهذا كان تقرير رؤية النبي صلى الله عليه وآله وسلم لجبريل أهم
من تقرير رؤيته لربه تعالى . فان رؤيته لجبريل هى أصل الأيمان الذى
لا يتم الا باعتقادها . ومن أنكرها كفر قطعا . وأما رؤيته لربه
تعالى فغايتها أن تكون مسئلة نزاع لا يكفر جاحدها بالاتفاق .
وقد صرح جماعة من الصحابة بأنه لم يره . وحكى عثمان بن سعيد

الدارمى اتفاق الصحابة على ذلك (١) فنحن الى تقرير رؤيته لجبريل
أحوج منا الى تقرير رؤيته لربه تعالى . وان كانت رؤية الرب
أعظم من رؤية جبريل ومن دونه . فان النبوة لا يتوقف ثبوتها
عليها البتة

ثم نزه رسوله كليهما - أحدهما بطريق النطق ، والثانى بطريق
اللزوم - عما يضاد مقصود الرسالة من الكتمان الذى هو الضنة
والبخل ، والتبديل ، والتغيير الذى يوجب التهمة ، فقال (وما هو
عَلَى الْغَيْبِ بِمُضْنٍ) فان الرسالة لا يتم مقصودها الا بأمرين : أدائها
من غير كتمان ، وأدائها على وجهها من غير زيادة ولا نقصان .
والقراءتان كالأيتين ، فتضمنت احدهما - وهى قراءة الضاد - تنزيهه
عن البخل . فان الضنين هو البخل ، يقال ضننت به أضن ، بوزن
بخلت به ابخل ومعناه : ومنه قول جميل بن معمر :

أجود بمضنون التلاد واتى * بسر ك عمن سالتى لثنين

قال ابن عباس رضى الله عنهما : ليس بخيلا بما أنزل الله . وقال
مجاهد : لا يضمن عليهم بما يعلم .

وأجمع المفسرون على ان الغيب ههنا القرآن والوحى . وقال

(١) فى كتاب الرد على بشر المريسي الجهمى . وهو من أنفس ما كتب
فى بيان عقيدة أهل السنة من السلف . وفى الرد على الجهمية وغيرهم
من أهل العقائد الزائفة الضلالة

الفراء ، يقول تعالى : يأتيه غيب السماء وهو منفوس فيه ، فلا يضمن به عليكم ، وهذا معنى حسن جدا ، فإن عادة النفوس الشح بالشئ النفيس ، ولا سيما عمن لا يعرف قدره ، ويذمه ويذم من هو عنده ومع هذا فهذا الرسول لا ييخل عليكم بالوحى الذى هو أنفس شئ وأجله . وقال أبو على الفارسى : المعنى يأتيه الغيب فيبينه ويخبر به ويظهره ، ولا يكتمه كما يكتم الكاهن ما عنده ، ويخفيه حتى يأخذ عليه حلوانا . وفيه معنى آخر ، وهو أنه على ثقة من الغيب الذى يخبر به فلا يخاف أن ينتقض ، ويظهر الأمر بخلاف ما أخبر به ، كما يقع للكهان وغيرهم ممن يخبر بالغيب . فإن كذبهم أضعاف صدقهم ، وإذا أخبر أحدهم بخبر لم يكن على ثقة منه ، بل هو خائف من ظهور كذبه . فاقدام هذا الرسول على الاخبار بهذا الغيب العظيم الذى هو أعظم الغيب واثقا به ، مقبلا عليه ، مسديا له فى كل مجمع ، ومعيدا مناديا به على صدقه ، مجلبا به على أعدائه من أعظم الأدلة على صدقه .

وأما قراءة من قرأ (بظنين) بالطاء ، فمعناه المتهم ، يقال : ظننت زيدا بمعنى اتهمته ، وليس من الظن الذى هو الشعور والادراك ، فإن ذلك يتعدى الى مفعولين . ومنه ما أنشده أبو عبيدة :

أما وكتاب الله لا عن شناعة * هجرت ، ولكن المحب ظنين
والمعنى : وما هذا الرسول على القرآن بمتهم ، بل هو أمين لا يزيد

فيه ولا ينقص ، وهذا يدل على ان الضمير يرجع الى محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، لانه قد تقدم وصف الرسول الملكى بالامانة . ثم قال (وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ) ثم قال (وَمَا هُوَ) أى وما صاحبكم بمتهم ولا بخيل واختار أبو عبيدة قراءة الظاء لمعنيين : أحدهما أن الكفار لم يخلوه . وإنما اتهموه ، فنفي التهمة أولى من نفي البخل . الثانى انه قال (على الغيب) ولو كان المراد البخل لقال بالغيب ، لانه يقال فلان ضنين بكذا وقلبا يقال على كذا

قلت : ويرجح انه وصفه بما وصف به رسوله الملكى ، من الامانة ، فنفي عنه التهمة كما وصف جبريل بأنه أمين ، ويرجح اينا انه سبحانه نفى أقسام الكذب كلها عما جاء به من الغيب ، فان ذلك لو كان كذبا ، فاما أن يكون منه ، أو ممن عليه ، وان كان منه ، فاما أن يكون تعمده أو لم يتعمده ، فان كان من معمله فليس هو بشيطان رجيم ، وان كان منه مع التعمد فهو المتهم ، ضد الامين . وان كان عن غير تعمد فهو المجنون . فنفي سبحانه عن رسوله ذلك كله ، وزكى سند القرآن أعظم تزكية . فلماذا قال سبحانه (وَمَا هُوَ يَقُولُ شَيْطَانٌ رَجِيمٌ) ليس تعليم الشيطان ولا يقدر عليه ، ولا يحسن منه كما قال تعالى (٢٦: ٢١٠) وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ ٢١١ وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَظِيلُونَ فنفي فعله وابتغاء منهم ، وقدرتهم عليه . وكل من له أدنى خبرة بأحوال الشياطين والمجانين والمتهمين ، وأحوال الرسل يعلم علما

لا يمارى فيه ولا يشك ، بل عليها ضروريا ، كسائر الضروريات - منافاة أحدهما للآخر ، ومضادته له . كمنافاة أحد الضدين لصاحبه بل ظهور المنافاة بين الأمرين للعقل أبين من ظهور المنافاة بين النور والظلمة للبصر . ولهذا وبخسبجانه من كفر بعد ظهور هذا الفرق المبين بين دعوة الرسل ودعوة الشياطين . فقال (أَيْنَ تَذْهَبُونَ ؟) قال أبو اسحاق فأى طريق تسلكون أبين من هذه الطريقة التى بينت لكم ؟

قلت : هذا من أحسن اللازم وأبينه ، أن تبين للسامع الحق ثم تقول له : ائش تقول خلاف هذا ؟ وأين تذهب خلاف هذا . قال تعالى (٧٧ : ٥٠) فَبَأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ) وقال (فَبَأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ ؟) فالأمر منحصر فى الحق والباطل ، والهدى والضلال ، فاذا عدلتم عن الهدى والحق ، فأين العدول ، وأين المذهب ؟

ونظير هذا قوله (٤٧ : ٢٢) فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ) أى ان أعرضتم عن الإيمان بالقرآن والرسول وطاعته فليس الا الفساد فى الأرض ، والشرك والمعاصى وقطيعة الرحم . ونظيره قوله تعالى (٥٠ : ٥) بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ) لما تركوا الحق وعدلوا عنه مرج عليهم أمرهم والتبس ، فلا يدرون ما يقولون وما يفعلون ، بل لا يقولون شيئا

الا كان باطلا ، ولا يفعلون شيئا الا كان ضائعا غير نافع لهم ،
وهذا شأن كل من خرج عن الطريق الموصل الى المقصود ، ونظيره
قوله تعالى (فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّهُمْ لَا يُدْعُونَ أَهْوَاءَهُمْ)
وقد كشف هذا المعنى كل الكشف بقوله عز وجل (١٠ : ٣٢) فَذَلِكُمُ
اللَّهُ رَبُّكُمْ ، الْحَقُّ فَمَازَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ؟

(٢٥) فصل

ثم أخبر تعالى عن القرآن بأنه ذكر للعالمين . وفي موضع آخر
تذكرة للمتقين . وفي موضع آخر ذكر لرسوله صلى الله عليه وسلم
ولقومه . وفي موضع آخر ذكر مطلق . وفي موضع آخر ذكر مبارك .
وفي موضع آخر وصفه بأنه ذو الذكر

ويجمع هذه المواضع تبين المراد من كونه ذكرا عاما وخصوصا ،
وكونه ذا ذكر ، فانه يذكر العباد بمصالحهم في معاشهم ومعادهم ،
ويذكرهم بالمبدأ والمعاد ، ويذكرهم بالرب تعالى وأسمائه وصفاته
وأفعاله ، وحقوقه على عباده ، ويذكرهم بالخير ليقصده ، وبالشر
ليجتنبوه . ويذكرهم بنفوسهم ، وأحوالها وآفاتهما ، وما تكمل
به . ويذكرهم بعدوهم وما يريد منهم ، وبماذا يحترزون من كيدته ،
ومن أى الأبواب والطرق يأتى اليهم . ويذكرهم بفاقتهم وحاجتهم
اليه ، وانهم مضطرون اليه لا يستغنون عنه نفسا واحدا . ويذكرهم

بنعمه عليهم، ويدعوهم بها الى نعم أخرى أكبر منها ويذكرهم بأسه وشدة بطشه، وانتقامه من عصي أمره، وكذب رسله ويذكرهم بثوابه وعقابه ولهذا يأمر سبحانه عباده أن يذكروا ما في كتابه، كما قال:

(٢: ٦٣) خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ
 وإذا كان كذلك فأحق وأولى وأول من كان ذا كراه من أنزل عليه، ثم لقومه، ثم لجميع العالمين. وحيث خص به المتقين فلائهم الذين انتفعوا بذكره

وأما وصفه بأنه ذو الذكر فلا أنه مشتمل على الذكر، فهو صاحب الذكر، ومنه الذكر. فهو ذكر وفيه الذكر. كما أنه هدى وفيه الهدى وشفاء وفيه الشفاء، ورحمة وفيه الرحمة

وقوله سبحانه (٢٨: ٨١) لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ) بدل من العالمين. وهو بدل بعض من كل. وهذا من أحسن ما يستدل به على أن البدل في قوة ذكر عاملين مقصودين فإن جهة كونه ذكرا للعالمين كلهم غير جهة كونه ذكرا لأهل الاستقامة فإنه ذكر للعموم بالصلاحية والقوة وذكر لأهل الاستقامة بالحصول والنفع، فكأن البدل أخص من المبدل منه فالعامل المقدر فيه أخص من العامل الملفوظ في المبدل منه. ولا بد من هذا فتأمل

وقوله (لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ) رد على الجبرية القائلين بأن العبد لا مشيئة له، أو أن مشيئته مجرد علامة على حصول الفعل لا ارتباط

بينها وبينه الامجرد اقتران عادي من غير أن يكون سببا فيه
وقوله (٢٩: ٨١ وما تشاؤون إلا أن يشاء الله) رد على القائلين
بأن مشيئة العبد مستقلة بايجاد الفعل من غير توقف على مشيئة الله ،
بل متى شاء العبد الفعل وجد ، ويستحيل عندهم تعلق مشيئة الله
بفعل العبد، بل هو يفعله بدون مشيئة الله

فالآيتان مبطلتان لقول الطائفتين. فان قال الجبري : هو سبحانه
لم يقل إن الفعل واقع بمشيئة العبد ، بل أخبر أن الاستقامة تحصل
عند المشيئة ، ونحن قائلون بذلك، وقال القدرى قوله (وما تشاؤون
الا أن يشاء الله) مختلفة ، فمشيئة العبد هي الموجبة للفعل التي بها يقع
ومشيئة الله لفعله هو أمره بذلك ونحن لا ننكر ذلك

فالجواب أن هذا من تحريف الطائفتين . أما الجبري فيقال له اقتران
الفعل عندك بمشيئة العبد بمنزلة اقترانه بكونه وشكله وسائر أغراضه
التي لا تأثير لها في الفعل ، فان نسبة جميع أغراضه إلى الفعل في عدم
التأثير نسبة إرادية عندك. والاقتران حاصل بجميع أغراضه . فما
الذي أوجب تخصيص المشيئة ؟ سوى الله سبحانه في فطر الناس
أو عقولهم ، أو شرائعهم ، بين نسبة المشيئة والارادة إلى الفعل ، ونسبة
سائر أغراض الخي إذا كان عندك ليس إلا مجرد الاقتران عادة ؟
والاقتران العادي حاصل مع الجميع

وأما القدرى فتحريفه أشد، لانه حمل المشيئة على الأمر وقال: المعنى

وماتشأؤون الا بأمر الله . وهذا باطل قطعاً ، فان المشيئة في القرآن لم تستعمل في ذلك ، وإنما استعملت في مشيئة التكوين كقوله (١١٢ : ٦) وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلَهُوْهُ) وقوله (٢ : ٢٥٣) وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا) وقوله (١٣ : ٣٢) وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا) وقوله (١٣ : ٣١) أَفَلَمْ يَسْأَلِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا) ونظائر ذلك ، مما لا يصح فيه حمل المشيئة على الأمر البتة

والذي دلت عليه الآية مع سائر أدلة التوحيد ، وأدلة العقل الصريح ، أن مشيئة العباد من جملة الكائنات التي لا توجد إلا بمشيئة الله سبحانه وتعالى ، فلم يشأ لم يكن البتة . كما أن ما شاء كان ولا بد ولكن ههنا أمر آيحب التنبيه عليه ، وهو أن مشيئة الله سبحانه تارة تتعلق بفعله ، وتارة تتعلق بفعل العبد ، فتعلقها بفعله وهو أن يشاء من نفسه إعانة عبده وتوفيقه وتهيئته للفعل ، فهذه المشيئة تستلزم فعل العبد ومشيئته ، ولا يكفي في وقوع الفعل مشيئة الله لمشيئة عبده ، دون أن يشاء فعله ، فانه سبحانه قد يشاء من عبده المشيئة وحدها ، فيشاء العبد الفعل ويريده ولا يفعله ، لانه لم يشأ من نفسه إعانتة عليه وتوفيقه له

وقد دل على هذا قوله تعالى (وَمَا تَشَاوُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ) وقوله (٧٤ : ٥٦) وَمَا يَنْدُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ)

وهاتان الآيتان متضمنتان إثبات الشرع والقدر ، والأسباب
والمسببات ، وفعل العبد واستناده الى فعل الرب . ولكل منهما
عبودية مختص بها : فعبودية الآية الاولى الاجتهاد ، واستفراغ
الوسع ، والاختيار ، والسعي . وعبودية الثانية الاستعانة بالله ،
والتوكل عليه ، واللجأ اليه ، واستئزال التوفيق ، والعون منه ، والعلم
بأن العبد لا يمكنه ان يشاء ، ولا يفعل حتى يجعله الله كذلك
وقوله (رَبِّ الْعَالَمِينَ) ينتظم ذلك كله ، ويتضمنه . فمن عطل
أحد الأمرين فقد جحد كمال الربوبية وعطّلها . وبالله التوفيق

(٢٦) فصل

ومن ذلك قوله تعالى (٧٩ : ١) وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ٢ وَالنَّاشِطَاتِ
نُشْطًا ٣ وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا ٤ فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا ٥ فَاَلْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا)
فهذه خمسة أمور . وهى صفات الملائكة

فأقسم سبحانه بالملائكة الفاعلة لهذه الافعال ، إذ ذلك من أعظم
آياته ، وحذف مفعول النزع والنشط . لانه لو ذكر ما تنزع وتنشط
لأوهم التقييد به . وان القسم على نفس الافعال الصادرة من هؤلاء
الفاعلين ، فلم يتعلق الغرض بذكر المفعول ، كقوله (٩٢ : ٦) فَأَمَّا مَنْ
أَعْطَى وَآتَى) ونظائره . فكان نفس النزع هو المقصود لا عين المنزوع

وأكثر المفسرين على أنها الملائكة التي تنزع أرواح بني آدم من أجسامهم ، وهم جماعة كقوله (٦ : ٦١ تَوَفَّيْتُهُ رُسُلَنَا) وقوله (٤ : ٩٧ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْتُهُمُ الْمَلَائِكَةُ) وأما قوله (٣٢ : ١١ قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ) فاما أن يكون واحدا ، وله أعوان ، واما أن يكون المراد الجنس لا الوحدة كقوله (٦٦ : ١٢ وَصَدَقْتَ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ بِهِ) وقوله (١٦ : ١٨ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا)

والنزع هو اجتذاب الشيء بقوة ، والاغراق في النزع هو أن يجتذبه الى آخره . ومنه اغراق النزع في جذب القوة . بأن يبلغ بها غاية المد ، فيقال : أغرق في النزع ، ثم صار مثلا لسكل من بالغ في فعل حتى وصل إلى آخره

والغرق اسم مصدر أقيم مقامه كالعطاء والكلام . أقيم مقامه الاعطاء والتكلم

واختلف الناس هل النازعات متعددة أو لازم ؟ فعلى القول الذي حكيناه يكون متعديا ، وهذا قول على ، ومسروق ، ومقاتل ، وأبي صالح ، وعطية عن ابن عباس . وقال ابن مسعود : هي أنفس الكفار ، وهو قول قتادة ، والشَّدي ، وعطاء عن ابن عباس . وعلى

هذا فهو فعل لازم . وغرقا على هذا معناه نزعا شديدا أبلغ ما يكون وأشدّه

وفي هذا القول ضعف من وجوه ﴿ أحدها ﴾ أن عطف ما بعده عليه يدل على أنها الملائكة ، فهي السابحات والمدبرات ، والنازعات ﴿ الثاني ﴾ أن الأقسام بنفوس الكفار خاصة ليس بالبين ، ولا في اللفظ ما يدل عليه ﴿ الثالث ﴾ أن النزع مشترك بين نفوس بني آدم ، والاغراق لا يختص بالكافر . وقال الحسن : النازعات هي النجوم ، تنزع من المشرق الى المغرب . وغرقا هو غروبها قال : تنزع من ههنا وتغرق ههنا . واختاره الاخفش وأبو عبيد . وقال مجاهد : هي شدائد الموت وأهواله ، التي تنزع الارواح نزعا شديدا . وقال عطاء ، وعكرمة : هي القسي . والنازعات على هذا القول بمعنى النسب أى ذوات النزع التي ينزع بها الرامى ، فهو النازع

قلت : النازعات اسم فاعل من نزع ، ويقال : نزع كذا . اذا اجتذبه بقوة ، ونزع عنه إذا خلاه وتركه ، بعد ملابسته له . ونزع اليه إذا ذهب اليه ومال اليه . وهذا انما توصف به النفوس التي لها حركة إرادية للميل الى الشيء أو الميل عنه ، وأحق ما صدق عليه هذا الوصف الملائكة ، لأن هذه القوة فيها أكمل ، وموضع الآية فيها أعظم . فهي التي تغرق في النزع اذا طلبت ما تنزعه أو تنزع اليه ، والنفس الانسانية أيضا لها هذه القوة ، والنجوم أيضا تنزع من

أفق الى افق . فالنزاع حركة شديدة ، سواء كانت من ملك ، أو نفس انسانية ، أو نجم . والنفس تنزع الى أوطانها ، والى مألفها ، وعند الموت تنزع الى ربها ، والمنايا تنزع النفوس ، والقسي تنزع بالسهم ، والملائكة تنزع من مكان الى مكان ، وتنزع ما وكلت بنزعه ، والخيول تنزع في أعنتها نزعا تغرق فيه الالعنة لطول أعناقها فالصفة واقعة على كل من له هذه الحركة التي هي آية من آيات الرب تعالى ، فانه هو الذي خلقها وخلق محلها ، وخلق القوة والنفس التي بها تتحرك . ومن ذكر صورة من هذه الصور فانما أراد التمثيل . وان كانت الملائكة أحق من تناوله هذا الوصف

فأقسم بطوائف الملائكة وأصنافهم : فهم النازعات التي تنزع الارواح من الاجساد ، والناشطات التي تنشطها أي تخرجها بسرعة وخفة من قولهم : نشط الدلو من البئر اذا أخرجها ، وانا أنشط بكذا أي أخف له وأسرع (والسابحات) التي تسبح في الهواء في طريق ممرها الى ما أمرت به ، كما تسبح الطير في الهواء (فالسابقات) التي تسبق وتسرع الى ما أمرت به لا تبطئ عنه ولا تتأخر (فالمدبرات) أمور العباد التي أمرها ربها بتدبيرها . وهذا أولى الأقوال

وقد روى عن ابن عباس : أن (النازعات) الملائكة تنزع نفوس الكفار بشدة وعنف (والناشطات) الملائكة التي تنشط أرواح المؤمنين بيسر وسهولة . واختار الفراء هذا القول ، فقال : هي الملائكة تنشط نفس المؤمن فتقبضها ، وتنزع نفس الكافر . قال

الواحدى : انما اختار ذلك ، لما بين النشاط والنزع من الفرق فى الشدة واللين ، فالنزع الجذب بشدة ، والنشط الجذب برفق ولين (والناشطات) هى النفوس التى تنشط لما أمرت به ، والملائكة أحق الخلق بذلك ، ونفوس المؤمنين ناشطة لما أمرت به

وقيل (السابحات) هى النجوم تسبح فى الفلك ، كما قال تعالى (٣٦ : ٤٠) كُلُّ فِي فَلَاكِ يَسْبَحُونَ) وقيل : هى السفن تسبح فى الماء ،

وقيل : هى نفوس المؤمنين تسبح بعد المفارقة صاعدة الى ربها قلت : والصحيح أنها الملائكة ، والسياق يدل عليه . وأما السفن

والنجوم ، فأنما تسمى جارية وجوارى كما قال تعالى (٤٢ : ٣٢)

وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ) وقال (٦٩ : ١١) حَمَلْنَاكُمْ

فِي الْجَارِيَةِ) وقال (٨١ : ١٦) الْجَوَارِ الْكُنُزِ) ولم يسمها سابحات .

وان أطلق عليها فعل السباحة ، كقوله (كُلُّ فِي فَلَاكِ يَسْبَحُونَ) ويدل

عليه ذكره السابقات بعدها والمدبرات بالفاء ، وذكره الثلاثة الأول

بالواو ، لأن السبق والتدبير مسبب عن المذكور قبله ، فانه انزعجت

وَنَشَطَتْ وَسَبَّحَتْ فسبقت الى ما أمرت به فدبرته . ولو كانت

السابحات هى السفن أو النجوم أو النفوس الآدمية لما عطف

عليها فعل السبق والتدبير بالفاء . فتأمل

قال مسروق ، ومقاتل ، والكلبي : (فالسابقات سبقتاً) هى الملائكة

قال مجاهد وأبوروق : سبقت ابن آدم بالخير والعمل الصالح

والايمان والتصديق . قال مقاتل : تسبق بارواح المؤمنين الى الجنة .
وقال الفراء ، والزجاج : هي الملائكة ، تسبق الشياطين بالوحي الى
الأنبياء اذ كانت الشياطين تسترق السمع . وهذا القول خطأ لا يخفى
فساده ، اذ يقتضى الاشتراك بين الملائكة والشياطين فى إلقائهم
الوحي ، وأن الملائكة تسبقهم به الى الأنبياء . وهذا ليس بصحيح .
فان الوحي الذى تأتى به الملائكة الى الأنبياء لا تسترقه الشياطين ، وهم
معزولون عن سماعه ، وان استرقوا بعض ما يسمعون من ملائكة
السماء الدنيا من أمور الحوادث ، فالله سبحانه صان وحيه الى الأنبياء
أن تسترق الشياطين شيئاً منه ، وعزلهم عن سماعه . ولو أن قائل
هذا القول فسر السابقات بالملائكة التى تسبق الشياطين بالرجم
بالشهب قبل إلقاء الكلمة التى استرقها لكان له وجه . فان الشيطان
يبدد مسرعاً بالقائه الى وليه ، فتسبقه الملائكة فى نزوله بالشهب
الشواقب فتهلكه . وربما ألقى الكلمة قبل ادراك الشهاب له

وفسرت (السابقات سبقاً) بالأنفس السابقات الى طاعة الله ومراضاته .
وأما (المدبرات أمراً) فأجمعوا على أنها الملائكة ، قال مقاتل :
هم جبريل ، وميكائيل ، واسرافيل ، وملك الموت : يدبرون أمر
الله تعالى فى الارض ، وهم (المقسمات أمراً) . قال عبد الرحمن بن
سابط : جبريل موكل بالرياح والجنود ، وميكائيل موكل بالقطر
والنبات ، وملك الموت موكل بقبض الأنفس ، واسرافيل ينزل
بأمر الله عليهم . وقال ابن عباس : هم الملائكة ، وكلهم الله بأمر

عرفهم العمل بها والوقوف عليها ، بعضهم لبني آدم يحفظون ويكتبون ،
وبعضهم وكلوا بالأمطار والنبات ، والخسف والمسح ، والرياح
والسحاب ، انتهى

وقد أخبر أن الله وكل بالرجم ملكا ، وللرؤيا ملك موكل بها ،
وللجنة ملائكة موكلون بعمارتها ، وعمل آلاتها ، وأوانيها ، وغراسها
وفرشها ، ونمارقها ، وأرائكها . وللنار ملائكة موكلة بعمل ما فيها
وإيقادها ، وغير ذلك

فالدنيا وما فيها ، والجنة والنار ، والموت وأحكام البرزخ - قد
وكل الله بذلك كله ملائكة يدبرون ما شاء الله من ذلك . ولهذا كان
الايمن بالملائكة أحد أركان الايمان الذي لا يتم الايمان إلا به
وأما من قال انها النجوم فليس هذا من قول أهل الاسلام ،
ولم يجعل الله النجوم تدبر شيئا من الخلق ، بل هي مدبرة مسخرة .
كما قال تعالى (١٦ : ١٢) وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِ اللَّهِ
سُبْحَانَهُ هُوَ الْمَدِيرُ بِمَلَائِكَتِهِ لَامرُ الْعَالَمِ الْعُلَى وَالسُّفلى

قال الجرجاني : وذكر السابقات والمدبرات بالفاء وما قبلها بالواو ،
لان ما قبلها أقسام مستأنفة ، وهذان القسمان منشآن عن الذى قبلهما
كأنه قال : فاللاتى سبجن فسبقن ، كما نقول قام فذهب ، أوجب
الفاء ان القيام كان سببا للذهاب ولو قلت : قام وذهب لم تجعل
القيام سببا للذهاب

واعترض عليه الواحدى ، فقال : هذا غير مطرد فى هذه الآية

لأنه يبعد أن يجعل السبق سبباً للتدبير ، مع أن السابقات ليست الملائكة
في قول المفسرين

قلت : الملائكة داخلون في السابقات قطعاً . وأما اختصاص
السابقات بالملائكة فهذا محتمل . وأما قوله : يبعد أن يكون السبق
سبباً للتدبير فليس كما زعم ، بل السبق المبادرة إلى تنفيذ ما يؤمر به
الملك . فهو سبب للفعل الذي أمر به . وهو التدبير ، مع أن الفاء دالة
على التعقيب ، وإن التدبير يتعقب السبق بلا تراخ . بخلاف الأقسام
الثلاثة . والله أعلم

وجواب القسم محذوف يدل عليه السياق - وهو البعث
المستلزم لصديق الرسول وثبوت القرآن ، أو أنه من
القسم الذي أريد به التنبيه على الدلالة ، والعبرة بالمقسم به دون
أن يراد به مقسماً عليه بعينه . وهذا القسم يتضمن الجواب
المقسم عليه وإن لم يذكر لفظاً . ولعل هذا مراد من قال أنه محذوف
للعلم به ، لكن هذا الوجه ألطف مسلكاً . فإن المقسم به إذا كان
دالاً على المقسم عليه مستلزماً استغنى عن ذكره بذكره ، وهذا غير
كونه محذوفاً لدلالة ما بعده عليه فتأمل . ولعل هذا قول من قال أنه
إنما أقسم برب هذه الأشياء ، وحذف المضاف . فإن معناه صحيح
لكن على غير الوجه الذي قدره . فإن إقسامه سبحانه بهذه الأشياء
لظهور دلالتها على ربوبيته ، ووحدانيته ، وعلمه ، وقدرته ، وحكمته ،
غالباً أقسام بها في الحقيقة إقسام بربوبيته وصفاته كما له فتأمل

ثم قرر سبحانه بعد هذا القسم امر المعاد ، ونبوة موسى المستلزمة
 لنبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، إذ من المحال أن يكون موسى نبياً
 ومحمد ليس نبياً مع أن ما يثبت نبوة موسى فله محمد نظيره أو أعظم منه .
 وقرر سبحانه تكليمه لموسى بندائه له بنفسه ، فقال (١٦: ٧٩) **إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ**)
 فأثبت المستلزم للكلام والتكليم . وفي موضع آخر أثبت النجاء
 والنداء ، والنجاء نوع من التكليم . ومحال ثبوت النوع بدون الجنس
 ثم أمره أن يخاطبه بالين خطاب فيقول له : **(هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى**
وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى؟) ففي هذا من لطف الخطاب ولينه وجوه
 ١ **أحدها** : اخراج الكلام مخرج العرض ولم يخرج مخرج الأمر
 والالزام ، وهو اللفظ . ونظيره قول ابراهيم لضيفه المكرمين (٢٧: ٥١)
أَلَا تَأْكُلُونَ) ولم يقل **كلوا** ٢ **الثاني** : قوله **(إِلَى أَنْ تَزَكَّى)** والتزكى
 النماء ، والطهارة ، والبركة ، والزيادة . فعرض عليه أمر يقبله كل عاقل
 ولا يرده الا كل أحمق جاهل ٣ **الثالث** : قوله **(تَزَكَّى)** ولم يقل **أزكك**
 فأضاف التزكية إلى نفسه . وعلى هذا يخاطب الملوك ٤ **الرابع** :
 قوله **(وَأَهْدِيكَ)** أى أكون دليلاً لك ، وهادياً بين يديك ، فنسب
 الهداية اليه والتزكى الى المخاطب ، أى أكون دليلاً لك وهادياً فتزكى
 أنت ، كما تقول للرجل : هل لك أن أدلك على كنز تأخذ منه ما شئت ؟
 وهذا أحسن من قوله **أعطيك** ٥ **الخامس** : قوله **(إِلَى رَبِّكَ)** فإن في
 هذا ما يوجب قبول مادل عليه وهو انه يدعوه ويوصله الى ربه فاطره

وخالقه الذى أوجده ، ورباه بنعمه : جنينا ، وصغيرا ، وكبيرا ، وآتاه الملك . وهو نوع من خطاب الاستعطاف والالزام ، كما تقول لمن خرج عن طاعة سيده : ألا تطيع سيدك وهولاك ومالكك ؟ وتقول للولد ألا تطيع أباك الذى رباك ﴿ السادس ﴾ قوله (فتخشى) أى اذا اهديت اليه وعرفته خشيته ، لان من عرف الله خافه ، ومن لم يعرفه لم يخفه ، فخشيته تعالى مقرونة بمعرفته ، وعلى قدر المعرفة تكون الخشية ﴿ السابع ﴾ ان فى قوله (هل لك) فائدة لطيفة ، وهى ان المعنى هل لك فى ذلك حاجة أو أرب ؟ ومعلوم أن كل عاقل يبادر إلى قبول ذلك . لان الداعى إنما يدعو الى حاجته ومصلحته لا إلى حاجة الداعى ، فكأنه يقول : الحاجة لك وأنت المتزكى ، وأنا الدليل لك والمرشد لك إلى أعظم مصالحك ، فقابل هذا بغاية الكفر والعناد . وادعى انه رب العباد . هذا . وهو يعلم أنه ليس بالذى خلق فسوى ، ولا قدر فهدى ، فكذب الخبر ، وعصى الأمر ، ثم أدبر يسعى بالخدعة والمكر ، فحشر جنوده فأجابوه ، ثم نادى فيهم بأنه ربهم الأعلى ، واستخفهم فأطاعوه ، فبطش به جبار السموات والأرض بطشة عزيز مقتدر ، وأخذ نكال الآخرة والأولى ، ليعتبر بذلك من يعتبر ، فاعتبر بذلك من خشى ربه من المؤمنين ، وحق القول على الكافرين

ثم أقام سبحانه حجته على العالمين بخلق ما هو أشد منهم وأكبر ، وأعظم وأعلى وأرفع ، وهو خلق السماء وبنائها ، ورفع سمكها وتسويتها ،

وإظلام ليلها ، وإخراج ضحاها ، وخلق الأرض ومدّها وبسطها
وتهيئتها لما يراد منها . وأخرج منها شراب الحيوان وأقواتهم ،
وأرسي الجبال فجعلها رواسي للأرض ، لئلا تميد بأهلها ، وأودعها
من المنافع ما يتم به مصالح الحيوان الناطق والبهيم . فمن قدر على ذلك
كله كيف يعجز عن إعادتكم خلقا جديدا ؟
فتأمل دلالة المقسم به المذكور في أول السورة على المعاد
والتوحيد وصدق الرسل كدلالة هذا الدليل المذكور . وإذا كان
هذا هو المقصود لم يكن محتاجا إلى جواب . والله أعلم

(٢٧) فصل

ومن ذلك قوله تعالى (٧٧ : ١) وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ٢ فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا
٣ وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا ٤ فَالْمُفَارِقَاتِ فَرْقًا ٥ فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا ٦ عُذْرًا
أَوْ نُذْرًا ٧ إِنَّمَا تُؤَدُّونَ لَوَاقِعُ) فسرّت المرسلات بالملائكة ،
وهو قول أبي هريرة ، وابن عباس ، في رواية مقاتل وجماعة ، وفسرّت
بالرياح ، وهو قول ابن مسعود وأحدى الروايين عن ابن عباس
وقول قتادة . وفسرّت بالسحاب ، وهو قول الحسن ، وفسرّت
بالأنبياء ، وهو رواية عطاء عن ابن عباس
قلت : الله سبحانه يرسل الملائكة ، ويرسل الأنبياء ، ويرسل
الرياح ، ويرسل السحاب ، فيسوقه حيث يشاء ، ويرسل الصواعق

فيصيب بها من يشاء ، فارساله واقع على ذلك كله ، وهو نوعان :
 إرسال دين يحبه ويرضاه ، كإرسال رسله وأنبيائه ، وإرسال كون
 وهو نوعان : نوع يحبه ويرضاه ، كإرسال ملائكته في تدبير أمر
 خلقه . ونوع لا يحبه ، بل يسخطه ويغضه ، كإرسال الشيطان على الكفار
 فالإرسال المقسم به ههنا مقيد بالعرف . فاما أن يكون ضد
 المنكر ، فهو إرسال رسله من الملائكة ، ولا يدخل في ذلك إرسال
 الرياح ، ولا الصواعق ، ولا الشياطين . وأما إرسال الانبياء فلو أريد
 لقال : والمرسلين ، وليس بالفصيح تسمية الانبياء مراسلات . وتكلف
 الجماعات المرسلات خلاف المعهود من استعمال اللفظ ، فلم يطلق في
 القرآن جمع ذلك الا جمع تذكير لا جمع تأنيث . وأيضا فاقتران اللفظة بما
 بعدها من الاقسام لا يناسب تفسيرها بالانبياء ، وأيضا فان الرسل
 مقسم عليهم في القرآن لا مقسم بهم كقولهم (١٦: ٦٣) تَاللّٰهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ
 أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ وَقَوْلُهُ (وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ) وقوله (٣٦: ١٠) يَس ٢ وَالْقُرْآنِ
 الْحَكِيمِ ٣ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ) وان كان العرف من التابع ،
 كعرف الفرس وعرف الديك ، والناس الى فلان عرف واحد ،
 أى سابقون في قصده والتوجه اليه - جاز أن تكون المرسلات الرياح
 ويؤيده عطف العاصفات عليه والناشرات . وجاز أن تكون الملائكة ،
 وجاز أن يعم النوعين لوقوع الإرسال عرفا عليهما . ويؤيده أن
 الرياح موكل بها ملائكة تسوقها وتصرفها ، ويؤيد كونها الرياح

عطف العاصفات عليها بقاء التعقيب والتسبب ، فسكانها أرسلت ،
فعصفت . ومن جعل المرسلات الملائكة قال : هي تعصف في ماضيها
مسرعة كما تعصف الرياح . والأكثر على أنها الرياح . وفيها قول
ثالث أنها تعصف بروح الكافر ، يقال عصف بالشئ إذا أباده
وأهلكه . قال الأعشى

تعصف بالدارع والحاسر *

حكاه أبو اسحق . وهو قول متكلف ، فإن المقسم به لا بد أن
يكون آية ظاهرة تدل على الربوبية ، وأما الأمور الغائبة التي يؤمن
بها فانما يقسم عليه ، وانما يقسم سبحانه بملائكته وكتابه ، لظهور
شأنهما ولقيام الأدلة والاعلام الظاهرة الدالة على ثبوتها
وأما (الناشرات نشر) فهو استئناف قسم آخر ، ولهذا أتى به بالواو
وما قبله معطوف على القسم الأول بالفاء . قال ابن مسعود ، والحسن ،
ومجاهد ، وقتادة : هي الرياح تأتي بالمطر . ويدل على صحة قولهم
قوله تعالى (٧ : ٥٧) وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ)
يعني أنها تنشر السحاب نشرًا ، وهو ضد الطي ، وقال مقاتل : هي الملائكة
تنشر كتب بني آدم وصحائف أعمالهم . وقاله مسروق ، وعطاء عن ابن
عباس . وقالت طائفة : هي الملائكة تنشر أجنحتها في الجوع عند صعودها
ونزولها . وقيل : تنشر أوامر الله في الأرض والسماء . وقيل :
تنشر النفوس ، فتحياها بالآيمان . وقال أبو صالح : هي الأمطار
تنشر الأرض ، أي تحيها

قلت : ويجوز أن تكون الناشرات لازما لامفعول له ، ولا يكون المراد أنهن نشرن كذا ، فانه يقال : نشر الميت : حي ، وأنشره الله : إذا أحياه ، فيكون المراد بها الأنفس التي حييت بالعرف الذي أرسلت به المرسلات ، أو الأشباح والأرواح والبقاع التي حييت بالرياح المرسلات . فان الرياح سبب لنشور الأبدان والنبات ، والوحي سبب لنشور الأرواح وحياتها . لكن هنا أمراً ينبغى التفتن له ، وهو أنه سبحانه جعل الاقسام في هذه السورة نوعين وفصل أحدهما من الآخر ، وجعل العاصفات معطوفاً على المرسلات بقاء التعقيب فصارا كأنهما نوع واحد ، ثم جعل الناشرات كأنه قسم مبتدأ فأتى فيه بالواو ، ثم عطف عليه الفارقات والملقيات بالفاء ، فأوهم هذا أن الفارقات والملقيات مرتبطتان بالناشرات ، وأن العاصفات مرتبطتان بالمرسلات . وقد اختلف في الفارقات ، والأكثر على أنها الملائكة . ويدل عليه عطف الملقيات ذكرها عليها بالفاء ، وهي الملائكة بالاتفاق

وعلى هذا فيكون القسم بالملائكة التي تنشر أجنحتها عند النزول ففرقت بين الحق والباطل ، فألقت الذكر على الرسل إعداراً وإنذاراً

ومن جعل الناشرات الرياح جعل الفارقات صفة لها . وقال : هي تفرق السحاب ههنا وههنا . ولكن يأتي ذلك عطف الملقيات بالفاء عليها . ومن قال : الفارقات أي القرآن يفرق بين الحق

والباطل فقله يلتئم مع كون الناشرات الملائكة أكثر من السماه
إذا قيل : إنها الرياح . ومن قال : هي جماعات الرسل فإن أراد
الرسل من الملائكة فظاهر ، وإن أراد الرسل من البشر فقد تقدم
بيان ضعف هذا القول

ويظهر - والله أعلم بما أراد من كلامه - أن القسم في هذه الآية وقع
على النوعين : الرياح ، والملائكة . ووجه المناسبة أن حياة الأرض
والنبات وأبدان الحيوان بالرياح ، فانها من روح الله ، وقد جعلها
الله تعالى نشورا ، وحياة القلوب والأرواح بالملائكة . فهذين
النوعين يحصل نوعا الحياة . ولهذا - والله أعلم - فصل أحد النوعين
من الآخر بالواو وجعل ما هو تابع لكل نوع بعده بالفاء

وتأمل كيف وقع القسم في هذه السورة على المعاد والحياة الدائمة
الباقية ، وحال السعداء والاشقياء فيها ، وقررها بالحياة الاولى في قوله
(٧٧ : ٢٠) أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَّاءٍ مَهِينٍ (فذكر فيها المبدأ والمعاد ،
وأخلص السورة لذلك ، فحسن الاقسام بما يحصل به نوعا الحياة
المشاهدة : وهو الرياح ، والملائكة . فكان في القسم بذلك آيين
دليل وأظهر آية على صحة ما أقسم عليه وتضمنته السورة . ولهذا
كان المكذب بعد ذلك في غاية الجحود والعناد والكفر ، فاستحق
الويل بعد الويل ، فتضاعف عليه الويل ، كما تضاعف منه
الكفر والتكذيب

فلا أحسن من هذا التكرار في هذا الموضع ، ولا أعظم منه

موقعا فانه تكرر عشر مرات ، ولم يذكر إلا في أثر دليل أو مدلول عليه عقيب ما يوجب التصديق وما يوجب التصديق به فتأمل

(٢٨) فصل

ومن ذلك قوله تعالى (١ : ٧٥) لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَمَةِ ٢
وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ الْوَّامَةِ) وقد تقدم ذكر هذين القسمين ومناسبة الجمع بينهما في الذكر ، وكون الجواب غير مذکور ، وأنه يجوز أن يكون محذوف لدلالة السياق عليه والعلم به ، ويجوز أن يكون من القسم المقصود به التنبيه على دلالة المقسم به ، وكونه آية ، ولم يقصد به مقسما عليه معينا . فكأنه يقول : اذكر يوم القيامة والنفس الوامة مقسما بها ، لكونها من آياتنا وأدلة ربوبيتنا

ثم أنكر على الانسان بعد هذه الآية حسبانته وظنه أن الله لا يجمع عظامه بعد ما فرقا البلى . ثم أخبر سبحانه عن قدرته على جمع غيرها من عظامه . وعلى هذا فيكون سبحانه قد احتج على فعله لما أنكره أعداؤه بقدرته عليه . وأخبر عن فعله بأنه لا يلزمهم من القدرة وقوع المقدور . والمعنى : بل نجمعها قادرين على تسوية بنانه . ودل على هذا المعنى المحذوف قوله (بلى) فانها حرف ايجاب لما تقدم من النفي . فلهذا يستغنى عن ذكر الفعل بذكر الحرف الدال عليه . فدللت الآية على الفعل . وذكرت القدرة لا بطل قول المكذبين

وفي ذكر البنان لطيفة أخرى ، وهي أنها أطرافه ، وآخر ما يتم به خلقه . فمن قدر على جمع أطرافه وآخر ما يتم به خلقه ، مع دقتها وصغرها ولطافتها ، فهو على مادون ذلك أقدر . فالقوم لما استبعدوا جمع العظام بعد الفناء والارمام ، قيل إنا نجمع ونسوي أكثرها تفرقا ، وأدقها أجزاء ، وآخر أطراف البدن ، وهي عظام الأنامل ومفاصلها

وقالت طائفة : المعنى نحن قادرون على أن نسوي أصابع يديه ورجليه ونجعلها مستوية شيئا واحدا كخف البعير ، وحافر الحمار لا نفرق بينهما ، ولا يمكنه أن يعمل بها شيئا مما يعمل بأصابعه المفرقة ذات المفاصل والأنامل من فنون الأعمال والبسط والقبض . والتأتى لما يريد من الحوائج . وهذا قول ابن عباس وكثير من المفسرين . والمعنى على هذا القول : إنا في الدنيا قادرون على أن نجعل عظام بنانه مجموعة دون تفرق ، فكيف لا نقدر على جمعها بعد تفريقها

فهذا وجه من الاستدلال غير الأول ، وهو الاستدلال بقدرته سبحانه على جمع العظام التي فرقها ، ولم يجمعها ، والأول استدلال بقدرته سبحانه على جمع عظامه بعد تفريقها ، وهما وجهان حسنان ، وكل منهما له ترجيح من وجه ، فيرجح الأول أنه هو المقصود ، وهو الذي أنكره الكفار ، وهو إجراء على نسق الكلام واطراده ، ولأن الكلام لم يسبق لجمع العظام وتفريقها في

الدنيا ، وانما سيق لجمعها في الآخرة بعد تفرقها بالموت . ويرجح القول الثاني - ولعله قول جمهور المفسرين ، حتى أن فيهم من لم يذكر غيره - وأنه استدلال بآية ظاهرة مشهورة ، وهي تفريق البنان مع انتظامها في كف واحد ، وارتباط بعضها ببعض ، فهي متفرقة في عضو واحد ، يقبض منها واحدة ويبسط أخرى ، ويحرك واحدة والاخرى ساكنة ، ويعمل بواحدة والاخرى معطلة ، وكلها في كف واحد ، قد جمعها ساعد واحد ، فلو شاء سبحانه لسواها فجعلها صفة واحدة كباطن الكف فقائه هذه المنافع والمصالح التي حصلت بتفريقها . ففي هذا أعظم الأدلة على قدرته سبحانه على جمع عظامه بعد الموت

ثم أخبر سبحانه عن سوء حال الانسان وإصراره على المعصية والفجور ، وأنه لا يرعوى ولا يخاف يوما يجمع الله فيه عظامه ويبعثه حيا ، بل هو مرید للفجور ماعاش ، فيفجر في الحال ، ويريد الفجور في غد وما بعده . وهذا ضد الذي يخاف الله والدار الآخرة فهذا لا يندم على ماضى منه ولا يقلع في الحال ، ولا يعزم في المستقبل على الترك ، بل هو عازم على الاستمرار ، وهذا ضد التائب المتنب

ثم نبه سبحانه على الحامل له على ذلك ، وهو استبعاده ليوم القيامة وليس هذا استبعاداً لزمه مع إقراره بوقوعه ، بل هو استبعاد لوقوعه كما حكى عنه في موضع آخر قوله (٥٠ : ٣٠ ذَلِكْ رَجْعُ بَعِيدٍ)

أى بعيد وقوعه ، وليس المراد أنه واقع بعيد زمنه . هذا قول جماعة من المفسرين ، منهم ابن عباس وأصحابه . قال ابن عباس : يقدم الذنب ويؤخر التوبة . وقال قتادة ، وعكرمة : قَدْماً قَدْماً فى معاصى الله لا ينزع عن فجوره

وفى الآية قول آخر ، وهو أن المعنى بل يريد الانسان ليكذب بما أمامه من البعث ويوم القيامة . وهذا قول ابن زيد ، واختيار ابن قتبية وأبى اسحق . قال هؤلاء : ودليل ذلك قوله (٦٠:٧٥) يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ) ويرجح هذا القول لفظة (بل) فانها تعطى أن الانسان لم يؤمن بيوم القيامة مع هذا البيان والحجة ، بل هو يريد للتكذيب به ، ويرجحه أيضا أن السياق كله فى ذم المكذب بيوم القيامة لافى ذم العاصى والفاجر ، وأيضا فان ما قبل الآية وما بعدها يدل على المراد . فانه قال (أَيْحَسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ لَنْ تَجْمَعَ عِظَامُهُ ؟ بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ) فأنكر سبحانه عليه حسابانه ان الله لا يجمع عظامه . ثم قرر قدرته على ذلك . ثم انكر عليه ارادة التكذيب بيوم القيامة . فالأول حسابان منه أن لا يحسبه بعد موته . والثانى تكذيب منه بيوم البعث وانه يريد أن يكذب بما وضح وبان دليل وقوعه وثبوته . فهو يريد للتكذيب به . ثم أخبر عن تصريحه بالتكذيب فقال (يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ) فالأول

ارادة التكذيب والثاني نطق بالتكذيب وتكلم به . وهذا قول قوى ، كما ترى . لكن ينبغي إفراغ هذه الالفاظ فى قوالب هذا المعنى . فان لفظة (يفجر) إنما تدل على عمل الفجور لا على التكذيب وحذف الموصول مع ما جره وإبقاء الصلة خلاف الأصل . فان أصحاب هذا القول قالوا تقديره ليكفر بما أمامه ، وهذا المعنى صحيح لكن دلالة هذا اللفظ عليه ليست بالينة

فالجواب أن الأمر كذلك لكن الفعل اذا ضمن معنى فعل آخر لم يلزم اعطائه حكمه من جميع الوجوه ، بل من جلالة هذه اللغة العظيمة الشأن وجزالتها أن يذكر المتكلم فعلا ، وما يضمه معنى فعل آخر ويجرى على المضمن أحكامه لفظا وأحكام الفعل الآخر معنى ، فيكون فى قوة ذكر الفعلين مع غاية الاختصار . ومن تدبر هذا وجد كثيرا فى كلام الله تعالى

فلفظ (يفجر) اقتضت (أمامه) بلا واسطة حرف ولا اسم موصول ، فأعطيت ما اقتضته لفظا واقتضى ما تضمنه الفعل من ذكر الحرف والموصول ، فأعطيته معنى . فهذا وجه هذا القول لفظا ومعنى . والله أعلم

ثم أخبر سبحانه عن حال هذا الانسان اذا شاهد اليوم الذى كذب به ، فقال (٧٥:٧-١٠) فَأَذَا بَرِقَ الْبَصَرُ وَخَسَفَ الْقَمَرُ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَإِنِّ الْمَفْرُوفُ فبرق بصره أى يشخص

يشاهده من العجائب التي كان يكذب بها وخسف القمر ذهب ضوؤه وانمحي ، وجمع الشمس والقمر ولم يجتمعا قبل ذلك بل يجمعهما الذي يجمع عظام الانسان بعد ما فرقتها البلى ومزقها ، ويجمع للانسان يومئذ جميع عمله الذي قدمه وآخره من خير أو شر . ويجمع ذلك من جمع القرآن في صدر رسوله . ويجمع المؤمنين في دار الكرامة فيكرم وجوههم بالنظر اليه ويجمع المكذبين في دار الهوان ، وهو قادر على ذلك كله كما جمع خلق الانسان من نطفة من مَنِيٍّ يُمْنَى ثم جعله علقة مجتمععة الاجزاء بعد ما كانت نطفة متفرقة في جميع بدن الانسان ، وكما يجمع بين الانسان وملك الموت ، ويجمع بين الساق والساق إما ساق الميت أو ساق من يجهز بدنه من البشر ، ومن يجهز روحه من الملائكة ، أو يجمع عليه شدة الدنيا والآخرة فكيف (أنكر) هذا الانسان أن يجمع بينه وبين عمله وجزائه ، وأن يجمع مع بنى جنسه ليوم الجمع وأن يجمع عليه بين أمر الله ونهيه ، وعبوديته فلا يُشْرَك سُدًى مهملًا معطلا لا يؤمر ولا ينهى ، ولا يشاب ولا يعاقب فلا يجمع عليه ذلك

فما أجمع هذه السورة لمعان الجمع ، والضم . وقد افتتحت بالقسم بيوم القيامة الذي يجمع الله فيه بين الأولين والآخرين ، وبالنفس اللوامة التي اجتمع فيها همومها ، وغمومها ، وارادتها ، واعتقاداتها . وتضمنت ذكر المبدأ والمعاد ، والقيامة الصغرى ، والكبرى ، وأحوال الناس في المعاد ، وانقسام وجوههم الى ناظرة منعمة ،

وبأسرة معذبة . وتضمنت وصف الروح بأنها جسم ينتقل من مكان الى مكان . فتجتمع من تفاريق البدن حتى تبلغ التراق ، ويقول الحاضرون (مَنْ رَاقٍ ؟) أى من يرقى من هذه العلة التى أعيت على الحاضرين ، أى التمسوا له من يرقيه . والرقية آخر الطب ، وقيل : من يرقى بها ويصعد ، أملائكة الرحمة أم ملائكة العذاب ؟ فعلى الأول تكون من رقى يرقى كرمى يرمى . وعلى الثانى من رقى يرقى كشقى يشقى . ومصدره الرقاء ومصدر الأول الرقية . والقول الأول أظهر لوجوه ﴿ أحدها ﴾ انه ليس كل ميت يقول حاضره : من يرقى بروحه وهذا انما يقوله من يؤمن برقى الملائكة بروح الميت ، وانهم ملائكة رحمة ، وملائكة عذاب . بخلاف التماس الرقية وهى الدعاء فانه قل ما يخلو منه المحتضر ﴿ الثانى ﴾ ان الروح انما يرقى بها الملك بعد مفارقتها وحينئذ يقال من يرقى بها . وأما قبل المفارقة فطلب الرقية للمريض من الحاضرين أنسب من طلب علم من يرقى بها الى الله ﴿ الثالث ﴾ ان فاعل الرقية يمكن العلم به فيحسن السؤال عنه ويفيد السامع ، وأما الراقى الى الله فلا يمكن العلم بتعيينه حتى يسأل عنه ، و (من) انما يسئل بها عن تعيين ما يمكن السائل أن يصل الى العلم بتعيينه ﴿ الرابع ﴾ أن مثل هذا السؤال انما يراد به تحضيض واثارة اهتمام الى فعل يقع بعدم نحو قوله (٢ : ٢٤٥) مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا) أو يراد به إنكار فعل ما يذكّر بعدها

كقوله (٢ : ٢٥٥ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ) وفعل الراقى الى الله لا يحسن فيه واحد من الامرين هنا بخلاف فاعل الرقية فانه يحسن فيه الاول * الخامس * ان هذا خرج على عادة العرب وغيرهم في طلب الرقية لمن وصل الى مثل تلك الحال ، فحكى الله سبحانه ما جرت عادتهم بقوله وحذف فاعل القول ، لانه ليس الغرض متعلقا بالقائل بل بالقول ، ولم تجر عادة المخاطبين بأن يقولوا من يرقى بروحه ، فكان حمل الكلام على ما ألف وجرت العادة بقوله أولى ، اذ هو تذكير لهم بما يشاهدونه ويسمعونه * السادس * انه لو أريد هذا المعنى لكان وجه الكلام ان يقال من هو الراقى ، ومن الراقى ، لا وجه للكلام غير ذلك ، كما يقال من هو القائل منعك كذا وكذا ، وفي الحديث « من القائل كلمة كذا » (١) * السابع * ان كلمة من انما يسئل بها عن التعيين كما يقول : من الذى فعل كذا ، ومن ذا الذى قاله . فيعلم أن فاعلا وقائلا فعل وقال ، ولا

(١) روى البخارى وأبو داود والترمذى والنسائى واللفظ له — عن رفاعه بن رافع قال : صليت خلف النبي ﷺ فغطت ، فقلت : الحمد لله حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه كما يحب ربنا ويرضى . فلما صلى النبي ﷺ قال « من المتكلم فى الصلاة ؟ » فلم يتكلم أحد . ثم قالها الثانية فلم يتكلم أحد . ثم قالها الثالثة . فقال رفاعه أنا يا رسول الله . يقال « والذى نفسى بيده لقد ابتدرها بضع وثلاثون مائة كما أيهم يصعد بها »

يعلم تعيينه ، فيسأل عن تعيينه بمن تارة وبأى تارة وهم لم يسألوا
عن تعيين الملك الراقى بالروح الى الله
فان قيل : بل علموا أن ملك الرحمة والعذاب صاعد بروحه ، ولم
يعلموا تعيينه فيسأل عن تعيين أحدهما . قيل : هم يعلمون أن تعيينه
غير ممكن ، فكيف يسألون عن تعيين مالا سبيل للسامع
الى تعيينه ، ولا الى العلم به ﴿ الثامن ﴾ ان الآية انما سبقت لبيان
يأسه من نفسه ويأس الحاضرين معه وتحقق أسباب الموت ، وانه
قد حضر ولم يبق شيء ينجع فيه ولا مخلص منه ، بل هو قد ظن أنه
مفارق لاحالة . فالحاضرون قد علموا أنه لم يبق لاسباب الحياة
المعتادة تأثير في بقائه ، فطلبوا أسبابا خارجة عن المقدور تستجلب
بالرقى والدعوات ، فقالوا من راق ؟ أى من يرقى هذا العليل من
أسباب الهلاك . والرقية عندهم كانت مستعملة حيث لا يجدى الدواء
﴿ التاسع ﴾ أن مثل هذا إنما يراد به النفي والاستبعاد ، وهو أحد
التقديرين فى الآية ، أى لا أحد يرقى من هذه العلة بعدما وصل
صاحبها الى هذه الحال . فهو استبعاد لنفى الرقية لا طلب لوجود
الراقى ، كقوله (٣٦ : ٧٨) قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (أى
لا أحديحيها ، وقد صارت إلى هذه الحال . فان أريد بها هذا المعنى
استحال أن يكون من الرقيق . وان أريد بها الطلب استحال أيضا
أن يكون منه . وقد بينا أنها فى مثل هذا إنما تستعمل للطلب أو
للا نكار . وحينئذ فنقول فى ﴿ الوجه العاشر ﴾ إنها إما أن يراد

بها الطلب أو الاستبعاد ، والطلب إما أن يراد به طلب الفعل أو طلب التعيين ، ولا سبيل الى حمل واحد من هذه المعاني على الرقي لما بيناه . والله أعلم

(٢٩) فصل

ومن أسرار هذه السورة أنه سبحانه جمع فيها لأوليائه بين جمال الظاهر والباطن : فزين وجوههم بالنضرة وبواطنهم بالنظر اليه . فلا أجمل لبواطنهم ، ولا أنعم ، ولا أحلى - من النظر اليه ، ولا أجمل لظواهرهم من نضرة الوجه ، وهي إشراقه وتحسينه ، وبهجته . وهذا كما قال في موضع آخر (٧٦ : ١١) وَلَقَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ لُبَسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا) فهذا جمال الظاهر وزينته ثم قال (وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَٰلِكَ خَيْرٌ) فهذا جمال الباطن . ونظيره قوله (٣٧ : ٦) إِنَّا زَيْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ) فهذا جمال ظاهرها ، ثم قال (وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ) فهذا جمال باطنها . ونظيره قوله عن امرأة العزيز بعد أن قالت ليوסף (١٢ : ٣١) أَخْرِجْ عَلَيْنَ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ٣٢ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاودَنَّهُ عَنْ نَفْسِهِ

فَأَسْتَعَصِمَ) فذكرها لهذا هو من تمام وصفها لمحاسنه ، وأنه في غاية
الحاسن ظاهراً وباطناً ، وينظر إلى هذا المعنى ويناسبه قوله (١١٨:٢٠)
إِنَّ لَكَ أَنْ لَا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى ١١٩ وَأَنْتَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا
تَضْحَى) فقابل بين الجوع والعرى ، لان الجوع ذل الباطن والعرى
ذل الظاهر . وقابل بين الظمأ ، وهو حر الباطن ، والضحي ، وهو حر
الظاهر بالبروز للشمس . وقريب من هذا قوله (١٩٧: ٢)
وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى) في ذكر الزاد الظاهر
الحسى والزاد الباطن المعنوى . فهذا زاد سفر الدنيا ، وهذا زاد
سفر الآخرة . ويلم به قول هود (٥٢: ١١) ياقوم اسْتَغْفِرُوا
رَبَّكُمْ ثُمَّ تَوَبُّوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً
إِلَى قُوَّتِكُمْ) فالأول القوة الظاهرة المنفصلة عنهم والثاني الباطنة
المتصلة بهم . ويشبهه قوله (١٠: ٨٦) فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ) فنفي
عنهم الدافعين: الدافع من أنفسهم . والدافع من خارج ، وهو الناصر

(٣٠) فصل

ومن أسرارها أنها تضمنت إثبات قدرة الرب على ما علم أنه
لا يكون ولا يفعله . وهذا على أحد القولين في قوله (٤: ٧٥) بَلَى قَادِرِينَ
عَلَى أَنْ نُسَوِيَ بَنَانَهُ) فأخبر أنه قادر عليه ولم يفعله ولم يردده وأصرح

من هذا قوله تعالى (٢٣ : ١٨) وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لِقَادِرُونَ) وهذا أيضا على أحد القولين ، أى تغور العيون فى الارض فلا يقدر على الماء . قال ابن عباس : يريد أن سيغيض فيذهب . فلا يكون من هذا الباب ، بل يكون من باب القدرة على ماسيفعله . وأصرح من هذين الموضعين قوله تعالى (٦ : ٦٥) قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْضِكُمْ) وقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال عند نزول هذه الآية « أعوذ بوجهك (١) » ولكن قد ثبت عنه صلى الله عليه وسلم

(١) روى البخاري فى باب التفسير من سورة الانعام عن جابر قال : لما نزلت هذه الآية (قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أعوذ بوجهك » قال (أو من تحت أرجلكم) قال « أعوذ بوجهك » (أو يلبسكم شيعا ويذيق بعضهم بأس بعض) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « هذا أهون - أو هذا أيسر » اه قال الحافظ ابن حجر فى الفتوح (٨ : ٢٠٣) وقد روى ابن مردويه من حديث ابن عباس ما يفسر به حديث جابر . ولقظه عن النبي صلى الله عليه وسلم « دعوت الله أن يرفع عن أمتي أربعة ، فرفع عنهم اثنتين ، وأبى أن يرفع عنهم اثنتين : دعوت الله أن يرفع الرجم من السماء ، والحسف من الارض ، وأن لا يلبسهم شيعا ، ولا يذيق بعضهم بأس بعض ، فرفع الله عنهم الحسف والرجم ، وأبى أن يرفع عنهم الآخرين »

انه لا بد أن يقع في أمته خسف ، ولكن لا يكون عاما . وهذا عذاب من تحت الأرجل . وروى انه كان في الأمة قذف أيضا . وهذا عذاب من فوق ، فيكون هذا من باب الاخبار بقدرته على ما سيفعله ، وان أريد به القدرة على عذاب الاستئصال ، فهو من القدرة على ما لا يريد . وقد صرح سبحانه بأنه لو شاء لفعل ما لم يفعله في غير موضع من كتابه كقوله (١٠ : ٩٩) وَأَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا) وقوله (٣٢ : ١٣) وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا) ونظائره . وهذا مما لا يخفاء فيه بين أهل السنة ، وبه تبين فساد قول من قال : ان القدرة لا تكون الا مع الفعل لا قبله ، وأن الصواب التفصيل بين القدرة الموجبة والمصححة ، ففي القدرة عن الفاعل قبل الملازمة مطلقا خطأ . والله أعلم

(٣١) فصل

ومن أسرارها أنها تضمنت التآني والتثبت في تلقي العلم ، وان لا يحمل السامع شدة محبته وحرصه وطلبه على مبادرة المعلم بالأخذ قبل فراغه من كلامه ، بل من آداب الرب التي أدب بها نبيه صلى الله عليه وسلم أمره بترك الاستعجال على تلقي الوحي ، بل يصبر إلى أن يفرغ جبريل من قراءته ، ثم يقرأه بعد فراغه عليه . فهكذا ينبغي لطالب العلم ولسامعه أن يصبر على معلمه حتى يقضى كلامه ،

ثم يعيده عليه ، أو يسأل عما أشكل عليه منه ، ولا يبادره قبل فراغه
وقد ذكر الله تعالى هذا المعنى في ثلاثة مواضع من كتابه هذا
أحدها ، والثاني قوله (٢٠ : ١١٣) وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حِكْمًا عَرَبِيًّا
وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ۖ فَتَعَالَى
اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ
وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا) والثالث قوله (٨٧ : ٦) سُبْقِرْتُكَ فَلَا تَنْسَى ۖ وَلَا
مَكْشَاءَ اللَّهِ) فضمن لرسوله أن لا ينسى ما قرأه إياه . وهذا يتناول
القراءة وما بعدها

وقد ذم الله سبحانه في هذه السورة من يؤثر العاجلة على الآجلة ،
وهذا الاستعجال بالتمتع بما يفنى وإيثاره ما يبق ، ورتب كل ذم ووعيد
في هذه السورة على هذا الاستعجال ومحبة العاجلة ، فإرادته أن يفجر
أمامه هو من استعجاله وحب العاجلة ، وتكذيبه بيوم القيامة من
فرط حب العاجلة ، وإيثاره لها ، واستعجاله بنصيبه ، وتمتعه به قبل
أوانه ، ولولا حب العاجلة وطلب الاستعجال لتمتع به في الآجلة أكمل
ما يكون ، وكذلك تكذيبه وتولييه وترك الصلاة هو من استعجاله ومحبة
العاجلة ، والرب سبحانه وصف نفسه بضد ذلك ، فلم يجعل على عبده ،
بل أمهله إلى أن بلغت الروح التراقي ، وأيقن بالموت ، وهو إلى هذه الحال
مستمر على التكذيب والتولى ، والرب تعالى لا يعاجله بل يمهله ،
ويحدث له الذكر شيئاً بعد شيء ، ويصرف له الآيات ، ويضرب

له الأمثال ، وينبئه على مبدئه : من كونه نقطة من منى يمنى ، ثم علقه ، ثم خلقا سويا ، فلم يعجل عليه بالخلق وهلة واحدة ، ولا بالعقوبة اذ كذب خبره ، وعصى أمره . بل كان خلقه وأمره وجزاؤه بعد تمهيل وتدريج وأناة . ولهذا ذم الانسان بالعجلة بقوله : (١٧ : ١١) وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا) وقال (٢١ : ٣٧) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَجَلٍ سَأُورِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ)

(٣٢) فصل

ومن أسرارها أن إثبات النبوة والمعاد يعلم بالعقل . وهذا أحد القولين ، لأصحابنا وغيرهم ، وهو الصواب ، فان الله سبحانه أنكر على من حسب انه يترك سدى : فلا يؤمر ، ولا ينهى ، ولا يثاب ، ولا يعاقب . ولم ينف سبحانه ذلك بطريق الخبر المجرد ، بل نفاه نفى مالا يليق نسبته اليه ، ونفى منكر على من حكم به وظنه . ثم استدل سبحانه على فساد ذلك ، وبين أن خلقه الانسان في هذه الأطوار ، وتنقله فيها طورا بعد طور حتى بلغ نهايته - يأتي أن يتركه سدى ، فانه ينزه عن ذلك كما ينزه عن العبث والعيب والنقص

وهذه طريقة القرآن في غير موضع كما قال تعالى (١١٥ : ٢٣) أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ١١٦ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ) فجعل كمال ماسكه ، وكونه

سبحانه الحق ، وكونه لا إله الا هو ، وكونه رب العرش المستلزم
لربوبيته لكل مادونه - مبطلا لذلك الظن الباطل ، والحكم الكاذب ،
وانكار هذا الحسبان عليهم مثل انكاره عليهم حسبانهم انه لا يسمع
سرهم ونجواهم ، وحسبان انه لا يراهم ولا يقدر عليهم ، وحسبان
انه يسوى بين أوليائه وبين أعدائه في محياهم ومماتهم ، وغير ذلك
مما هو منزعه عنه تنزيهه عن سائر العيوب والنقائص ، وان نسبة
ذلك كنسبة ما يتعالى عنه مما لا يليق : من اتخاذ الولد ، والشريك ،
ونحو ذلك ، مما ينكره سبحانه على من حسبه أشد الانكار . فدل
على أن ذلك قبيح ممتنع نسبته اليه ، كما يمتنع أن ينسب اليه سائر
ما ينافي كماله المقدس

ولو كان نفي تركه سدى انما يعلم بالسمع المجرد لم يقل بعد ذلك
(٧٥ : ٣٧ أَلَمْ يَكُنْ نُطْقَةً) الى آخره ، ومما يدل أن تعطيل أسمائه
وصفاته ممتنع ، وكذلك تعطيل موجهها ومقتضاها ، فان ملكه الحق
يستلزم أمره ونهيه وثوابه وعقابه ، وكذلك يستلزم ارسال رسله
وانزال كتبه ، وبعث المعاد ليوم يحزى فيه المحسن باحسانه والمسيء
باساءته ، فمن أنكر ذلك فقد أنكر حقيقة ملكه ولم يثبت له الملك
الحق ، ولذلك كان منكر ذلك كافرا بربه ، وان زعم أنه يقر بصانع العالم ،
فلم يؤمن بالملك الحق الموصوف بصفات الجلال ، والمستحق لنعوت
الكمال ، كما أن المعطل لكلامه وعلوه على خلقه لم يؤمن به سبحانه ، فانه
آمن برب لا يتكلم ، ولا يأمر ، ولا ينهى ، ولا يصعد اليه قول ، ولا

عمل ، ولا ينزل من عنده ملك ، ولا أمر ، ولا نهى ، ولا ترفع اليه الأيدي . ومعلوم أن هذا الذى آمن به رب مقدر فى ذهنه ، ليس هو رب العالمين وإله المرسلين

وكذلك اذا اعتبرت اسمه الحى وجدته مقتضيا لصفات كماله من علمه ، وسمعه ، وبصره ، وقدرته ، وارادته ، ورحمته ، وفعله ما يشاء . واسمه القيوم مقتض لتدبير أمر العالم العلوى والسفلى ، وقيامه بمصالحه ، وحفظه له ، فمن أنكر صفات كماله لم يؤمن بأنه الحى القيوم ، وإن أقر بذلك ألحد فى اسمائه ، وعطل حقائقها ، حيث لم يمكنه تعطيل ألفاظها ، وبالله التوفيق

(٣٣) فصل

ومن ذلك قوله تعالى (٧٤ : ٣٢ كَلَّا وَالْقَمَرَ ٣٣ وَاللَّيْلَ إِذَا أَدْبَرَ ٣٤ وَالصُّبْحَ إِذَا أَصْفَرَ ٣٥ إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ ٣٦ نَذِيرًا لِلْبَشَرِ ٣٧ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ) أقسم سبحانه بالقمر الذى هو آية الليل وفيه من الآيات الباهرة الدالة على ربوبية خالقه وبارئه ، وحكمته وعلمه ، وعنايته بخلقه - ما هو معلوم بالمشاهدة . وهو سبحانه أقسم بالسماء وما فيها ، مما لا نزاع من الملائكة ، وما فيها مما نراه من الشمس والقمر والنجوم ، وما يحدث بسبب حركات

الشمس والقمر : من الليل والنهار ، وكل ذلك آية من آياته ،
ودلالة من دلائل ربوبيته

ومن تدبر أمر هذين النيرين العظيمين وجدتهما من أعظم الآيات
في خلقهما ، وجرمهما ، ونورهما ، وحركتهما على نهج واحد ، لا
ينيان ولا يفتران دائبين ، ولا يقع في حركتهما اختلاف بالبطء ،
والسرعة ، والرجوع ، والاستقامة ، والانخفاض ، والارتفاع ،
ولا يجري أحدهما في فلك صاحبه ، ولا يدخل عليه في سلطانه ، ولا
تدرك الشمس القمر ، ولا يحجب الليل قبل انقضاء النهار ، بل لكل
حركة مقدرة ، ونهج معين لا يشركه فيه الآخر . كما أن له تأثيراً
ومنفعة لا يشركه فيها الآخر . وذلك مما يدل من له أدنى عقل على
انه بتسخير مسخر ، وأمر آمر ، وتدير مدير ، بهرت حكمته العقول ،
وأحاط علمه بكل دقيق وجليل ، وفرق ما علمه الناس من الحكم
التي في خلقهما ما لا تصل اليه عقولهم ، ولا تنتهي إلى مبادئها أو هامهم ،
فغابتنا الاعتراف بجلال خالقهما ، وكمال حكمته ، ولطف تديره ،
وأن نقول ما قاله أولو الألباب قبلنا (٣ : ١٩١) رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا
سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (ولو أن العبد وصف له جرم أسود
مستدير عظيم الخلق ، يبدو فيه النور كخيطة متسخن ، ثم يتزايد
كل ليلة حتى يتكامل نوره ، فيصير أضواً شياً ، وأحسنه وأجمله ، ثم
يأخذ في النقصان حتى يعود إلى حاله الأول فيحصل بسبب ذلك معرفة

الأشهر والسنين، وحساب آجال العالم: من مواقيت حجهم، وصلاتهم، ومواقيت أجاثرهم، ومدائنتهم، ومعاملتهم التي لا تقوم مصالحهم إلا بها، فمصالح الدنيا والدين متعلقة بالأهلة

وقد ذكر سبحانه ذلك في ثلاث آيات من كتابه: أحدها قوله (٢: ١٨٩) يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْهَلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ) والثانية قوله (١٠: ٥) هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) والثالثة قوله (١٧: ١٢) وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلُّ شَيْءٍ فَصْلَانَاهُ تَفْصِيلًا) فلو لا ما يحدثه الله سبحانه في آيات الليل من زيادة ضوءها ونقصانه لم يعلم ميقات الحج، والصوم، والعدد، ومدة الرضاع، ومدة الحمل، ومدة الاجارة، ومدة آجال الحاملات

فان قيل: كان يمكن هذا بحركة الشمس والأيام التي تحفظ بطولع الشمس وغروبها، كما يعرف أهل الكتابين مواقيت صيامهم وأعيادهم بحساب الشمس، قيل: هذا وإن كان ممكنا إلا أنه يعسر ضبطه ولا يقف عليه إلا الآحاد من الناس، ولا ريب أن معرفة أوائل الشهور وأواسطها وأواخرها بالقمر أمر يشترك فيه الناس

وهو أسهل من معرفة ذلك بحساب الشمس ، وأقل اضطرابا واختلافا ، ولا يحتاج الى تكلف حساب ، وتقليد من لا يعرفه من الناس لمن يعرفه . فالحكمة البالغة التي في تقدير السنين والشهور بسير القمر أظهر ، وأنفع ، وأصلح ، وأقل اختلافا من تقديرها بسير الشمس . فالرب جل جلاله دبر الألهة بهذا التدبير العجيب لمنافع خلقه ، في مصالح دينهم ودنياهم ، مع ما يتصل به من الاستدلال به على وحدانية الرب ، وكمال حكمته ، وعلمه ، وتدبيره . فشهادة الحق بتغير الأجرام الفلكية ، وقيام أدلة الحدوث والخلق عليها . فهي آيات ناطقة بلسان الحال على تكذيب الدهرية ، وزنادقة الفلاسفة والملاحدة القائلين : بأنها زلية أبدية لا يتطرق اليها التغير ، ولا يمكن عدمها

فإذا تأمل البصير القمر مثلا ، وافتقاره إلى محل يقوم به ، وسيره دائما لا يفتر ، مسير ، مسخر ، مدبر ، وهبوطه تارة ، وارتفاعه تارة ، وأفوله تارة ، وظهوره تارة ، وذهاب نوره شيئا فشيئا ، ثم عوده اليه كذلك ، وسبب ضوئه جملة واحدة حتى يعود قطعة مظلمة بالكسوف - علم قطعا أنه مخلوق مربوب مسخر ، تحت أمر خالق قاهر مسخر له . كما يشاء ، وعلم أن الرب سبحانه لم يخلق هذا باطلا ، وأن هذه الحركة فيه لا بد أن تنتهي الى الانقطاع والسكون ، وأن هذا الضوء والنور لا بد أن ينتهي الى ضده ، وأن هذا السلطان لا بد أن ينتهي إلى العزل .

وسيجتمع بينهما جامع المتفرقات بعد أن لم يكونا مجتمعين ، ويذهب
بهما حيث شاء ، ويرى المشركين من عبدهما حال ألهتهم التي عبدوها
من دونه ، كما يرى عباد الكواكب انتشارها ، وعباد السماء انفطارها
وعباد الشمس تكويرها ، وعباد الأصنام اهانتها وإلقاءها في النار
أحقر شيء ، وأذله وأصغره ، كما أرى عباد العجل في الدنيا حاله ومبارد
وعباده تسحقه وتمحقه ، والريح تمزقه وتذروه وتنسفه في اليم ،
وكما أرى الأصنام في الدنيا صورها مكسرة مخردة ملقاة بالأمكنة
القدرية ، ومعاول الموحدين قد هشمت منها تلك الوجوه ، وكسرت
تلك الرؤوس ، وقطعت تلك الأيدي والأرجل ، التي كانت
لا يوصل إليها بغير التقييل والاستلام . وهذه سنة الله التي لا تبدل ،
وعادته التي لا تحول : انه يرى عابده غيره حال معبوده في الدنيا
والآخرة ، وان كان المعبود غير راض بعبادة غيره ويريه تبريه منه ،
ومعاداته له أحوج ما يكون إليه (٨ : ٤٢) ليهلك من هلك عن بينة
ويحيى من حي عن بينة) ويعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين
تأمل سطور الكائنات فانها من الملك الأعلى إليك رسائل
وقد خط فيها - لو تأملت خطها - ألا كل شيء ما خلا الله باطل
ولو شاء تعالى لأبقى القمر على حالة واحدة لا يتغير ، وجعل
التغير في الشمس . ولو شاء لغيرهما معا ، ولو شاء لأبقاهما على حالة
واحدة ، ولكن يرى عباده آياته في أنواع تصاريفها ليدلهم على أنه

الله الذى لا إله إلا هو الملك الحق المبين ، الفعال لما يريد (٧ : ٥٤)
أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (وَأما تأثير القمر فى
ترطيب أبدان الحيوان والنبات ، وفى المياه ، وجزر البحر ومدّه ،
وبحركات الأمراض ، وتنقلها من حال الى حال ، وغير ذلك من
المنافع ، فأمر ظاهر

(٣٤) فصل

وأما أقسامه سبحانه به (٧٤ : ٣٣ الليل إذا أدبر) فلها فى أدباره وإقبال
النهار من أبين الدلالات الظاهرة على المبدأ والمعاد ، فانه مبدأ ومعاد
يومى مشهود بالعيان ، بينما الحيوان فى سكون الليل قد هدأت حركاتهم ،
وسكنت أصواتهم ، ونامت عيونهم ، وصاروا اخوان الأموات ،
إذ أقبل من النهار داعيه ، وأسمع الخلائق مناديه ، فانتشرت منهم
الحركات ، وارتفعت منهم الأصوات ، حتى كأنهم قاموا أحياء
من القبور ، يقول قائلهم « الحمد لله الذى أحيانا بعد ما أماتنا وإليه
النشور » (١) فهو معاد جديد بدأه وأعاده الذى بيده ويعيد . فمن
ذهب بالليل وجاء بالنهار سوى الواحد القهار ؟

(١) روى البخارى فى صحيحه فى باب وضع اليد تحت الخد اليمنى عن
حذيفة قال : كان النبي ﷺ إذا أخذ مضجعه من الليل وضع يده
تحت خده ، ثم يقول « اللهم باسمك أموت وأحيا » وإذا استيقظ قال
« الحمد لله الذى أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور »

فمن تأمل حال الليل إذا عسعس وأدبر ، والصبح إذا تنفس
وأسفر ، فهزم جيوش الظلام بنفسه ، وأضاء أفق العالم بقبسه ،
وفلّ كتائب الكواكب بعساكره ، وأضحك نواحي الأرض
بتباشيره وبشائره . فيالهما آيتان شاهدتان بوحدانية منشئهما ، وكمال
ربوبيته ، وعظم قدرته وحكمته . فتبارك الذي جعل طلوع الشمس
وغروبها مقبما لسلطان الليل والنهار ، فلولا طلوعها لبطل أمر العالم
كله ، فكيف كان الناس يسعون في معاشهم ، ويتصرفون في أمورهم ،
والدنيا مظلمة عليهم ؟ وكيف كانت تهنيهم الحياة مع فقد لذة النور
وروحه ، وأى ثمار ونبات وحيوان كان يوجد ؟ وكيف كانت
تتم مصالح أبدان الحيوان والنبات ؟ ولولا غروبها لم يكن للناس
هدو ولا قرار ، مع علم حاجتهم إلى الهدو ، لراحة أبدانهم ، وجموم
حواسهم . فلولا جثوم هذا الليل عليهم بظلمته ما هداؤا ولا قروا
ولا سكنوا ، بل جعله أحكم الحاكمين سكنا ولباسا ، كما جعل النهار
ضياء ومعاشا . ولولا الليل وبرده لا احترقت أبدان النبات والحيوان
من دوام شروق الشمس عليها ، وكان يحرق ما عليها من نبات
وحيوان ، فاقتضت حكمة أحكم الحاكمين أن يجعلها سراجا يطلع
على العالم في وقت حاجتهم إليه ، ويغيب في وقت استغنائهم عنه .
فطلوعه لمصلحتهم ، وغيبته لمصلحتهم ، وصار النور والظلمة على
تضادهما متعاونين متظاهرين على مصلحة هذا العالم وقوامه . فلو
جعل الله سبحانه النهار سرمدا إلى يوم القيامة ، والليل سرمدا إلى

يوم القيامة لفاتت مصالح العالم ، واشتدت الضرورة الى تغيير ذلك وإزالته بضده

وتأمل حكمته سبحانه في ارتفاع الشمس ، وانخفاضها لاقامة هذه الأئمنة الأربعة من السنة ، وما في ذلك من مصالح الخلق . ففي الشتاء تغور الحرارة في الشجر والنبات ، فيتولد منها مواد الثمار ، ويكشف الهواء ، فينشأ منه السحاب ، وينعقد فيحدث المطر الذي به حياة الأرض ونماء أبدان الحيوان والنبات ، وحصول الأفعال والقوى وحرركات الطبائع . وفي الصيف يخرم الهواء ، فينضج الثمار ، وتشتد الحبوب ، ويحفظ وجه الأرض ، فيتيسر العمل . وفي الخريف يصفو الهواء ، وتبرد الحرارة ، ويمتد الليل ، وتستريح الأرض والشجر للحمل والنبات مرة ثانية ، بمنزلة راحة الحامل بين الحملين ، ففي هذه الأئمنة مبدأ ومعاد مشهود ، وشاهد بالمبدأ والمعاد الغيبي .

والمقصود أن بحركة هذين النيرين تتم مصالح العالم ، وبذلك يظهر الزمان ، فإن الزمان مقدار الحركة . فالسنة الشمسية مقدار سير الشمس من نقطته الحمل الى مثلها . والسنة القمرية مقدرة بسير القمر ، وهو أقرب الى الضبط . واشترك الناس في العلم به ، وقدر أحكم الحاكمين تنقلهما في منازلهما ، لما في ذلك من تمام الحكمة ولطف التدبير ، فإن الشمس لو كانت تطلع وتغرب في موضع واحد لا تتعداه لما وصل ضوءها وشعاعها الى كثير من الجهات ، فكان نفعها يفقد هناك فجعل الله سبحانه طلوعها دولابين الأرض لينال نفعها وتأثيرها

البقاع ، فلا يبقى موضع من المواضع التي يمكن أن تطلع عليها الا أخذ بقسطه من نفعها . واقتضى هذا التدبير المحكم أن وقع مقدار الليل والنهار على أربعة وعشرين ساعة ، ويأخذ كل منهما من صاحبه ، ومنتهى كل منهما إذا امتد خمسة عشر ساعة . فلو زاد مقدار النهار على ذلك إلى خمسين ساعة مثلاً أو أكثر لاختل نظام العالم وفسد أكثر الحيوان والنبات ، ولو نقص مقداره عن ذلك لاختل النظام أيضاً وتعطلت المصالح ، ولو استويادأماً لما اختلفت فصول السنة التي باختلافها مصالح العباد والحيوان . فكان في هذا التقدير والتدبير المحكم من الآيات والمصالح والمنافع ما يشهد بأن ذلك تقدير العزيز العليم ، ولهذا يذكر سبحانه هذا التقدير ويضيفه إلى عزته وعلمه ، كما قال تعالى

(٣٦ : ٣٧) وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ ٣٨

وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ وَقُلْ تَعَالَى (٤١ : ٩)

قُلْ أَتُنْكِرُونَ مَا كَفَرُوا بِاللَّهِ خَاقِ الْأَرْضِ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ

أُنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ١٠ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيٍّ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ

فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلنَّاسِ لِيَوْمٍ ١١ ثُمَّ

أَسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا

أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ١٢ فَتَضَاهَن سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ

وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيْنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ

تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ) وقال تعالى (٦ : ٩٦) فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ
سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ) فهذه ثلاثة
مواضع يذكر فيها أن تقدير حركات الشمس والقمر والاجرام
العلوية وما ينشأ عنها كان من مقتضى عزته وعلمه ، وأنه قدره بهاتين
الصفتين . وفي هذا تكذيب لأعداء الله الملاحدة الذين ينفون
قدرته واختياره ، وعلمه بالمغيبات

(٣٥) فصل

وأقسم سبحانه بهذه الأشياء الثلاثة - وهي القمر ، والليل إذا أدير ، والصبح إذا
أسفر - على المعاد لما في القسم من الدلالة على ثبوت المقسم عليه ، فإنه يتضمن
كمال قدرته وحكمته ، وعنايته بخلقه ، وابداء الخلق واعادته ، كما هو مشهود
في ابداء النهار والليل واعادتهما ، وفي ابداء النور واعادته في القمر ،
وفي ابداء الزمان واعادته الذي هو حاصل بسير الشمس والقمر ،
وابداء الحيوان والنبات واعادتهما ، وابداء فصول السنة واعادتها ،
وابداء ما يحدث في تلك الفصول واعادته . فكل ذلك دليل ظاهر
على المبدأ والمعاد الذي أخبرت به الرسل كلهم عنه ، فصرف
سبحانه الآيات الدالة على صدق رسله ونوعها ، وجعلها للفطر تارة ،
وللسمع تارة ، وللشاهدة تارة ، فجعلها آفاقية ، ونفسية ، ومنقولة ،
ومعقولة ، ومشهودة بالعيان ، ومذكورة بالجنان . فأبى الظالمون
الا كفورا (٢٥ : ٣) وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ

يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا
وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا

ولما أقام الحجّة وبين المحجة ارتهن كل نفس بكسبها ، وأخذها
بذنبها ، واستثنى من أولئك من قبل هداه واتبع رضاه ، وهم أصحاب
اليمين الذين آمنوا بالله وصدقوا المرسلين ، وسلكوا غير سبيل
المجرمين ، الذين ليسوا من المصلين ، ولا من مطعمي المسكين ،
وهم من أهل الخوض مع الخائضين ، المكذبين بيوم الدين . فهذه
أربع صفات أخرجتهم من زمرة المفلحين وأدخلتهم في جملة
الهالكين : (الاولى) ، ترك الصلاة ، وهى عمود الاخلاص للعبود
(الثانية) ترك اطعام المسكين الذى هو من مراتب الاحسان للعبيد ،
فلا اخلاص للخالق ولا احسان للمخلوق ، كما قال تعالى (١٠٧ : ٦
الَّذِينَ هُمْ يُرَآؤْنَ ۖ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ) وقال (٩ : ٥٤ لَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ
إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ) وهذا ضدهما وصف
به أصحاب اليمين بقوله (٨ : ٣ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ
يُنْفِقُونَ) وقال (٣٢ : ١٦ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ
يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ) وقرن
سبحانه بين هذين الأصلين فى غير موضع فى كتابه : فأمر بهما
تارة ، وأثنى على فاعليهما تارة ، وتوعدهم بالويل والعقاب تاركهما
تارة ، فان مدار النجاة عليهما ، ولا فلاح لمن أخل بهما

الصفة الثالثة والرابعة الخوض بالباطل والتكذيب بالحق ، فاجتمع لهم عدم الاخلاص والاحسان ، والخوض بالباطل والتكذيب بالحق ، واجتمع لأصحاب (اليمين) (١) الاخلاص ، الاحسان والتصديق بالحق ، والتكلم به ، فاستقام اخلاصهم واحسانهم ، ويقينهم وكلامهم . واستبدل أصحاب الشمال بالاخلاص شركا ، وبالاخسان اساءة ، وباليقين شكا وتكديبا ، وبالكلام النافع خوضا في الباطل . فلذلك لم تنفعهم شفاعة الشافعين ، أى لم يكن لهم من شفيع فيهم ، لان الشفاعة تقع فيهم ولا تنفع ، وهذا لما أعرضوا عن التذكرة ولم يرفعوا بها رأسا ، وجفلوا عن سماعها كما تجفل حُمُرُ الوحش من الأسد أو من الرُماة

ثم ختم السورة بأنه جمع فيها بين شرعه وقدره ، وإقامة الحجة عليهم باثبات المشيئة لهم ، وبيان مقتضى التوحيد والربوبية ، وأن ذلك إليه لا إليهم ، فالاول عدله ، والثانى فضله ، فالأول يوجب السعى والطلب والحرص على ما ينجيهم ، كما يفعلون ذلك فى مصالح دنياهم ، بل أشد . والثانى يوجب الاستعانة والتوكل والتفويض والرغبة الى من ذلك بيده ليسهل لهم ويوفقهم . والله المستعان ، وعليه التكلان

(١) هذه زيادة لا بد منها لتصحيح المقابلة بين الفريقين وهى مأخوذة من الآيات التى يشرحها المؤلف اه أبو رجاء

(٣٦) فصل

ومن ذلك قوله (٣٨: ٦٩ فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ٣٩ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ٤٠ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ) إلى آخرها . قال مقاتل : بما تبصرون من الخلق وما لا تبصرون منه . وقال قتادة : أقسم بالأشياء كلها بما يبصر منها وما لا يبصر ، وقال الكلبي : تبصرون من شيء ، وما لا تبصرون من شيء . وهذا أعم قسم وقع في القرآن ، فانه يعم العلويات والسفليات والدينا والآخرة ، وما يرى وما لا يرى ، ويدخل في ذلك الملائكة كلهم والجن والانس ، والعرش والكرسي ، وكل مخلوق ، وكل ذلك من آيات قدرته وربوبيته ، وهو سبحانه يصرف الاقسام كما يصرف الآيات . ففي ضمن هذا القسم أن كل ما يرى وما لا يرى آية ، ودليل على صدق رسوله ، وأن ما جاء به هو من عند الله وهو كلامه ، لا كلام شاعر ، ولا مجنون ، ولا كاهن

ومن تأمل المخلوقات ، ما يراه منها وما لا يراه ، واعتبر ما جاء به الرسول بها ، ونقل فكرته في مجارى الخلق والأمر ظهر له أن هذا القرآن من عند الله وأنه كلامه ، وهو أصدق الكلام ، وأنه حق ثابت . كما أن سائر الموجودات ما يرى منها وما لا يرى حق . كما قال تعالى (٥١ : ٢٣ فَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقُّ مِثْلِ مَا أَنْتُمْ تَنْطِقُونَ) أى ان كان نطقكم حقيقة وهو أمر موجود لا تمارون فيه ولا تشكون

فكذا ما أخبر تسكم به من التوحيد والمعاد والنبوة حق ، كما في الحديث «انه لحق مثل ما أنك هنا» ، فكأنه سبحانه يقول : ان القرآن حق كما أن ما شاهدوه من الخلق وما لا يشاهدونه حق موجود ، بل لو فكرتم فيما تبصرون وما لا تبصرون لدللكم ذلك على أن القرآن حق . ويكفي الانسان من جميع ما يبصره وما لا يبصره بعينه ، ومبدأ خلقه ونشأته ، وما يشاهده من أحواله ظاهرا وباطنا ، ففي ذلك أبين دلالة على وحدانية الرب ، وثبوت صفاته ، وصدق ما أخبر به رسوله ، ومالم يباشر قلبه ذلك حقيقة لم تخالط بشاشة الإيمان قلبه

ثم ذكر سبحانه المقسم عليه فقال (٦٩ : ٤٠) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ) وهذا رسوله البشري محمد صلى الله عليه وسلم ، وفي إضافته اليه باسم الرسالة أبين دليل انه كلام المرسل . فمن أنكر أن يكون الله قد تكلم بالقرآن فقد أنكر حقيقة الرسالة . ولو كانت إضافته اليه اضافة انشاء وابتداء لم يكن رسولا ، ولناقض ذلك إضافته الى رسوله الملقى في سورة التكوين

ثم بين سبحانه كذب أعدائه وبهتهم في نسبة كلامه تعالى الى غيره ، وانه لم يتكلم به ، بل قاله ، من تلقاء نفسه ، كما بين كذب من قال (٧٤ : ٢٥) إِنَّ هَذَا الْقَوْلُ الْبَشَرِ) . فمن زعم أنه قول البشر فقد كفر وسيصليه الله سقر

ثم أخبر سبحانه أنه تنزيل من رب العالمين ، وذلك يتضمن أمورا :

﴿أحدها﴾ أنه تعالى فوق خلقه كلهم ، وأن القرآن نزل من عنده
 ﴿والثاني﴾ أنه تكلم به حقيقة ، لقوله (٥٦ : ٨٠ من رب العالمين)
 ولو كان غيره هو المتكلم به لكان من ذلك الغير . ونظير هذا قوله
 (٣٢ : ١٣) وَلَئِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي (ونظيره قوله (١٦ : ١٠٢) قُلْ نَزَّلَهُ
 رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ) وقوله (٣٩ : ١) تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ
 اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ) وقوله (٤١ : ٤٢) تَنْزِيلُ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ)
 وما كان من الله فليس بمخلوق ، ولا ينتقض هذا بأن الرزق والمطر
 وما في السموات والارض جميعا منه ، وهو مخلوق ؛ لان ذلك كله
 أعيان قائمة بنفسها وصفات وأفعال لتلك الأعيان ، فاضافتها الى
 الله سبحانه وأنها منه اضافة خلق ، كاضافة بيته ، وعبدته ، وناقته ،
 وروحه ، وبابه - اليه ، بخلاف كلامه فانه لا بد أن يقوم بمتكلمه ؛
 إذ كلام من غير متكلم كسمع من غير سامع ، وبصر من غير مبصر ،
 وذلك عين المحال ، فاذا أضيف الى الرب كان بمنزلة اضافة سمعه ،
 وبصره ، وحياته ، وقدرته ، وعلمه ، ومشيتته اليه . ومن زعم أن هذه اضافة
 مخلوق الى خالق فقد زعم ان الله لا سمع له ، ولا بصر ، ولا حياة ،
 ولا قدرة ، ولا مشيئة تقوم به . وهذا هو التعطيل الذي هو شر من
 الاشراك . وان زعم أن اضافة السمع ، والبصر ، والعلم ، والحياة
 والقدرة اضافة صفة الى موصوف ، فاضافة الكلام اليه اضافة
 مخلوق إلى خالق فقد تناقض وخرج عن موجب العقل والفطرة

والشرع ولغات الامم ، و فرق بين متماثلين حقيقة ، وعقلا ، وشرعا ،
وفطرة ، ولغة

وتأمل كيف أضافه سبحانه إلى الرسول بلفظ القول ، وأضافه
إلى نفسه بلفظ الكلام في قوله (٩: ٦ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ) فان
الرسول يقول للمرسل اليه ما أمر بقوله ، فيقول : قلت كذا وكذا ،
وقلت له : ما أمرتني أن أقوله كما قال المسيح (٥ : ١١٧ ما قُلْتُ لَهُمْ
إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ) والمرسل يقول للرسول : قل لهم كذا وكذا .
كما قال تعالى (٤ : ٣١ قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ)
(١٧ : ٥٣ وَقُلْ لِعِبَادِيَ يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ) (٢٤ : ٣٠ قُلْ
لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ) ونظائره . فاذا بلغ الرسول ذلك
صح أن يقال : قال الرسول كذا . وهذا قول الرسول - أى قاله
مبلغا - وهذا قوله مبلغا عن مرسله ، ولا يجيء في شيء من ذلك
تكلم لهم بكذا وكذا ، ولا تكلم الرسول بكذا وكذا ، ولا أنه
بكلام رسول كريم ، ولا في موضع واحد ، بل قيل للصديق - وقد
تلى آية - هذا كلامك وكلام صاحبك فقال : ليس بكلامي ولا كلام
صاحبي ، هذا كلام الله

(٣٧) فصل

الأمر الثالث ما تضمنه قوله (٥٦ : ٨٠) تَنْزِيلُ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ
إن ربوبيته الكاملة لخلقه تأتي أن يتركهم سدى : لا يأمرهم ، ولا ينههم
ولا يرشدهم إلى ما ينفعهم ، ويحذرهم ما يضرهم . بل يتركهم هملا
بمنزلة الأنعام السائمة . فمن زعم ذلك لم يَقْدِرْ رَبُّ الْعَالَمِينَ قدره
ونسبه إلى ما لا يليق به تعالى (٢٣ : ١١٦) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ
إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ)

ثم أقام سبحانه البرهان القاطع على صدق رسوله ، وأنه لم يقول
عليه فيما قاله ، وأنه لو تقول عليه لما أقره ، ولعاجله بالهلاك ،
فإن كمال علمه وقدرته وحكمته تأتي أن يقر من تقول عليه ، وافترى
عليه ، وأضل عباده ، واستباح دماء من كذبه وحریمهم وأموالهم ،
وأظهر في الأرض الفساد والجور والكذب ، وخالف الخلق ،
فكيف يليق بأحكام الحاكمين وأرحم الراحمين وأقدر القادرين
أن يقره على ذلك ؟ بل كيف يليق به أن يؤيده ، وينصره ،
ويعليه ، ويظهره ، ويظفره ، بأهل الحق : يسفك دماءهم ،
ويستبيح أموالهم وأولادهم ونساءهم ، قائلا : إن الله أمرني بذلك وأباحه
لي ؟ بل كيف يليق به أن يصدقه بأنواع التصديق كلها ، فيصدقه
بأقراره ، وبآيات المستلزمة لصدقه التي دلالتها على التصديق

كدلالة التصديق بالقول وأظهر ، ثم يصدقه بأنواعها كلها على اختلافها . فكل آية على انفرادها مصدقة له ، ثم يحصل باجتماع تلك الآيات تصديق فوق تصديق كل آية بمفردها ، ثم يعجز الخلق عن معارضته ، ثم يصدقه بكلامه وقوله ، ثم يقيم الدلالة القاطعة على أن هذا قوله وكلامه ، فيشهد له باقراره وفعله وقوله ، فمن أعظم المحال ، وأبطل الباطل ، وأبين البهتان أن يجوز على أحكم الحاكمين ورب العالمين أن يفعل ذلك بالكاذب المفترى عليه ، الذى هو شر الخلق على الإطلاق ، فمن جوز على الله أن يفعل هذا بشر خلقه وأكذبهم فما آمن بالله قطعا ، ولا عرف الله ، ولا هذا هو رب العالمين ، ولا يحسن نسبة ذلك الى من له مسكة من عقل ، ووحكمة ، وحي . ومن فعل ذلك فقد أزرى بنفسه ، ونادى على جهله وأذكر في هذا مناظرة جرت لى مع بعض اليهود ، قلت له - بعد أن أفضى فى نبوة النبي صلى الله عليه وسلم - الى أن قلت له : انكار نبوته يتضمن القدح فى رب العالمين وتنقصه بأقبح التنقص فكان الكلام معكم فى الرسول ، والكلام الآن فى تنزيه الرب تعالى ، فقال : كيف تقول مثل هذا الكلام ؟ فقلت له : بيانه على ، خاسم الآن : أتم تزعمون أنه لم يكن رسولا وانما كان ملوكا قاهرا قهر الناس بسيفه ، حتى دانوا له ، ومكث ثلاثا وعشرين سنة يكذب على الله ويقول : أوحى إلى ولم يُوحِ إليه ، وأمرنى ولم يأمره ، ونهانى ولم ينهه ، وقال الله كذا ولم يقل ذلك ، وأحل كذا

وحرّم كذا ، وأوجب كذا ، وكره كذا ، ولم يحل ذلك ولا حرّمه
ولا أوجبه ، بل هو فعل ذلك من تلقاء نفسه كاذبا مفتريا على الله
وعلى أنبيائه ، وعلى رسله وملائكته ، ثم مكث من ذلك ثلاث
عشرة سنة يستعرض عباده : يسفك دماءهم ، ويأخذ أموالهم ،
ويسترق نساءهم وأبناءهم ، ولا ذنب لهم إلا الرد عليه ومخالفته ،
وهو في ذلك كله يقول : الله أمرني بذلك ، ولم يأمره ، ومع ذلك
فهو ساع في تبديل أديان الرسل ، ونسخ شرائعهم ، وحل نوااميسهم
فهذه حاله عندكم : فلا يخلو : إما أن يكون الرب تعالى عالما بذلك
مطلعا عليه من حاله ، يراه ويشاهده أم لا : فإن قلتم : إن ذلك
جميعه غائب عن الله لم يعلم به قدحتم في الرب تعالى ، ونسبتموه
إلى الجهل المفرط ، إذ لم يطلع على هذا الحادث العظيم ولا عليه
ولا رآه ، وإن قلتم : بل كان ذلك بعلمه وإطلاعه ومشاهدته ، قيل
لكم : فهل كان قادرا على أن يغير ذلك ويأخذ على يده ، ويحول
بينه وبينه أم لا ؟ فإن قلتم : ليس قادرا على ذلك نسبتموه إلى العجز
المنافي للربوبية ، وكان هذا الانسان هو وأتباعه أقدر منه على تنفيذ
إراداتهم ، وإن قلتم : بل كان قادرا ، ولكن مكنه ونصره وسلطه
على الخلق ، ولم ينصر أولياءه وأتباع رسله نسبتموه إلى أعظم
السفّه والظلم والاخلال بالحكمة : هذا لو كان مخلى بينه وبين
مافعله ، فكيف وهو في ذلك كله ناصره ومؤيده ، ومجيب دعواته

ومهلك من خالفه وكذبه ، ومصدقه بأنواع التصديق ، ومظهر الآيات على يديه التي لو اجتمع أهل الأرض كلهم على أن يأتوا بواحدة منها لما أمكنهم ولعجزوا عن ذلك . وكل وقت من الأوقات يحدث له من أسباب النصر والتمكين والظهور والعلو وكثرة الاتباع أمر اخرجنا عن العادة . فظهر أن من أنكر كونه رسولاً نبياً فقد سب الله وقبح فيه ، ونسبه الى الجهل والعجز والسفه قلت له : ولا ينتقض هذا بالملوك الظلمة الذين مكنتهم الله في الأرض وقتاً ، ثم قطع دابرهم ، وأبطل سنتهم ، ومحا آثارهم وجورهم . فان أولئك لم يعيدوا شيئاً من هذا ، ولا أيدوا ، ونصروا ، وظهرت على أيديهم الآيات ، ولا صدقهم الرب تعالى باقراره ولا بفعله ولا بقوله ، بل أمرهم كان بالضد من أمر الرسول ، كفرعون ونمرود وأضراهما . ولا ينتقض هذا بمن ادعى النبوة من الكذابين ، فان حاله كانت ضد حال الرسول من كل وجه ، بل حالهم من أظهر الأدلة على صدق الرسول . ومن حكمة الله سبحانه أن أخرج مثل هؤلاء الى الوجود ليعلم حال الكذابين وحال الصادقين ، وكان ظهورهم من أبين الأدلة على صدق الرسل والفرق بين هؤلاء وبينهم ، فبضدها تبين الأشياء ، والضد يظهر حسنه الضد ، فمعرفة أدلة الباطل وشبهه من أنواع أدلة الحق وبراهينه فلما سمع ذلك قال : معاذ الله لا نقول انه ملك ظالم ، بل نبى كريم من اتبعه فهو من السعداء ، وكذلك من اتبع موسى فهو من اتبع محمداً

قلت له : بطل كل ما تموهون به بعد هذا ، فانكم اذا أقررتم أنه نبي صادق فلا بد من تصديقه في جميع ما أخبر به ، وقد علم اتباعه وأعداؤه بالضرورة أنه دعا الناس كلهم الى الايمان ، وأخبر أن من لم يؤمن به فهو كافر مخلد في النار ، وقاتل من لم يؤمن به من أهل الكتاب وسجل عليهم بالكفر واستباح أموالهم ودماءهم ونساءهم وبناتهم . فان كان ذلك عدوانا منه وجورالم يكن نبيا ، وعاد الأمر الى القدح في الرب تعالى ، وان كان ذلك بأمر الله ووحيه لم يسع أحدا مخالفته وترك اتباعه ، ولزم تصديقه فيما أخبر به وطاعته فيما أمر وقد أرشد سبحانه الى هذا المسلك في غير موضع من كتابه

فقال (٦٩ : ٤٤) وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ ٤٥ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ٤٦ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ٤٧ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ يقول سبحانه : لو تقول علينا قولاً واحداً من تلقاء نفسه لم نقله ولم نوجه اليه لما أقررناه ، ولأخذنا يمينه ثم أهلكناه . هذا أحد القولين ، قال ابن قتيبة : في هذا قولان : أحدهما أن اليمين القوة والقدرة ، وأقام اليمين مقام القوة ، لان قوة كل شيء في ميامنه قلت : وعلى هذا تكون اليمين من صفة الأخذ ، وهذا قول ابن عباس في اليمين

قال : ولأهل اللغة في هذا مذهب آخر ، وهو أن الكلام ورد على ما اعتاده الناس من الأخذ بيد من يعاقب ، وهو قولهم إذا أرادوا عقوبة رجل خذ بيده ، وأكثر ما يقوله السلطان

والحاكم بعد وجوب الحكم : خذ بيده ، واسفع بيده فكأنه قال :
لو كذب علينا في شيء (مما بلغ) اليكم عنا لأخذنا يمينه ، ثم عاقبناه
بقطع الوتين . وإلى هذا المعنى ذهب الحسن اه

فقد أخبر سبحانه أنه لو تقول عليه شيئاً من الأقاويل لما أقره
ولعاجله بالعقوبة . فان كذباً على الله ليس ككذب على غيره ، ولا يليق
به ان يقر الكاذب عليه فضلاً عن أن ينصره ويؤيده ويصدقفه

وقوله (٦٩ : ٤٦) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (والوتين : نياط القلب ،
وهو عرق يجري في الظهر حتى يتصل بالقلب ، اذا انقطع بطلت القوى
ومات صاحبه ، هذا قول جميع أهل اللغة ، قال ابن قتية : ولم يرد أنا
نقطع ذلك العرق بعينه ، ولكنه أراد لو كذب علينا لأمتناه أو
قتلناه ، فكان كمن قطع وتينه ، قال : ومثله قوله صلى الله عليه وسلم
« مازالت أكلة خير تعاودني ، وهذا أوان قطعت أبهرى » (١)

(١) رواه البخارى معلقاً . ووصله البزار وغيره عن عائشة رضى الله
عنها . والابهر عرق في الظهر . وفي النهاية : مازالت أكلة خير تعاودني -
بضم التاء وتشديد الدال - وأتى للابهر بمعان كثيرة . وقال الحافظ في
الفتح (٧ : ٣٤٨) قال ابن اسحاق : لما اطمأن النبي ﷺ بعد فتح
خير أهدت اليه زينب بنت الحارث . امرأة سلام بن مشكم شاة مشوية
كانت سألت : أي عضو من الشاة أحب اليه ؟ قيل لها الذراع . فأكثر
فيها من السم . فلما تناول الذراع لأك منها مضغاً ولم يسقط . وأكل
معه بشر بن البراء فأساغ لقمته فمات .

والأبهر : عرق يتصل بالقلب فاذا انقطع مات صاحبه ، فكأنه قال :
فهذا أوان قلبي السم ، فكنت كمن انقطع أبهره
ثم قال تعالى (٦٩ : ٤٧) فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ)
أى لا يحجزه منى أحد ولا يمنع منى

الموضع الثانى قوله تعالى (٤٢ : ٢٤) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ
كَذِبًا فَإِنْ يَشَأُ اللَّهُ يُخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ
بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ) وفى معنى الآية للناس قولان :
أحدهما قول مجاهد ومقاتل : ان يشأ الله يربط على قلبك بالصبر
على أذاهم ، حتى لا يشق عليك . والثانى قول قتادة : ان يشأ الله
ينسك القرآن ويقطع عنك الوحى . وهذا القول دون الأول لوجوه .
﴿ أحدها ﴾ ان هذا خرج جوابا لهم وتكديبا لقولهم : ان
محمدا كذب على الله واقترى عليه هذا القرآن . فأجابهم بأحسن
جواب ، وهو أن الله تعالى قادر لا يعجزه شئ ، فلو كان كما تقولون
لختم على قلبه ، فلا يمكنه أن يأتى بشئ منه ، بل يصير القلب
كالشئ المختوم عليه فلا يوصل الى ما فيه ، فيعود المعنى الى أنه لو
افترى على لم أمكنه ولم أقره . ومعلوم أن مثل هذا الكلام لا يصدر
من قلب مختوم عليه ، فان فيه من علوم الأولين والآخرين ،
وعلم المبدأ والمعاد والدنيا والآخرة ، والعلم الذى لا يعلمه إلا الله
والبيان التام ، والجزالة ، والفصاحة ، والجلالة ، والأخبار بالغيوب

ما لم يمكن من ختم على قلبه أن يأتي به ولا يبعضه ، فلو لا أنى أنزلته على قلبه ويسرته بلسانه - لما أمكنه أن يأتيكم بشيء منه ، فأين هذا المعنى الى المعنى الذى ذكره الآخرون ؟ وكيف يلتئم مع حكاية قولهم ؟ وكيف يتضمن الرد عليهم ؟

﴿الوجه الثانى﴾ : ان مجرد الربط على قلبه بالصبر على أذاهم يصدر من الحق والمبطل ، فلا يدل ذلك على التمييز بينهما ، ولا يكون فيه رد لقولهم ، فان الصبر على أذى المكذب لا يدل بمجرد صدق المخبر

﴿الثالث﴾ : ان الرابط على قلب العبد لا يقال له ختم على قلبه ، ولا يعرف هذا فى عرف المخاطب ولا لغة العرب ، ولا هو المعهود فى القرآن ، بل المعهود استعمال الختم على القلب فى شأن الكفار

فى جميع موارد اللفظ فى القرآن كقوله (٢ : ٧) خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ

وقوله (٤٥ : ٢٣) أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ

وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً وَنظَّأْرَهُ ، وأما

ربطه على قلب العبد بالصبر فكقوله (١٨ : ١٤) وَرَبَطْنَا عَلَى

قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ (وقوله (٢٨ : ١٠)

وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدَى بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا

عَلَى قَلْبِهَا) والانسان يسوغ له فى الدعاء أن يقول : اللهم اربط

على قلبى ، ولا يحسن أن يقول : اللهم اختم على قلبى

﴿الرابع﴾ : انه سبحانه حيث يحكى أقوالهم « انه افتراه » لا يجيبهم

عليه هذا الجواب ، بل يجيبهم بأنه لو افتراه لم يملكوا له من الله شيئاً ، بل كان يأخذه ولا يقدرّون على تخليصه ، كقوله (٤٦ : ٨)
 أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ، قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئاً)
 وتارة يجيبهم بالمطالبة بمعارضته بمثله أو شيء منه ، وتارة بإقامة
 الأدلة القاطعة على أنه الحق وأنهم هم الكاذبون المفترّون ، وهذا
 هو الذي يحسن في جواب هذا السؤال لا مجرد الصبر

﴿ الخامس ﴾ : أن هذه الآية نظير ما نحن فيه وأنه لو شاء لما أقره
 ولا يمكنه . وتفسير القرآن بالقرآن من أبلغ التفاسير

﴿ السادس ﴾ : أنه لادلالة في سياق الآية على الصبر بوجه ما : لا
 بالمطابقة ، ولا التضمن ، ولا اللزوم . فمن أين يعلم أنه أراد ذلك ،
 ولم يستمر هذا المعنى في غير هذا المعنى ، فيحمل عليه ، بخلاف كونه
 يحول بينه وبينه ولا يمكنه من الافتراء عليه ، فقد ذكره في مواضع
 ﴿ السابع ﴾ : أنه سبحانه أخبر أنه لو شاء لما تلاه عليهم ولا أدرأهم به ، وأن

ذلك إنما هو بمشيئته وادنه وعنده كما قال تعالى (١٠ : ١٦) قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ
 مَا تَلَوْتُمْهُ عَلَيْهِمْ وَلَا أَذْرَأُكُمْ بِهِ) وهذا من أبلغ الحجج وأظهرها أي
 هذا الكلام ليس من قبلي ولا من عندي ، ولا أقدر أن أفتريه على الله
 ولو كان ذلك مقدوراً إلى لكان مقدوراً لمن هو من أهل العلم والكتابة
 ومخالطة الناس والتعلم منهم ، ولكن الله بعثني به ، ولو شاء سبحانه
 لم ينزله ولم ييسره بلساني ، فلم يدعني أتله عليكم وإن أعلمكم به البتة

لا على لسانى ولا على لسان غيرى ، ولكنه أوحاه الى وأذن لى فى تلاوته عليكم ، وأدراككم به بعد أن لم تكونوا دارين به . فلو كان كذبا واقترأ كما تقولون لأمكن غيرى أن يتلوه عليكم وتدرّون به من جهته ، لأن الكذب لا يعجز عنه البشر ، وأنتم لم تدرّوا بهذا ولم تسمعوه إلا منى ولم تسمعوه من بشر غيرى

ثم أجاب عن سؤال مقدر وهو أنه تعلمه من غيره أو اقترأه من تلقاء نفسه ، فقال (١٠: ١٦) فَقَدْ لَيْدْتُ فِيكُمْ عُمْرًا مِنْ قَبْلِهِ تَعْلَمُونَ حَالِي وَلَا يَخْفَى عَلَيْكُمْ سِيرِي وَمَدْخَلِي وَمَخْرَجِي وَصَدْقِي وَأَمَاتِي . ومن هذا لم أتمكن من قول شيء منه البتة ، ولا كان لى به علم ولا ببعضه ثم أتيتكم به وهلة من غير تعمل ولا تعلم ، ولا معاناة للأسباب التى أتمكن بها منه ، ولا من بعضه ، وهذا من أظهر الأدلة وأبين البراهين انه من عند الله أوحاه الى وأنزله على ولوشاء ما فعل ، فلم يمكنى من تلاوته ولا أتمكنكم من العلم به ، بل مكنتى من تلاوته ومكنتكم من العلم به ، فلم تكونوا عالمين به ولا ببعضه ، ولم أكن قبل أن يوحى الى تالياه ولا لبعضه

فتأمل صحة هذا الدليل وحسن تأليفه وظهور دلالاته

ومن هذا قوله سبحانه (١٧ : ٨٦) وَلَئِنْ شِئْنَا لَمَذْهَبًا بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا) وهذا هو المناسب لقوله (٤٢ : ٢٤) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشَأْ اللَّهُ يُخْتِمْ عَلَى

قَلْبِكَ) ولقوله (وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ)

وبرهان مستقل مذکور فی القرآن علی وجوه متعددة والله أعلم
﴿التامن﴾ : ان مثل هذا التركيب إنما جاء في القرآن للنفي لا للاثبات ،

كقوله تعالى (١٧ : ٨٦) وَإِنْ شِئْنَا لَنُدْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ

وقوله (٤ : ٣٣) إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بآخَرِينَ) وقوله

(٤٢ : ٣٣) إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ) وقوله (٣٤ : ٩)

إِنْ نَشَأْ نُخَسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطَ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ)

ونظائره لم يأت إلا فيما كان ما بعد فعل المشيئة منفيًا

﴿التاسع﴾ : ان الحتم على القلب لا يستلزم الصبر ، بل قد يختم على

قلب العبد ويسلبه صبره ، بل اذا ختم على القلب زال الصبر وضعف ،

بخلاف الربط على القلب فانه يستلزم الصبر ، كما قال تعالى (٨ : ١١)

وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ

الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ) ومعنى الربط في اللغة الشد . ولهذا

يقال لكل من صبر على أمر : ربط قلبه ، كأنه حبس قلبه عن

الاضطراب . ومنه يقال : هو رابط الجأش . وقد ظن الواحدى

أن « على » زائدة ، والمعنى يربط قلوبكم ، وليس كما ظن ، بل بين

ربط الشيء والربط عليه فرق ظاهر . فانه يقال ربط الفرس والدابة

ولا يقال ربط عليها . فاذا أحاط الربط بالشيء وعمه قيل : ربط

عليه ، كأنه أحاط عليه بالرباط . فلهذا قيل : ربط على قلبه ، وكان أحسن من أن يقال : ربط قلبه . والمقصود أن هذا الربط يكون معه الصبر أشد وأثبت بخلاف الختم

﴿العاشر﴾ : ان الختم هو شد القلب ، حتى لا يشعر ولا يفهم ، فهو مانع يمنع العلم والتقصّد . والنبي صلى الله عليه وسلم كان يعلم قول أعدائه : أنه أفتى القرآن ، ويشعر به ، فلم يجعل الله على قلبه مانعا من شعوره بذلك وعليه به . فاذا قيل : الأمر كذلك ، ولكن جعل الله على قلبه مانعا من التأذى بقولهم . قيل : هذا أولى أن يسمى ختما ، وقد كان يؤذيه قولهم ويحزنهم ، كما قال تعالى (٦ : ٣٣) قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزَنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ) وكان وصول هذا الأذى إليه من كرامة الله له ، فانه لم يؤذ نبي ما أودى . فالقول في الآية هو قول قتادة . والله أعلم

ثم أخبر سبحانه أن القرآن تذكرة للمتقين يتذكرون به المتقى ، فيصير ما ينفعه فيأتيه ، وما يضره فيجتنبه ، ويتذكر به أسماء الرب تعالى وصفاته وأفعاله فيؤمن ، ويتذكر به ثوابه وعقابه ووعيده وأمره ونهيه وآياته في أوليائه وأعدائه ونفسه ، وما يزيها ويظهرها ويعليها ، وما يذسيها ويخفيها ويحقرها . ويذكر به علم المبدأ والمعاد والجنة والنار ، وعلم الخير والشر . فهو التذكرة على الحقيقة ، تذكرة حجة للعالمين ، ومنفعة وهداية للمتعلين

ثم قال سبحانه (وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ) أى لا يخفون علينا ، فسنجازيهم بتكذيبهم
ثم أخبر سبحانه أن رسوله وكلامه حسرة على الكافرين اذا
عابوا حقيقة ما أخبر به كان تكذيبهم عليهم من أعظم الحسرات ،
حين لا ينفعهم التحسر . وهكذا كل من كذب بحق وصدق بباطل
فانه اذا انكشف له حقيقة ما كذب به وصدق به كان تكذيبه
وتصديقه حسرة عليه ، كمن فرط فيما ينفعه وقت تحصيله ، حتى
اذا اشتدت حاجته اليه وعابن فوز المحصلين صار تفریطه عليه حسرة
ثم أخبر سبحانه أن القرآن والرسول حق اليقين . فقليل : هو
من باب اضافة الموصوف الى صفته ، أى الحق اليقين ، نحو مسجد
الجامع ، وصلاة الأولى . وهذا موضع يحتاج الى تحقيق فنقول :
وبالله التوفيق :

ذكر الله سبحانه فى كتابه مراتب اليقين وهى ثلاثة : حق
اليقين ، وعلم اليقين ، وعين اليقين ، كما قال تعالى (١٠٢ : ٥ كَلَّا لَوْ
تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ٦ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ٧ ثُمَّ لَتَرَوْهَا عَيْنَ الْيَقِينِ)
فهذه ثلاث مراتب ، لليقين : أولها علمه ، وهو التصديق التام به ، بحيث
لا يعرض له شك ولا شبهة تقدح فى تصديقه ، كعلم اليقين بالجنة
مثلا ، ويتقنهم أنها دار المتقين ومقر المؤمنين ، فهذه مرتبة العلم ،
كيقينهم أن الرسل أخبروا بها عن الله ، ويتقنهم صدق المخبر

﴿المرتبة الثانية﴾ عين اليقين وهي مرتبة الرؤية والمشاهدة ، كما قال تعالى (١٠٢ : ٧) ثُمَّ لَتَرَوْهَا عَيْنَ الْيَقِينِ) وبين هذه المرتبة والتي قبلها فرق ما بين العلم والمشاهدة : فاليقين للسمع ، وعين اليقين للبصر وفي المسند للإمام أحمد مرفوعا « ليس الخبر كالمعاين » وهذه المرتبة هي التي سألتها إبراهيم الخليل ربه أن يريه كيف يحيى الموت ليحصل له مع علم اليقين عين اليقين ، فكان سؤاله زيادة لنفسه ، وطمأنينة لقلبه . فيسكن القلب عند المعاينة ويطمئن لقطع المسافة التي بين الخبر والعيان . وعلى هذه المسافة أطلق النبي صلى الله عليه وسلم لفظ الشك حيث قال « نحن أحقُّ بالشكِّ من إبراهيم » (١) ومعاذ الله أن يكون هناك شك ولا من إبراهيم ، وإنما هو عين بعد علم ، وشهود بعد خبر ، ومعاينة بعد سماع

﴿المرتبة الثالثة﴾ مرتبة حق اليقين ، وهي مباشرة الشيء بالاحساس به ، كما إذا أدخلوا الجنة وتمتعوا بما فيها فهم في الدنيا في مرتبة علم اليقين ، وفي الموقف حين نزل وتقرّب منهم حتى يعاينوها في مرتبة عين اليقين ، وإذا دخلوها وباشروا نعيمها في مرتبة حق اليقين . ومباشرة المعلوم تارة يكون بالحواس الظاهرة وتارة يكون بالقلب ، فلهذا قال (وإنه حَقُّ الْيَقِينِ) فان القلب يباشر الايمان به ويخالطه كما يباشر بالحواس ما يتعلق بها ، فينثذ

(١) أخرجه البخارى في تفسير سورة البقرة عن أبى هريرة

مخالط بشاشته القلوب ويبقى لها حق اليقين ، وهذه أعلى مراتب الإيمان
وهي الصديقية التي تتفاوت فيها مراتب المؤمنين

وقد ضرب بعض العلماء لل مراتب الثلاثة مثالا فقال : إذا قال لك من
تجزم بصدقه : عندي غسل أريد أن أطعمك منه فصدقه كان ذلك علم
يقين فاذا حضره بين يديك صار ذلك عين اليقين فاذا ذقته صار ذلك
حق اليقين ، وعلى هذا فليست هذه الإضافة من باب إضافة الموصوف
الى صفته ، بل من إضافة الجنس الى نوعه ، فان العلم والعين والحق
أعم من كونها يقيناً فأضيف العام الى الخاص ، مثل بعض المتاع
وكل الدراهم . ولما كان المضاف والمضاف اليه في هذا الباب
يصدقان على ذات واحدة بخلاف قولك : دار عمرو وثوب زيد
ظن من ظن أنها من إضافة الموصوف الى صفته ، وليس كذلك ،
بل هي من باب إضافة الجنس الى نوعه ، كشوب خز وخاتم فضة
فالمضاف اليه قد يكون مغايراً للمضاف لا يصدقان على ذات واحدة ،
وقد يجانسه فيصدقان على مسمى واحد والله أعلم

ثم ختم السورة بقوله (٥٢: ٦٩) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ) وهي
جديرة بهذه الخاتمة ، لما تضمنته من الاخبار عن عظمة الرب تعالى
وجلاله ، وذكر عظمة ملكه وجريان حكمه بالعدل على عباده في الدنيا
والآخرة ، وذكر عظمتة تعالى في ارسال رسوله وإنزال كتابه ،
وأنه تعالى أعظم وأجل وأكبر عند أهل سمواته والمؤمنين من

عباده من أن يقر كذبا متقولاً عليه ، مفترى عليه ، بيدل دينه ،
وينسخ شرائعه ، ويقتل عباده ، ويخبر عنه بما لا حقيقة له ، وهو
سبحانه مع ذلك يؤيده وينصره ، ويجيب دعواته ، ويأخذ أعداءه
ويرفع قدره ، ويعلى ذكره ، فهو سبحانه العظيم الذي تأبى عظمته أن
يفعل ذلك بمن أتى بأقبح أنواع الكذب والظلم . فسبحان ربنا
العظيم ، وتعالى عما ينسبه اليه الجاهلون علوا كبيرا

(٣٨) فصل

ومن ذلك قوله عز وجل (٧٠: ٤٠) فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ
إِنَّا لَقَادِرُونَ ٤١ عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (أقسم
سبحانه برب المشارق والمغارب . وهي إمامشارق النجوم ومغاربها ،
أو مشارق الشمس ومغاربها . وان كل موضع من الجهة مشرق
ومغرب ، فكذلك جمع في موضع ، وأفرد في موضع ، وثني في
موضع آخر ، فقال (٥٥: ١٧) رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ (
فقال : هما مشرقا الصيف والشتاء ، وجاء في كل موضع ما يناسبه ،
جاء : في سورة الرحمن (رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ) لانها سورة
ذكرت فيها المزدوجات ، فذكر فيها الخاق والتعليم ، والشمس ،
والقمر ، والنجوم ، والشجر ، والسماء ، والارض ، والحب ،
والثمر ، والجن ، والانس ، ومادة أبنى البشر ، وأنى الجن ، والبحرين

والجنة والنار . وقسم الجنة إلى جنتين عاليتين وجنتين دونهما ، وأخبر أن في كل جنة عينين ، فناسب كل المناسبة أن يذكر المشرقين ، والمغربين

وأما سورة (سأل سائل) فإنه أقسم سبحانه على عموم قدرته وكملها ، وصحة تعلقها بأعادتهم بعد العدم . فذكر المشرق والمغرب بلفظ الجمع ، إذ هو أدل على المقسم عليه ، سواء أريد مشارق النجوم ومغاربها ، أو مشارق الشمس ومغاربها ، أو كل جزء من جهتي المشرق والمغرب . فكل ذلك آية ودلالة على قدرته تعالى على أن يبدل أمثال هؤلاء المكذبين ، وينشئهم فيما لا يعلمون . فيأتي بهم في نشأة أخرى ، كما يأتي بالشمس كل يوم من مطلع ، ويذهب (بها) في مغرب

وأما في سورة (المزمل) فذكر المشرق والمغرب بلفظ الافراد ، لما كان المقصود ذكر ربوبيته ووحدانيته ، وكما أنه تفرد بربوية المشرق والمغرب وحده ، فكذلك يجب أن يتفرد بالربوبية والتوكل عليه وحده . فليس للمشرق والمغرب رب سواه . فكذلك ينبغي أن لا يتخذ إله ولا وكيل سواه ، وكذلك قال موسى لفرعون حين سأله (٢٦: ٢٣) وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ؟ فقال: (٢٦: ٢٨) رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ) ، وفي ربوبيته سبحانه للمشرق والمغرب تنبيه على ربوبيته السموات وماحوته من الشمس ،

والقمر ، والنجوم ، وربوبيته ما بين الجهتين ، وربوبيته الليل والنهار
وما تضمنناه . ثم قال (٧٠ : ٤٠) إِنَّا لَقَادِرُونَ عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا
مِنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ) أى لقادرون على أن نذهب بهم ونأتى بأطوع
لنا منهم وخيرا منهم ، كما قال تعالى (٤ : ١٣٣) إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ
أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا) وقوله (وَمَا نَحْنُ
بِمَسْبُوقِينَ) أى لا يفوتنى ذلك إذا أردته ولا يمتنع منى . وعبر عن
هذا المعنى بقوله (وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ) لان المغلوب يسبقه الغالب الى
ما يريده فيفوت عليه . ولهذا عدى بعلى دون الى ، كما فى قوله (٥٦ : ٦٠)
وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ٦١ عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ) فانه لما ضمنه معنى
مغلوبين ومقهورين عداه بعلى ، بخلاف سبقه اليه ، فانه فرق بين
سبقته اليه وسبقته عليه . فالاول بمعنى غلبته وقهرته عليه . والثانى
بمعنى وصلت اليه قبله

(٣٩) فصل

وقد وقع الاخبار عن قدرته عليه سبحانه على تبديلهم بخير منهم ،
وفى بعضها تبديل أمثالهم ، وفى بعضها استبداله قوما غيرهم ثم
لا يكونوا أمثالهم . فهذه ثلاثة أمور يجب معرفة ما بينها من الجمع
والفرق . فحيث وقع التبديل بخير منهم فهو إخبار عن قدرته على أن

يذهب بهم وَيَأْتِي بِأَطْوَعٍ وَاتَّقِ لَهُ مِنْهُمْ فِي الدُّنْيَا ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ (٤٧ : ٣٨)
وَأِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ)
يعنى بل يكونوا خيرا منكم . قال مجاهد : يستبدل بهم من شاء من عباده
فيجعلهم خيرا من هؤلاء ، فلم يتولوا بحمد الله فلم يستبدل بهم .
واما ذكره تبديل أمثالهم ، ففي سورة الواقعة وسورة الانسان . فقال
في الواقعة (٦٠ نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ٦١ عَلَى
أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَ كُمْ فِيمَا لَكُمْ بِأَعْيُنُهُمْ) وقال في سورة الانسان
(٢٨ نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلًا)
قال كثير من المفسرين : المعنى أنا إذا أردنا أن نخلق خلقا غيركم
لم يسبقنا سابق ، ولم يفتنا ذلك . وفي قوله (وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ
تَبْدِيلًا) إذا شئنا أهلكناهم وأتينا بأشباههم ، فجعلناهم بدلا منهم .
قال المهدوى : قوما موافقين لهم في الخلق مخالفين لهم في العمل ،
ولم يذكر الواحدى ولا ابن الجوزى غير هذا القول . وعلى هذا
فتكون هذه الآيات نظير قوله تعالى (١٦ : ٣٥) إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَوْ يُبَدِّلْ
النَّاسَ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ) فيكون استدلالا بقدرته على إذهابهم
والإتيان بأمثالهم على إتيانه بهم أنفسهم إذا ماتوا
ثم استدل سبحانه بالنشأة الأولى فذكرهم بها فقال (٥٦ : ٦٢) وَلَقَدْ
عَلَّمْنَا النُّشْأَةَ الْأُولَى فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ) فنبههم بما علموا ودواعينوه على

صدق ما أخبرتهم به رسله من النشأة الثانية

والذى عندى فى معنى هاتين الآيتين ، وهما آية الواقعة والانسان
 أن المراد بتبديل أمثالهم الخلق الجديد والنشأة الآخرة التى وعدوا
 بها . وقد وفق الزمخشرى لفهم هذا من سورة الانسان ، فقال :
 وبدلنا أمثالهم فى شدة الأسر ، يعنى النشأة الأخرى ، ثم قال : وقيل
 وبدلنا غيرهم ممن يطيع ، وحقه أن يأتى بأن لا باذا ، كقوله (وإن
 تَتَوَلَّوْا يَسْتَبَدِّلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ) قلت : وإتيانه باذا التى لا تكون
 الا للتحقق الوقوع يدل على تحقق وقوع هذا التبديل وانه واقع
 لا محالة . وذلك هو النشأة الأخرى التى استدل على امكانها بقوله
 (وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى) واستدل بالمثل على المثل ، وعلى ما أنكره
 بما عاينوه وشاهدوه ، وكونهم أمثالهم هو انشاؤهم خلقاً جديداً
 بعينه فهم هم بأعيانهم ، وهم أمثالهم ، فهم أنفسهم يعادون . فاذا
 قلت : المعاد هذا هو الأول بعينه صدقت ، وان قلت : هو مثله صدقت
 فهو هو معاد أو هو مثل الأول . وقد أوضح هذا سبحانه بقوله
 (٥٠ : ١٥) بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ فهذا الخلق الجديد
 هو المتضمن لكونهم أمثالهم . وقد سماه الله سبحانه وتعالى إعادة
 والمعاد مثل المبدأ ، وسماه نشأة أخرى وهى مثل الأولى ، وسماه
 خلقاً جديداً وهو مثل الخلق الأول كما قال (٥٠ : ١٥) أَفَعَيِّنَا
 بِانْتِاقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ وسماه أمثالا وهم

هم . فتطابقت ألفاظ القرآن وصدق بعضها بعضاً ، وبين بعضها بعضاً . ولهذا تزول اشكالات أوردها من لم يفهم المعاد الذي أخبرت به الرسل عن الله ، ولا يفهم من هذا القول ما قاله بعض المتأخرين انهم غيرهم من كل وجه . فهذا خطأ قطعاً - معاذ الله من اعتقاده - ، بل هم أمثالهم وهم أعيانهم . فاذا فهمت الحقائق فلا يناقش في العبارة الاضيق العطن ، صغير العقل ، ضعيف العلم وتأمل قوله تعالى في الواقعة (٥٦ : ٥٨ أفرأيتُمْ مَا تُمْنُونَ ٥٩ أءَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ٦٠ نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ) كيف ذكر مبدأ النشأة وآخرها مستدلاً بها على النشأة الثانية بقوله (٥٦ : ٦٠ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ٦١ عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنْشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ) فانكم انما علمتم النشأة الاولى في بطون أمهاتكم ومبدأها مما تمنون ، ولن تغلب على أن ننشئكم نشأة ثانية فيما لا تعلمون . فاذا أتمتم أمثال ما كنتم في الدنيا في صوركم وهيئاتكم . وهذا من كمال قدرة الرب تعالى ومشيئته ، لو تذكرتم أحوال النشأة الاولى لدلكم ذلك على قدرة منشيئها على النشأة التي كذبتم بها ، فأى استدلال وارشاد أحسن من هذا وأقرب الى العقل والفهم ، وأبعد من كل شبهة وشك ؟ وليس بعد هذا البيان والاستدلال الا الكفر بالله وما جاءت به الرسل والايمان وقال في سورة الانسان (٣٨ نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ)

فهذه النشأة الأولى ثم قال (وَإِذَا شِئْنَا بِدَلْنَا أَمْثَلَهُمْ تَبْدِيلًا) فهذه النشأة الأخرى . ونظير هذا (٥٣ : ٤٥) وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ٤٦ مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ٤٧ وَأَنَّ عَلَيْهِ النُّشْأَةَ الْآخِرَىٰ وهذا في القرآن كثير جدا ، يقرن بين النشأتين مذكر اللفظ والعقول باحداهما على الأخرى . وبالله التوفيق

(٤٠) فصل

فلما أقام عليهم الحجة وقطع المَعْدِرَةَ قال (٧٠ : ٤٢) قَدَرَهُمْ يَخْضَوْنَ وَيَسْلَبُونَ حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ) وهذا تهديد شديد يتضمن ترك هؤلاء الذين قامت عليهم حجتي فلم يقبلوها ، ولم يخافوا بأسى ولا صدقوا رسالاتى فى خوضهم بالباطل ، ولعبهم : فالخوض فى الباطل ضد التكلم بالحق ، واللعب ضد السعى الذى يعود نفعه على ساعيه . فالأول ضد العلم النافع . والثانى ضد العمل الصالح . فلا تكلم بالحق ، ولا عمل بالصواب . وهذا شأن كل من أعرض عما جاء به الرسول لا بد له من هذين الأمرين

ثم ذكر سبحانه حالهم عند خروجهم من القبور . فقال (٤٣) يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ) أى يسرعون . والنصب العلم والغاية التى تنصب فىؤودونها . وهذا من أطف التثنية وأبينه وأحسنه : فان الناس يقومون من قبورهم

مضطربين الى الداعي ، يؤمون الصوت ، لا يعرجون عنه يمينه ولا يسرة كما قال (٢٠ : ١٠٨) يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ)
 أى : يقبلون من كل أوب الى صوته وناحيته ، لا يعرجون عنه .
 قال القراء : وهذا كما تقول : دعوتك دعوة لا عوج لك عنها . وقال
 الزجاج : المعنى لا عوج لهم عن دعائه ، أى لا يقدرّون إلا على
 اتباعه وقصده .

فان قلت : إذا كان المعنى لا عوج لهم عن دعوتى ، فكيف قال
 (لَا عِوَجَ لَهُ) قيل : قالت طائفة : اللام بمعنى عن ، أى لا عوج
 عنه ، وقالت طائفة : المعنى لا عوج لهم عن دعائى ، كما قال الزجاج
 وفى القولين تكلف ظاهر . ولما كانت الدعوة تسمع الجميع لا
 تعوج عنهم ، وكلهم يؤم صوت الداعي ويتبعه لا يعوج عنه ، كان
 مجيء اللام منتظما للمعنيين ودالا عليهما . والمعنى لا عوج لدعائه
 لا فى إسماعهم إياه ، ولا فى إجابتهم له .

ثم قال تعالى (٤) خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ) فوصفهم بذل
 الظاهر ، وهو خشوع الأبصار ، وذلل الباطن ، وهو ما يرهقهم من
 الذل الذى خشعت عنه أبصارهم ، وقريب من هذا قوله (٧٥ : ٢٤)
 وَوُجُوهُهُ يَوْمَئِذٍ بِآسِرَةٍ ٢٥ تَظُنُّ أَنْ يُمَكَّلَ بِهَا فَاكِرَةٌ) ونظيره قوله
 (١٠ : ٢٦) وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ غَاظِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ
 وَجُوهُهُمْ قِطْعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا) وضد هذا قوله تعالى (٢٠ : ١١٨)

إِنَّكَ أَنْ لَا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى (ففي عنه الجوع الذي هو ذل الباطن والعري الذي هو ذل الظاهر . وضده أيضا قوله (٧٦ : ١١) وَلَقَاهُمْ نَصْرَةٌ وَسُرُورًا) فالنصرة عز الظاهر وجماله ، والسرور عز الباطن وجماله . ومثله أيضا قوله (٧٦ : ٢١) عَالِيَهُمْ ثِيَابٌ سُنْدُسٌ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا) فجمع لهم بين زينة الظاهر والباطن ، ومثله قوله (٧ : ٢٦) يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُورِي سَوَاتِيَكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ) فجمع لهم بين زينة الظاهر والباطن . ومثله قوله (٣٧ : ٦) إِنَّا زَيْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ ٧ وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ) فزين ظاهرها بالنجوم وباطنها بالحفظ من كل شيطان رجيم . ومثله قوله أيضا (٤٠ : ٦٤) وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ) وقريب منه قوله تعالى (٢ : ١٩٧) وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى) ومنه قوله (٣ : ١٠٦) فَلَمَّا الَّذِينَ أَسْوَدَتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَدُوفُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ١٠٧) وَأَمَّا الَّذِينَ أَبْيَضَتْ وُجُوهُهُمْ فِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) فجمع لهؤلاء بين جمال الظاهر والباطن ، ولولا ذلك بين تسويد الظاهر والباطن . ومنه قول امرأة العزيز (١٢ : ٣٢) فَذَلِكَ الَّذِي لُمْتُنَنِي فِيهِ ، وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ) فوصفت ظاهره بالجمال

وباطنه بالعفة ، فوصفته بجمال الظاهر والباطن ، فكانها قالت : هذا ظاهره ، وباطنه أحسن من ظاهره . وهذا كله يدل على ارتباط الظاهر بالباطن قدرا وشرعا . والله أعلم بالصواب

(٤١) فصل

ومن ذلك قوله تعالى (٦٨ : ١) ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ٢ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةٍ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (الصحيح أن «ن» و «ق» و «ص» من حروف الهجاء التي يفتح بها الرب سبحانه بعض السور ، وهي أحادية ، وثنائية ، وثلاثية ، ورباعية ، وخماسية ، ولم تجاوز الخمسة ، ولم تذكر قط في أول سورة إلا وعقبها بذكر القرآن ، إما مقسما به ، وإما مخبرا عنه ، ما خلا سورتين سورة «كَيْعَص» و «ن» كقوله (١ : ٢) أَلَمْ ذَلِكَ الْكِتَابُ (١ : ٣) أَلَمْ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابُ (١ : ٧) الْمَصْ كِتَابٌ أَنْزَلَ إِلَيْكَ (١ : ١٣) الْمَرْنَاكُ آيَاتُ الْكِتَابِ (وهكذا إلى آخره ، ففي هذا تنبيه على شرف هذه الحروف ، وعظم قدرها ، وجلالاتها . إذ هي مباني كلامه وكتبه ، التي تكلم سبحانه بها ، وأنزلها على رسله ، وهدى بها عباده ، وعرفهم بواسطتها نفسه ، وأسماءه ، وصفاته ، وأفعاله ، وأمره ، ونهيه ، ووعيده ، ووعدده ، وعرفهم بها الخير والشر ، والحسن ، والقبيح ، وأقدرهم على التسكلم بها ، بحيث

يبلغون بها أقصى ما في أنفسهم ، بأسهل طريق وقلة كلفة ومشقة ،
وأوصله الى المقصود ، وأدله عليه . وهذا من أعظم نعمه عليهم ،
كما هو من أعظم آياته . ولهذا عاب سبحانه على من عبدا لها لا يتكلم ،
وامتن على عباده بأن أقدرهم على البيان بها بالتكلم . فكان في ذكر
هذه الحروف التنبيه على كمال ربوبيته ، وكمال احسانه والعامه ، فهي
أولى أن يقسم بها من الليل والنهار ، والشمس والقمر ، والسماء
والنجوم ، وغيرهما من المخلوقات . فهي دالة أظهر دلالة على وحدانيته
وقدرته ، وحكمته وكاله ، وكلامه ، وصدق رسله

وقد جمع سبحانه بين الأمرين - أعنى القرآن ونطق اللسان -
وجعل تعليمهما من تمام نعمته وامتنانه . كما قال (١ : ٥٥) الرَّحْمَنُ
٢ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ٣ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ٤ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ) فهذه الحروف
علم القرآن ، وبها علم البيان ، وبها فضل الانسان على سائر أنواع
الحيوان ، وبها أنزل كتبه ، وبها أرسل رسله ، وبها جمعت العلوم
وحفظت ، وبها انتظمت مصالح العباد في المعاش والمعاد ، وبها
يتميز الحق من الباطل ، والصحيح من الفاسد ، وبها جمعت أشدات
العلوم ، وبها أمكن تنقلها في الأذهان ، وكم جالب بها من نعمة ودفع بها
من نقمة ؟ وأقيمت بها من عثرة وأقيمت بها من حرمة ، وهدى بها من
ضلالة وأقيم بها من حق ، وهدم بها من باطل ؟ فأياته سبحانه في تعليم
البيان كآياته في خلق الانسان . ولولا عجايب صنع الله ما ثبتت تلك
الفضائل في لحم ولا عصب . فسبحان من هذا صنعه في هواء يخرج

من قصبة الرئة ، فينضم في الحلقوم وينفرش في أقصى الحلق ،
ووسطه ، وآخره ، وأعلاه ، وأسفله ، وعلى وسط اللسان واطرافه
وبين الشايا ، وفي الشفتين ، والخيشوم . فيسمع له عند كل مقطع من
تلك المقاطع صوت غير صوت المقطع المجاور له . فاذا هو حرف
فألهم سبحانه الانسان بضم بعضها الى بعض فاذا هي كلمات
قائمة بأنفسها ، ثم ألهمهم تأليف تلك الكلمات بعضها الى بعض واذا
هي كلام دال على أنواع المعاني ، أمرا ونهيا ، وخيرا ، واستخبارا
ونفيا ، وإثباتا ، وإقرارا ، وإنكارا ، وتصديقا ، وتكذيبا ، وإيجابا
واستحبابا ، وسؤالا ، وجوابا ، الى غير ذلك من أنواع الخطاب ،
نظمه ونثره ، ووجيزه ، ومطوله ، على اختلاف لغات الخلائق . كل
ذلك صنعته تبارك وتعالى في هواء مجرد خارج من باطن الانسان
الى ظاهره ، في مجاز قد هيئت وأعدت لتقطيعه وتفصيله ، ثم تأليفه
وتوصيله ، فتبارك الله رب العالمين وأحسن الخالقين ، فهذا شأن
الحرف المخلوق

وأما الحرف الذي به تكون المخلوقات فشه أنه أعلى وأجل . واذا
كان هذا شأن الحروف فحقيق أن تفتتح بها السور ، كما افتتحت
بالاقسام لما فيها من آيات الربوبية وأدلة الوجدانية ، فهي دالة على
كمال قدرته سبحانه ، وكمال علمه ، وكمال حكمته ، وكمال رحمته ،
وعنايته بخلقه ، ولطفه وإحسانه . واذا أعطيت الاستدلال بها
حقه استدالات بها على المبدأ والمعاد ، والخلق والأمر ، والتوحيد

والرسالة . فهي من أظهر أدلة شهادة ان لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ، وأن القرآن كلام الله ، تكلم به حقاً وأنزله على رسوله وحياً ، وبلغه كما أوحى إليه صدقاً ، ولا تهمل الفكرة في كل سورة افتتحت بهذه الحروف ، واشتملها على آيات هذه المطالب وتقريرها . وبالله التوفيق

(٢٢) فصل

ثم أقسم سبحانه به (١: ٦٨) القلم وما يسطرون . فأقسم بالقلم والآن هو القلم الذي هو إحدى آياته وأول مخلوقاته الذي جرى به قدره وشرعه ، وكتب به الوحي ، وقيد به الدين ، وأثبتت به الشريعة وحفظت به العلوم ، وقامت به مصالح العباد في المعاش والمعاد فوطدت به الممالك ، وأمنت به السبل والمسالك ، وأقام في الناس أبلغ خطيب وأنفعه ، وأنفعه لهم وأنصحه ، وواعظاً تشفي مواضع القلوب من السقم ، وطيباً يبرئ باذنه من أنواع الألم : يكسر العساكر العظيمة على أنه الضعيف الوحيد ، ويخاف سطوته وبأسه ذو البأس الشديد ، وبالأقلام تدبر الأقاليم وتسلس الممالك ، والعلم لسان الضمير يناجي بما استتر عن الاسماع ، فينسج حلل المعاني في الطرفين فتعود أحسن من الوشى المرقوم ، ويودعها حكمة فتصير بواذر الفهوم ، والأقلام نظام للافهام ، وكما أن اللسان يريد القلب فالقلم يريد

اللسان ، ويولد الحروف المسموعة عن اللسان ، كتولد الحروف المكتوبة عن القلم ، والقلم يريد القاب ورسوله وترجمانه ولسانه الصامت

(٤٣) فصل

والأقلام متفاوتة في الرتب ، فاعلاها وأجلها قدرا قلم القدر السابق الذي كتب الله به مقادير الخلائق . كما في سنن أبي داود عن عبادة بن الصامت قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ان أول ما خلق الله القلم ، فقال له : اكتب . قال : يارب ، وما اكتب ؟ قال : اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة » واختلف العلماء ، هل القلم أو المخلوقات أو العرش ؟ على قولين ، ذكرهما الحافظ أبو يعلى الهمداني ، أصحهما أن العرش قبل القلم لما ثبت في الصحيح من حديث عبد الله بن عمر ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « قدر الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف عام ، وعرشه على الماء » فهذا صريح أن التقدير وقع قبل خلق العرش ، والتقدير وقع عند أول خلق القلم لحديث عبادة هذا

ولا يخلو قوله « إن أول ما خلق الله القلم » الى آخره ، اما أن يكون جملة أو جملتين ، فان كان جملة - وهو الصحيح - كان

معناه أنه عند أول خلقه قال له : اكتب ، كما في لفظ « أول ما خلق الله القلم قال له اكتب » بنصب أول ، والقلم . فان كانا جملتين وهو مروي برفع أول والقلم ، فيتعين حملة على أنه أول المخلوقات من هذا العالم ، ليتفق الحديثان ، اذ حديث عبد الله بن عمر صريح في أن العرش سابق على التقدير والتقدير مقارن لخلق القلم . وفي اللفظ الآخر « لما خلق الله القلم قال له اكتب »

فهذا القلم أول الأقلام ، وأفضلها ، وأجلها ، وقد قال غير واحد من أهل التفسير انه القلم الذي اقسم الله به

(٢٤) فصل

القلم الثاني قلم الوحي ، وهو الذي يكتب به وحى الله الى أنبيائه ورسله . وأصحاب هذا القلم هم الحكام على العالم ، والعالم خدام لهم . واليهم الحل والعقد . والأقلام كلها خدام لأقلامهم . وقد رفع النبي صلى الله عليه وسلم ليلة الأسراء إلى مستوى يسمع فيه صريف الأقلام : فهذه الأقلام هي التي تكتب ما يوحى الله تبارك وتعالى من الأمور التي يدبرها أمر العالم العلوى والسفلى

(٢٥) فصل

والقلم الثالث قلم التوقيع عن الله ورسوله ، وهو قلم الفقهاء والمفتين . وهذا القلم أيضا حاكم غير محكوم عليه . فاليه التحاكم

فى الدماء ، والأموال ، والفروج ، والحقوق ، وأصحابه منخبرون
عن الله بحكمه الذى حكم به بين عباده ، وأصحابه حكام وملوك على
أرباب الاقلام ، وأقلام العالم خدم لهذا القلم

(٤٦) فصل

القلم الرابع قلم طب الأبدان التى تحفظ بها صحتها الموجودة ،
وترد إليها صحتها المفقودة ، وتدفع به عنها آفات وعوارضها
المضادة لصحتها . وهذا القلم أنفع الاقلام بعد قلم طب الأديان .
وحاجة الناس الى أهله تلتحق بالضرورة

(٤٧) فصل

القلم الخامس قلم التوقيع عن الملوك ونوابهم ، وسياس الملك .
ولهذا كان أصحابه أعز أصحاب الأقلام ، والمشاركون للملوك فى
تدبير الدول . فأن صلحت أقلامهم صلحت المملكة وان فسدت
اقلامهم فسدت المملكة ، وهم وسائط بين الملوك ورعاياهم

(٤٨) فصل

القلم السادس قلم الحساب ، وهو القلم الذى تضبط به الأموال ،
مستخرجها ومصرفها ومقاديرها ، وهو قلم الارزاق ، وهو قلم
الكسب المتصل والمنفصل . الذى تضبط به المقادير وما بينها من

التفاوت والتناسب ، ومبناه على الصدق والعدل . فاذا كذب هذا
القلم وظلم فسد أمر المملكة

(٤٩) فصل

القلم السابع قلم الحكم الذى تثبت به الحقوق ، وتنفذ به القضايا ،
وتراق به الدماء ، وتؤخذ به الأموال والحقوق من اليد العادية
فترد الى اليد المحقة ويثبت به الانسان وتنقطع به الخصومات وبين هذا
القلم وقلم التوقيع عن الله عموم وخصوص : فهذا له النفوذ واللزوم
وذلك له العموم والشمول ، وهو قلم قائم بالصدق فيما يثبت به ،
وبالعدل فيما يمضيه وينفذه

(٥٠) فصل

القلم الثامن قلم الشهادة ، وهو القلم الذى تحفظ به الحقوق ،
وتصان عن الاضاعة ، وتحول بين الفاجر وانكاره ، ويصدق
الصادق ، ويكذب الكاذب ، ويشهد للحق بحقه ، وعلى المبطل
بباطله . وهو الأمين على الدماء ، والفروج ، والأموال ، والأنساب ،
والحقوق ، ومتى خان هذا القلم فسد العالم أعظم فساد ، وباستقامته
يستقيم أمر العالم ، ومبناه على العلم وعدم الـكتـمان

(٥١) فصل

القلم التاسع قلم التعبير ، وهو كاتب وحي المنام ، وتفسيره ،

وتعبيره ، وما أريد منه . وهو قلم شريف جليل مترجم للوحي
المنامي ، كاشف له ، وهو من الاقلام التي تصلح للدنيا والدين ، وهو
يعتمد طهارة صاحبه ونزاهته ، وأمانته ، وتحريه للصدق ، والطرائق
الحميدة ، والمناهج السديدة ، مع علم راسخ ، وصفاء باطن ، وحس
مؤيد بالنور الالهي ، ومعرفة بأحوال الخلق وهياتهم وسيرهم
وهو من أطف الاقلام ، وأعمها جولانا ، وأوسعها تصرفا ، وأشدّها
تشبهاً بسائر الموجودات : علويها وسفليها ، وبالماضى والحال
والمستقبل ، فتصرف هذا القلم في المنام هو محل ولايته وكرسي
ملكه وسلطانه

(٥٢) فصل

القلم العاشر قلم تواريخ العالم ووقائعه . وهو القلم الذي تضبط به
الحوادث وتنقل من أمة الى أمة ، ومن قرن الى قرن ، فيحصر ماضى
من العالم وحوادثه في الخيال ، وينقشه في النفس ، حتى كأن السامع
يرى ذلك ويشهده . فهو قلم المعاد الروحاني ، وهذا القلم قلم العجائب
فانه يعيد لك العالم في صورة الخيال فتراه بقلبك ، وتشاهده ببصيرتك

(٥٣) فصل

القلم الحادي عشر قلم اللغة ، وتفصيلها من شرح معاني ألفاظها
ونحوها وتصريفها وأسرار تراكيبها ، وما يتبع ذلك من أحوالها

ووجوهها ، وأنواع دلالاتها على المعاني ، وكيفية الدلالة . وهو قلم التعبير عن المعاني باختيار أحسن الألفاظ وأعذبها وأسهلها وأوضحها . وهذا القلم واسع التصرف جدا بحسب سعة الألفاظ وكثرة مجاريها وتنوعها

(٥٤) فصل

القلم الثاني عشر القلم الجامع ، وهو قلم الرد على المبطلين ، ورفع سنة المحقين ، وكشف أباطيل المبطلين على اختلاف أنواعها وأجناسها ، وبيان تناقضهم ، وتهافتهم ، وخروجهم عن الحق ، ودخولهم في الباطل . وهذا القلم في الأقلام نظير الملوك في الأنام . وأصحابه أهل الحجة الناصرون لما جاءت به الرسل ، المحاربون لأعدائهم . وهم الداعون إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، المجادلون لمن خرج عن سبيله بأنواع الجدال . وأصحاب هذا القلم حرب لكل مبطل ، وعدو لكل مخالف للرسل . فهم في شأن وغيرهم من أصحاب الأقلام في شأن

فهذه الأقلام التي فيها انتظام مصالح العالم ، ويكفي في جلالة القلم أنه لم تكتب كتب الله إلا به ، وأن الله سبحانه أقسم به في كتابه ، وتعرف إلى غيره بأن علم بالقلم ، وإنما وصل إلينا ما بعث به نبينا صلى الله عليه وسلم بواسطة القلم . ولقد أبدع أبو تمام ، إذ يقول في وصفه :

لكَ القلمُ الأعلى الذى بشباته * يصاب من الامر الكلى والمفاصل
له ريقة طل ، ولكن وقعها * بأثاره فى الغرب والشرق وابل
لُعاب الأفاعى القاتلات لعابه * وأرى الجنا اشتارته أيد عواسل
له الخلوات اللآء لولا نَجِيْهُهَا * لما احتفلت للملك تلك المحافل
فصيح إذا استنطقته وهوراكب * وأعجم ان خاطبته وهورا جل
إذا ما امتطى الخنس اللطاف وأفرغت * عليه شعاب الفكر وهى حوافل
أطاعته أطراف القنا وتقوّضت * لنجواه - تقويض الخيام - الجحافل
إذا استغزر الذهن الذكى وأقبلت * أعاليه فى القرطاس وهى أسافل
وقد رقدته الخنصران وسدّدت * ثلاث نواحيه الثلاث الانامل
رأيت جليلا شأنه وهو مرهف * ضنا وسمينا خطبه وهو ناحل

(٥٥) فصل

والمقسم عليه بالقلم والكتابة فى هذه السورة تنزيه نبيه ورسوله عما
يقول فيه أعداؤه وهو قوله تعالى (٣: ٦٨) مَا أَنْتَ بِمُجْنُونٍ
وأنت إذا طابقت بين هذا القسم والمقسم به وجدته دالا عليه أظهر
دلالة وأبينها ، فان ماسطر الكاتب بالقلم من أنواع العلوم التى يتلقاها
البشر بعضهم عن بعض لا تصدر من مجنون ، ولا تصدر إلا من
عقل وافر . فكيف يصدر ماجاء به الرسول من هذا الكتاب الذى
هو فى أعلى درجات العلوم ؟ بل العلوم التى تضمنها ليس فى قوى البشر
الاتيان بها ، ولا سيما من أمى لا يقرأ كتابا ولا يخط يمينه ، مع

كونه في أعلى أنواع الفصاحة ، سليماً من الاختلاف ، برياً من التناقض ، يستحيل من العقلاء كلهم لو اجتمعوا في صعيد واحد أن يأتوا بمثله ، ولو كانوا في عقل رجل واحد منهم فكيف يتأتى ذلك من مجنون لا عقل له يميز به ماعسى كثير من الحيوان أن يميزه ، وهل هذا إلا من أقبح البهتان وأظهر الافك

فتأمل شهادة هذا المقسم به للمقسم عليه ودلالته عليه أتم دلالة ، ولو أن رجلاً أنشأ رسالة واحدة بديعة منتظمة الأول والآخر ، متساوية الأجزاء يصدق بعضها بعضاً ، أو قال قصيدة كذلك ، أو صنف كتاباً كذلك ، شهد له العقلاء بالعقل . ولما استجاز أحد رمية بالجنون مع امكان - بل وقوع - معارضتها ومشاكلتها والآتيان بمثلها أو أحسن منها ، فكيف يرمى بالجنون من أتى بما عجزت العقلاء كلهم قاطبة عن معارضته ومماثلته ، وعرفهم من الحق ما لا تهتدى عقولهم إليه بحيث أذعنت له عقول العقلاء ، وخضعت له أبواب الأولياء ، وتلاشت في جنب ما جاء به بحيث لم يسعها الا التسليم له والانقياد والاذعان ، طائعة مختارة ، وهى ترى عقولها أشد فقراً وحاجة الى ما جاء به ، ولا كمال لها الا بما جاء به ؟ . فهو الذى كمل عقولها كما يكمل الطفل برضاع الثدي . ولهذا فان أتباعه أعقل الخلق على الإطلاق . وهذه مؤلفاتهم وكتبهم فى الفنون اذا وازنت بينها وبين مؤلفات مخالفيه ظهر لك التفاوت بينها . ويكفى فى عقولهم أنهم عمروا الدنيا بالعلم والعدل ، والقلوب

بالإيمان والتقوى . فكيف يكون متبوعهم مجنوناً وهذا حال كتابه
وهديه ، وسيرته ، وحال اتباعه ؟ وهذا إنما حصل له ولا تبا عه بنعمة
الله عليه وعليهم . فنفي عنه الجنون بنعمته عليه

وقد اختلف في تقدير الآية ، فقالت فرقة : الباء في
(بِنِعْمَةِ رَبِّكَ) باء القسم ، فهو قسم آخر اعترض بين المحكوم
به والمحكوم عليه ، كما يقول : ما أنت بالله بكاذب . وهذا
التقدير ضعيف جداً ، لأنه قد تقدم القسم الأول ، فكيف يقع القسم
الثاني في جوابه ؟ ولا يحسن أن تقول : والله ما أنت بالله بقائم ،
وليس هذا من فصيح الكلام ولا عهد في كلامهم . وقالت فرقة :
العامل في (بِنِعْمَةِ رَبِّكَ) أداة معنى النفي ، أو معنى أنفي عنك
الجنون بنعمة ربك . ورد أبو عمر بن الحاجب وغيره هذا القول
بأن الحروف لا تعمل معانيها ، وإنما تعمل ألفاظها . وقال الزمخشري
يتعلق (بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ) منفيًا كما يتعلق بعقل مثبِتًا ، في قولك :
أنت بنعمة الله عاقل ، يستويان في ذلك الإثبات والنفي استواءهما
في قولك ضرب زيد عمراً ، وما ضرب زيد عمراً ، يعمل الفعل مثبِتًا
ومنفياً إعمالاً واحداً ، ومحلّه النصب على الحال ، أى ما أنت بمجنون
منعماً عليك بذلك . ولم تمنع الباء أن يعمل مجنون فيما قبله ، لأنها
زائدة لتأكيد النفي

واعترض عليه بأن العامل إذا تسلط على محكوم به وله معمول
فانه يجوز فيه وجهان : أحدهما نفي ذلك المعمول فقط ، نحو قولك :

مازید بذهاب مسرعا ، فانه ينتفى الاسراع دون القيام ، ولا يمتنع
أن یثبت له ذهاب فی غیر اسراع . والثانی ینفی المحکوم به ، فینتفی
معموله بانتفائه ، فینتفی الذهاب فی هذه الحال ، فینتفی الاسراع
بانتفائه . فاذا جعل (بِنِعْمَةِ رَبِّكَ) معمولا لاجنون لزم أحد الأمرین ،
وكلاهما منتف جزما

وهذا الاعتراض هنا فاسد ؛ لأن المعنى اذا حصل ماأنت
بمجنون منعما عليك لزم من صدق هذا الخبر نفيها قطعا ، ولا یصح
نفي المعمول وثبوت العامل فی هذا الكلام ، ولا یفهم منه من له
آلة الفهم ، وانما یفهم الآدمی من هذا الكلام ان الجنون انتفى
عنك بنعمة الله عليك ، وانتفى عنا ما فهمه هذا المعترض بنعمة الله علينا
ثم أخبر سبحانه عن کمال حالتی بنیه صلى الله علیه وسلم فی دنیاه وأخراه
فقال (٦٨ : ٣ وإنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ تَمْنُونِ) أى غیر مقطوع ، بل
هو دائم مستمر . ونكر الأجر تنكير تعظیم ، كما قال (إنَّ فِي ذَلِكَ
لَعِبْرَةً) و (إنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً) و (إنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٌ) و (إنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَآزًا)
و (وإنَّ لَهُ عِنْدَ نَا لُنَا وَحُسْنَ مَآبٍ) وهو كثير ، وانما كان التنكير
للتعظیم لانه صور للسامع بمنزلة أمر عظیم لا یدركه الوصف ، ولا یناله التعبير
ثم قال (٦٨ : ٤ وإنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ) وهذه من أعظم آیات
نبوته وورسائه ، لمن منحه الله فهما . ولقد سألت أم المؤمنین (١) عن

(١) هی عائشة رضی الله عنها سأها سعد بن هشام بن عامر عن وتر

خلقه صلى الله عليه وسلم ، فأجابت بما شفى وكفى ، فقالت : كان خلقه القرآن . فهم سائلها أن يقوم لايسألها شيئا بعد ذلك . ومن هذا قال ابن عباس وغيره : أى على دين عظيم ، وسمى الدين خلقاً ، لأن الخلق هيئة مركبة من علوم صادقة ، وارادات زاكية ، وأعمال ظاهرة وباطنة ، موافقة للعدل والحكمة ، والمصلحة ، وأقوال مطابقة للحق ، تصدر تلك الأقوال والأعمال عن تلك العلوم والارادات ، فتكتسب النفس بها أخلاقاً ، هى أزكى الأخلاق ، وأشرفها ، وأفضلها . فهذه كانت أخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم المقتبسة من مشكاة القرآن . فكان كلامه مطابقاً للقرآن تفصيلاً ، وتبييناً ، وعلومه علوم القرآن ، وإرادته وأعماله ما أوجبه وندب اليه القرآن ، واعراضه وتركه لما منع منه القرآن ، ورغبته فيما رغب فيه ، وزهده فيما زهد فيه ، وكراهته لما كرهه ، ومحبتة لما أحبه ، وسعيه فى تنفيذ أوامره ، وتبليغيه ، والجهاد فى إقامته ، فترجمت أم المؤمنين لكمال معرفتها بالقرآن وبالرسول صلى الله عليه وسلم ، وحسن تعبيرها عن هذا كله بقولها : كان خلقه القرآن . وفهم هذا السائل لها عن هذا المعنى ، فاكتفى به واشتفى

فإذا كانت أخلاق العباد ، وعلومهم ، واراداتهم ، وأعمالهم مستفادة من القلم وما يسطرون . وكان فى خلق القلم والكتابة

النبي صلى الله عليه وسلم وعن خلقه . وحديثها أخرجه أحمد ومسلم وأبو داود والنسائي وهو فى المنتقى رقم (١٢٠٢)

إنعام عليهم وإحسان اليهم ، إذ وصلوا به إلى ذلك ، فكيف ينكرون
إنعامه وإحسانه على عبده ورسوله الذي أعطاه أعلى الأخلاق ،
وأفضل العلوم ، والأعمال ، والآراء ، التي لا تهتدى العقول
إلى تفاصيلها من غير قلم ولا كتابة ؟ فهل هذا إلا من أعظم آيات
نبوته وشواهد صدق رسالاته ؟ وسيعلم أعداؤه المكذبون له
أيهم المفتون ، هو أم هم ؟ وقد علموا هم والعقلاء ذلك في الدنيا ،
ويزداد علمهم في البرزخ ، وينكشف ، ويظهر كل الظهور في
الآخرة ، بحيث تتساوى أقدام الخلائق في العلم به

وقد اختلف في تقدير قوله (بأيكم المفتون) فقال أبو عثمان
المازني : هو كلام مستأنف ، والمفتون عنده مصدر ، أي : بأيكم
الفتنة . والاستفهام عن أمر دائر بين اثنين قد علم انتفاؤه عن
أحدهما قطعاً ، فتعين حصوله للآخر . والجمهور على خلاف هذا
التقدير . وهو عندهم متصل بما قبله ، ثم لهم فيه أربعة أوجه :

﴿ أحدها ﴾ أن الباء زائدة ، والمعنى : أيكم المفتون . وزيدت
في المبتدأ كما زيدت في قولك : بحسبك أن تفعل . قاله أبو عبيد

﴿ الثاني ﴾ أن المفتون بمعنى الفتنة ، أي : ستبصرو ويصرون بأيكم
الفتنة . والباء على هذا ليست بزائدة . قاله الاخفش

﴿ الثالث ﴾ أن المفتون مفعول على بابه ، واسكن هنا مضاف محذوف

تقديره بأيكم فتون المفتون ، وليست الباء زائدة . قاله الاخفش أيضاً

﴿الرابع﴾ أن الباء بمعنى في ، والتقدير في أى فريق منكم
النوع المفتون ، والباء على هذا ظرفية . وهذه الاقوال كلها تكلف
ظاهر لا حاجة الى شئ منه . و (سَتُبْصِرُ) مضمن معنى تشعر وتعلم ،
فعدى بالباء كما تقول : ستشعر بكذا وتعلم به . قال تعالى (٩٦ : ١٤)
أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى) وإذا دعاك اللفظ الى المعنى من مكان قريب
فلا تجب من دعاك اليه من مكان بعيد

(٥٦) فصل

ومن ذلك قوله تعالى (٥٦ : ٧٥) فَلَا أَقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ
٧٦ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ٧٧ إِنَّهُ لَقَرُّ أَنْ كَرِيمٌ ٧٨ فِي
كِتَابٍ مَكْنُونٍ ٧٩ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ٨٠ تَنْزِيلُ مِنْ رَبِّ
الْعَالَمِينَ) ذكر سبحانه هذا القسم عقيب ذكر القيامة الكبرى ،
وأقسام الخلق فيها ، ثم ذكر الأدلة القاطعة على قدرته وعلى المعاد
بالنشأة الأولى ، وإخراج النبات من الأرض ، وإنزال الماء من
السماء ، وخلق النار . ثم ذكر بعد ذلك أحوال الناس في القيامة
الصغرى عند مفارقة الروح للبدن . وأقسم بمواقع النجوم على ثبوت
القرآن ، وأنه تنزيله

وقد اختلف في النجوم التي أقسم بمواقعها ، ف قيل : هي آيات
القرآن ، ومواقعها نزولها شيئاً بعد شئ . وهذا قول ابن عباس رضى

الله عنهما ، في رواية عطاء ، وقول سعيد بن جبير ، والكبي ،
ومقاتل ، وقتادة . وقيل : النجوم هي الكواكب . ومواقعها مساقطها
عند غروبها . هذا قول أبي عبيدة وغيره . وقيل : مواقعها انتشارها
وانكدارها يوم القيامة . وهذا قول الحسن . ومن حجة هذا القول
أن لفظ مواقع تقتضيه ، فإنه مفاعل من الوقوع ، وهو السقوط .
فلكل نجم موقع وجمعها مواقع . ومن حجة قول من قال هي مساقطها
عند الغروب ، أن الرب تعالى يقسم بالنجوم وطلوعها وجريانها
وغروبها ، اذ فيها وفي أحوالها الثلاث آية وعبرة ودلالة كما تقدم في قوله
تعالى (١٥ : ٨١) فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنُفِ ١٦ الْجَوَارِ الْكُنَّسِ وقال (١٥٣ : ١) وَالنَّجْمِ
إِذَا هَوَىٰ) وقال (١٥ : ٨١) فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ) ويرجع هذا القول
أيضاً أن النجوم حيث وقعت في القرآن فالمراد منها الكواكب
كقوله تعالى (٥٢ : ٤٩) وَإِذَا بَرَأَ النَّجُومَ) وقوله (٧ : ٥٤) وَالشَّمْسُ
وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ)

وعلى هذا فتكون المناسبة بين ذكر النجوم في القسم ، وبين
المقسم عليه وهو القرآن من وجوه : ﴿ احدها ﴾ ، أن النجوم جعلها
الله يهتدى بها في ظلمات البر والبحر وآيات القرآن يهتدى بها في
ظلمات الجهل والغنى . فتلك هداية في الظلمات الحسية ، وآيات القرآن
في الظلمات المعنوية ، فجمع بين الهدايتين ، مع ما في النجوم من
الرجوم للشياطين ، وفي آيات القرآن من رجوم شياطين الانس

والجن ، والنجوم آياته المشهودة المعاينة . والقرآن آياته المتلوة السمعية ، مع مافي مواقعها عند الغروب من العبرة والدلالة على آياته القرآنية ومواقعها عند النزول

ومن قرأ (بِمَوْقِعِ النُّجُومِ) على الأفراد ، فللدلالة الواحد المضاف الى الجمع على التعدد ، والموقع اسم جنس ، والمصادر اذا اختلقت جمعت ، واذا كان النوع واحدا أفردت ، قال تعالى (٣١ : ١٩)
 إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ (جُمِعَ الْأَصْوَاتُ لَتَعْدُدِ النَّوعُ ،
 وأفرد صوت الحمير لوحده . فافراد موقع النجوم لوحدة المضاف اليه . وتعدد المواقع لتعددده ، اذ لكل نجم موقع

(٥٧) فصل

والمقسم عليه ههنا قوله (إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ) ووقع الاعتراض بين القسم وجوابه بقوله : (وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ) ووقع الاعتراض بين الصفة والموصوف في جملة هذا الاعتراض بقوله تعالى (لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ) فجاء هذا الاعتراض في ضمن هذا الاعتراض ، ألطف شيء وأحسنه موقعا . وأحسن مايقع هذا الاعتراض إذا تضمن تأكيدا أو تنبيها أو احترازا . كقوله تعالى (٧ : ٤٢) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) فاعتراض بين المبتدأ والخبر بقوله :

(لَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا) لما تضمنه ذلك من الاحتراز الدافع لتوهم متوهم : أن الوعد إنما يستحقه من أتى بجميع الصالحات ، فرفع ذلك بقوله (لَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا) وهذا أحسن من قول من قال : انه خبر عن الذين آمنوا ، ثم أخبر عنهم بخبر آخر . فهما خبران عن مخبر واحد . فإن عدم التكليف فوق الوسع لا يخص الذين آمنوا ، بل هو حكم شامل لجميع الخلق ، مع ما في هذا التقدير من اخلاء الخبر عن الرابطة وتقدير صفة محذوفة أي نفسا منهم . وتعطيل هذه الفائدة الجليلة

ومن أطف الاعتراض وأحسنه قوله تعالى (١٦) : ٥٧ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ) فاعترض بقوله (سبحانه) بين الجعلين ، وفوائد الاعتراض تختلف بحسب قصد المتكلم وسياق الكلام ، من قصد الاعتناء والتقدير والتوكيد ، وتعظيم المقسم به والمخبر عنه ، ورفع توهم خلاف المراد ، والجواب عن سؤال مقدر وغير ذلك

فمن الاعتراض الذي يقصد به التقرير والتوكيد قول الشاعر :
لوان الباخلين — وأنت منهم — رأوك تعلموا منك المطالا
ومما يقصد به الجواب عن سؤال مقدر قول الآخر :
فلا هجره يبدو — وفي اليأس راحة — * ولا وصله يصفو لنا فنكارمه
فقوله : وفي اليأس راحة جواب لتقدير سؤال سائل وما يغني

عنك هجره ؟ فقال : وفي اليأس راحة ، أى المطلوب أحد أمرين : إما
يأس مريح . أو وصال صاف

ومن اعتراض الاحتراز قول الجعدى :

ألا زعمت بنو جعد بأنى * - وقد كذبوا - كبير السن فانى
ومنه قول نصيب :

فكدت - ولم أخلق من الطير - إن بدا * سنا بارق نحو الحجاز أطيّر
فقوله : ولما أخلق من الطير لرفع استفهام يتوجه عليه على سبيل
الإنكار لو قال فكدت أطيّر فيقال له : وهل خلقت من الطير ؟
فاحتراز بهذا الاعتراض . وعندى أن هذا الاعتراض يفيد غير
هذا ، وهو قوة شوقه ونزوعه الى أرض الحجاز ، فأخبر أنه كاد يطيّر
على أنه أبعد شيء من الطيران ، فانه لم يخاق من الطير ، ولا عجب
طيران من خلق من الطير ، وانما العجب طيران من لم يخلق من
الطير ، لشدة نزوعه وشوقه الى جهة محبوبة فتأمله

ومن مواقع الاعتراض الاعتراض بالدعاء كقول الشاعر :
قد كنت أبكى وأنت راضية * حذار هذا الصدود والغضب
ان تم ذا الهجر يا ظلوم - ولا * تم - فمالى فى العيش من أرب
وقول الآخر :

ان سليمى والله يكلؤها * ضنت بشيء ما كان يرزؤها

وقول الآخر

إن الثمانين - وبلغتها - قدأحوجت سمعى إلى ترجمان
ومنه الاعتراض بالقسم ، كقوله :

ذاك الذى - وأبيك - يعرف مالكا والحق يدفع ترهات الباطل
ومن اعتراض الاستطعاف قوله :

فمن لى بالعين التى كنت مرة إلى بها - نفسى فداؤك - تنظر
فاعترض بقوله : نفسى فداؤك ، استعطافا

فتأمل حسن الاعتراض وجزالته فى قول الرب تعالى (١٠١ : ١٦)
وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنْزَلُ - قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ
مُفْتَرٍ (فقوله (وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنْزَلُ) اعتراض بين الشرط وجوابه
أفاد أموراً : منها الجواب عن سؤال سائل : ما حكمة هذا التبديل
وموافائده . ومنها أن الذى بدل وأتى بغيره منزل محكم نزوله قبل
الاجبار بقولهم . ومنها أن مصدر الأمرين عن علمه تبارك وتعالى
وأن كلا منهما منزل فيجب التسليم والإيمان بالأول والثانى

ومن الاعتراض الذى هو فى أعلى درجات الحسن قوله تعالى
(٣١ : ١٤) وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ - حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ
وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ - أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ (فاعتراض بذكر شأن
حملة ووضعها بين الوصية والموصى به ، توكيداً لأمر الوصية بالوالدة
التي هذا شأنها ، وتذكيراً لولدها بحقها ، ومقاسمة من حملة ووضعها

عالم يتكلفه الأب . ومنه قوله تعالى (٢ : ٧٢) وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا
فَإِذَا رَأَيْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجُ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ٧٣ فَقُلْنَا أَصْرَبُ بُوهُ بِمَعْصِيهَا)
فاعترض بقوله : (والله مُخْرِجُ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ) بين الجمل المعطوف
بعضها على بعض ، إعلاما بأن تدارؤهم وتدافعهم في شأن القتل
ليس نافعاهم في كتمانهم . فالله يظهره ولا بد . ولا تستطيل هذا الفصل
وأمثاله ، فانه يعطيك ميزانا ، وينهج لك طريقا يعينك على فهم الكتاب ،
والله المستعان

(٥٨) فصل

ثم قال : (إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ) فوصفه بما يقتضى حسنه ، وكثرة
خيره ، ومنافعه ، وجلالته ، فان الكريم هو البهى الكثير الخير العظيم
النفع ، وهو من كل شىء أحسنه وأفضله ، والله سبحانه وصف نفسه
بالكرم . ووصف به كلامه . ووصف به عرشه . ووصف به ما كثر
خيره ، وحسن منظره : من النبات ، وغيره ، ولذلك فسر السلف الكريم
بالحسن قال السكلى : انه لقرآن كريم . أى حسن كريم على الله وقال
مقاتل : كرمه الله وأعزه ، لانه كلامه . وقال الأزهري : الكريم
اسم جامع لما يحمده . والله كريم جميل الفعال . وانه لقرآن كريم يحمده ،
لما فيه من الهدى والبيان والعلم والحكمة . وبالجملة فالكريم الذى من
شأنه أن يعطى الخير الكثير بسهولة ويسر . وضده اللئيم الذى لا يخرج
خيره النزر الا بعسر وصعوبة . وكذلك الكريم فى الناس واللئيم
﴿ م — ١٥ تبيان ﴾

(٥٩) فصل

ثم قال تعالى : (فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ) اختلف المفسرون في هذا .
 فقيل : هو اللوح المحفوظ . والصحيح أنه الكتاب الذي بأيدي الملائكة ،
 وهو المذكور في قوله : (٨٠ : ١٣) فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ١٤ مَرْفُوعَةٍ
 مُّطَهَّرَةٍ ١٥ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ١٦ كِرَامٍ بَرَرَةٍ) ويدل على أنه الكتاب
 الذي بأيدي الملائكة قوله : (لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ) فهذا يدل على أنه
 بأيديهم يمسه . وهذا هو الصحيح في معنى الآية ، ومن المفسرين
 من قال : ان المراد به أن المصحف لا يمسه الا طاهر
 والاول أرجح لوجوه :

١ - أحدها أن الآية سبقت تنزيهاً للقرآن أن تنزل به
 الشياطين ، وأن محله لا يصل اليه فيمسه الا المطهرون ، فيستحيل
 على أخايب خلق الله وأنجسهم أن يصلوا اليه أو يمسه ، كما قال
 تعالى (٢٦ : ٢١٠) وَمَا نُنَزِّلُ بِهِ الشَّيَاطِينَ ٢١١ وَمَا يَنْبَغِي
 لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ) فنفى الفعل وتأتيه منهم وقدرتهم عليه ، فما
 فعلوا ذلك ولا يليق بهم ، ولا يقدرون عليه . فان الفعل قد ينتفى
 عن محسن منه ، وقد يليق بمن لا يقدر عليه . فنفى عنهم الأمور
 الثلاثة ، وكذلك قوله في سورة عبس (١٣) فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ١٤
 مَرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ١٥ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ١٦ كِرَامٍ بَرَرَةٍ) فوصف محله بهذه
 الصفات يانا أن الشيطان لا يمكنه أن ينزل به . وتقرير هذا المعنى

أهم وأجل وأتفع من بيان كون المصحف لا يمسسه إلا طاهر
 ﴿الوجه الثاني﴾ ان السورة مكية ، والاعتناء في السور المكية
 إنما هو بأصول الدين ، من تقرير التوحيد والمعاد والنبوة . وأما
 تقرير الأحكام والشرائع فمظنة السور المدنية

﴿الثالث﴾ ان القرآن لم يكن في مصحف عند نزول هذه الآية ، ولا في حياة
 رسول الله ﷺ . وإنما جمع في المصحف في خلافة أبي بكر . وهذا وإن جاز
 أن يكون باعتبار ما يأتي فالظاهر أنه إخبار بالواقع حال الإخبار يوضحه
 ﴿الوجه الرابع﴾ وهو قوله : (فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ) والمكنون المصون
 المستور عن الأعين الذي لا تناله أيدي البشر ، كما قال تعالى : (٣٧ : ٤٩) كَأَنَّهُنَّ
 بَيْضٌ مَّكْنُونٌ) وهكذا قال السلف . قال السكبي : مكنون من الشياطين .
 وقال مقاتل : مستور وقال مجاهد : لا يصيبه تراب ولا غبار . وقال
 أبو اسحق : مصون في السماء يوضحه .

﴿الوجه الخامس﴾ أن وصفه بكونه مكنوناً نظير وصفه بكونه محفوظاً
 فقوله (قُرْآنٌ كَرِيمٌ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ) كقوله (٨٥ : ٢٠) بَلْ هُوَ
 قُرْآنٌ مَجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ) يوضحه

﴿الوجه السادس﴾ ان هذا أبلغ في الرد على المسكدين ، وأبلغ
 في تعظيم القرآن ، من كون المصحف لا يمسسه محدث

﴿الوجه السابع﴾ قوله : (لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ) بالرفع فهذا خبر لفظاً
 ومعنى . ولو كان نهياً لكان مفتوحاً . ومن حمل الآية على النهي
 احتاج الى صرف الخبر عن ظاهره ، الى معنى النهي . والأصل في

الخبر والنهي حمل كل منهما على حقيقته . وليس ههنا موجب
يوجب صرف الكلام عن الخبر الى النهي
﴿الوجه الثامن﴾ أنه قال : (إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ) ولم يقل إِلَّا الْمُتَطَهَّرُونَ .
ولو أراد به منع المحدث من مسه لقال إِلَّا الْمُتَطَهَّرُونَ . كما قال تعالى
(٢ : ٢٢٢) إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ) وفي الحديث
« اللهم اجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين (١) » فالتطهر
فاعل التطهير ، والمطهر الذي طهره غيره . فالتوضيء متطهر ،
والملائكة مطهرون

﴿الوجه التاسع﴾ انه لو أريد به المصحف الذي بأيدينا لم يكن
في الاخبار عن كونه مكنوناً كبير فائدة ، إذ مجرد كون الكلام
مكنوناً في كتاب ، لا يستلزم ثبوته ، فكيف يمدح القرآن بكونه
مكنوناً في كتاب ، وهذا أمر مشترك ، والآية إنما سبقت لبيان
مدحه وتشريفه ، وما اختص به من الخصوصية ، التي تدل على انه
منزل من عند الله ، وأنه محفوظ مصون ، لا يصل اليه شيطان

(١) رواه الترمذی عن أبي إدريس الخولاني عن عمر عن النبي صلى
الله عليه وسلم قال « من توضأ فأحسن الوضوء ، ثم قال : أشهد أن
لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله . اللهم
اجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين . فتحت له ثمانية أبواب
الجنة يدخل من أيهما شاء » قال الترمذی : وهذا حديث في إسناده
اضطراب . ولا يصح عن النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الباب كثير
شيء . قال البخاري : أبو إدريس لم يسمع من عمر شيئاً أه

بوجه ما ، ولا يمس محله الا المطهرون ، وهم السفرة الكرام البررة
 ﴿الوجه العاشر﴾ ما رواه سعيد بن منصور في سننه حدثنا
 أبو الأحوص حدثنا عاصم الأحول عن أنس بن مالك في قوله :
 (لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ) قال : المطهرون الملائكة . وهذا عند طائفة
 من أهل الحديث في حكم المرفوع . قال الحاكم : تفسير الصحابة
 عندنا في حكم المرفوع ، ومن لم يجعله مرفوعا فلا ريب انه عنده
 أصح من تفسير من بعد الصحابة . والصحابة أعلم الأمة بتفسير القرآن .
 ويجب الرجوع الى تفسيرهم . وقال حرب في مسائله : سمعت
 اسحق في قوله : (لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ) قال : النسخة التي في السماء
 لا يمسها إلا المطهرون . قال : الملائكة

وسمعت شيخ الاسلام يقرر الاستدلال بالآية على أن المصحف
 لا يمس المحدث بوجه آخر فقال : هذا من باب التنبيه والاشارة ،
 اذا كانت الصحف التي في السماء لا يمسها الا المطهرون ، فكذلك
 الصحف التي بأيدينا من القرآن لا ينبغي أن يمسها الا طاهر . والحديث
 مشتق من هذه الآية . وقوله « لَا تَمَسُّ الْقُرْآنَ إِلَّا وَأَنْتَ طَاهِرٌ » رواه
 أهل السنن من حديث الزهري عن بكر بن محمد بن عمرو بن حزم
 عن أبيه عن جده : أن في الكتاب الذي كتبه النبي صلى الله عليه
 وسلم الى أهل اليمن في الشَّيْنِ ، والفرائض ، والديات (أن لَا يَمَسَّ
 القرآن الا طاهر) قال أحمد : أرجو أن يكون صحيحا . وقال أيضا :

لا أشك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كتبه . وقال أبو عمر بن عبد البر : هو كتاب مشهور عند أهل السير ، معروف عند أهل العلم . معرفة يستغنى بشهرتها عن الاسناد . لأنه أشبه التواتر في مجيئه ، لتلقى الناس له بالقبول والمعرفة . ثم قال : وهو كتاب معروف عند العلماء ومافيه فمتفق عليه الا قليلا . وقد رواه ابن حبان في صحيحه ، ومالك في موطئه . وفي المسئلة آثار أخر مذكورة في غير هذا الموضع

(٦٠) فصل

ودلت الآية بإشارتها وإيمائها على أنه لا يدرك معانيه ولا يفهمه الا القلوب الطاهرة ، وحرام على القلب المتلوث بنجاسة البدع والمخالفات أن ينال معانيه وأن يفهمه كما ينبغي . قال البخارى في صحيحه في هذه الآية : لا يجد طعمه الا من آمن به . وهذا أيضاً من إشارة الآية وتنبيهها ، وهو أنه لا يلتذ به وبقرائه ، وفهمه وتدبره إلا من شهد أنه كلام الله ، تسكلم بها حقاً ، وأنزله على رسوله وحيّاً . ولا ينال معانيه الا من لم يكن في قلبه حرج منه بوجه من الوجوه . فمن لم يؤمن بأنه حق من عند الله ففي قلبه منه حرج ، ومن لم يؤمن بأن الله سبحانه تسكلم به وحيّاً وليس مخلوقاً من جملة مخلوقاته ، ففي قلبه منه حرج . ومن قال : ان له باطناً يخالف ظاهره ، وان له تأويلاً يخالف ما يفهم منه ، ففي قلبه منه حرج . ومن قال : ان له تأويلاً لا نفهمه ولا نعلمه ، وانما نتلوه متعبدين بألفاظه ، ففي قلبه منه حرج

ومن سلط عليه آل الآرائين ، وهذيان المتكلمين ، وسفسطة المسفسطين ، وخيالات المتصوفين ، ففى قلبه منه حرج . ومن جعله تابعا لنحلته ومذهبه وقول من قلده دينه ، ينزله على أقواله ، ويتكلف حمله عليها ، ففى قلبه منه حرج ، ومن لم يحكمه ظاهر او باطنا فى أصول الدين وفروعه ، ويسلم وينقاد لحكمه أين كان ، ففى قلبه منه حرج ، ومن لم ياتمر بأوامره ، وينزجر عن زواجره ، ويصدق جميع أخباره ، ويحكم أمره ونهيه وخبره ، ويرد له كل أمر ونهى وخبر خالفه ، ففى قلبه منه حرج . وكل هؤلاء لم تمس قلوبهم معانيه ، ولا يفهمونه كما ينبغى أن يفهم ، ولا يجدون من لذة حلاوته وطعمه ما وجدته الصحابة ومن تبعهم

وأنت إذا تأملت قوله ﴿ لا يمسه الا المطهرون ﴾ وأعطيت الآية حقها من دلالة اللفظ وإيمائه وإشارته وتنبيهه ، وقياس الشيء على نظيره ، واعتباره بمشاكله ، وتأملت المشابهة التى عقدها الله سبحانه وربطها بين الظاهر والباطن - فهمت هذه المعانى كلها من الآية ، وبالله التوفيق

(٦١) فصل

ثم أكد ذلك وقرره وأطّده بقوله : (تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ) وكما أنه لازم لكونه قرآنا كريما فى كتاب مكنون فهو ملزوم له . فهو دليل عليه ومدلول له وأفاد كونه تنزيلا من رب العالمين مطلوبين عظيمين من أجل

مطالب الدين

﴿أحدهما﴾ أنه المتكلم ، وأنه منه نزل ، ومنه بدأ وهو الذي تكلم به . ومن هنا قال السلف : منه بدأ . ونظيره (٣٢ : ١٣) وَلَئِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي (وقوله : (١٦ : ١٠٢) قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ) والثاني ﴿علو الله سبحانه فوق خلقه ، فان النزول والتنزيل الذي تعقله العقول ، وتعرفه الفطر - هو وصول الشيء من أعلا إلى أسفل . والرب تعالى إنما يخاطب عباده بما تعرفه فطرهم ، وتشهد به عقولهم . وذكر التنزيل مضافا الى ربوبيته للعالمين المستلزمة تملكه لهم ، وتصرفه فيهم ، وحكمه عليهم ، وإحسانه وإنعامه عليهم ، وأن من هذا شأنه مع الخلق كيف يليق به مع ربوبيته التامة أن يتركهم سُدًى ، ويدعهم هملا ، ويخلقهم عبثا ، لا يأمرهم ولا ينهاهم ، ولا يثيبهم ولا يعاقبهم . فمن أقر بأنه رب العالمين أقر بأن القرآن تنزيله على رسوله ، واستدل بكونه رب العالمين على ثبوت رسالة رسوله ، وصحة ما جاء به . وهذا الاستدلال أقوى وأشرف من الاستدلال بالمعجزات والخوارق ، وان كانت دلالتها أقرب الى أذهان عموم الناس ، وتلك انما تكون خواص العقلاء

وقد أشار سبحانه الى الطريقين في غير موضع من كتابه . كقوله (٤١ : ٥٣) سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ (فهذا استدلال بالآيات المعينة المخلوقة . ثم قال : (أولم

يَكْفُ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ) فهذا استدلال بكمال ربوبيته
وكمال أوصافه على صدق رسوله فيما جاء به . وهذه الطريق أخص
وأقوى وأكمل وأعلى . والأول أعم وأشمل . وقد تقدم بيانها
عند قوله تعالى : (وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ) وأين
الاستدلال بأوصاف الرب تعالى وكماله المقدس على ثبوت النبي
وبعثه ، من الاستدلال عليه ببعض مخلوقاته ؟

وتأمل فرق ما بين استدلال سيدة نساء العالمين خديجة رضى الله
عنها بصفات الرب تعالى وصفات محمد صلى الله عليه وسلم واستنتاجها
من بين هذين الأمرين صحة نبوته ، وأنه رسول الله حقا . وأن
من كانت هذه صفات ربه وخالقه تأتى أن يخزيه ، وأنه يؤيده ،
ويلعبه ، ويتم نعمته عليه (١)

وأنت إذا تأملت هذه الطريقة وهذا الاستدلال وجدت بينها
وبين طريقة المتكلمين من الفرق مالا يخفى وإذا حصل للعبد الفقه
فى الاسماء والصفات انتفع به فى باب معرفة الحق والباطل من

(١) روى البخارى فى بدء الوحي من حديث عائشة رضى الله تعالى عنها :
فخرج بها ^{صلى الله عليه وسلم} يرجف . فدخل على خديجة بنت خويلد رضى الله عنها
فقال « زملونى زملونى » فزملوه حتى ذهب عنه الروع . فقال لخديجة —
وأخبرها الخبر — « لقد خشيت على نفسى » فقالت : كلا والله ما يخزيك
الله أبدا ، انك لتصل الرحم وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ،
وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق .

الأقوال ، والطرائق والمذاهب والعقائد - أعظم انتفاع ، وأتمه ،
وقد بينا في كتابنا المعالم (١) بطلان التحيل وغيره من الحيل الربوية
من أسماء الرب وصفاته ، وأنه يستحيل على الحكيم أن يحرم الشيء
ويتوعد على فعله بأعظم أنواع العقوبات ، ثم يبيح التوصل إليه
بنفسه بأنواع التحيلات . فأين ذلك الوعد الشديد وجواز التوصل
إليه بالطريق البعيد ، اذ ليست حكمة الرب تعالى وكمال علمه وأسمائه
وصفاته ، تنتقض باحالة ذلك وامتناعه عليه . فهذا استدلال بالفقه
الأكبر في الأسماء والصفات على الفقه العملي في باب الأمر والنهي .
وهذا باب حرام على الجهى المعطل أن يلجأ الى الجنة ، حرام عليه
ريحها وإن ريحها ليوحد من مسيرة خمسين الف سنة . والله العزيز
الوهاب لا مانع لما أعطى ولا معطى لما منع ، وبه التوفيق

(٦٢) فصل

ثم ونجهم سبحانه على وضعهم الادهان في غير موضعه ، وأنهم
يداهنون بما حقه أن يصدع به ويفرق به ويعض عليه بالنواجذ ،
وتثني عليه الخناصر ، وتعقد عليه القلوب والأفئدة ، ويحارب ويسالم
لأجله ، ولا يلتوى عنه لائمة ولا يسرة ، ولا يكون للقلب التفات
إلى غيره ، ولا محاسبة الا اليه ، ولا مخاصمة إلا به ، ولا اهتداء

(١) كذا . ولعله كتاب اعلام الموقعين الذى لم يؤلف فى أصول
الدين مثله ولم ينسج أحد على منواله

في طرق المطالب العالية الانوره ، ولاشفاء الابه فهو روح الوجود
وحياة العالم ، ومدار السعادة وقائد الفلاح وطريق النجاة ، وسبيل
الرشاد ، ونور البصائر ، فكيف تطلب المداهنة بما هذا شأنه ، ولم ينزل
المداهنة ؟ وانما أنزل بالحق وللحق . والمداهنة انما تكون في باطل
قوى لا يمكن إزالته ، أو في حق ضعيف لا يمكن إقامته ، فيحتاج
المداهن إلى أنه يترك بعض الحق ويلتزم بعض الباطل . فاما الحق
الذي قام به كل حق فكيف يداهن به ؟

ثم قال سبحانه (وَجْعَلُوا رِزْقَكُمْ أَنْفُسَكُمْ تُكَذِّبُونَ) لما كان قوام كل
واحد من البدن والقلب انما هو بالرزق ، فرزق البدن الطعام والشراب ،
ورزق القلب الايمان والمعرفة بربه وفطره ، ومحبه ، والشوق اليه ،
والانس بقربه ، والابتهاج بذكره ، وكان لا حياه له الا بذلك ، كما أن البدن
لا حياه له الا بالطعام والشراب - أنعم سبحانه على عباده بهذين النوعين
من الرزق ، وجعل قيام أبدانهم وقلوبهم بهما . ثم فآوت سبحانه
بينهم في قسمة هذين الرزقين ، بحسب ما اقتضاه عليه وحكمته : فمنهم
من وفر حظه من الرزقين ووسع عليه فيهما . ومنهم من قتر عليه
في الرزقين . ومنهم من وسع عليه رزق البدن وقتر عليه رزق
القلب ، وبالعكس . وهذا الرزق انما يتم ويكمل بالشكر . والشكر
مادة زيادته وسبب حفظه وبقائه . وترك الشكر سبب زواله وانقطاعه
عن العبد . فان الله تعالى تأذن أنه لا بد أن يزيد الشكور من نعمه
ولا بد أن يسلبها من لم يشكرها ، فلها وضعوا الكفر والتكذيب موضع

الشكر والایمان جعلوا رزقهم نفسه تكديبا ، فان التصديق والشكر لما كانا سبب زيادة الرزق وهما رزق القلب حقيقة ، فهؤلاء جعلوا مكان هذا الرزق التكذيب والكفر فجعلوا رزقهم التكذيب وهذا المعنى هو الذى حام حوله من قال : التقدير وتجعلون شكر رزقكم أنكم تكذبون . وقال آخرون : التقدير ، وتجعلون بدل شكر رزقكم أنكم تكذبون . فحذف مضافين معا . وهؤلاء أطالوا اللفظ وقصروا بالمعنى . ومن بعض معنى الآية قوله : مطرنا بنوء كذا وكذا (١) فهذا لا يصح أن تدل عليه الآية ويراد بها ، والافعناها أوسع منه وأعم وأعلى . والله أعلم

(٦٣) فصل

ثم ختم السورة بأحوالهم عند القيامة الصغرى ، كما ذكر فى أولها أحوالهم فى القيامة الكبرى ، وقسمهم الى ثلاثة أقسام كما قسمهم هناك الى ثلاثة . وذكر بين يدي هذا التقسيم الاستدلال على صحته وثبوته ، بأنهم مربيون مدبرون مملوكون ، فوقهم رب قاهر مالك يتصرف فيهم بحسب مشيئته وارادته ، وقررهم على ذلك بما لا سبيل لهم الى دفعه ولا انكاره فقال (فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْخُلُقُومَ) أى

(١) النوء : النجم مال للغروب ، أو سقوط النجم فى الغرب مع الفجر وطلوع آخر يقابله . وكانت العرب تقول : ان انتقال الكواكب هو المؤثر فى الامطار

وصلت الروح الى هذا الموضع ، بحيث فارقت ولم تفارق ، فهي
برزخ بين الموت والحياة ، كما أنها اذا فارقت صارت في برزخ بين
الدنيا والآخرة ، ملائكة الرب تعالى أقرب الى المحتضر من حاضريه
من الانس ، ولكنهم لا يصرون بهم ، فلولا تردونها الى مكانها
من البدن أيها الحاضرون ، ان كان الامر كما تزعمون أنكم غير
جزيين ولا مدينين ، ولا مستوعبين ليوم الحساب

فان قيل : أى ارتباط بين هذين الامرين حتى يلزم بينهما ؟

قيل : هذا من أحسن الاستدلال وأبلغه ، فانهم اما أن يقولوا
بأنهم مربوبون مملوكون ، عبيد لمالك قادر متصرف فيهم ، قاهر
أمر ، ناه ، أو لا يقولون بذلك : فان أقروا به لزمهم القيام بحقه
عليهم وشكره وتعظيمه واجلاله ، وأن لا يجعلوا له ندا ، ولا شريكا
وهذا هو الذى جاءهم به رسوله ، ونزل عليه به كتابه . وان انكروا
ذلك وقالوا انهم ليسوا بعبيد ولا مملوكين ، ولا مربوبين وان الامر
اليهم يردون الأرواح إلى مقارها إذا بلغت الحلقوم . فان المتصرف
فى نفسه الحاكم على روحه لا يتمتع منه ذلك ، بخلاف المحكوم عليه
المتصرف فيه غير المدير له ، سواء الذى هو عبد مملوك من جميع
الجهات وهذا الاستدلال لا يحيد عنه ولا مدفع له . ومن اعطاه حقه
من التقرير والبيان انتفع به غاية النفع ، وانقاد لأجله للعبودية
وأذعن ، ولم يسعه غير التسليم للربوبية والالهية والاقرار بالعبودية
ولله ما أحسن جزالة هذه الالفاظ وفصاحتها وبلوغها أقصى مراتب

البلاغة والفصاحة ، والاختصار التام ، وندائها الى معناها من أقرب مكان ، واشتمالها على التوييح والتقرير والالزام ، ودلائل الربوبية والتوحيد ، والبعث ، وفصل النزاع في معرفة الروح وأنها تصعد ، وتنزل ، وتنتقل من مكان الى مكان ، وما أحسن إعادة «لولا» ثانياً قبل ذكر الفعل الذي يقتضيه الاول . وجعل الحرفين يقتضيان اقتضاء واحداً . وذكر الشرطين بين لولا الأولى والثانية وما تقتضيه من الفعل ثم الموازنة بين الشرط الأول والثاني ، مع الفصل بينهما بكلمة واحدة هي الرابط بين لولا الأولى والثانية ، والشرط الأول والثاني ، وهذا تركيب يستجد العقل والسمع لمعناه ولفظه

فضمنت الآيتان تقريراً وتوييحاً ، واستدللاً على أصول الايمان : من وجود الخالق سبحانه ، وكمال قدرته ، ونفوذ مشيئته ، وربوبيته ، وتصرفه في أرواح عباده ، حيث لا يقدرون على التصرف فيها بشيء ، وأن أرواحهم بيده ، يذهب بها اذا شاء ، ويردها اليهم اذا شاء ، ويخلي أبدانهم منها تارة ، ويجمع بينها وبينهم تارة ، واثبات المعاد ، وصدق رسوله فيما أخبر به عنه ، واثبات ملائكته ، وتقرير عبودية الخلق ، وأتى بهذا في صورة تحضيضين ، وتوييحين ، وتقريرين ، وجوايين ، وشرطين ، وجزئين - منتظمة أحسن الانتظام ، ومتداخلة أحسن التداخل متعلقاً ببعضها ببعض . وهذا كلام لا يقدر

البشر على مثل نظمه ومعناه قال الفراء : وأجيبتم (فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ)
 و (فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ) بجواب واحد وهو (تَرْجِعُونَهَا إِنْ
 كُنْتُمْ صَادِقِينَ) قال : ومثله قوله تعالى : (٣٨: ٢) فَأَمَّا يَا تِجَارَةَ كُنْتُمْ
 هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (أجيبا
 بجواب واحد وهما شرطان . قال الجرجاني : قوله (تَرْجِعُونَهَا)
 جواب قوله (فَلَوْلَا) المتقدمة والمتأخرة ، على تأويل : فلولا إذا
 بلغت النفس الحلقوم تردونها الى موضعها ، ان كنتم غير محاسبين
 ولا مجزيين ، كما ترعمون ؟ يقول تعالى : ان كان الأمر كما ترعمون
 أنه لا بعث ، ولا حساب ، ولا جزاء ، ولا إله ، ولا رب يقوم
 بذلك ، فهلا تردون نفس من يعز عليكم اذا بلغت الحلقوم ؟ فاذا
 لم يمكنكم في ذلك حيلة بوجه من الوجوه ، فهل دلكم ذلك على أن
 الأمر الى مليك قادر قاهر ، متصرف فيكم ، وهو الله الذي لا إله
 إلا هو ؟ وقال أبو اسحق : معناه فهلا ترجعون الروح ، ان كنتم
 غير مملوكين مدبرين ؟ فهلا ان كان الأمر كما ترعمون في كما يقول
 قائلكم (٣: ١٦٨) لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا) و (٣: ١٥٦) وَلَوْ كُنَّا
 عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا) أى ان كنتم تقدر ان تؤخروا أجلا
 فهلا ترجعون الروح اذا بلغت الحلقوم ؟ وهلا تردون عن
 أنفسكم الموت

قلت : وكان هذا يلتفت الى قوله تعالى : (١٧ : ٥٠ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ٥١ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْذِبُ فِي صُدُورِكُمْ) أى ان كنتم كما تزعمون لا تبعثون بعد الموت خلقا جديدا ، فكونوا خلقا لا يفنى ولا يبلى ، اما من حجارة أو من حديد أو أكبر من ذلك . ووجه الملازمة ما تقدم ذكره ، وهو اما أن تقرروا بأن لكم رباً متصرفا فيكم ، ومالكاً لكم ، تنفذ فيكم مشيئته وقدرته ، يمتسكم اذا شاء . ويحييكم اذا شاء . فكيف تنكرون قدرته على اعادتكم خلقا جديداً بعد ما أماتكم . وإما أن تنكروا أن يكون لكم رب قادر قاهر مالك ، نافذ المشيئة فيكم ، والقدرة فيكم ، فكونوا خلقا لا يقبل الفناء والموت فاذا لم تستطيعوا أن تكونوا كذلك فما تنكرون من قدرة من جعلكم خلقا يموت ، ويحيى ، أن يحييكم بعد ما أماتكم ؟ فهذا استدلال يعجزهم عن كونهم خلقا لا يموت . والذي في الواقعة استدلال يعجزهم عن رد الروح الى مكانها اذا قاربت الموت . وليس بعد هذا الاستدلال الا الازعان والانقياد أو الكفر والعناد .

(٦٤) فصل

فلما قام الدليل ، ووضح السبيل ، وتم البرهان على أنهم مملوكون مبروبون ، مجزيون محاسبون - ذكر طبقاتهم عند الحشر الأول ، والقيامة الصغرى ، وهى ثلاث طبقات : طبقة المقربين ، وطبقة أصحاب اليمين ، وطبقة المكذبين . فجعل تحية المقربين عند الوفاة الروح والريحان

والجنة . وهذه الكرامات الثلاثة التي يعطونها بعد الموت نظير
الثلاث التي يعطونها يوم القيامة : فالروح والفرح والسرور ، والابتهاج
ولذة الروح ، فهي كلمة جامعة لنعيم الروح ولذتها ، وذلك قوتها
وغذاؤها ، والريحان الرزق ، وهو الاكل والشرب ، والجنة المسكن
الجامع لذلك كله . فيعطون هذه الثلاث في البرزخ ، وفي المعاد الثاني
ثم ذكر الطبقة الثانية ، وهي طبقة أصحاب اليمين . ولما كانوا
دون المقربين في المرتبة جعل تحيتهم عند القدوم عليه السلامة من
الآفات والشور التي تحصل للمكذبين الضالين فقال : (وَأَمَّا إِنْ
كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ فِسْلامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ) والسلام
مصدر من سلم ، أى فلك السلامة . والخطاب له نفسه . أى : يقال
لك السلامة . كما يقال للقادم : لك الهناء ، ولك السلامة ، ولك
البشرى ، ونحو ذلك من الألفاظ ، كما يقولون : خير مقدم ، ونحو
ذلك ، فهذه تحية عند اللقاء ، قال مقاتل : يسلم الله لهم أمرهم ،
ويتجاوز عن سيئاتهم ، ويتقبل حسناتهم . وقال الكلبي : يسلم عليه
أهل الجنة ، ويقولون : السلامة لك . وعلى هذا فقوله (مِنْ أَصْحَابِ
الْيَمِينِ) أى : هذه التحية حاصلة لك من إخوانك أصحاب اليمين ،
فانه اذا قدم عليهم حيوه بهذه التحية وقالوا السلامة لك وفي الآية
أقوال آخر ، فيها تكلف وتعسف ، فلا حاجة الى ذكرها
ثم ذكر الطبقة الثالثة ، وهي طبقة الضالّ في نفسه ، المكذب

لاهل الحق ، وان له عند الموافاة نُزْلُ الجيم ، وُسْكُنِي الجيم . ثم أكد هذا الجزاء بما جعله كأنه رأى العين لمن آمن بالله ورسوله فقال (إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ) فرفع شأنه عن درجة الظن والعلم الى اليقين ، وعن درجة اليقين الى حقه ثم أمره أن ينزه اسمه تبارك وتعالى عما لا يليق به ، وتنزيه الاسم متضمن لتنزيه المسمى عما يقوله الكاذبون والجاحدون

(٦٥) فصل

ومن ذلك قوله تعالى : (٣٥ : ١ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ٢ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ٣ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ) أقسم سبحانه بالنجم عند هويته على تنزيه رسوله وبرأته مما نسبته إليه أعداؤه من الضلال والغى

واختلف الناس في المراد بالنجم : فقال الكلبي ، عن ابن عباس : أقسم بالقرآن اذا منجما على رسوله : أربع آيات ، وثلاثا ، والسورة . وكان بين اوله وآخره عشرون سنة . وكذلك روى عطاء عنه . وهو قول مقاتل ، والضحاك ، ومجاهد . واختاره الفراء . وعلى هذا فسمى القرآن نجما لتفرقه في النزول . والعرب تسمى التفرق تنجما ، والمفرق نجما ، ونجوم الكتابة اقسامها ، ويقول : جعلت مالى على فلان نجوما منجمة كل نجم كذا وكذا

واصل هذا أن العرب كانت تجعل مطالع منازل القمر ومساقطها مواقيت لحلول ديونها وآجالها ، فيقولون : اذا طلع النجم - يريدون الثريا - حل عليك الدين . ومنه قول زهير ، في دية جعلت نجوما على العاقل :

ينجمها قوم لقوم غرامة * ولم يهرقوا ما يئتهم ملء محجم
ثم جعل كل تنجم تفريقا وان لم يكن موقتا بطولع نجم
وقوله (هوى) على هذا القول ، أى : نزل من علو الى سفلى .
قال أبو زيد : هوت العقاب تهوى هويا - بفتح الهاء - اذا انقضت على
صيد أو غيره . وكذلك قال ابن الأعرابي . وفرق بين الهوى لقوله
* والدلو فى اصعاده عجل الهوى *

وقال الليث : العامة تقول الهوى - بالضم - فى مصدر هوى يهوى
وكذلك قال الاصمعى : هوى يهوى هو بفتح الهاء ، اذا سقط إلى
أسفل . قال : وكذلك الهوى فى السير اذا مضى

وهنا أمر يجب التنبيه عليه غلط فيه أبو محمد بن حزم اقبل غلط فندكر
فى السماء الرب تعالى الهوى بفتح الهاء واحتج بما فى الصحيح ، من
حديث عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول فى سجوده
« سبحان ربى الأعلى » الهوى . فظن أبو محمد : ان الهوى صفة للرب
وهذا من غلظه رحمه الله . وانما الهوى على وزن فاعيل اسم
لقطعة من الليل . يقال : مضى هوى من الليل ، على وزن فاعيل .
ومضى هزيع منه ، أى : طرف وجانب ، وكان يقول « سبحان

رني الاعلى» في قطعة من الليل وجانب منه. وقد صرحت بذلك في اللفظ الآخر. فقالت: كان يقول «سبحان ربي الاعلى» الهوى من الليل عدنا الى قوله (والنجم إذا هوى) وقال ابن عباس، في رواية على بن أبي طلحة، وعطية: يعنى الثريا إذا سقطت وغابت، وهو الرواية الأخرى عن مجاهد. والعرب إذا أطلقت النجم تعنى به الثريا. قال: فباتت تعدُّ النجم. وقال أبو حمزة اليماني: يعنى النجوم إذا انتشرت يوم القيامة. وقال ابن عباس، في رواية عكرمة: يعنى النجوم التى ترمى بها الشياطين إذا سقطت فى آثارها عند استراق السمع. وهذا قول الحسن. وهو أظهر الأقوال. ويكون سبحانه قد أقسم بهذه الآية الظاهرة المشاهدة التى نصبها الله سبحانه آية وحفظاً للوحى من استراق الشياطين له على أن ما أتى به رسوله حق وصدق، لا سبيل للشيطان ولا طريق له اليه، بل قد أحرس بالنجم اذا هوى رَصداً بين يدي الوحى، وحرساً له وعلى هذا فالارتباط بين المقسم به والمقسم عليه فى غاية الظهور. وفى المقسم به دليل على المقسم عليه وليس بالبين تسمية القرآن عند نزوله بالنجم إذا هوى، ولا تسمية نزوله هويّاً. ولا عهد فى القرآن ذلك فيحمل هذا اللفظ عليه. وليس بالبين تخصيص هذا القسم بالثريا وحدها اذا غابت. وليس بالبين أيضاً القسم بالنجوم عند انتشارها يوم القيامة. بل هذا مما يقسم الرب عليه ويدل عليه بآياته، فلا يجعله نفسه دليلاً،

لعدم ظهوره للمخاطبين ، ولا سيما منكروا البعث ، فانه سبحانه انما استدل بما لا يمكن جحده ولا المكابرة فيه . فأظهر الأقوال قول الحسن ، والله أعلم

وبين المقسم به والمقسم عليه من التناسب ما لا يخفى ، فان النجوم التي ترمى الشياطين آيات من آيات الله ، يحفظ بهادينه ووحيه وآياته المنزلة على رسوله ، بهاظهر دينه وشرعه ، وأسمائه ، وصفاته ، وجعلت هذه النجوم المشاهدة خداما وحرسانا لهذه النجوم الهاوية . ونفى سبحانه عن رسوله الضلال المنافي للهدى ، والغى المنافي للرشاد . ففي ضمن هذا النفي الشهادة له بأنه على الهدى والرشاد فالهدى في علمه والرشاد في علمه . وهذان الأصلان هما غاية كمال العبد . وبهما سعادته وفلاحه . وبهما وصف النبي صلى الله عليه وسلم خلفاءه . فقال : « عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدى (١) » فالراشد ضد الغاوى ، والمهدى ضد الضال ، وهو الذى زكت نفسه بالعلم النافع والعمل الصالح ، وهو صاحب الهدى ودين الحق ، ولا يشتبه الراشد المهدي بالضال الغاوى إلا على أجهل خلق الله ، وأعماهم قلبا ، وأبعدهم من حقيقة الانسانية . والله در القائل :

وما انتفاع أخى الدنيا بناظره * إذا استوت عنده الأنوار والظلم

(١) هو من حديث العرابض بن سارية ، رواه أبو داود والترمذى وابن ماجه وابن حبان فى صحيحه . وقال الترمذى : حسن صحيح

فالناس أربعة أقسام : ضال في علمه غاو في قصده وعمله . وهؤلاء شرار الخلق ، وهم مخالفو الرسل .

﴿ الثاني ﴾ مهتد في علمه غاو في قصده وعمله . وهؤلاء هم الأمة الغضبية (١) ومن تشبه بهم ، وهو حال كل من عرف الحق ولم يعمل به .
 ﴿ الثالث ﴾ ضال في علمه ، ولكن قصده الخير . وهو لا يشعر .
 ﴿ الرابع ﴾ مهتد في علمه راشد في قصده . وهؤلاء ورثة الأنبياء . وهم وان كانوا الأقلين عددا فهم الأكثرون عند الله قدرا ، وهم صفوة الله من عباده وحزبه من خلقه

وتأمل كيف قال سبحانه (مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ) ولم يقل ما ضل محمد . تأكيذا لاقامة الحجة عليهم ، بأنه صاحبهم ، وهم أعلم الخلق به وبحاله وأقواله وأعماله ، وأنهم لا يعرفونه بكذب ولا غي ، ولا ضلال ، ولا يتقنون عليه أمراً واحداً قط . وقد نبه على هذا المعنى بقوله (٢٣ : ٦٩ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ) وبقوله (٨١ : ٢٢ وما صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ)

(٦٦) فصل

ثم قال سبحانه (وما يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ)

(١) وهي أمة اليهود . قال تعالى (٥ : ٥٩ قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضبه عليه وجعل منهنم القردة والننازير وعبد الطاغوت)

ينزه نطق رسوله أن يصدر عن هوى . وبهذا السكال هداه ورشده
وقال (وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ) ولم يقل وما ينطق بالهوى ، لأن
نطقه عن الهوى أبلغ ، فانه يتضمن أن نطقه لا يصدر عن هوى ،
واذا لم يصدر عن هوى فكيف ينطق به . فتضمن نفى الأمرين :
نفى الهوى عن مصدر النطق ، ونفيه عن النطق نفسه : فنطقه بالحق ،
ومصدره الهدى والرشاد ، لا الغي والضلال

ثم قال (إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ) فأعاد الضمير على المصدر المفهوم
من الفعل ، أى مانطقه الا وحى يوحى . وهذا أحسن من قول من
جعل الضمير عائداً الى القرآن . فانه يعبر نطقه بالقرآن والسنة ، وان
كليهما وحى يوحى . وقد احتج الشافعى لذلك فقال : لعل من حجة
من قال بهذا قوله (٤ : ١١٣) وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ
قال ولعل من حجته أن يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
لأبي الزانى بامرأة الرجل الذى صالحه على الغنم والخادم «والذى نفسى
بيده لأقضى بينكما بكتاب الله : الغنم والخادم رد عليك - الحديث (١)»

(١) روى احمد والبخارى ومسلم وأصحاب السنن عن أبى هريرة ،
وزيد بن خالد أنهما قالوا : ان رجلا من الاعراب أتى رسول الله صلى
صلى الله عليه وسلم . فقال : يا رسول الله ، أنشدك الله الا قضيت لى
بكتاب الله . وقال الخصم الآخر - وهو أقمه منه - نعم فأقضى بيننا
بكتاب الله ، وائذن لى . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «قل»

وفي الصحيحين أن يعلى بن أمية كان يقول لعمر : ليتني أرى رسول الله صلى الله عليه وسلم حين ينزل عليه الوحي ، فلما كان بالجرعانة (١) سأله رجل ، فقال : كيف ترى في رجل أحرم بعمره في جنته ، بعد ما تضح بالخلق فنظر اليه النبي صلى الله عليه وسلم ساعة ثم سكت ، فجاء الوحي ، فأشار عمر بيده إلى يعلى ، فجاء ، فأدخل رأسه ، فاذا النبي صلى الله عليه وسلم محرم يغط . ثم سرى عنه . فقال « أين السائل آنفا ؟ » فجيء به ، فقال « انزع عنك الجبة » واغسل أثر الطيب ، واصنع في عمرتك ما تصنع في حجبك » وقال الشافعي : أخبرنا مسلم عن ابن جريج عن أبي طاووس عن أبيه أن عنده كتابا نزل به الوحي ، وما فرض رسول الله صلى الله عليه وسلم من صدقة وعقول (٢) فانما نزل به الوحي . وذكر الأوزاعي عن حسان

قال : ان ابني كان عسيقا على هذا ، فزني بامرأته ، وإني أخبرت أن على ابني الرجم ، وافتديت منه بمائة شاة ووليدة . فسأت أهل العلم ، فأخبروني أن على ابني جلد مائة وتعريب عام ، وأن على امرأة هذا الرجم . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « والذي نفسي بيده - الحديث - إلى أن قال : وعلى ابنتك جلد مائة وتعريب عام . واغدا يا أنيس - لرجل من أسلم - على امرأة هذا : فان اعترفت فارجمها » قال : فغدا عليها ، فاعترفت فأمر بها رسول الله صلى الله عليه وسلم فرجمت

(١) مكان قريب من مكة نزل به الوحي عليه وسلم في عودته من غزوة حنين ومنه أحرم ليعتمر في رجوعه إلى المدينة العمرة الثالثة (٢) جمع عقل ، وهو الدية

ابن عطية قال: كان جبريل ينزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالسنة كما ينزل عليه بالقرآن يعلمه إياه . وذكر الأوزاعي أيضا عن أبي عبيد ، صاحب سليمان ، أخبرني القاسم بن مخيمرة حدثني ابن فضيلة قال: قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم : سَعَّرَ لَنَا . قَالَ « لَا تَسْأَلُنِي عَنْ سُنَّةٍ أَحَدُهَا فِيكُمْ ، لَمْ يَأْمُرْنِي بِهَا وَلَكِنْ سَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ » وابن فضيلة هذا يسمى طلحة ، وقد صح عنه أنه قال « أَلَا إِنِّي أُوتِيتُ الْكِتَابَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ » وهذا هو السنة بلا شك . وقد قال تعالى (٤ : ١١٣) وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ (وهما القرآن والسنة . وبالله التوفيق

(٦٧) فصل

ثم أخبر تعالى عن وصف من علمه الوحي والقرآن ، مما يعلم أنه مضاد لأوصاف الشيطان معلم الضلال والغواية . فقال (عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى) وهذا نظير قوله (ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ) وذكرنا هناك السر في وصفه بالقوة

وقوله (ذُو مِرَّةٍ) أى جميل المنظر حسن الصورة ، ذو جلاله . ليس شيطانا أقبح خلق الله وأشوههم صورة . بل هو من أجمل الخلق وأقواهم وأعظمهم أمانة ومكانة عند الله . وهذا تعديل لسند الوحي والنبوة ، وتزكية له . كما تقدم نظيره في سورة التكوين . فوصفه بالعلم والقوة ، وجمال المنظر وجلاله . وهذه كانت أوصاف

الرسول البشرى والملكى . فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم
اشجع الناس ، وأعلمهم ، وأجملهم ، وأجلهم . والشياطين وتلامذتهم
بضد من ذلك . فهم أقبح الخلق صورة ومعنى . وأجهل الخلق
وأضعفهم همها ونفوسا

ثم ذكر استواء هذا المعلم بالأفق الأعلى ، ودنوه وتدليه وقربه
من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإيحاء الله ما أوحى . فصور
سبحانه لأهل الايمان صورة الحال من نزول جبريل من
عنده ، إلى أن استوى بالأفق ، ثم دنى وتدى ، وقرب من
رسوله ، فأوحى اليه ما أمره الله بإيحاؤه ، حتى كأنهم يشاهدون
صورة الحال ويعاينونها هابطاً من السماء إلى أن صار بالأفق
الأعلى ، مستويا عليه ، ثم نزل وقرب من محمد صلى الله عليه وسلم
وخطبه بما أمره الله به ، قائلاً : ربك يقول لك كذا وكذا . وأخبر
سبحانه عن مسافة هذا القرب ، بأنه قدر قوسين أو أدنى من ذلك
وليس هذا على وجه الشك بل تحقيق لقدر المسافة ، وأنها لا تزيد
على قوسين ألبته كما قال تعالى (٣٧ : ١٤٧) وأرسلناه إلى مائة ألف
أو يزيدون (تحقيق لهذا العدد ، وأنهم لا ينقصون عن مائة
ألف رجل واحداً ونظيره قوله (٢ : ٧٤) ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ
بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً) أى لا تنقص قسوتها عن
قسوة الحجارة ، بل ان لم تزد على قسوة الحجارة لم تكن دونها . وهذا

المعنى أحسن وألطف وأدق من قول من جعل « أو » في هذه المواضع بمعنى بل ، ومن قول من جعلها للشك بالنسبة الى الرأى وقول من جعلها بمعنى الواو . فتأمل انتهى

(٦٨) فصل

ثم أخبر تعالى عن تصديق فؤاده لما رآته عيناه . وأن القلب صدق العين ، وليس كمن رأى شيئاً على خلاف ما هو به ، فكذب فؤاده بصره ، بل ما رآه يبصره صدقه الفؤاد وعلم أنه كذلك . وفيها قراءتان : لإحداهما بتخفيف كذب ، والثانية بتشديدها . يقال كذبت عينه وكذبه قلبه وكذبه جسده ، اذا أخلف ما ظنه وحسسه . قال الشاعر :

كذبتك عينك ، أم رأيت بواسط غلس الظلام من الرباب خيالاً
أى أرتك سالا حقيقة له ، فنفى هذا عن رسوله . وأخبره أن فؤاده لم يكذب ما رآه ، و (ما) إما أن تكون مصدرية ، فيكون المعنى : ما كذب فؤاده رؤيته ، وإما أن تكون موصولة ، فيكون المعنى : ما كذب الفؤاد الذى رآه بعينه . وعلى التقديرين فهو إخبار عن تطابق رؤية القلب لرؤية البصر ، وتوافقهما ، وتصديق كل منهما لصاحبه . وهذا ظاهر جدا فى قراءة التشديد . وقد استشكلها طائفة منهم المبرد ، وقال : فى هذه القراءة بعد . قال : لأنه إذا رأى بقلبه فقد علمه أيضا بقلبه ، وإذا وقع العلم فلا كذب معه . فانه إذا

كان الشيء في القلب معلوما ، فكيف يكون معه تكذيب ؟
قلت : وجواب هذا من وجهين ﴿ أحدهما ﴾ أن الرجل قد
يتخيل الشيء على خلاف ما هو به فيكذبه قلبه ، إذ يريه صورة
المعلوم على خلاف ما هي عليه ، كما تكذبه عينه ، فيقال : كذبه
قلبه ، وكذبه ظنه ، وكذبه عينه . فنفى سبحانه ذلك عن رسوله ،
وأخبر أن ما رآه الفؤاد فهو كما رآه . كمن رأى الشيء على حقيقة
ما هو به . فانه يصح أن يقال : لم تكذبه عينه

﴿ الثاني ﴾ أن يكون الضمير في (رأى) عائدا إلى الرأي لا إلى الفؤاد ،
ويكون المعنى : ما كذب الفؤاد ما رآه البصر . وهذا بحمد الله لا إشكال
فيه . والمعنى : ما كذب الفؤاد ما رآه البصر ، بل صدقه . وعلى
القراءتين فالمعنى : ما أوهمه الفؤاد أنه رأى ولم ير ، ولا اتهم بصره
ثم أنكسر سبحانه عليهم مكابرتهم وجحدهم له على ما رآه ، كما ينكر
على الجاهل مكابرتة للعالم ومماراته له على ما عليه . وفيها قراءتان
أفتَمَرُونَهُ وأَقْتَمَرُونَهُ وهذه الماراة أصلها من الجحد والدفع ، بقول
مَرَيْتُ الرجل حقه اذا جحدته . كما قال الشاعر :

لئن هجرتَ أَخا صدق ومكرمة * لقد مرّيتَ أَخا ما كان يَمْرِيكا
ومنه الماراة ، وهي المجادلة والمكابرة . ولهذا عدى هذا الفعل
بعلی وهي على بابها ، وليست بمعنى عن كما قاله المبرد ، بل الفعل متضمن
معنى المكابرة . وهذا في قراءة الألف أظهر ، ورجح أبو عبيدة :
قراءة من قرأ (أَفْتَمَرُونَهُ) قال : وذلك أن المشركين إنما شأنهم

الجهود لما كان يأتيهم من الوحي ، وهذا كان أكثر من الممارسة
منهم ، يعني أن من قرأ (أَقْتَمُرُونَهُ) فمعناه أفتجحدونه ؟ ومن قرأ
(أَقْتَمُرُونَهُ) معناه أفتجحدونه ؟ وجهودهم لما جاء به كان هوشأنهم ،
وكان أكثر من مجادلتهم له ، وخالفه أبو علي وغيره . واختاروا
قراءة (أَقْتَمَارُونَهُ) قال أبو علي : من قرأ أقتارونه فمعناه أفتجادلونه
جدالاً ترومون به دفعه عما علمه وشاهده ؟ ويقوى هذا الوجه
قوله تعالى (٨ : ٦ يُحَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ) ومن قرأ
(أَقْتَمُرُونَهُ) كان المعنى أفتجحدونه ؟ . قال : والمجادلة كأنها أشبه
في هذا ، لأن الجهود كان منهم في هذا وغيره . وقد جادله
المشركون في الأسراء

قلت : القوم جمعوا بين الجدال والدفع والانكار . فكان
جدالهم جدال جهود ودفع لاجدال استرشاد وتبين للحق : وإثبات
الألف يدل على المجادلة ، والائتان بعلي يدل على المكابرة ، فكانت
قراءة الألف منتظمة للمعنيين جميعاً ، فهي أولى . وبالله التوفيق

فصل (٦٩)

ثم أخبر سبحانه عن رؤيته لجبريل مرة أخرى عند سِدْرَةِ
الْمُنْتَهَى : فالمرة الأولى كانت دون السماء بالأفق الأعلى ، والثانية
كانت فوق السماء عند سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى . وقد صح عنه صلى الله

عليه وسلم أنه جبريل عليه الصلاة والسلام رآه على صورته التي خلق عليها مرتين كما في الصحيحين عن زر بن حبیش أنه سئل عن قوله تعالى (فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى) قال : أخبرني ابن مسعود أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى جبريل له ستمائة جناح وفي الصحيحين أيضا عن عبد الله بن مسعود (ما كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى) قال : رأى جبريل في صورته له ستمائة جناح . وقال البخاري ، عنه : رأى رَفْرَفًا أَخْضَرَ يَسْدُ الْأَفْقَ (١) وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة (ولقد رآه نزلة أخرى) قال : رأى جبريل عليه السلام . وفي صحيحه أيضا ، عن مسروق قال : كنت متكئا عند عائشة فقالت : ثلاث من تكلم بواحدة منهن فقد أعظم على الله الفرية . قلت : ما هن ؟ قالت : من زعم أن محمدا رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية . قال : وكنت متكئا فجلست ، فقالت : يا أم المؤمنين ،

(١) قال الحافظ ابن حجر في الفتح (٨ : ٤٣٢) والحاصل أن ابن مسعود كان يذهب في ذلك إلى أن الذي رآه النبي صلى الله عليه وسلم هو جبريل ، كما ذهب إلى ذلك عائشة . والتقدير على رأيه : فأوحى - أي جبريل - إلى عبده - أي عبد الله - محمد ، لأنه يرى أن الذي دنا فتدلى هو جبريل ، وأنه هو أوحى إلى محمد صلى الله عليه وسلم . وكلام أكثر المفسرين من السلف يدل على أن الذي أوحى هو الله ، أوحى إلى عبده محمد صلى الله عليه وسلم . ومنهم من قال : إلى جبريل

أَنْظِرْنِي وَلَا تَعْجَلْنِي ؛ أَلَمْ يَقُلِ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ (وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ)
(وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى) ؟ فَقَالَتْ : أَنَا أَوَّلُ هَذِهِ الْأُمَّةِ سَأَلَ عَنْ

ذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَقَالَ « إِنْ مَا هُوَ جَبْرِيلُ ، لَمْ
أَرَهُ عَلَى صُورَتِهِ الَّتِي خَلَقَ عَلَيْهَا غَيْرَ هَاتَيْنِ الْمَرَّتَيْنِ ، رَأَيْتُهُ مِنْهُبِطاً
مِنَ السَّمَاءِ سَاداً عَظُمَ خَلْقُهُ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ، فَقَالَتْ : أَوَلَمْ
تَسْمَعْ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ (٦ : ١٠٣) لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ

وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ) أَوَلَمْ تَسْمَعْ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ
يَقُولُ : (٤٢ : ٥١) وَمَا كَانَ لِنَبِّئِهِ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ

مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَى
حَكِيمٍ » قَالَتْ : وَمَنْ زَعَمَ أَنَّ مُحَمَّدًا كَتَمَ شَيْئًا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ فَقَدْ

أَعْظَمَ عَلَى اللَّهِ الْفَرِيَةَ . وَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ (٥ : ٦٧) يَا أَيُّهَا
الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا نَزَّلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ)

قَالَتْ : وَمَنْ زَعَمَ أَنَّهُ يَخْبِرُ بِمَا يَكُونُ فِي غَدْفَقْدِ أَعْظَمَ عَلَى اللَّهِ الْفَرِيَةَ . وَاللَّهُ
عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ (قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ)

وَلَوْ كَانَ مُحَمَّدٌ كَاتِمًا شَيْئًا مِمَّا أَنْزَلَ عَلَيْهِ لَكُنْتُمْ هَذِهِ الْآيَةُ (٣٣ : ٣٧)
وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ

وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ
أَنْ تَخْشَاهُ) وَفِي الصَّحِيحِينَ عَنْ مَسْرُوقٍ أَيْضاً قَالَ : سَأَلْتُ عَائِشَةَ

رضى الله عنها ، هل رأى محمد ربه ؟ فقالت : سبحان الله ! لقد قف شعري بما قلت . وفيهما أيضاً قال ، قلت لعائشة : فأين قوله عز وجل (ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى) قالت : إنما ذاك جبريل كان يأتيه في صورة الرجال . وإنه أتاه في هذه المرة في صورته التي هي صورته ، فسدد الأفق . وفي صحيح مسلم أن أبا ذر سأله صلى الله عليه وسلم : هل رأيت ربك فقال « نور ، أنى أراه » وفي صحيح مسلم أيضاً من حديث أبي موسى الأشعري قال قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بخمس كلمات ، فقال : « ان الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام . يَخْفِضُ الْقِسْطَ ويرفعه ويرفع اليه عمل الليل قبل النهار ، وعمل النهار قبل الليل حجاباً للنور . لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه » وهذا الحديث ساقه مسلم بعد حديث أبي ذر المقدم وهو كالتفسير له . ولا ينافي هذا قوله في حديث الصحيح حديث الرؤية يوم القيامة « فيكشف الحجاب ، فينظرون إليه » فإن النور الذي هو حجاب الرب تعالى يراد به الحجاب الأدنى إليه ، وهو لو كشف لم يقم له شيء ، كما قال ابن عباس في قوله عز وجل (لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ) قال : ذاك نوره الذي هو نوره ، إذا تجلى به لم يقم له شيء . وهذا الذي ذكره ابن عباس يقتضي أن قوله (لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ) على عمومته وإطلاقه في الدنيا والآخرة ولا يلزم من ذلك أن لا يرى . بل يرى في الآخرة بالابصار من

غير إدراك . وإذا كانت أبصارنا لا تقوم لا إدراك الشمس على ما هي عليه ، وإن رأيتها مع القرب الذي بين المخلوق والمخلوق ، فالتفاوت الذي بين أبصار الخلائق وذات الرب جل جلاله أعظم وأعظم . ولهذا لما حصل للجبل أدنى شيء من تجلي الرب تساقى الجبل وانكلسبتحات ذلك القدر من التجلي . وفي الحديث الصحيح المرفوع « جنتان من ذهب آتيتهما وحليتهما وما فيهما . وجنتان من فضة آتيتهما وحليتهما وما فيهما ، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه ، في جنة عدن » فهذا يدل أن رداء الكبرياء على وجه تبارك وتعالى هو المانع من رؤية الذات ، ولا يمنع من أصل الرؤية ، فإن الكبرياء والعظمة أمر لازم لذاته تعالى . فإذا تجلى سبحانه لعباده يوم القيامة وكشف الحجاب بينهم وبينه فهو الحجاب المخلوق . وأما أنوار الذات الذي يحجب عن إدراكها فذاك صفة للذات ، لا تفارق ذات الرب جل جلاله . ولو كشف ذلك الحجاب لأحرقت سُبُحات وجهه ما أدركه بصره من خلقه . وتكفي هذه الإشارة في هذا المقام للمصدق الموقن . وأما المعطل الجهمي فكل هذا عنده باطل ومحال

والمقصود أن المخبر عنه بالرؤية في سورة النجم هو جبريل وأما قول ابن عباس : رأى محمد ربه بفؤاده مرتين ، فالظاهر أن مستنده هذه الآية . وقد تبين أن المرئي فيها جبريل فلا دلالة فيها

على ما قاله ابن عباس . وقد حكى عثمان بن سعيد الدارمي الاجماع على ما قالته عائشة . فقال - في نقضه على بشر المريسي ، في الكلام على حديث ثوبان ومعاذ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « رأيت ربي البارحة في أحسن صورة » ، فحكى تأويل المريسي الباطل - ثم قال : ويلك ان تأويل هذا الحديث على غير ما ذهب اليه . أما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في حديث أبي ذر « إنه لم ير ربه » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لن تروا ربكم حتى تموتوا » وقالت عائشة رضي الله عنها : من زعم أن محمدا رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية . وأجمع المسلمون على ذلك ، مع قول الله (لَا تَدْرِيكَ الْأَبْصَارُ) يعنون أبصار أهل الدنيا ، وإنما هذه الرؤية كانت في المنام ، يمكن رؤية الله على كل حال كذلك : وروى معاذ بن جبل عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « صليت ماشاء الله من الليل ، ثم وضعت جنبي ، فأتاني ربي في أحسن صورة » فهذا تأويل هذا الحديث عند أهل العلم . وقد ظن القاضي أبو يعلى أن الرواية اختلفت عن الامام أحمد : هل رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ربه ليلة الاسراء أم لا على ثلاث روايات (احداها) أنه رآه قال المروزي : قلت لابي عبد الله : يقولون ان عائشة قالت : من زعم أن محمدا رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية ، فبأي شيء يدفع قول عائشة ؟ فقال : بقول النبي صلى الله

عليه وسلم « رأيت ربي » قول النبي صلى الله عليه وسلم أكبر من قولها . قال : وذكر المروزي في موضع آخر أنه قال لأبي عبد الله : ههنا رجل يقول : إن الله يرى في الآخرة ، ولا أقول إن محمدا رأى ربه في الدنيا ، فغضب ، وقال : هذا أهل أن يخفى يسلم الخبر كما جاء . قال : فظاهر هذا أنه أثبت رؤية عين . ونقل حنبل قال قلت لأبي عبد الله : النبي صلى الله عليه وسلم رأى ربه رؤيا حلم بقلبه ؟ قال : فظاهر هذا نفى الرؤية ، وكذلك نقل الأثرم وقد سأله عن حديث عبد الرحمن بن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم « رأيت ربي في أحسن صورة » فقال : معمر مضطرب ، لأن معمرا رواه عن أيوب عن معبد عن عبد الرحمن بن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم . ورواه حماد عن قتادة عن عكرمة عن ابن عباس . ورواه يوسف بن عطية عن قتادة عن أنس . ورواه عبد الرحمن بن يزيد عن جابر عن خالد بن اللجلاج عن عبد الرحمن بن عباس عن رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم . ورواه يحيى بن أبي كثير فقال : عن ابن عباس عن معاذ عن النبي صلى الله عليه وسلم . وأصل الحديث واحد ، قال الأثرم : فقلت لأبي عبد الله : فإلى أي شيء تذهب ؟ فقال : قال الأعمش عن زياد بن الحصين عن أبي العالية عن ابن عباس قال : رأى محمد ربه بقلبه . ونقل الأثرم أن رجلا قال لأحمد عن الحسين الأشيب أنه قال : لم ير النبي صلى الله عليه

وسلم ربه تعالى ، فأنكره عليه إنسان وقال : لم تقول رآه ، ولا تقول بعينه ولا بقلبه ؟ كما جاء الحديث . فاستحسن ذلك الأشيب . فقال أبو عبد الله : حسن . قال : وظاهر هذا اثبات رؤية لا يعقل معناها ، هل كانت بعينه أم بقلبه ؟ . فهذه نصوص أحمد . وقد جعلها القاضي مختلفة وجعل المسئلة على ثلاث روايات ، ثم احتج للرواية الأولى بحديث أم الطفيل ، وحديث عبد الرحمن بن عابس الحضرمي ، ولا دلالة فيهما . لأنها رؤية منام فقط . واحتج لها بما لا يرضى أحمد أن يحتج به ، وهو حديث لا يصح عن أبي عبيدة ابن الجراح مرفوعا « لما كانت ليلة أسرى بي رأيت ربي في أحسن صورة ، فقال : فيم يختصم الملائكة الأعلى ؟ » وذكر الحديث ، وهذا غلط قطعاً . فإن القصة إنما كانت بالمدينة كما قال معاذ بن جبل : احتبس عنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في صلاة الصبح حتى كدنا نترأى عين الشمس . ثم خرج فصلى بنا ثم قال « رأيت ربي البارحة في أحسن صورة فقال : يا محمد فيم يختصم الملائكة الأعلى ؟ » وذكر الحديث . فهذا كان بالمدينة والاسراء كان بمكة . وليس عن الإمام أحمد ولا عن النبي صلى الله عليه وسلم نص أنه رآه بعينه يقظة ، وإنما حمل القاضي كلام أحمد ما لا يحتمله ، واحتج لما فهم منه بما لا يدل عليه ، وكلام أحمد يصدق بعضه بعضاً ، والمسئلة رواية واحدة عنه ، فانه لم يقل بعينه . وإنما قال : رآه ، واتبع في

ذلك قول ابن عباس رأى محمدره ، ولفظ الحديث « رأيت ربى » وهو مطلق وقد جاء بيانه فى الحديث الآخر

ولكن فى رد أحمد قول عائشة ومعارضته بقول النبى صلى الله عليه وسلم اشعار بأنه أثبت الرؤية التى أنكرتها عائشة ، وهى لم تنكر رؤية المنام ، ولم تقل : من زعم أن محمدا رأى ربه فى المنام فقد أعظم على الله الفرية ، وهذا يدل على أحد أمرين : إما أن يكون الامام أحمد أنكر قول من أطلق نفي الرؤية اذ هو مخالفته للحديث ، وإما أن يكون رواية عنه باثبات الرؤية ، وقد صرح بأنه رآه رؤيا حلم بقلبه ، وهذا تقييد منه للرؤية وأطلق أنه رآه ، وأنكر قول من نفي مطلق الرؤية ، واستحسن قول من قال رآه ، ولا يقول بعينه ولا بقلبه . وهذه النصوص عنه متفقة لا مختلفة وكيف يقول أحمد رآه بعينى رأسه يقظة ولم يحىء ذلك فى حديث قط . فأحمد اما اتبع ألفاظ الحديث كما جاءت وانكاره قول من قال لم يره أصلا لا يدل على اثبات رؤية اليقظة بعينه . والله أعلم

(٧٠) فصل

وقوله تعالى (مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى) قال ابن عباس : ما زاغ البصر يمينا ولا شمالا ، ولا جاوز ما أمر به . وعلى هذا المفسرون ، فنفى عن نبيه ما يعرض للرأى الذى لا أدب له بين يدى الملوك والعظماء ، من التفاته يمينا وشمالا ، ومجاوزة بصره لما بين يديه ،

وأخبر عنه بكمال الأدب في ذلك المقام ، وفي تلك الحضرة اذ لم يلتفت جانباً ، ولم يمد بصره الى غير ما أرى من الآيات ، وما هناك من العجائب ، بل قام مقام العبد الذي أوجب أدبه إطراقه واقباله على ما أرى ، دون التفاته الى غيره ، ودون تطلعه الى ما لم يره ، مع ما في ذلك من ثبات الجأش ، وسكون القلب ، وطمأنينته . وهذا غاية الكمال . وزبغ البصر التفاته جانباً ، وطغيانه مده امامه الى حيث ينتهي ، فنه في هذه السورة علمه عن الضلال ، وقصده وعمله عن الغي ، ونطقه عن الهوى ، وفؤاده عن تكذيب بصره ، وبصره عن الزيغ والطغيان ، وهكذا يكون المدح

تلك المسكارم لاقعبان من لبن شيباً بماء فعادا بعد أبو الا

(٧١) فصل

ولما ذكر رؤيته لجبريل عند سدرة المنتهى استطرد منها ، وذكر أن جنة المأوى عندها ، وأنه يغشاها من أمره وخلقه ما يغشى وهذا من أحسن الاستطراد ، وهو أسلوب لطيف جداً في القرآن وهو نوعان : ﴿ احدهما ﴾ أن يستطرد من الشيء الى لازمه ، مثل هذا ومثل قوله (٤٣ : ٩) وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ، ثم استطرد من جوابهم الى قوله (١٠) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمُ فِيهَا سُبُلًا

لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ١١ وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ
 بَلْدَةً مِّمَّا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ١٢ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ
 لَكُم مِّنَ الْفُلُكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرَوْنَ كِبُونَ ١٣ لِيَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ
 وهذا ليس من جوابهم ولكن تقرير له ، واقامة الحجة عليهم .
 ومثله قوله تعالى (٤٩: ٢٠) فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى ؟ ٥٠ قال : رَبُّنَا
 الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ٥١ قال : فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى ؟
 ٥٢ قال : عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى)
 فهذا جواب موسى ثم استطرد سبحانه منه الى قوله : (٥٣) الَّذِي جَعَلَ
 لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَّكَ لَكُم فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ
 مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْ نَّبَاتٍ شَتَّى ٥٤ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ
 إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى ٥٥ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ
 وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى) ثم عاد الى الكلام الذي استطرد منه
 والنوع الثاني أن يستطرد من الشخص الى النوع كقوله :
 (٢٣ : ١٢) وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ١٣ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً
 فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ) الى آخره . فالاول آدم ، والثاني بنوه . ومثله قوله
 (١٨٩ : ٧) هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا
 لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ، فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيًّا فَمَرَّتْ بِهِ ، فَمِمَّا

أَقَمْتُ دَعْوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتُمَا صَاحِبًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ١٩ فَلَمَّا آتَاهُمَا صَاحِبًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا (الِآخِرَ الْآيَاتِ ، فَاسْتَطَرَّ مِنْ ذِكْرِ الْأَبْوِينَ إِلَى ذِكْرِ الْمُشْرِكِينَ مِنْ أَوْلَادِهِمَا . وَاللَّهُ أَعْلَمُ

(٧٢) فصل

ومن ذلك قوله تعالى : (٥٢ : ١ والطور ٢ وكتاب مسطور ٣ فِي رَقٍّ مَنشُورٍ ٤ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ٥ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ٦ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ٧ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ٨ مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ) تضمن هذا القسم خمسة أشياء ، وهي مظاهر آياته ، وقدرته ، وحكمته الدالة على ربوبيته ووحدانيته . فالطور هو الجبل الذي كلم الله عليه نبيه ووكيله موسى ابن عمران ، عند جمهور المفسرين من السلف والخلف ، وعرفه ههنا باللام ، وعرفه في موضع آخر بالاضافة . فقال (وطور سيدنين) وهذا الجبل مظهر بركة الدنيا ، والآخرة ، وهو الجبل الذي اختاره الله لتكليم موسى عليه . قال عبد الله بن أحمد في كتاب الزهد لأبيه : حدثني محمد بن عبيد بن حبان ، قال حدثنا جعفر بن سليمان ، قال حدثنا أبو عمر ان الجوني عن نَوْفٍ الْبَكَّالِي قَالَ : أَوْحَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَى الْجِبَالِ : إِنِّي نَازِلٌ عَلَى جَبَلٍ مِنْكُمْ . قَالَ : فَشِمَخَتِ الْجِبَالُ كُلُّهَا إِلَى جَبَلِ الطُّورِ ، فَانْهَ تَوَاضَعُ ، وَقَالَ : أَرْضِي بِمَا قَسَمَ اللَّهُ لِي ، فَكَانَ الْأَمْرُ عَلَيْهِ ، وَجَبَلَ هَذَا شَأْنَهُ حَقِيقٌ أَنْ يَقْسَمَ اللَّهُ بِهِ ، وَإِنَّهُ لَسَيِّدُ الْجِبَالِ

﴿الثاني﴾ الكتاب المسطور في الرق المنشور . واختلف في هذا الكتاب ، فقيل : هو اللوح المحفوظ ، وهذا غلط فانه ليس برق . وقيل : هو الكتاب الذي تضمن أعمال بني آدم ، وقال مقاتل : تخرج اليهم أعمالهم يوم القيامة في رق منشور . وهذا وان كان أقوى وأصح من القول الاول ، واختاره جماعة من المفسرين ، ومنهم من لم يزل غيره ، فالظاهر أن المراد به الكتاب المنزل من عند الله ، وأقسم الله به لعظمته وجلالته ، وما تضمنه من آيات ربوبيته ، وأدلة توحيدة وهداية خلقه

ثم قيل : هو التوراة التي أنزل الله على موسى ، وكان صاحب هذا القول رأى اقتران الكتاب بالطور ، فقال : هو التوراة ، ولكن التوراة إنما أنزلت في ألواح لافي رق ، إلا أن يقال : هي في رق في السماء وأنزلت في ألواح ، وقيل : هو القرآن ، ولعل هذا أرجح الأقوال ؛ لانه سبحانه وصف القرآن بأنه في صحف مطهرة ، بأيدي سفرة كرام بررة . فالصحف هي الرق ، وكونه بأيدي سفرة هو كونه منشوراً وعلى هذا فيكون قد أقسم بسيد الجبال وسيد الكتب . ويكون ذلك متضمناً للنبتين المعظميتين : نبوة موسى ، ونبوة محمد . وكثيرا ما يقرن بينهما وبين محلهما كما في سورة التين والزيتون

ثم أقسم بسيد اليبوت ، وهو البيت المعمور . وفي وصفه الكتاب

بأنه مسطور تحقيق لكونه مكتوباً مفروغاً منه ، وفي وصفه بأنه منشور إيدان بالاعتناء به وأنه بأيدي الملائكة منشور غير مهجور .

وأما البيت المعمور فالمشهور أنه الضراح الذي في السماء الذي رفع للنبي صلى الله عليه وسلم ليلة الاسراء ، يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ثم لا يعودون إليه آخر ما عليهم ، وهو بحيال البيت المعمور في الأرض ، وقيل هو البيت الحرام . ولا ريب أن كلا منهما معمور : فهذا معمور بالملائكة وعبادتهم ، وهذا معمور بالطائفين والقائمين والركع والسجود ، وعلى كلا القولين فكل منهما سيد البيوت

ثم أقسم سبحانه بمخلوقين عظيمين من بعض مخلوقاته ، وهما مظهر آياته ، وعجائب صنعته ، وهما : السقف المرفوع ، وهو السماء فانها من أعظم آياته قدراً ، وارتفاعاً ، وسعة ، وسمكاً ، ولونا ، واشراقاً وهي محل ملائكته ، وهي سقف العالم ، وبها انتظامه ، ومحل النيرين اللذين بهما قوام الليل والنهار ، والسنين والشهور والايام والصيف والشتاء والربيع والخريف . ومنها تنزل البركات . واليها تصعد الأرواح ، وأعمالها وكلماتها الطيبة .

﴿ والثاني ﴾ البحر المسجور ، وهو آية عظيمة من آياته ، وعجائبه لا يحصيها إلا الله . واختلف في هذا البحر ، هل هو الذي فوق السموات ، أو البحر الذي نشاهده ؟ على قولين : فقالت طائفة : هو

البحر الذى عليه العرش ، وبين أعلاه وأسفله مسيرة خمسمائة عام كما فى الحديث الذى رواه أبو داود ، من حديث سماك عن عبد الله بن خزيمة عن الأحنف بن قيس ، قال كنت بالبطحاء فى عصاة ، فيهم رسول الله ﷺ ، فمرت بهم سحابة ، فنظر اليها فقال : « ماتسمون هذه ؟ » قالوا : السحاب ، قال « والمزن » قالوا والمزن ، قال « والعنان » قالوا والعنان قال « هل تدرون ما بين السماء والأرض ؟ » قالوا : لا ندري ، قال « إن بعد ما بينهما إما واحدة ، أو اثنتان ، أو ثلاث وسبعون سنة ، ثم السماء فوقها كذلك ، حتى عد سبع سموات ، ثم فوق السابعة بحرا بين أسفله وأعلاه مثل ما بين سماء إلى سماء ، ثم فوق ذلك ثمانية أو عال ، بين أظلافهم وركبهم مثل ما بين سماء إلى سماء ، ثم على ظهورهم العرش ، ما بين أسفله وأعلاه مثل ما بين سماء إلى سماء ، ثم الله فوق ذلك » وهذا لا يناقض ما فى جامع الترمذى « إن بين كل سماءين مسيرة خمسمائة عام » إذ المسافات تختلف مقاديرها باختلاف المقدر به ، فالخمسمائة مقصورة بسير الابل ، والسبعون بسير البريد ، وهو يقطع بقدر ما تقطعه الابل سبعة أضعاف . وهذا القول فى البحر الذى تحت العرش محكى عن على بن أبى طالب

والثانى أنه بحر الارض واختلف فى المسجور ، فقيل المملوء ، هذا قول جميع أهل اللغة . قال الفراء : المسجور فى كلام العرب المملوء . يقال : سجرت الاناء إذا ملأته ، قال ليلى :

فتوسطا عرض السرى وصدعا مسجورة متجاوز أقالامها
وقال المبرد : المسجور المملوء عند العرب ، وأنشد للنمر بن تولب
* اذا شاء طالع مسجورة *

يريد عينا مملوء ماء، وكذا قال ابن عباس : المسجور الممتلىء .
وقال مجاهد : المسجور الموقد . قال الليث : السجر إيقادك في
التنور تسجره سجرا ، والسجر اسم الخطب . وهذا قول الضحاك
وكعب وغيرهما . قال : البحر يسجر فيزداد في جهنم ، وحكى هذا
القول عن علي بن أبي طالب رضى الله عنه . قال مسجور . قال الفراء :
وهذا يرجع الى القول الأول ؛ لأنك تقول : سجرت التنور إذا ملأته
خطبا . وروى ذو الرمة الشاعر عن ابن عباس أن المسجور اليابس الذى
قد نضب ماؤه وذهب ، وليس لذى الرمة رواية عن ابن عباس غير
هذا الحرف . وهذا القول اختيار أبى العالية . قال أبو زيد : المسجور
المملوء ، والمسجور الذى ليس فيه شيء ، جعله من الأضداد ، وقد
روى عن ابن عباس أن المسجور المحبوس ، ومنه ساجور الكلب ،
وهو القلادة من عود أو حديد تمسكه . والمعنى على هذا أنه محبوس
بقدره الله أن يفيض على الأرض فيغرقها ، فان ذلك مقتضى الطبيعة
أن يكون الماء غامرا للأرض فوقها ، كما أن الهواء فوق الماء ، ولكن
أمسكه الذى يمسك السموات والأرض أن تزولا . وفى هذا حديث
ذكره أحمد مر فوعا « مامن يوم إلا والبحر يستأذن ربه أن يغرق
بنى آدم »

وهذا الموضع مما هدم أصول الملاحدة والدهرية ، فانه ليس في الطبيعة ما يقتضى حبس الماء عن بعض جوانب الارض ، مع كون كرة الماء عالية على كرة الارض بالذات ، ولو فرض أن في الطبيعة ما يقتضى بروز جوانبها لم يكن فيها ما يقتضى تخصيص هذا الجانب بالبروز دون غيره . وما ذكره الطبائعون والمتفلسفة أن العناية الالهية اقتضت ذلك لمصلحة العالم فنعم ، هو كما ذكرنا ولكن عناية من يفعل بقدرته ومشيئته ، وهو بكل شيء عليم ، وعلى كل شيء قدير ، وهو أحكم الحاكمين - غير معقولة . فان العناية الالهية تقتضى حياته ، وقدرته ، ومشيئته ، وعلمه ، وحكمته ، ورحمته ، واحسانه الى خلقه ، وقيام الافعال به . فاثبات العناية الالهية مع نفي هذه الامور ممتنع . وبالله التوفيق

وأقوى الأقوال في المسجور أنه الموقد . وهذا هو المعروف في اللغة من المسجور . ويد عليه قوله تعالى (٦:٨١) وَإِذَا الْمِحَارُ سُجِّرَتْ) قال على وابن عباس : أوقدت فصار ناراً ، ومن قال يبست وذهب ماؤها فلا يناقض كونها ناراً موقدة . وكذا من قال مائت ؛ فانها تملأ ناراً .

وإذا اعتبرت أسلوب القرآن ونظمه ومفرداته رأيت اللفظة تدل على ذلك كله ، فان البحر محبوس بقسرة الله . ومملوء ماء ،

ويذهب ماؤه يوم القيامة ويصير ناراً : فكل من المفسرين اخذ
معنى من هذه المعاني . والله أعلم

(٧٣) فصل

وأقسم سبحانه بهذه الامور على المعاد والجزاء ، فقال (إِنَّ أَعْدَابَ
رَبِّكَ لَوَاقِعٌ مَّالَهُ مِنْ دَافِعٍ) ولما كان الذى يقع قديم يمكن دفعه أخبر
سبحانه أنه لا دافع له . وهذا يتناول أمرين : أحدهما أنه لا دافع
لوقوعه ، والثانى أنه لا دافع له إذا وقع

ثم ذكر سبحانه وقت وقوعه فقال (يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا وَتَسِيرُ
الْجِبَالُ سَيْرًا) والمور قد فسر بالحركة ، وفسر بالدوران ، وفسر
بالتموج والاضطراب ، والتحقيق أنه حركة فى تموج وتكفؤ وذهاب
ومجيء ولهذا فرق بين حركة السماء وحركة الجبال . فقال (وَتَسِيرُ الْجِبَالُ
سَيْرًا) وقال (وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ) من مكان إلى مكان . وأما السماء فانها
تتكفأ ، وتموج ، وتذهب ، وتجيء . قال الجوهرى : مار الشئ يمور مورا ،
ترهيباً أى : تحرك وجاء وذهب ، كما تكفأ النخلة العيدانة ، أى
الطويلة . ومنه قوله (يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا) قال الضحاك : تموج
موجاً . وقال أبو عبيدة ، والاخفش : تكفأ . وأنشد للأعشى :
كأن مشيتها من بيت جارتها * مور السحابة ، لا ريث ولا عجل

ثم ذكر وعيد المكذبين بالمعاد والنوبة، وذكر أعمالهم وعلومهم التي كانوا عليها، وهي الخوض الذي هو كلام باطل، واللعب الذي هو سعي ضائع. فلا علم نافع ولا عمل صالح. بل علومهم خوض بالباطل، وأعمالهم لعب. ولما كانت هذه العلوم والأعمال مستلزمة لدفع الحق بعنف وقهر أدخلوا جهنم وهم يدعون إليها دعائاً أي يدفع في أقفيتهم وأكتافهم، دفعاً بعد دفع. فاذا وقفوا عليها وعانوها وقفوا، وقيل لهم (هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ) وتقولون لا حقيقة لها ولا من أخبر بها صادق. ثم يقال (أَفَسِحْرٌ هَذَا؟) الآن كما كنتم تقولون للحق لما جاءكم به الرسل: انه سحر، وانهم سحرة. فهذا الآن سحر لا حقيقة له كما قلتم، أم على أبصاركم غشاوة فلا تبصرونها، كما كان عليها غشاوة في الدنيا فلا تبصرون الحق؟ أفعميت أبصاركم اليوم عن رؤية هذا الحق، كما عميت في الدنيا فلا تبصرون الحق؟ ثم سلب عنهم نفع البصر الذي كانوا في الدنيا إذا دهمتهم الشدائد وأحاطت بهم لجأوا إليه وتعللوا بانقضاء البلية لا نقضاء أمدها. ف قيل لهم يومئذ: (اصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا) كلاهما سواء عليكم لا يجدى عنكم الصبر ولا الجزع، فلا الصبر يخفف عنكم حمل هذا العذاب، ولا الجزع يعطف عليكم قلوب الخزنة ولا يستنزل لكم الرحمة. ثم أعلموا بأن الرب تعالى لم يظلمهم بذلك، وإنما هو نفس أعمالهم صارت عذاباً، فلم يجدوا

عن اقترانهم به بدا ، بل صارت عذابا لازما لهم كما كانت إرادتهم وعقائدهم الباطلة وأعمالهم القبيحة لازمة لهم ، ولزوم العذاب لاهله في النار بحسب لزوم تلك الارادة الفاسدة ، والعقائد الباطلة وما يترتب عليهما من الأعمال لهم في الدنيا. فاذا زال ذلك اللزوم في وقت ما بضده وبالتوبة النصوح زوالا كلياً لم يعذبوا عليه في الآخرة ، لأن أثره قد زال من قلوبهم وألسنتهم وجوارحهم ، ولم يبق له أثر يترتب عليه ، فالتائب من الذنب كمن لا ذنب له ، والمادة الفاسدة اذا زالت من البدن بالكلية لم يبق هناك ألم ينشأ عنها ، وان لم تزل تلك الارادة والاعمال ولكن عارضها معارض أقوى منها كان التأثير للمعارض ، وغلب الأقوى الأضعف ، وان تساوى الأمران تدافعا وقاوم كل منهما الآخر ، وكان محل صاحبه جبال الاعراف بين الجنة والنار . فهذا حكم الله وحكمته في خلقه ، وأمره ونهيه وعقابه ، ولا يظلم ربك أحدا

(٧٤) فصل

ثم ذكر سبحانه أبواب العلوم النافعة ، والأعمال الصالحة ، والاعتقادات الصحيحة وهم المتقون ، فذكر مساكنهم وهم في الجنان وحالهم في المساكن وهو النعيم . وذكر نعيم قلوبهم وراحتهم يكونهم (فَالْكَاثِبِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ) والفاكه : المعجب بالشيء المسرور

المغبط به ، وفعله فكه - بالكسر - يفكه فهو فكه وفاكه ، اذا كان طيب النفس ، والفاكه البال ، ومنه الفاكه وهى المرح الذى ينشأ عن طيب النفس ، وتفكهت بالشئ : اذا تمتعت به ، ومنه الفاكه التى يتمتع بها ومنه قوله (٥٦ : ٦٥ فَظَلَّمْتُمْ تَفَكَّهُونَ) قيل : معناه تندمون وهذا تفسير بلازم المعنى وإنما الحقيقة تزيلون عنكم التفكه واذا زال التفكه خلفه ضده ، يقال : تحنث اذا زال الحنث عنه ، وتخرج ، وتحوب وتؤثم . ومنه تفكه . وهذا البناء يقال للدخل فى الشئ : كستعلم وتحلم ، وللخارج منه : كتخرج وتؤثم

والمقصود أنه سبحانه جمع لهم بين النعيمين : نعيم القلب بالتفكه ، ونعيم البدن بالأكل والشرب والنكاح ، ووقاهم عذاب الجحيم فوقاهم مما يكرهون ، وأعطاهم ما يحبون جزاء وفاقا ، لأنهم تركوا ما يكره وأتوا بما يحب ، فكان جزاؤهم مطابقاً لأعمالهم ثم أخبر عن دوام ذلك لهم بما أفهمه قوله (هنيئاً) فأنهم لو علموا زواله وانقطاعه لنقص عليهم ذلك نعيمهم ولم يكن هناء لهم

ثم ذكر مجالسهم وهياتهم فيها فقال (مُتَكِيْنَيْنَ عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ) وفى ذكر اصطفاها تنبيه على كمال النعمة عليهم بقرب بعضهم من بعض ، ومقابلة بعضهم بعضاً . كما قال تعالى (٥٦ : ١٦ مُتَكِيْنَيْنَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ) فان من تمام اللذة والنعيم أن يكون مع الانسان فى بستانه ومنزله من يحب معاشرته ويؤثر قربه . ولا يكون بعيداً منه ، قد

حيل بينه وبينه ، بل سريره الى جانب سرير من يحبه
 وذكر أزواجهم وأنهم الحور العين ، وقد تكرر وصفهم في
 القرآن بهاتين الصفتين . قال أبو عبيدة : جعلناهم أزواجا كما يزوج
 البعل بالبعل ، جعلناهم اثنين اثنين . وقال يونس : قرناهم بهن .
 وليس من عقد التزويج . واحتج على هذا بأن العرب لا تقول تزوجت
 بها وإنما تقول تزوجتها . قال تعالى (٣٣ : ٣٧) فَأَمَّا أَفْضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا
 زَوْجُنَا كَمَا) وفي الحديث « زوجتكها بما معك من القرآن » وقال
 غيره : العرب تقول : تزوجت بامرأة . وقال الأزهري : العرب تقول :
 زوجته امرأة وتزوجت امرأة وليس في كلامهم تزوجت بامرأة .
 ومنه قوله تعالى (زَوْجَانَهُمْ بِحُورٍ عِينٍ) أى قرناهم وعلى هذا
 فزوجناهم عند هؤلاء من الاقتران والشفع أى شفعناهم وقرناهم
 بهن . وقالت طائفة ، منهم مجاهد : زوجناهم بهن أى أنكحناهم إياهن
 قلت : وعلى هذا فتلويح فعل التزويج قد دل على النكاح وتعديته
 بالباء المتضمنة معنى الاقتران والضم ، فالقولان واحد . والله أعلم
 وأما الحور العين فقال مجاهد : التى يحار فيها الطرفُ بادياً مخ
 سوقهن من وراء ثيابهن ، ويرى الناظر وجهه فى كبد احداهن كالمرأة
 من رقة الجلد وصفاء اللون . وقال قتادة : بحور ، أى بيض .
 وكذا قال ابن عباس . وقال مقاتل : الحور : البيض الوجوه ، العين :
 الحسان الآعين . وعين حوراء : شديدة السواد ، نقية البياض ،

طويلة الاهداب مع سوادها ، كاملة الحسن ، ولا تسمى المرأة حوراء حتى يكون مع حور عينها بياض لون الجسد . فوصفهن بالبياض والحسن والملاحة ، كما قال (٥٥ : ٧٠ خَيْرَاتُ حِسَانُ) فالبياض في ألوانهن ، والحسن في وجوههن ، والملاحة في عيونهن . وقد وصف الله سبحانه نساء أهل الجنة بأحسن الصفات ، ودل بما وصف بهما سكنت عنه

فان شئت التفصيل فالذى يحمد ويستحب من وجه المرأة وبدنها وأخلاقها البياض في أربعة أشياء : اللون ، وبياض العين ، والفرق ، والشعر . والسواد في أربعة : سواد العين ، وسواد شعر الرأس ، والجفن ، وسواد الحاجبين . والحمرة في أربعة : اللسان ، والشفتين ، والوجنتين ، وحمرة تشوب البياض فتحسنه وتزينه . ومن التدوير أربعة أشياء : الوجه ، والرأس ، والكعب ، والمقعد ، ومن الطول أربعة : القامة ، والعنق ، والشعر ، والحاجب . والسعة في أربعة : الجبهة ، والعين ، والوجه ، والصدر . ومن الصغر في أربعة : الثدي ، والفم ، والكف ، والقدم . ومن الطيب في أربعة : الفم ، والانف ، والفرق ، والفرج . ومن الضيق في موضع واحد . ومن الأخلاق كما قال تعالى (٥٦ : ٣٧ عُرُبًا أَتْرَابًا) إذ العُرب جمع عروب ، وهى المرأة المتحبة إلى زوجها بأخلاقها ولطافتها وشمائلها . قال ابن الاعرابي : العروب من النساء المطيعة لزوجها المتحبة

اليه . وقال أبو عبيدة : هي الحسنة التبعل . قال المبرد : هي العاشقة لزوجها . وقال البخارى فى صحيحه : هي الغنجة ، ويقال الشكلة . فهذا وصف أخلاقهن . وذلك وصف خلقهن . وأنت اذا تأملت الصفات التى وصفهن الله بها رأيتها مستلزمة لهذه الصفات ولما وراءها . والله المستعان

(٧٥) فصل

ثم أخبر سبحانه عن تكميل نعيمهم بالحق ذرياتهم بهم فى الدرجة ، وإن لم يعملوا أعمالهم لتقر أعينهم بهم ، ويتم سرورهم وفرحهم . وأخبر سبحانه أنه لم ينقص الآباء من عملهم من شىء بهذا الإلحاق فينزلهم من الدرجة العليا الى الدرجة السفلى ، بل ألحق الابناء بالآباء ووفر على الآباء أجورهم ودرجاتهم

ثم أخبر سبحانه أن هذا إنما هو فعله فى أهل الفضل ، وأما أهل العدل فلا يفعل بهم ذلك ، بل (كُلُّ أَمْرٍ إِيمًا كَسَبَ رَهِينٌ) فى هذا دفع لتوهم التسوية بين الفريقين بهذا الإلحاق ، كما فى قوله : (وَمَا أَلْتَنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ) دفع لتوهم حط الآباء الى درجة الابناء وقسمة أجور الآباء بينهم وبين الابناء فينقص أجر أعمالهم فرفع هذا التوهم بقوله (وَمَا أَلْتَنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ) أى مانقصناهم ، ثم ذكر امدادهم باللحم والفاكهة والشرب ، وأنهم

يتعاطون كؤوس الشراب بينهم، يشرب أحدهم ويتناول صاحبه ليتم بذلك فرجهم وسرورهم

ثم نزه ذلك الشراب عن الآفات من اللغو من أهله عليه ولحوق الاثم لهم فقال (لَا لَعْوُ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ) فنفى باللغو السباب ، والتخاصم ، والهجر والفحش في المقال ، والعريضة . ونفى بالتأثير جميع الصفات المذمومة التي أثمت شارب الخمر . وقال سبحانه (وَلَا تَأْثِيمٌ) ولم يقل ولا إثم ، أى : ليس فيها ما يحملهم على الاثم ولا يؤثم بعضهم بعضاً بشرها ، ولا يؤثمهم الله بذلك ولا الملائكة فلا يلغون ولا يأثمون . قال ابن قتيبة : لا يذهب بعقولهم فيلغوا ، ولم يقع منهم ما يؤثمهم

ثم وصف خدمهم الطائفين عليهم بأنهم كاللؤلؤ في بياضهم ، والمكنون : المصون الذى لا تدنسه الأيدي . فلم تذهب الخدمة تلك المحاسن ، وذلك اللون والصفاء والبهجة . بل مع انتصابهم لخدمتهم كأنهم لؤلؤ مكنون ، ووصفهم في موضع آخر (٧٦ : ١٩) (إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنشُورًا) ففي ذكره المنشور إشارة الى تفرقهم فى حوائج ساداتهم وخدمتهم ، وذهابهم ، ومجيئهم ، وسعة المكان ، بحيث لا يحتاجون أن ينضم بعضهم إلى بعض فيه لضيقه . ثم ذكر سبحانه ما يتحدثون به هناك وانهم يقولون (إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ) أى : كنا خائفين فى محل الأمن بين الأهل

والأقارب والعشائر . فأوصلنا ذلك الخوف والاشفاق الى أن من الله علينا ، فأمننا مما نخاف (وَوَقَّانَا عَذَابَ السَّعُورِ) وهذا ضد حال الشقي الذي كان في أهله مسرورا . فهذا كان مسرورا مع إساءته . وهؤلاء كانوا مشفقين مع إحسانهم . فبدل الله سبحانه أشفاقهم بأعظم الأمن ، وبدل أمن أولئك بأعظم المخاوف . فبالله سبحانه المستعان .

ثم أخبر عن حالهم في الدنيا . وأنهم كانوا يعبدون الله فيها . فأوصلتهم عبادته وحده إلى قربته وجواره ، ومحل كرامته ، والذي جمع لهم ذلك كله بره ورحمته ؛ فانه هو البر الرحيم ، فهذا هو المقسم عليه بتلك الأقسام الخمسة في أول السورة . والله أعلم .

فصل (٧٦)

ومن ذلك قوله (٥١ : ١ والذَّارِيَّاتِ ذَرَوْا ٢ فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ٣ فَالْجَارِيَّاتِ يُسْرًا ٤ فَلَمَقُصِّمَاتٍ أُمْرًا) أقسم بالذاريات وهي الرياح نذرو المطر ، وتذرو التراب ، وتذرو النبات اذا تهشم ، كما قال تعالى (١٨ : ٤٥ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ) أى تفرقه وتشره ثم . بما فوقها وهي السحاب الحاملات وقرأ ، أى ثقلا من الماء ، وهي روايا الارض ، يسوقها الله سبحانه على متون السحاب الرياح . كما في جامع الترمذى من حديث الحسن عن أبى هريرة قال : بينما نبي

الله صلى الله عليه وسلم جالس في أصحابه إذ أتى عليهم سحابٌ ، فقال نبي الله صلى الله عليه وسلم « هل تدرون ما هذا ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم . قال « هذا العنان ، هذه روياء الارض ، يسوقها الله تبارك وتعالى الى قوم لا يشكرونه ، ولا يدعونه »

ثم أقسم سبحانه بما فوق ذلك ، وهى (الجاريات يسرا) ، وهى النجوم التى من فوق الغمام ، و (يسرا) أى : مسخرة مذلة منقادة . وقال جماعة من المفسرين : انها السفن تجرى ميسرة فى الماء جريا سهلا . ومنهم من لم يذكر غيره . واختار شيخنا رحمه الله القول الاول . وقال : هو أحسن فى الترتيب ، والانتقال من السافل إلى العالى ، فانه بدأ بالرياح ، وفوقها السحاب ، وفوقه النجوم ، وفوقها الملائكة المقسمات أمر الله الذى أمرت به بين خلقه . والصحيح أن (المقسمات أمرا) لا تختص بأربعة ، وقيل : هم جبريل يقسم الوحي والعذاب وأنواع العقوبة على من خالف الرسل ، وميكائيل على القطر والبرد والثلج والنبات ، يقسمها بأمر الله ، وملئ الموت يقسم المنايا بين الخلق بأمر الله ، واسرافيل يقسم الارواح على أبدانها عند النفخ فى الصور ، وهم المدبرات أمرا . وليس فى اللفظ ما يدل على الاختصاص بهم . والله أعلم .

وأقسم سبحانه بهذه الامور الاربعة لمكان العبرة والآية ، والدلالة الباهرة على ربوبيته ووحدانيته ، وعظم قدرته . ففى الرياح من العبر هبوبها وسكونها ، ولينها وشدتها ، واختلاف طبائعها وصفاتها ومهابها

وتصريفها ، وتنوع منافعها ، وشدة الحاجة اليها . فلهبط خمسة رياح :
ريح ينشر سحابه ، وريح يؤلف بينه ، وريح تلقحه ، وريح تسوقه حيث
يريد الله ، وريح تذر وأمامه وتفرقه . وللنبات ريح ، وللسمك ريح ،
وللرحمة ريح ، وللعذاب ريح ، الى غير ذلك من أنواع الرياح . وذلك تقضى
بوجود خالق مصرف لها مدبر لها ، يصرفها كيف يشاء ، ويجعلها
رخاء تارة ، وعاصفة تارة ، ورحمة تارة ، وعذابا تارة ، فتارة يحيي
بها الزرع والثمار ، وتارة يغطيها بها ، وتارة ينجي بها السفن ، وتارة
يهلكها بها ، وتارة ترطب الأبدان ، وتارة تذييها ، وتارة عقيما ،
وتارة لاقحة ، وتارة جنوباً ، وتارة دبوراً ، وتارة صباً ، وتارة
شمالاً ، وتارة حارة ، وتارة باردة ، وهى مع غاية قوتها ألطف
شئ وأقبل المخلوقات لكل كيفية سريعة التأثير والتأثير ، لطيفة
المسارق بين السماء والأرض . إذا قطع عن الحيوان الذى على وجه
الأرض هلك ، كبهر الماء الذى إذا فارقه حيوان الماء هلك ، يحبسها
الله سبحانه اذا شاء ، ويرسلها اذا شاء ، تحمل الأصوات الى الأذان ،
والرائحة الى الأنف ، والسحاب الى الأرض الجزر ، وهى من روح
الله تأتى بالرحمة ، ومن عقوبته تأتى بالعذاب ، وهى أقوى خلق
الله كما رواه الترمذى فى جامعه من حديث أنس بن مالك عن النبي
صلى الله عليه وسلم قال « لما خلق الله الأرض جعلت تميد ، فخلق
الجبال ، فقال بها عليها ، فاستقرت ، فعجبت الملائكة من شدة
الجبال وقالوا يارب ، هل من خلقك شئ أشد من الجبال ؟ قال نعم ،

الحديد . قالوا : يارب ، فهل من خلقك شيء أشد من الحديد ؟ قال نعم ، النار . قالوا : يارب ، فهل من خلقك شيء أشد من النار ؟ قال نعم ، الماء . قالوا : يارب ، فهل من خلقك شيء أشد من الماء ؟ قال نعم ، الريح . قالوا : يارب ، فهل من خلقك شيء أشد من الريح ؟ قال نعم ، ابن آدم ، تصدق بصدقة يمينه يخفيها عن شماله » ورواه الامام احمد في مسنده وفي الترمذى في حديث قصة عاد أنه لم يرسل عليهم من الريح إلا قدر حلقة الخاتم ، فلم تذر من شيء أتت عليه الا جعلته كالريم وقد وصفها الله بأنها عاتية . قال البخارى في صحيحه : عنت على الخزنة ، فلم يستطيعوا أن يردوها والمقصود أن الرياح أعظم من آيات الرب الدالة على عظمتها وربوبيته وقدرته

(٧٧) فصل

ثم أقسم بالسحاب ، وهو من أعظم آيات الله في الجو ، في غاية الخفة ، ثم يحمل الماء والبرد ، فيصير أثقل شيء ، فيأمر الرياح ، فتحمله على متونها ، وتسير به حيث أمرت ، فهو مستخر بين السماء والأرض ، حامل لأرزاق العباد والحيوان ، فاذا أفرغه حيث أمر به اضمحل وتلاشى بقدره الله ، فانه لو بقي لأضر النبات والحيوان فأنشأ سبحانه في زمن يصلح أنشاؤه فيه ، وحمله من الماء ما يحمله ، وساقه الى بلد شديد الحاجة اليه فسأل السحاب من أنشأه بعد عدمه ؟ وحمله الماء والثلج والبرد ؟ ومن حمله على ظهور الرياح ؟ ومن أمسكه بين السماء والأرض بغير

عماد؟ ومن أعاث بقطره العباد، وأحيا به البلاد، وصرفه بين خلقه كما أراد، وأخرج ذلك القطر بقدر معلوم، وأنزله منه، وأفناه بعد الاستغناء عنه، ولو شاء لأدامه عليهم فلم يستطيعوا الى دفعه سبيلا، ولو شاء لأمسكه عنهم فلا يجدون اليه وصولا، فان لم يحبك جواباً حبك اعتبار مرسل (١) الرياح، من أنشأها بقدرته؟ وصرفها بحكمته، وسخرها بمشيئته، وأرسلها بشرا بين يدي رحمته، جعلها سببا لتمام نعمته، وسلطانا على من شاء بعقوبته؟ ومن جعلها رخاء، وذارية، ولا قحة، ومثيرة، ومؤلفة، ومغذية لأبدان الحيوان، والشجر، والنبات، وجعلها قاصفا، وعاصفا، ومهلكة وعاتية؟ الى غير ذلك من صفاتها. فهل ذلك لها من نفسها وذاتها أم تدبير مدبر شهدته الموجودات بربوبيته، وأقرت المصنوعات بوحدانيته، بيده النفع والضرر، وله الخلق والأمر، تبارك الله رب العالمين؟

وسل الجاريات يُسرّامن السفن: من أمسكها على وجه الماء، وسخر لها البحر؟ ومن أرسل لها الرياح التي تسوقها على الماء سوق السحاب على متون الرياح؟ ومن حفظها في مجراها ومرساها من طغيان الماء وطغيان الريح؟ فمن الذي جعل الريح لها بقدر لو زاد عليها لأغرقتها ولو نقص عنه لعاقها؟ ومن الذي أجرى لها ريحا واحدة تسير بها، ولم يسلط على تلك الريح ما يصادمها ويقاومها، فتتموج في

(١) هكذا في الاصل، وهو خطأ شنيع، وصوابه: «فان لم يحبك حوارا أجبك اعتبارا، وسل الرياح - الخ» أبو رجاء

البحر يمينا وشمالا ، تتلاعب بها الرياح ؟ ومن الذى علم الخلق
الضعيف صنعة هذا البيت العظيم ، الذى يمشى على الماء ، فيقطع
المسافة البعيدة ، ويعود الى بلده يشق الماء ويمخره ، مقبلا ومدبرا
بريح واحدة ، تجرى فى موج كالجبال (٤٢ : ٣٢) وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ
فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ٣٣ إِنَّ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَمَنَّ رَوَاكِدَ عَلَى
ظَهْرِهٖ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ٣٤ أَوْ يُوقِنَنَّ بِمَا
كَسَبُوا وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ) ومن الذى حمل فى هذا البيت نبيه
وأولياءه خاصة ، وأغرق جميع أهل الارض سواهم ؟

وسل الجاريات يُسْرَأْ مِنَ الْكَوَاكِبِ ، والشمس ، والقمر : من
الذى خلقها ، وأحسن خلقها ، ورفع مكانها ، وزين بها قبة العالم ،
وفاوت بين أشكالها ، ومقاديرها ، وألوانها ، وحركاتها ، وأماكنها
من السماء ، فمنها الكبير ، ومنها الصغير ، والمتوسط ، والأبيض ،
والأحمر ، والزجاجى اللون ، والدُرِّى اللون ، والمتوسط فى قبة
الفلك ، والمتطرف فى جوانبها ، وبين ذلك ؟ ومنها ما يقطع الفلك
فى شهر ، ومنها ما يقطعه فى عام ، ومنها ما يقطعه فى ثلاثين عاما ،
ومنها ما يقطعه فى أضعاف ذلك ، ومنها ما لا يزال ظاهرا لا يغيب
بمحال ، فهو أبدي ، ومنها أبدي الخفاء ، ومنها ماله حالتان ظهور
واختفاء ، ومنها ماله حركتان حركة عرضية من المشرق الى المغرب ،
وحركة ذاتية من المغرب الى المشرق . فالحال يأخذ الكوكب

فى الغروب فاذا كوكب آخر فى مقابلته ، وكوكب آخر قد طلع ، وهو آخذ فى الارتفاع والتصاعد ، وكوكب آخر فى الربع الشرقى وكوكب آخر فى وسط السماء ، وكوكب آخر قد مال عن الوسط ، وآخر قد دنا من الغروب ، وكأنه رقيبته ينتظر بطلوعه غيبته وأنت اذا تأملت أحوال هذه الكواكب وجدتها تدل على المعاد كما تدل على المبدأ ، وتدل على وجود الخالق ، وصفات كماله ، وربوبيته وحكمته ، ووحدانيته أعظم دلالة . وكل ما دل على صفات جلاله ونعوت كماله دل على صدق رسله ، فكما جعل الله النجوم هداية فى طريق البر والبحر ، فهى هداية فى طرق العلم بالخالق سبحانه ، وقدرته وعلمه ، وحكمته ، والمبدأ والمعاد ، والنبوة ، ودلالاتها على هذه المطالب لا تقصر عن دلالتها على طرق البر والبحر ، بل دلالتها للعقول على ذلك أظهر من دلالتها على الطرق الحسية ، فهى هداية فى هذا وهذا

فصل (٧٨)

وأما دلالة (الْمُتَسَّمَاتِ أَمْراً) وهم الملائكة ، فلا ن ما يشاهد من تدبير العالم العلوى والسفلى وما لا يشاهد انما هو على أيدى الملائكة ، فالرب تعالى يدبر بهم أمر العالم ، وقد وكل بكل عمل دن الأعمال طائفة منهم ، فوكل بالشمس والقمر والنجوم ، والأفلاك طائفة منهم . ووكل بالقطر والسحاب طائفة ، ووكل بالنبات

طائفة ، ووكل بالأجنة والحيوان طائفة ، ووكل بالموت طائفة ،
وبحفظ بنى آدم طائفة ، وباحصاء أعمالهم وكتابتها طائفة ، وبالوحي
طائفة ، وبالجمال طائفة ، وبكل شأن من شئون العالم طائفة ، هذا مع
ما فى خالق الملائكة من البهاء والحسن ، وما فيهم من القوة والشدة ،
ولطافة الجسم ، وحسن الخلقة ، وكال الانقياد لأمره ، والقيام فى
خدمته ، وتنفيذ أوامره فى أقطار العالم

ثم أقسم سبحانه بهذه الأمور على صدق وعده ، ووقوع جزائه
بالثواب والعقاب . فقال : (إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ) أى ما توعدون
من أمر الساعة والثواب والعقاب لحق كائن ، وهو وعد صدق
لا كذب . (وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ) أى ان الجزاء لكائن لا محالة . ويجوز
أن تكون (ما) موصولة ، والعائد محذوف . والمعنى ان الذى توعدونه
لصادق ، أى كائن وثابت . وأن تكون مصدرية . أى إنَّ وعدكم
لحق وصدق

ووصف الوعد بكونه صادقا أبلغ من وصفه بكونه صدقا . ولا
حاجة الى تكلف جعله بمعنى مصدوق فيه . بل هو صادق نفسه ، كما
يوصف المتكلم بأنه صادق فى كلامه . فوصف كلامه بأنه صادق .
وهذا مثل قولهم : سر كاتم ، وليل قائم ، ونهار صائم ، وماء دافق
ومنه (٦٩ : ٢١ عِشَّةٌ رَاضِيَةٌ) وليس ذلك بمجاز ، ولا مخالف
لمقتضى التركيب

وإذا تأملت هذا التناسب والارتباط بين المقسم به والمقسم عليه
وجدته دالاً عليه ، مرشداً إليه

ثم أقسم سبحانه (بالسَّما ذاتِ الحُبكِ) أصل الحبك في اللغة
إجادة النسج . يقال : حبك الثوب إذا أجاد نسجه ، وحبل محبوبك
إذا كان شديد القتل ، وفرس محبوبك الكفل ، أى : مدمجه . وقال
شمر : المحبوك في اللغة ما أجيد عمله . ودابة محبوبكة : إذا كانت
مدمجة الخلق . وقال أبو عبيدة ، والمبرد : الحبك : الطريق ، واحدها
حباك ، وحبك الحمام : طرائق على جناحيه . وحبك الماء طريقة .
وقال الفراء : الحبك تكسير كل شيء ، كالرمل إذا مرت به الريح
والماء الدائم إذا مرت به الريح . وتجعد الشعر حبك أيضاً ، واحدها
حبيكة ، مثل طرق وطريقة ، وحبك مثل مثال ومثل . والمقصود
بهذا كله ما أفصح به ابن عباس ، فقال : يريد الخالق الحسن .
وروى سعيد بن جبير عنه قال : الحبك حسننها واستواؤها . وقال
قتادة : ذات الخالق الشديد . وقال مجاهد : متقنة البنيان . وقال
أيضاً : ذات الطرائق ولكنها بعيدة من العباد فلا يرونها ، كحبك
الماء إذا ضربته الريح ، وكحبك الرمل ، وكحبك الشعر . وقال
عكرمة : بنيانها كالبرد المسلسل

قلت وفي الحديث في صفة الدجال « ورأسه حُبْكٌ » أى جعد الشعر .
ومن أحسن ما قيل في تفسير الحبك ما ذكره الترمذى في تفسير

الجامع من حديث الحسن ، عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « هل تدرون ما فوقكم ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : « فانها الرقيعُ سَقْفٌ محفوظ ، وموج مكفوف » وذكر الحديث (١)

(١) روى الترمذى فى تفسير سورة الحديد عن الحسن عن أبي هريرة قال : بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس وأصحابه إذ أتى عليهم سحاب . فقال نبي الله صلى الله عليه وسلم « هل تدرون هذا ؟ » قالوا الله ورسوله أعلم . قال « هذا العنان . هذه روايا الارض ، يسوقه الله الى قوم لا يشكرونه ولا يدعونه » ثم قال : « هل تدرون ما فوقكم ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم قال « فانها الرقيع ، سَقْفٌ محفوظ ، وموج مكفوف » ثم قال « هل تدرون كم بينكم وبينها ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم . قال « بينكم وبينها خمسمائة سنة » ثم قال « هل تدرون ما فوق ذلك ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم . قال « فان فوق ذلك سماءين ما بينهما مسيرة خمسمائة عام » حتى عد سبع سموات ما بين كل سماءين ما بين السماء والارض ثم قال « هل تدرون ما فوق ذلك » قالوا : الله ورسوله أعلم . قال « فان فوق ذلك العرش بينه وبين السماء بعد ما بين السماءين » ثم قال « هل تدرون ما الذى تحتكم ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم . قال « فانها الارض » ثم قال « هل تدرون ما الذى تحت ذلك ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم قال « فان تحتها أرضا أخرى ، بينهما مسيرة خمسمائة سنة » حتى عد سبع أرضين بين كل أرضين مسيرة خمسمائة سنة . ثم قال « والذى نفس

(٧٩) فصل

ثم ذكر المقسم عليه فقال : (إِنَّكُمْ أَنْتَ قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ ، يُؤَفِّكُ عَنْهُ مَنْ أَفِكَ) فالقول المختلف أقوالهم في القرآن وفي النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو خرص كله . فانهم لما كذبوا بالحق اختلفت مذاهبهم ، وآراؤهم ، وطرائقهم ، وأقوالهم . فان الحق شيء واحد وطريق مستقيم . فمن خالفه اختلفت به الطرق والمذاهب ، كما قال تعالى (٥٠ : ٥٠) بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ (أى : مختلط ملتبس . وفي ضمن هذا الجواب : أنكم في أقوال باطلة متناقضة ، يكذب بعضها بعضاً ، بسبب تكذيبهم بالحق ثم أخبر سبحانه أنه يصرف بسبب ذلك القول المختلف مَنْ

حمد بيده لو أنكم دليتم بحبل إلى الأرض السفلى لهبط على الله » ثم قرأ (هو الاول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم) قال الترمذى : هذا حديث غريب من هذا الوجه . ويروى عن أيوب ويونس بن عبيد وعلى بن زيد . قالوا : لم يسمع الحسن من أبي هريرة : وفسر بعض أهل العلم هذا الحديث . فقالوا : إنما هبط على علم الله وسلطانه . وعلم الله وقدرته وسلطانه في كل مكان . وهو على العرش كما وصف في كتابه اهـ

حُرف . فعن ههنا فيها طرف من معنى التسبيب ، كقوله (١١ : ٥٣)
وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ

وقوله (مَنْ أُولَئِكَ) أى من سبق فى علم الله أنه يضل . ويؤفك ،
كقوله (٣٧ : ١٦١) فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ١٦٢ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِينَ
١٦٣ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ

وقالت طائفة : الضمير يرجع إلى القرآن ، وقيل الى الايمان .
وقيل الى الرسول . والمعنى يصرف عنه من صرف حتى يكذب به
ولما كان هذا القول المختلف خرصا وباطلا قال (قَتَلَ الْحَرَّاصُونَ)

أى المكذبون (الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ) وجهالة قد عمرت قلوبهم
أى غطتها وغشها ، كغمرة الماء وغمرة الموت ، فالغمرات ما غطاها
من جهل ، أو هوى ، أو سكر ، أو غفلة ، أو حب ، أو بغض ، أو خوف ،
أو غم . ونحو ذلك . قال تعالى (بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هَذَا)
أى غفلة ، وقيل جهالة .

ثم وصفهم بأنهم ساهون فى غمرتهم . والسهو الغفلة عن الشيء
وذهاب القلب عنه . والفرق بينه وبين النسيان أن النسيان الغفلة
بعد الذكر والمعرفة ، والسهو لا يستلزم ذلك

ثم قال (يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ ؟) استبعاداً للوقوع وجحداً .

﴿ م - ١٩ تبيان ﴾

فأخبر تعالى أن ذلك (يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ) والمشهور في تفسير هذا الحرف أنه بمعنى يحرقون ، ولكن لفظة على تعطى معنى زائداً على ما ذكره ، ولو كان المراد نفس الحرق . لقليل يومهم في النار يفتنون . ولهذا لما علم هؤلاء ذلك قال كثير منهم : على بمعنى فى ، كما تكون فى بمعنى على . والظاهر أن فتنهم على النار . قيل فتنهم فيها لهم عند عرضهم عليها ، ووقوفهم عليها فتنه ، وعند دخولهم ، والتعذيب بها فتنه أشد منها ، ومن جعل الفتنه ههنا من الحريق أخذه من قوله تعالى (٨٥ : ١٠) إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا) واستشهد على ذلك أيضا بهذه اللفظة التى فى الذاريات . وحقيقة الأمر أن الفتنه تطلق على العذاب وسببه . ولهذا سمي الله الكفر فتنه ، فهم لما أتوا بالفتنة التى هى أسباب العذاب فى الدنيا سمي جزاءهم فتنه . ولهذا قال (ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ) وكان وقوفهم على النار وعرضهم عليها من أعظم فتنهم . وآخر هذه الفتنه دخول النار والتعذيب بها ، ففتنوا أولا بأسباب الدنيا وزينتها . ثم فتنوا بارسال الرسل اليهم . ثم فتنوا بمخالفتهم وتكذيبهم . ثم فتنوا بعذاب الدنيا . ثم فتنوا بعذاب الموت . ثم يفتنون فى موقف القيامة . ثم إذا حشروا إلى النار ووقفوا عليها وعرضوا عليها . وذلك من أعظم فتنهم . ثم الفتنه الكبرى التى أنستهم جميع الفتن قبلها

(٨٠) فصل

ثم ذكر سبحانه جزاء من خلص من هذه الفتن بالتقوى ، وهو الجنات والعيون ، وأنهم (آخِذُونَ مَا آتَاهُمُ رَبُّهُمْ) من الخير والكرامة وفى ذلك دليل على أمور : منها قبولهم له . ومنها رضاهم به . ومنها وصولهم اليه بلا مانع ولا عائق . ومنها أن جزاءهم من جنس أعمالهم . فكما أخذوا ما أمرهم به فى الدنيا وقابلوه بالرضا والتسليم وانشراح الصدر ، أخذوا ما آتاهم من الجزاء كذلك . ثم ذكر السبب الذى أوصلهم إلى ذلك ، وهو احسانهم المتضمن لعبادته وحده لا شريك له ، والقيام بحقوقه ، وحقوق عباده . ثم ذكر ليلهم وأنهم قليل هجوعهم منه

وقد قيل : ان (ما) نافية ، والمعنى ما يهجعون قليلا من الليل ، فكيف بالكثير ؟ وهذا ضعيف لوجوه (أحدها) أن هذا ليس بلازم لوصف المتقين الذين يستحقون هذا الجزاء (الثانى) أن قيام من نام من الليل نصفه أحب الى الله من قيام من قامه كله (الثالث) أنه لو كان المراد بذلك احياء الليل جميعه لكان أولى الناس بهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما قام ليلة حتى الصباح (الرابع) أن الله سبحانه إنما أمر رسوله أن يتهد بالقرآن من الليل لافى الليل كله . فقال (١٧ : ٧٩ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ) (الخامس) أنه سبحانه

لما أمره بقيام الليل في سورة المزمل إنما أمره بقيام النصف ، أو النقصان منه ؛ أو الزيادة عليه . فذكر له هذه المراتب الثلاثة ، ولم يذكر قيامه كله ﴿السادس﴾ أنه صلى الله عليه وسلم لما بلغه عن عثمان بن مظعون أنه لا ينام من الليل بعث إليه ، فجاء فقال « يا عثمان أرغبتَ عن سنتي ؟ » قال : لا والله يا رسول ، ولكن سنتك أطلب . قال « فاني أنام وأصلي ، وأصوم وأفطر ، وأنكح النساء ، فاتق الله يا عثمان ، فان لاهلك عليك حقاً ، وان لِيُضِفِكَ عليك حقاً ، وان لنفسك عليك حقاً ، فصُمْ وأفطِرْ ، وصلِّ وَاِمْ » (١) « ولما بلغه عن زينب بنت جحش أنها تصلي الليل كله حتى جعلت حبلاً بين ساريتين إذا فطرت تعلقَتْ به أنكر ذلك وأمر بحله (٢) ﴿السابع﴾ أن الله أثنى عليهم بأنهم كانت (تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ) وتقلق عنها حتى يقوموا إلى الصلاة . ولهذا جازاهم عن هذا التجافي - الذي سببه قلق القلب واضطرابه حتى يقوم إلى الصلاة - بقرة الأعين ﴿الثامن﴾ أن الصحابة الذين هم أول وأولى من دخل في هذه الآية - لم يفهموا منها عدم نومهم بالليل أصلاً . فروى بجير بن سعد عن سعيد عن قتادة عن أنس في قوله (كانوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ) قال : كانوا يصلون ما بين المغرب والعشاء ﴿التاسع﴾ أن في هذا التقرير تفكيكاً للكلام

(١) رواه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي من حديث عائشة

(٢) رواه البخاري ومسلم عن أنس بن مالك .

وتقدِّم المعمول العامل المنفى عليه ، لانك تجعل قليلا مفعول يهجعون ، وهو منفى . والبصريون لا يميزون ذلك وان أجازوه الكوفيون . وفصل بعضهم ، فأجازوه في الظرف ، ولم يحزوه في غيره

(٨١) فصل

وقيل : ما زائدة ، وخبر كان (يَهْجَعُونَ) و (قليلا) منصوب إما على المصدرية ، أى هجوعا قليلا . وإما على الظرف ، أى زنا قليلا .

واستشكل هذا بأن نوم نصف الليل وقيام ثلثه ، ثم نوم سدسه أحب القيام الى الله . فيكون وقت الهجوع أكثر من وقت القيام . فكيف يثنى عليهم بما الأفضل خلافة ؟

وأجيب عن ذلك بأن من قام هذا القيام فزمن هجوعه أقل من زمن يقضته قطعا . فانه مستيقظ من المغرب إلى العشاء ، ومن الفجر إلى طلوع الشمس . فيبقى ما بين العشاء إلى طلوع الفجر ، فيقومون نصف ذلك الوقت . فيكون زمن الهجوع أقل من زمن الاستيقاظ وقيل : ما مصدرية ، وهى فى موضع رفع بقليل ، أى كانوا قليلا هجوعهم . وهو قول الحسن . وقيل : انها موصولة بمعنى الذى ، والعائد محذوف . أى قليلا من الليل الوقت الذى يهجعون . وفيه تكلف . وقيل : ما يهجعون بدل اشتغال من اسم كان . والتقدير كان هجوعهم من الليل قليلا . ويرد عليه أن من الليل متعلق يهجعون ، ومعمول

المصدر لا يتقدم عليه . وأجيب عنه أنه منصوب على التفسير ، ومعناه أن يقدر له فعل محذوف ينصبه مفسره هذا المذكور ، وقليلًا خبر كان . وتم الكلام بذلك . والمعنى كانوا صنفًا أو جنسًا قليلًا . ثم قال (مِنْ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ) وأصحاب هذا القول يجعلون مانافية ، فيعود الكلام الى نفى هجوعهم شيئًا من الليل . وقد تقدم ما فيه ثم أخبر عنهم بأنهم مع صلاتهم بالليل كانوا يستغفرون الله عند السحر . فحتموا صلاتهم بالاستغفار والتوبة ، فباتوا لربهم سجدًا وقيامًا ، ثم تابوا اليه واستغفروه عقيب ذلك . وكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا سلم من صلاته استغفر ثلاثًا . وأمره الله سبحانه أن يختم عمره بالاستغفار . وأمر عباده أن يختموا إفاضتهم من عرفات بالاستغفار . وشرع صلى الله عليه وسلم للمتوضئ أن يختم وضوءه بالتوبة . فأحسن ما ختمت به الأعمال التوبة والاستغفار

ثم أخبر سبحانه عن إحسانهم الى الخلق مع إخلاصهم لربهم . فجمع لهم بين الاخلاص والاحسان ، ضد (١٠٧ : ٥) الذين هم براءون ويمنعون الماعون) وأكد إخلاصهم في هذا الاحسان بأن مصرفه للسائل والمحرور ، الذي لا يقصد باعطائه الجزاء منه ولا الشكور . والمحرور المتعفف الذي لا يسأل

وتأمل حكمة الرب تعالى في كونه حرمه بقضائه ، وشرع لأصحاب الجدة اعطائه ، وهو أغنى الأغنياء ، وأجود الأجودين . فلم يجمع

عليه بين الحرمان بالقدر وبالشرع ، شرع عطاءه بأمره وحرمه بقدره ، فلم يجمع عليه حرمانين

(٨٢) فصل

ثم ذكرهم سبحانه بآياته الأفقية والنفسية ، فقال (وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّمُؤْمِنِينَ * وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ؟)
 وآيات الارض أنواع كثيرة ، منها خلقها وحدوثها بعد عدمها . وشواهد الحدوث والافتقار الى الصانع عليها لا تحدد . فانها شواهد قائمة بها . ومنها بروز هذا الجانب فيها عن الماء ، مع كون مقتضى الطبيعة أن يكون مغموراً به . ومنها سعتها وكبر خلقها . ومنها تسطحها ، كما قال تعالى (٨٨ : ٢٠) *وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ*) ولا ينافي ذلك كونها كرية . فهي كرة في الحقيقة ، لها سطح يستقر عليه الحيوان . ومنها أنه جعلها فراشا لتكون مقر الحيوان ومساكنه . وجعلها قرارا . وجعلها مهادا . وجعلها ذلولاً توطأ بالأقدام ، وتضرب بالمعاول ، والفئوس ، وتحمل على ظهرها الأبنية الثقيل . فهي ذلول مسخرة لما يريد العبد منها . وجعلها بساطاً . وجعلها كفاتاً للأحياء تضمهم على ظهرها ، وللأموات تضمهم في بطنها . وطحاحا فدها وبسطها ، ووسعها ودحاها ، فهيأها لما يراد منها بأن أخرج منها ماءها ومرعاها ، وشق فيها الأنهار ، وجعل فيها السبل

والفجاج . ونبه بجعلها مهادا وفراشا على حكمته في جعلها ساكنة .
 وذلك آية أخرى إذ لا دعامة تحتها تمسكها ، ولا علاقة فوقها ،
 ولكنها لما كانت على وجه الماء كانت تَكْفَأُ فيه تكفاً السفينة .
 فاقبضت العناية الأزلية ، والحكمة الإلهية أن وضع عليها رواسي
 يشتملها ، لئلا تميد ، وليستقر عليها الأنام ، وجعلها ذلولاً على الحكمة
 في أن لم تكن في غاية الصلابة والشدّة كالحديد ، فيمتنع حفرها
 وشقها ، والبناء فيها ، والغرس ، والزرع ، وبعث النوم عليها ،
 والمشي فيها ، ونبه بكونها قراراً على الحكمة في أنها لم تخلق في غاية
 اللين والرخاوة والدمائة . فلا تمسك بناء ، ولا يستقر عليها الحيوان
 ولا الأجسام الثقيلة . بل جعلها بين الصلابة والدمائة . وأشرف
 الجواهر عند الإنسان الذهب ، والفضة ، والياقوت ، والزمرّد . فلو
 كانت الأرض من هذه الجواهر لفاتت مصالح العباد والحيوان منها ،
 وتعطلت المنافع المقصودة منها . وبهذا يعلم أن جواهر التراب أشرف
 من هذه الجواهر وأنفع وأبرك ، وإن كانت تلك أعلى وأعز . فغلاؤها
 وعزتها لقلتها . وإلا فالتراب أنفع منها ، وأبرك ، وأنفس .
 وكذلك لم يجعلها شفاقة ، فإن الجسم الشفاف لا يستقر عليه النور .
 وما كان كذلك لم يقبل السخونة ، فيبقى في غاية البرد ، فلا يستقر
 عليه الحيوان ، ولا يتأتى فيه النبات . وكذلك لم يجعلها صقيلة
 بركة ، لئلا يحترق ما عليها بسبب انعكاس أشعة الشمس ، كما يشاهد
 من احتراق القطن ونحوه عند انعكاس شعاع الجسم الصقيل الشفاف .

فاقتضت حكمته سبحانه أن جعلها كثيفة غبراء ، فصلحت أن تكون مستقرا للحيوان ، والأنام ، والنبات
ولما كان الحيوان الهوائى لا يمكنه أن يعيش فى الماء كالحيوان المائى أبرزله جانبها كما تقدم ، وجعله على أوفق الهيئات لمصلحه وأنشأ منها طعامه وقوته . وكذلك خلق منها النوع الانسانى ، وأعادها اليها ويخرجه منها

(٨٣) فصل

ومن آياتها أن جعلها مختلفة الأجناس ، والصفات ، والمنافع مع أنها قطع متجاورات ، متلاصقة . فهذه سهلة ، وهذه حزنة ، تجاورها وتلاصقها . وهذه طيبة تنبت ، وتلاصقها أرض لا تنبت . وهذه تربة ، وتلاصقها رمال . وهذه غلبة ، ويلاصقها ويلبها رخوة . وهذه سوداء ، ويلبها أرض بيضاء . وهذه حصى كلها ، ويحاورها أرض لا يوجد فيها حجر . وهذه تصلح لنبات كذا وكذا . وهذه لا تصلح له بل تصلح لغيره . وهذه سبخة مالحة . وهذه بضدها . وهذه ليس فيها جبل ، ولا معلم . وهذه مسجرة بالجبال . وهذه لا تصلح الا على المطر . وهذه لا ينفعها المطر ، بل لا تصلح الا على سقى الأنهار ، فيمطر الله سبحانه الماء على الأرض البعيدة ، ويسوق الماء اليها على وجه الأرض
فلو سألتها من نوعها هذا التنوع ؟ ومن فرق أجزائها هذا

التفريق ؟ ومن خصص كل قطعة منها بما خصها به ؟ ومن ألقى عليها رواسيها ، وفتح فيها السبل ، وأخرج منها الماء والمرعى ؟ ومن أمسكها عن الزوال ؟ ومن بارك فيها ، وقدر فيها أقواتها ، وأنشأ منها حيوانها ونباتها ؟ ومن وضع فيها معادنها وجواهرها ومنافعها ؟ ومن هياها مسكناً ومستقراً للأنام ؟ ومن يبدأ الخلق منها ، ثم يعيده اليها ، ثم يخرجها منها ؟ ومن جعلها ذلولاً غير مستصعبة ولا ممتعة ؟ ومن وطأ مناكيبها ، وذل مسالكها ، ووسع مخارجها ، وشق أنهارها ، وأنبث أشجارها ، وأخرج ثمارها ؟ ومن صدعها عن النبات ، وأودع فيها جميع الأقوات ؟ ومن بسطها ، وفرشها ومهد ما وذلها ، وطحها ، ودحاها ، وجعل ما عليها زينة لها ؟ ومن الذي يمسكها أن تتحرك فتزلزل فيسقط ما عليها من بناء ومعلم ، أو يخسفها بمن عليها فاذا هي تمور ؟ ومن الذي أنشأ منها النوع الانساني الذي هو أبداع المخلوقات ، وأحسن المصنوعات ، بل أنشأ منها آدم ، ونوحاً ، وإبراهيم ، وموسى ، وعيسى ، ومحمداً صلى الله عليه وسلم عليهم أجمعين . وأنشأ منها أوليائه ، وأحباؤه وعباده الصالحين ؟ ومن جعلها حافظة لما استودع فيها من المياه ، والأرزاق ، والمعادن ، والحيوان ؟ ومن جعل بينها وبين الشمس والقمر هذا القدر من المسافة ، فلو زادت على ذلك لضعف تأثيرها بحرارة الشمس ونور القمر ، فتعطلت المنفعة الواصلة الى الحيوان

والنبات بسبب ذلك . ولو زادت في القرب لاشتدت الحرارة
والسخونة - كما نشاهده في الصيف - فاحترقت أبدان الحيوان
والنبات . وبالجمله فكانت تفوت هذه الحكمة التي بها انتظام العالم ؟
ومن الذي جعل فيها الجنات والحدائق ، والعيون ؟ ومن الذي
جعل باطنها بيوتا للأموات ، وظاهرها بيوتا للأحياء ؟ ومن الذي
يحييها بعد موتها فينزل عليها الماء من السماء ، ثم يرسل عليها الريح
ويطلع عليها الشمس ، فتأخذ في الحبل ، فاذا كان وقت الولادة
مخضت للوضع ، واهتزت وأنبتت من كل زوج بهيج

فسبحان من جعل السماء كالأب ، والأرض كالأم ، والقطر
كالماء الذي ينعقد منه الولد ، فاذا حصل الحب في الأرض ،
ووقع عليه الماء ، أثرت نداوة الطين فيه ، وأعانتها السخونة
المختفية في باطن الأرض ، فوصلت النداة والحرارة الى باطن
الحبة ، فاتسعت الحبة وربت ، وانتفخت ، وانفلقت عن ساقين :
ساق من فوقها وهو الشجرة . وساق من تحتها وهو العرق . ثم
عظم ذلك الولد حتى لا يبق لأبيه نسبة اليه . ثم وضع من الأولاد
بعد أبيه آلافا مؤلفة ، كل ذلك صنع الرب الحكيم في حبة واحدة
لعلها تبلغ في الصغر الى الغاية . وذلك من البركة التي وضعها الله
سبحانه في هذه الأم

فيا لها من آية تكفي وحدها في الدلالة على وجود الخالق ، وصفات

كأله وأفعاله ، وعلى صدق رسله فيما أخبروا به عنه ، باخراج من
فى القبور ليوم البعث والنشور

فتأمل اجتماع هذه العناصر الأربعة وتجاورها ، وامتزاجها ،
وحاجة بعضها إلى بعض ، وانفعال بعضها عن بعض ، وتأثيره فيه
وتأثره به ، بحيث لا يمكنه إلا الاتباع ، من التأثر والانفعال ، ولا يستقل
الآخر بالتأثير ، ولا يستغنى عن صاحبه ، وفى ذلك أظهر دلالة
على أنها مخلوقة ، مصنوعة ، مربوبة ، مدبرة ، حادثة بعد عدمها ،
فقيرة الى موجد غنى عنها ، مؤثر غير متأثر ، قديم غير حادث ،
تنقاد المخلوقات كلها لقدرته ، وتجب داعى مشيئته ، وتبلى داعى
وحدانيته وربوبيته ، وتشهد بعلمه وحكمته ، وتدعو عباده الى
ذكره وشكره وطاعته وعبوديته ومحبته ، وتحذره من بأسه
ونقمته ، وتحشهم على المبادرة الى رضوانه وجنته

فانظر إلى الماء والأرض ، كيف لما أراد الرب تعالى امتزاجهما
وازدواجهما أنشأ الرياح ، فحركت الماء ، وساقته إلى أن قدفته فى
عمق الأرض . ثم أنشأ لها حرارة لطيفة سماوية ، وحصل بها
الانبات . ثم أنشأ لها حرارة أخرى أقوى منها حصل بها الافتتاح
وكانت حالته الأولى تضعف عن الحرارة الثانية ، فادخرت إلى
وقت قوته وصلابته . فحرارة الربيع للاخراج . وحرارة الصيف
للانضاج . هذا وإن الأم واحدة ، والأب واحد ، واللحاق واحد

والأولاد في غاية التباين والتنوع . كما قال تعالى (١٣ : ٤) وفي
الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ
صِنُوفٌ وَأَنْوَاعٌ صِنُوفٌ أَنْ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفُضٌ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ
فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)

فهذا بعض آيات الأرض . ومن الآيات التي فيها وقائعه سبحانه التي
أوقعها بالأمم المكذبين لرسولهم ، المخالفين لأمره ، وأبقى آثارهم دالة عليهم
كما قال تعالى (٢٩ : ٣٨) وَعَادًا وَنَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِينِهِمْ)
وقال في قوم لوط (٣٧ : ١٣٧) وَإِنْ كُنْتُمْ لَتَمُوتُنَّ عَلَيْهِمْ مُضْجِعِينَ
١٣٨ وباللَّيْلِ أَفْلا تَعْقِلُونَ ؟) وقال (١٥ : ٧٣) فَآخَذَهُمُ الصَّيْحَةُ
مُسْرِقِينَ ٧٤ فَجَعَلْنَا عَلَيْهِمْ سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ
سِجِّيلٍ ٧٥ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأَمْثَلِمْ سَمِينَ ٧٦ وَإِنَّهَا لَإِسْطِيلٌ مُقِيمٌ)
أى بطريق ثابت لا يزول عن حاله ، وقال (١٥ : ٧٨) وَإِنْ كَانَ
أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ ٧٩ فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِلَامٍ مُبِينٍ)
أى ديار هاتين الأمتين لبطريق واضح يمر به السالكون . وقال
تعالى (١٤ : ٤٥) وَسَكَتُمْ فِي مَسَاكِينِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ
لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ) وقال عن قوم عاد (٤٦ : ٢٥) فَاصْبَحُوا
لَا يَرَى إِلَّا مَسَاكِينَهُمْ) وقال (٣٢ : ٢٦) أَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا

مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِينِهِمْ) فأى دلالة أعظم من رجل يخرج وحده ، لعدة له ولا عدد ، ولا مال . فيدعو الأمة العظيمة إلى توحيد الله والايان به وطاعته ، ويحذرهم من بأسه ونقمته ، فتتفق كلمتهم ، أو أكثرهم على تكذيبه ، ومعاداته . فيذكروهم أنواع العقوبات الخارجة عن قدرة البشر ، فيغرق المكذبين كلهم تارة ، ويخسف بغيرهم الأرض تارة ، ويهلك آخرين بالريح ، وآخرين بالصيحة ، وآخرين بالمسخ ، وآخرين بالحجارة ، وآخرين بظلمة من النار من فوقهم ، وآخرين بالصواعق ، وآخرين بأنواع العقوبات ، وينجو داعيهم ومن معه . والهلاكون أضعاف أضعاف أعدا وقوة ، ومنعة وأموالا

فيالك من آيات حق لو اهتمدى * بهن مريد الحق ، كن هواديا ولكن على تلك القلوب أكنة * فليست وإن أصغت تجيب المناديا فهلا امتنعوا - ان كانوا على الحق وهم أكثرهم عددا ، وأقوى شوكة - بقوتهم وعددهم من بأسه وسلطانه ، وهلا اعتصموا من عقوبته ، كما اعتصم من هو أضعف منهم من أتباع الرسل ؟

ومن الآيات التي في الأرض مما يحدثه الله فيها كل وقت ما يصدق به رسله فيما أخبرت به ، فلا تزال آيات الرسل وأعلام صدقهم ، وأدلة نبوتهم يحدثها الله سبحانه وتعالى في الأرض ، إقامة للحجة على من لم يشاهد تلك الآيات التي قاربت عصر الرسل ،

حتى كأن أهل كل قرن يشاهدون ما يشاهده الأولون أو نظيره ، كما قال (٤١ : ٥٣) سُرِّيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ) وهذه الإرادة لا تختص بقرن دون قرن ، بل لا بد أن يرى الله سبحانه أهل كل قرن من الآيات ما يبين لهم أنه الله الذي لا اله إلا هو ، وأن رسله صادقون ، وآيات الأرض أعظم مما ذكر ، وأكثر ، فنبه باليسير منها على الكثير

(٨٤) فصل

ثم قال (وفي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ؟) لما كان أقرب الأشياء إلى الإنسان نفسه دعاه خالقه وبارئه ومصوره ، وفطره من قطرة ماء إلى التبصر ، والتفكير في نفسه . فاذا تفكر الإنسان في نفسه استنارت له آيات الربوبية ، وسطعت له أنوار اليقين ، واضمحلت عنه غمرات الشك والريب ، وانقشعت عنه ظلمات الجهل . فانه إذا نظر في نفسه وجد آثار التدبير فيه قائمات ، وأدلة التوحيد على ربه ناطقات ، شاهدة لمدبره ، دالة عليه ، مرشدة اليه ، إذ يجده مكوّنًا من قطرة ماء : لحوما منضدة ، وعظاما مركبة ، وأوصالا متعددة ، مأسورة مشددة بحبال العروق والأعصاب . قد قطت وشدت ، وجمعت بجلد متين ، مشتمل على ثلاثمائة وستين مفصلا ما بين كبير وصغير ، وثخين ودقيق ، ومستطيل ومستدير ، ومستقيم

ومنجن ، وشدت هذه الأوصال بثلاثمائة وستين عرقا ، للاتصال
والانفصال ، والقبض والبسط ، والمد والضم ، والصنائع والكتابة
وجعل فيه تسعة أبواب : فبابان للسمع ، وبابان للبصر ، وبابان
للشم ، وبابان للكلام والطعام والشراب والتنفس ، وبابان لخروج
الفضلات التي يؤذيه احتباسها

وجعل داخل بابي السمع مراقيقتا ، لئلا تلج فيها دابة تخلص
الى الدماغ فتؤذيه . وجعل داخل بابي البصر مالخا ، لئلا تذيب
الحرارة الدائمة ماهنك من الشحم . وجعل داخل باب الطعام
والشراب حلوا ، ليسيخ به مايا كله ويشربه . فلا يتنقص به لو
كان مرا أو مالخا

وجعل له مصباحين من نور كالسراج المضيء ، مركبين في أعلى
مكان منه ، وفي أشرف عضو من أعضائه ، طليعة له . وركب هذا
النور في جزء صغير جدا يبصر به السماء والأرض وما بينهما ،
وغشاه بسبع طبقات وثلاث رطوبات ، بعضها فوق بعض ، حماية
له وصيانة وحراسة . وجعل على محله غلقا بمصرعين أعلا وأسفل ،
وركب في ذيل المصرعين أهذا بابا من الشعر وقاية للعين ، وزينة
وجمالا . وجعل فوق ذلك كله حاجبين من الشعر ، يحجبان العين
من العرق النازل ، ويتلقيان عنها ما ينصب من هناك . وجعل
سبحانه لكل طبقة من طبقات العين شغلا مخصوصا ، ولكل واحد

من الرطوبات مقسداً ، لوزاد على ذلك أو نقص منه
لاحتلت المنافع والمصالح المطلوبة . وجعل هذا النور الباصر في
قدر عدسة . ثم أظهر في تلك العدسة صورة السماء والأرض ،
والشمس والقمر والنجوم ، والجبال ، والعالم العلوى والسفلى ، مع
اتساع أطرافه ، وتباعد أقطاره . واقتضت حكمته سبحانه أن جعل
فيها بياضاً وسواداً ، وجعل القوة الباصرة في السواد ، وجعل البياض
مستقراً لها ومسكناً ، وزين كلا منهما بالآخر . وجعل الحدقة مصونة
بالأجفان والحواجب كما تقدم ، والحواجب بالأهداب ، وجعلها
سوداء ، إذ لو كانت بيضاء لتفرق النور الباصر ، فضعف الإدراك ،
فإن السواد يجمع البصر ، ويمنع من تفرق النور الباصر . وخلق
سبحانه لتحريك الحدقة وتقليبها أربعاً وعشرين عضلة ، لو نقصت
عضلة واحدة لاختل أمر العين

ولما كانت العين كالمرآة ، التي إنما تنطبع فيها الصور إذا كانت
في غاية الصقالة والصفاء ، جعل سبحانه هذه الأجفان متحركة جداً
بالطبع إلى الانطباق ، من غير تكلف ، لتبقى هذه المرآة نقية صافية
من جميع الكدورات . ولهذا لما لم يخلق لعين الذبابة أجفاناً فانها
لا تزال تراها تنظف عينها بيدها من آثار الغبار والكدورات

(٨٥) فصل

وكما جعل سبحانه العينين مؤديتين للقلب ما يريانه ، فيوصلانه

اليه كما ترياه جعلهما مرآتين للقلب ، يظهر فيهما ما هو مودع فيه من الحب والبغض ، والخير والشر ، والبلادة والفطنة ، والزيف والاستقامة . فيستدل بأحوال العين على أحوال القلب ، وهو أحد أنواع الفراسة الثلاثة : وهى فراسة العين ، وفراسة الأذن ، وفراسة القلب . فالعين مرآة للقلب ، وطليعة ورسول . ومن عجيب أمرها أنها من أطف الأعضاء ، وأبعدها تأثراً بالحر والبرد ، على أن الأذن على صلابتها وغلظها تتأثر بهما أكثر من تأثر العين على لطافتها . وليس ذلك بسبب الغطاء الذى عليها من الأجفان : فانها لو كانت مفتوحة لم تتأثر بذلك تأثر الأعضاء اللطيفة

(٨٦) فصل

ومن ذلك الأذنان ، شقهما تبارك وتعالى فى جانبي الوجه ، وأودعهما من الرطوبة ما يكون معيناً على إدراك السمع . وأودعهما القوة السمعية . وجعل سبحانه فى هذه الصدقة انحرافات واعوجاجات ، لتطول المسافة قليلا ، فلا يصل الهواء إلا بعد انكسار حدته ، فلا يصدمها وهلة واحدة ، فيؤذيها . وأيضا لئلا يفجأها الداخل اليها من الديدب والحشرات ، بل إذا دخل الى عوجة من تلك الانعطافات وقف هناك ، فسهل اخراجه

وكانت العينان فى وسط الوجه والاذنان فى جانبيه ، لأن العينين محل الملاحظة والزينة والجمال ، وهما بمنزلة النور الذى يمشى بين

يدى الانسان . وأما الاذان فكان جعلهما فى الجانبين لكون إدراكهما لما خلف الانسان ، وامامه ، وعن يمينه ، وعن شماله سواء . فتأتى المسموعات اليهما على نسبة واحدة . وخلق العنان بغطاء ، والأذان بغير غطاء . وهذا فى غاية الحكمة . اذ لو كان للأذان غطاء لمنع الغطاء إدراك الصوت ، فلا يحصل الا بعد ارتفاع الغطاء . والصوت عرض لا ثبات له ، فكان يزول قبل كشف الغطاء ، بخلاف ما تراه العين ، فانه أجسام وأعراض لا تزول فيما بين كشف الغطاء وفتح العين . وجعل سبحانه الأذن عضوا غُضْرَ وفِيًّا ليس بلحم مسترخٍ ، ولا عظم صلب ، بل هى بين الصلابة واللين ، فتقبل بليتها ، وتحفظ بصلابتها ، ولا تتصدع انصداع العظام ، ولا تتأثر بالحر والبرد ، والشمس والسموم تأثر اللحم . إذ المصلحة فى بروزها لتتلقى ما يرد عليها من الأصوات والابخار

(٨٧) فصل

ومن ذلك الأنف ، نصبه سبحانه فى وسط الوجه قائما معتدلا ، فى أحسن شكل وأوفقه للنفعة ، وأودعه حاسة الشم ، التى يدرك بها الروائح وأنواعها ، وكيفياتها ، ومنافعها ، ومضارها . ويستدل بها على مضار الأغذية والأدوية ، ومنافعها . وأيضا فانه يستنشق بالمنخرين الهواء البارد الرطب ، فيؤديه الى القلب ، فيتروح به ، فيستغنى بذلك عن فتح الفم أبدا . وجعل تجويفه بقدر الحاجة ، فلم يوسعه عن

ذلك ، فيدخله هواء كثير ، ولم يضيقة فلا يدخله من الهواء ما يكفيه .
 وجعل ذلك التجويف مستطيلا ، لينحصر فيه الهواء ، وينكسر برده
 وحدته قبل أن يصل إلى الدماغ . فلو لا ذلك لصدمه بحدته وقوته
 والهواء الذي يستنشقه الأنف ينقسم شطرين : شطرا يصعد إلى
 الدماغ ، وشطرا ينزل إلى الرئة ، وهو من آلات النطق ، فإن له
 اعانة على تقطيع الحروف . وكما أن تجويفه جعل لاستنشاق الهواء ،
 فإنه جعل مصبا لفضلات الدماغ ، تنحدر منه في تلك القصبة ،
 فيخرج ، فيستريح الدماغ ، ولذلك جعل عليها سترا ، ولم يجعلها بارزة
 فتستقبحها العيون . وجعل فيها تجويفا . فإنه قد ينسد أحدهما ، أو
 يعرض له آفة تمنعه من الإدراك والاستنشاق ، فيبقى التجويف الثاني
 نائبا عنه يعمل عمله ، كما اقتضت الحكمة مثل ذلك في العينين
 ثم تأمل الهواء الذي يستنشقه الأنف ، كيف يدخل أولا
 من المنخرين ، وينكسر برده هناك . ثم يصل إلى الحلق ، فيعتدل
 مزاجه هناك . ثم يصل إلى الرئة ألطف ما يكون . ثم تبعثه الرئة إلى
 القلب ، فيروح عن الحرارة الغريزية التي فيه . ثم ينفذ من القلب
 إلى العروق المتحركة ، ويبلغ إلى أقاصى أطراف البدن . ثم إذا سخن
 في الباطن وخرج عن حد الارتفاع خرج عن تلك الأقاصى إلى البدن ، ثم
 إلى الرئة ، ثم إلى الحلقوم ، ثم إلى المنخرين خارجا ، فيخرج منهما ويعود
 عوضه هواء بارد نافع . والنفس الواحد من أنفاس العبد إنما يتم
 بمجموع هذه الامور والقوى ، والأفعال . وهو له في اليوم والليلة

أربعة وعشرون ألف نفس ، لله في كل نفس عدة نعم ، قد وقفت على القليل منها ، فما ظنك بما وراء التنفس من الأعضاء ، والقوى ، ومنافعها ، وتمام النعمة بها ؟

فصل (٨٨)

وأما الفم فمحل العجائب ، وباب الطعام ، والشراب ، والنفس ، والكلام ، ومسكن اللسان الناطق الذي هو آلة العلوم ، وترجمان القلب ، ورسوله المؤدى عنه .

ولما كان القلب ملك البدن ، ومعدنا للحرارة الغريزية ، فاذا دخل الهواء البارد وصل اليه فاعتدلت حرارته وبقي هنالك ساعة فسخن واحترق ، فاحتاج القلب إلى دفعه وإخراجه . فجعل أحكم الحاكمين إخراجه سبباً لحدوث الصوت في الحنجرة ، والحنك ، واللسان ، والشفقتين ، والأسنان مقاطع ومخارج مختلفة ، وبسبب اختلافها تميزت الحروف بعضها عن بعض ثم ألهم العبد تركيب تلك الحروف ليؤدى بها عن القلب ما يأمر به

فتأمل الحكمة الباهرة حيث لم يضع سبحانه ذلك النفس المستغنى عنه المحتاج إلى دفعه وإخراجه ، بل جعل فيه إذا استغنى عنه منفعة ومصلحة هي من أكمل المنافع والمصالح . فان المقصود الأصلي من النفس هو اتصال الريح البارد إلى القلب . فأما إخراج النفس فهو جار مجرى دفع الفضلة الفاسدة . فصرف ذلك سبحانه إلى رعاية مصلحة ومنفعة أخرى . وجعله سبباً للأصوات والحروف والكلام

ثم انه سبحانه جعل الحناجر مختلفة الأشكال : في الضيق ،
والسعة ، والخشونة ، والملاسة ، لتختلف الأصوات باختلافها .
فلا يتشابه صوتان كما لا تتشابه صورتان . وهذا من أظهر الأدلة .
فان هذا الاختلاف - الذي بين الصور والأصوات على كثرتها وتعددتها
فقلما يشتهيه صوتان أو صورتان - ليس في الطبيعة ما يقتضيه . وإنما
هو صنع الله الذي أتقن كل شيء ، وأحسن كل شيء خلقه . فبارك
الله رب العالمين ، وأحسن الخالقين . فيز سبحانه بين الأشخاص
بما يدركه السمع والبصر

(١٩) فصل

وأودع اللسان من المنافع منفعة الكلام - وهي أعظمها -
ومنفعة الذوق والادراك ، وجعله دليلا على اعتدال مزاج القلب
وانحرافه ، كما جعله دليلا على استقامته واعوجاجه . فترى الطبيب
يستدل بما يبدو للبصر على اللسان من الخشونة ، والملاسة ، واليباض
والحمرة ، والتشقق وغيره ، على حال القلب والمزاج . وهو دليل
قوى على أحوال المعدة والأمعاء ، كما يستدل السامع بما يبدو عليه من
الكلام على ما في القلب ، فيبدو عليه صحة القلب وفساده معنى وصورة

(٩٠) فصل

وجعل سبحانه اللسان عضواً لحما ، لا عظم فيه ولا عصب ، لتسهيل حركته . ولهذا لا تجد في الأعضاء من لا يكثرث بكثرة الحركة سواء . فان أى عضو من الأعضاء اذا حركته كما تحرك اللسان لم يطق ذلك ، ولم يلبث أن يكل ويخلد الى السكون ، الا اللسان . وأيضا فانه من أعدل الأعضاء وألطفها ، وهو فى الأعضاء بمنزلة رسول الملك ونائبه . فمزاجه من أعدل أمركة البدن ويحتاج الى قبض وبسط ، وحركة فى أقاصى الفم وجوانبه . فلو كان فيه عظام لم يتهيا منه ذلك ، ولم يتهيا منه الكلام التام ولا النطق التام . فكونه الله كما اقتضاه السبب الفاعلى والغاى . والله أعلم

(٩١) فصل

وجعل سبحانه على اللسان غلقين : أحدهما الاسنان ، والثانى الفم . وجعل حركته اختيارية . وجعل على العين غطاء واحدا . ولم يجعل على الاذن غطاء . وذلك لخطر اللسان وشرفه ، وخطر حرركاته ، وكونه فى الفم بمنزلة القلب فى الصدر . وذلك من اللطائف . فان آفة الكلام أكثر من آفة النظر ، وآفة النظر أكثر من آفة السمع . فجعل للاكثر آفات طبقيين ، وللهتوسط طبقا . وجعل الأقل آفة بلا طبق

(٩٢) فصل

وجعل سبحانه الفم أكثر الأعضاء رطوبة ، والرقيق يتحلل إليه دائماً لا يفارقه . وجعله حلوّاً لا مالحاً كما العين ، ولا مرّاً كالذئ في الأذن ، ولا عفناً كالذئ في الأنف ، بل هو أعذب مياه البدن وأحلاها . حكمة بالغة . فإن الطعام والشراب يخالطه ، بل هو الذي يحيل الطعام ويمتزج به امتزاج العجين بالماء . فلو لا أنه حلو لما التذ الانسان ، بل ولا الحيوان ، بطعام ولا شراب ولا ساغه الا على كره وتنغيص . ولما كان كثير من الطعام لا يمكن تحوله الا بعد طبخه ، جعل الرب تعالى له آلة للتقطيع والتفصيل ، وآلة للطحن . فجعل آلة القطع - وهي الشايات وما يليها - حادة الرؤس ليسهل بها القطع . وجعل النواجز وما يليها من الأضراس مسطحة الرؤس ، عريضة ، ليتأتى بها الطحن . ونظمها أحسن نظام كاللؤلؤ المنظم في سلك ، وجعلها من الجانب الأعلى والأسفل ، ليتأتى بها القطع والطحن . وجعلها من الجانب الايمن والاييسر ، اذ ربما كلت احدى الآلتين ، أو تعطلت أو عرض لها عارض . فينتقل الى الآلة الأخرى . وأيضاً لو كان العمل على جانب واحد دائماً أو شك أن يتعطل ويضعف

وتأمل كيف أنبتها سبحانه من نفس اللحم ، وتخرج من خلاله نابتة ، كما ينبت الزرع في الارض ، ولم يكسبها سبحانه لحماً .

كسائر العظام سواها ، اذ لو كساها اللحم لتعطلت المنفعة المقصودة .
ولما كانت العظام محتاجة الى لحم يكسوها ويحفظها ، ويتلقى عنها
الحرارة والبرد ، ويحفظ عليها رطوبتها ، لم تكل مصلحة الحيوان
الا بهذه الكسوة . ولما كانت عظام الانسان محتاجة الى ذلك
من وجه مستغنية عنه من وجه ، جعلت كسوتها منفصلة عنها
وجعلت هي المكتسبة العارية لتتام المنفعة بذلك . ولما كانت آلة
القطع والكسر والطحن لم تنشأ مع الطفل من أول نشأته - كسائر
عظامه ، لعدم الحاجة اليها - عطل عنها وقت استغنائه عنها
بالرضاع ، وأعطيا وقت حاجته اليها . وفيه حكمة أخرى ،
وهي أنه لو نشأت معه من حين يولد لأضرت بحيلة الشدي . اذ
لا عقل له يحرزه عن عضها ، فكانت الأم تمتنع من ارضاعه
ومن عجيب أمرها الاتفاق والموالاتة التي بينها وبين المعدة ،
فانه يسلم اليها الشيء اليابس والصلب فتطحنه ، ثم تسلمه الى
اللسان فيعجنه . ثم اللسان يسلمه الى الحلق فيوصله الى المعدة فتضججه
وتطبخه . ثم يرسل اليها منه معلومها المقدر لها . فاذا عجزت عن
قطع شيء وطحنه عجزت المعدة عن انضاجه وطبخه . واذا كلت
الأسنان كلت المعدة ، واذا ضعفت ضعفت

وهي تصحب الانسان وتخدمه ما لم يرها ، فاذا وقعت عينه

عليها فارقتها الأبد (١) وهى سلاح ومنشار ، وسكين ، وروح ، وزينة . وفيها منافع ومصالح غير هذه

(٩٣) فصل

ثم تأمل حال الشعر ومنبته وسببه . فان البدن لما كان حاراً رطباً . والحرارة اذا عملت فى الرطوبة فلا بد أن تثير بخاراً ، وتلك البخارة تتصاعد من عمق البدن الى سطحه ، وتريد الانفصال من هناك ، فلا بد أن تحدث مساماً ومنافذ فى ظاهر الجلد . وتلك البخارة اما أن تكون رطبة لطيفة ، حينئذ تنفصل من المسام ولا تحدث شيئاً . واما أن تكون دخانية يابسة غليظة ، فالجلد حينئذ إما أن يكون فى نهاية النعومة والنضارة ، كجلد الصبيان ، أو فى غاية اليبس والقشف ، أو يكون معتدلاً ، فاذ ذاك لا يتولد فيه الشعر . لأن البخار اذا شق سطح الجلد وانفصل عاد الجلد فى الحال الى اتصاله الأول ، بسبب كثرة رطوبته ونعومته . مثاله السمك اذا رفع رأسه من الماء انشق له الماء ، فاذا عاد الى الماء عاد الماء الى اتصاله الاول ، وكذلك نشاهد الأشياء الرطبة كالنشاء مثلاً - اذا أغلى فخرج البخار من موضع الغليان عادت الرطوبة الى الموضع الذى خرج منه ذلك البخار فسدته ، فان كان

(١) كأن الشيخ رحمه الله يريد الرؤية التى تكون بخلعها عن موضعها لا التى تكون بالمرآة مثلاً

الجلد في غاية اليبس لم يتولد الشعر ؛ لان الجلد اليابس اذا انثقب بقيت تلك الثقب مفتوحة ليس الجلد ، فيفرق أجزاءه البخار ولا يجتمع بعضه الى بعض . فان الجلد متوسط بين النعومة والكثافة ، فانه ينفث فيه المسام بسبب تلك الأبخرة ولا يعود ينسد بعد خروج البخار ، ولكن لا تبقى المسام شديدة الانفتاح ، وحينئذ يبقى ذلك البخار الدخان في تلك الثقب لا يزال يمدد بخار آخر يدفعه أولا فأولا الى خارج ، من غير أن ينقطع أصله ، فيبقى بعضه مركوزا في الجلد ، منزلته منزلة أصل النبات . وبعضه يطلع الى خارج ، منزلته منزلة ساق النبات . وكذلك الشعر . فمادة الشعر هي البخار الدخان اليابس . وسببه هو الحرارة الطبيعية المحركة لذلك البخار ، والآلة التي بها يتم أمره هي المسام التي ارتكن فيها البخار فتلبدهناك فصار شعرا باذن الله تعالى والغاية التي من أجلها وجد شيئان : أحدهما عام ، وهو تنقية البدن من الفضول الدخانية الغليظة . والآخر خاص ، وهو إما للزينة ، وإما للوقاية

وإذا بان أن الشعر انما يتولد مع الحرارة واليبس المعتدل بقيت ثلاثة أقسام : أحدها حرارة غالبية على اليبس ، كالصبيان . الثاني عكسه ، وهو ييبس غالب على الحرارة ، كالمشائخ . الثالث حرارة ضعيفة وييبس ضعيف ، كأبدان النساء . ففي هذه الأقسام

يقل الشعر . وأما الشباب فإن حرارة أبدانهم ويسهم معتدله فيقوى تولد الشعر فيهم

وفي شعر الرأس منافع ومصالح : منها وقايته عن الحر والبرد والمرض . ومنها الزينة والحسن

والسبب الذي صار به شعر الرأس أكثر من شعر البدن هو أن البخار شأنه أن يصعد من جميع البدن إلى الدماغ ، ومن الدماغ إلى فوق ، وكان هذا الشعر نامياً على الدوام ، لأن البخار يتصاعد إلى الرأس أبداً ، وهو مادة الشعر ، فبناء الشعر ينمو البخار . وكان فيه تخليص للبدن من تلك المواد وتكثير لوقايته وغطائه

٩٤ فصل

وأما شعر الحاجبين ففيه - مع الحسن والزينة والجمال - وقاية العين مما ينحدر من الرأس . وجعل على هذا المقدار لانه لو نقص عنه لزال منفعة الجمال والوقاية . ولو زاد عليه لغطى العين وأضر بها وحال بينها وبين ما تدركه . وقد ذكرنا منفعة شعر الهدب ولما كان الأنفع والأصلح أن يكون شعر الهدب قائماً منتصباً وأن يكون باقياً على حال واحد في مقدار واحد ، جعل منبت هذا الشعر في جرم صلب شبيه بالغضروف ، يمتد في طول الجفن ثلاثاً يطول وينمو . وهذا كما نشاهد النبات الذي ينبت في الأرض الرخوة اللينة فانه يطول ويزداد ، والذي ينبت في الأرض

الصخرية الصلبة لا ينمو الا نموا يسيرا . فكذلك الشعر النابت
فى الأعضاء اللينة الرطبة، فانه سريع النمو كشعر الرأس والعانة

(٩٥) فصل

وأما شعر المحية ففيه منافع : منها الزينة ، والوقار ، والهبة .
ولهذا لا يرى على الصبيان والنساء من الهيبة والوقار ما يرى على
على ذوى اللحي . ومنها التمييز بين الرجال والنساء
فان قيل : لو كان شعر اللحية زينة لكان النساء أولى به من
الرجال ، لحاجتهن إلى الزينة ، وكان التمييز يحصل بخلو الرجال منه،
ولكان أهل الجنة أولى به . وقد ثبت أنهم جرد مرد ؟
قيل : الجواب أن النساء لما كن محل الاستمتاع والتقبيل ، كان
الأحسن والأولى خلوهن عن اللحي . فان محل الاستمتاع إذا
خلا عن الشعر كان أتم . ولهذا المعنى - والله أعلم - كان أهل الجنة
مردا ، ليكمل استمتاع نسائهم بهم ، كما يكمل استمتاعهم بهن .
وأىضا فانه أ كشف لمحاسن الوجوه . فان الشعر يستر ماتحته من
البشرة أن يمس بشرة المرأة . والله أعلم بحكمته فى خلقه

(٩٦) فصل

وأما شعر العانة، والابط ، والأنف فمنفعته تنقية البدن من الفضلة،
ولهذا إذا أزيل من هذا الموضع وجد البدن خفة ونشاطا . وإذا

وفر وجد ثقلا وكسلا وغما . ولهذا جاءت الشريعة بحلق العانة ،
وتنف الابط . وكان حلق العانة أولى من تنفها لصلابة الشعر
وتأذى صاحبها بفتفه ، وكان تنف الابط أولى من حلقه لضعف
الشعر هناك وشدته وتعجل نباته بالحلق . فجاءت الشريعة بالأنفع
في هذا وهذا

(٩٧) فصل

وتأمل حكمة الرب تعالى في كونه أدخل الكفين والجنبه
والأخمصين من الشعر . فان الكفين خلقا حاكمين على الملموسات
فلو حصل الشعر فيهما لأخل بذلك ، وخلقاً للقبض ، وإصاق
اللحم على المقبوض أعون على جودته من التصاق الشعر به .
وأیضا فانهما آلة الأخذ والعطاء ، والأكل ، ووجود الشعر فيهما
يخل بتمام هذه المنفعة

وأما الأخمصان فلو نبت الشعر فيهما لأضر بالمشي وأعاقه في
المشي كثيرا لما يعلق شعره بما على الأرض ، ويتعلق شعره بما عليها
أيضا . هذا مع أن أكثر الأوتار والأغشية في الكفين مانع من
نفوذ الأبخرة فيها . وأما الأخمصين فان الأبخرة تتصاعد الى علو ،
وكما تصاعد كان الشعر أكثر . وأيضا فان كثرة وطء الأرض
بالأخمصين يصلبهما ويجعل سطحهما أملس لا ينبت شيئا ، كما أن
الأرض التي توطأ كثيرا لا تنبت شيئا

وأما الجبهة فلو نبت الشعر عليها لستر محاسنها ، واظلم الوجه ،
وتدلى على العين . وكان يحتاج الى حلقة دائماً ، ومنع العينين من
كمال الادراك . والسبب المؤدى لذلك أن الذى تحت عظم الجبهة
هو مقدم الدماغ ، وهو بارد رطب ، والبخار لا يتحرك منحرفاً
الى الجبهة ، بل صاعداً الى فوق

فان قيل : لم نبت شعر الصبي على رأسه وحاجبيه وأجفانه معه
من الصغر دون سائر الشعور ؟

قيل : لشدة الحاجة الى هذه الشعور الثلاثة أوجدها الله سبحانه
معه وهو جنين فى بطن أمه . فان شعر الرأس كالغطاء الواقى له
من الآفات . والأهداب والأجفان وقاية للعين
فان قيل : فلم تنبت له اللحية الا بعد بلوغه ؟

قيل : لأنه عند البلوغ تجتمع الحرارة فى بدنه ، وتكون أقوى
ماهى ، ولهذا يعرض له فى مثل هذا الطور البثرات والدمامل ،
وكثرة الاحتلام . واذا كثرت الحرارة كثرت الأبخرة بسبب
التحلل ، وزادت على القدر المحتاج اليه فى شعر الرأس ، فصرفها
أحكم الحاكمين الى نبات اللحية والعانة . وأيضاً فان بين أوعية المنى
وبين اللحية ارتباط : اذ العروق والمجارى متصلة بينهما . فاذا تعطلت
أوعية المنى ويبست تعطل شعر اللحية ، واذا قلت الرطوبة والحرارة
هناك قل شعر اللحية ؛ ولهذا فان الخصيان لا ينبت لهم لحى

فان قيل : فما العلة في الكوسج ؟ قيل : برد مزاجه ونقصان حرارته .

فان قيل : فما السبب في الصلع ؟ قيل : عدم احتباس الأبخرة في موضع الصلع

فان قيل : فلم كان في مقدم الرأس دون جوانبه ومؤخره ؟ قيل : لأن الجزء المقدم من الرأس بسبب رطوبة الدماغ يكون أكثر ليّنا وتحللا . فتتحلل الفضلات التي يكون منها الشعر ، فلا يبقى للشعر مادة هناك

فان قيل : فلم لم يحدث في الأصداع ؟ قيل : ان الرطوبة في الأسافل أكثر منها في الأعالي . وشاهده الأرض العالية والمنخفضة فان قيل : فلم لم تصلع المرأة إلا نادرا ، وكان الصلع في الرجال أكثر ؟ قيل : لان الاصل أنه يحدث من يبس في الجلد بمنزلة احتراقه ذلك لقوة الحرارة . واما النساء فالرطوبة والبرودة أغلب عليهن . ولهذا فان جلودهن أرطب من جلود الرجال ، فلا تجف جلود رؤسهن . فلا يعرض لهن الصلع . ولهذا لا يعرض للصبيان ، وان عرض للمرأة صلع فذلك في سن يبسها وبلوغها من الكبر عتيا

فان قيل : فما السبب في شدة سواد الشعر ؟ قيل : شدة البخارات الخارجة من البدن واعتدالها ، وصحة مادتها كخضرة الزرع فان قيل : ما سبب الصهوبة ؟ قيل : برد المزاج ، فتضعف الحرارة عن صبغ الشعر وتسويده

فان قيل : فما سبب الشقرة والحجرة ؟ قيل : زيادة الحرارة ، فتصبغ الشعر . ولهذا تجد الشقر أشد حرارة وأكثر حركة وهمة

فان قيل : فما سبب البياض ؟ قيل : البياض نوعان : أحدهما طبيعي ، وهو الشيب . والثاني خارج عن الطبيعة ، وهو ما يوجد في أواخر الأمراض المحففة بسبب تحالل الرطوبات ، كما يعرض للنبات عند الجفاف

فان قيل : فما سبب الطبيعي ؟ قيل : اختلف في ذلك . فقالت طائفة : سببه الاستحالة الى لون البلغم ، بسبب ضعف الحرارة في أبدان الشيوخ . وقالت طائفة : سببه أن الغذاء الصائر الى الشعر يصير باردا ، بسبب نقصان الحرارة ، ويكون بطيء الحركة مدة نفوذه الى المسام ، وجمعت طائفة بين القولين ، وقالوا : العلة في الأمرين واحدة ، وسببها نقصان الحرارة

فان قيل : فلم اختص الشيب بالانسان من بين سائر الحيوان ؟ قيل : لأن لحم الانسان وجلده رخوين ، وجلود الحيوانات ولحومها أقوى وأصلب . فلما غلظت مادة الشعر فيها لم يعرض له ما يعرض لشعر الانسان . ولهذا يكون شعرها كلها معها من حين ولادتها ، بخلاف الانسان . وأيضا فان الانسان يستعمل المطاعم المركبة المتنوعة وكذا المشارب ، ويتناول أكثر من حاجته ، فتجتمع فيه فضلات كثيرة ، فتدفعها الطبيعة الى ظاهر البدن . فدامت الحرارة قوية فانها تقوى على احراق تلك الفضلات ، فيتولد من إحراقها

الشعر الاسود . فاذا بلغ الشيخوخة ضعفت الحرارة وعجزت عن احراق تلك الفضلات ، فتعمل فيها عملا ضعيفا . وأما سائر الحيوانات فلا تتناول الأغذية المركبة وتتناول منها على قدر الحاجة . فلا يشيب شعرها . كما يشيب شعر الانسان . وأيضا فان في زمن الشيخوخة يكون أقل حرارة وأكثر رطوبة فيتولد البلغم ، وأما الحيوانات فليس غالب عليها

فان قيل : فلم كان شيب الاصداع في الأكثر مقدما على غيره ؟ قيل : لقرب هذا الموضع من مقدم الدماغ ، والرطوبة في مقدم الدماغ كثيرة ، لان الموضع مفصل ، والمفصل تجتمع فيه الفضلة الكثيرة ، فيكثر البرد هناك ، فيسرع الشيب

فان قيل : فلم أسرع الشيب في شعور الخصيان والنساء ؟ قيل أما النساء فلم يرد من اجهن في الاصل ، ولا اجتماع الفضلات الكثيرة فيهن . وأما الخصيان فلتوافر المنى على أبدانهم يصير دمهم غليظا بلغميا . ولهذا لا يحدث لهم الصلع

فان قيل : فلم كان شعر الابط لا يبيض ؟ قيل : لقوة حرارة هذا الموضع بسبب قربه من القلب ومسامه كثيرة بلغمية ، لانهما تتحلل بالعرق الدائم

فان قيل : فلم أبطأ بياض شعر العانة ؟ قيل : لأن حركة الجماع تحلل البلغم الذي في مسامه

فان قيل : فلم كانت الحيوانات تتبدل شعورها كل سنة ، بخلاف

الانسان ؟ قيل : لضعف شعورها عن الدوام والبقاء ، بخلاف شعر الأدمى

فان قيل : فما سبب الجعودة والسبوطه ؟ قيل : أما الجعودة فمن شدة الحرارة ، أو من التواء المسام ، فالذى من شدة الحرارة فانه تعرض منه الجعودة كما تعرض للشعر عند عرضه على النار . وأما الذى لا لتواء المسام فلأن البخار لضعفه لا يقدر أن ينفذ على الاستقامة فيلتوى فى المنافذ ، فتحث الجعودة

فان قيل : فما السبب فى طول شعر الميت وأظفاره بعد موته اذا بقى مدة ؟ قيل : عنه جوابان : أحدهما أنها لا تطول ، ولكن لما ينقص ماحولها يظن أنها زادت . الثانى - وهو أصوب - أن ذلك الطول من الفضلات البخارية التى تتحلل وهلة من الميت ، فيمتدعها الشعر والأظفر فان قيل : فلم كان المريض - وخاصة المحموم - ينقص لحمه ويزيد شعره ؟ قيل : ان فى المرض تكثر الفضلات ، فتطول الشعور والأظفار بها ، ويثقل الغذاء فيذوب اللحم . وأما فى الصحة فتقل الفضلات فلا تحتاج الطبيعة الى الغذاء وهضمها له ، واذا قلت الفضلات نفدت مادة الشعر ، فيبطىء

فان قيل : فما العلة فى انتصاب شعر الخائف والمقروور ، حتى يبقى كشعر القنفذ ؟ قيل : العلة فيه أن الجلد ينقبض وتجتمع المسام على الشعر وتتضايق عليه فينتصب

فان قيل : فلم انتصب شعر البدن واللحية واللحيتين؟ (١)
فان قيل : فلم كانت كثرة الجماع تزيد في شعر اللحية والجسد
وتنقص من شعر الرأس والأجفان ؟ قيل : لأن الشعر فيه ما يكون
طبيعيا من أول الخلقة . كاللحية وسائر شعر البدن . والأول يكون
من قوة الحرارة الأصلية ، والثاني من قوة الحرارة الخارجية ، فلا
جرم نقصت بسببه الشعور الأصلية وتوفرت العرضية
فان قيل : فلم كان الشعر في الانسان في الجزء المقدم أكثر منه
في المؤخر ، وباقي الحيوانات بالعكس ؟ قيل لأن الشعر إنما يكون
حيث تكون الحرارة قوية ، ويكون تحلل الجلد أكثر ، وهذا في
الانسان في ناحية الصدر والبطن ، وأما جلدة الظهر فمتكاثفة .
وأما ذوات الأربع ففي الخلف شعورها أكثر ، لأن البخار فيها
يرقى الى الخلف ، وأن تلك المواضع هي التي تتلقى الحر والبرد ،
فتحتاج الى وقاء أكثر

فان قيل : فلم كان الرأس بالشعر أحق الأعضاء ونباته أكثر ؟
قيل : لأن البخار يتصاعد ويطلب جهة الفوق وهو الرأس
ولا تستطل هذا الفصل فان أمر الشعر من السمات والفضلات
وهذا شأنه ، فما الظن بغيره من الأجزاء الأصلية ؟ فإذا كانت هذه
قليلة من كثير من حكمة الرب تعالى في الشعور ومواضعها ومنافعها
(١) سقط جواب هذا السؤال ، ولعله بقية جواب السؤال الذي
قبله . فتحرف الكلام عنه الى ماتري . فتأمل

فكيف بحكمته في الرأس ، والقلب ، والكبد ، والصدر ، وغيرها ؟ ولا تضجر من ذلك ، فإن الخلق فيه من الفقه والحكم نظير ما في الامر . فالرب تعالى حكيم في خلقه وأمره ، ويحب من يفقه عنه ذلك ، ويستدل على كمال حكمته ، وعلمه ، ولطفه ، وتدبيره ، فإذا كان الله لم يضع هذه الفضلات في الانسان سدى فما الظن بغيرها ؟

(٩٨) فصل

ونحن نذكر فصلا مختصرا في حال الانسان من مبدئه الى نهايته لنجعله مرآة له ينظر فيها قول خالقه وبارئه (٥١ : ٢١) وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ؟)

لما اقتضى كمال الرب تعالى - جل جلاله - وقدرته التامة ، وعلمه المحيط ، ومشيعته النافذة ، وحكمته البالغة ، تنويع خلقه من المواد المتباينة . وأنشأهم من الصور المختلفة ، والتباين العظيم بينهم في المواد والصور والصفات والهيئات والاشكال والطباع والقوى ، اقتضت حكمته أن أخذ من الارض قبضة من التراب ، ثم ألقى عليها الماء ، فصارت مثل الحما المسنون ، ثم أرسل عليها الريح فجففها ، حتى صارت صلصالا كالفخار ، ثم قدر لها الاعضاء والمنافذ والاوصال والرطوبات ، وصورها فأبدع في تصويرها ، وأظهرها في أحسن الاشكال ، وفصلها أحسن تفصيل ، مع اتصال

أجزاءها، وهياً كل جزء منها لما يراى منه ، وقدره لما خلق له على أبلغ الوجوه، ففصلها فى توصيلها، وأبدع فى تصويرها وتشكيلها، والملائكة تراها ولا تعرف ما يراى منها، وإبليس يطيف بها، ويقول : لأمرا ما خلقت. فلها تكامل تصويرها، وتشكيلها، وتقدير أعضائها وأوصالها وصارت جسدا مصورا مشكلا كأنه ينطق، إلا أنه لا روح فيه ولا حياة، أرسل إليه روحه، فنفخ فيه نفخة، وانقلب ذلك الطين لحما ودماء وعظاما وعروقا وسمعا وبصرا وشما ولمسا وحركة وكلاما. فأول شئ بدأ به أن قال « الحمد لله رب العالمين » فقال له خالقه وبارئه ومصوره « يرحمك الله يا آدم » فاستوى جالسا أجمل شئ وأحسنه منظرا، وأتمه خلقا، وأبدعه صورة. فقال الرب تعالى لجميع ملائكته (اسجدوا لآدم) فبادروا بالسجود، تعظيما وطاعة لأمر الواحد المعبود. ثم قال لهم : لنا فى هذه القبضة من التراب شرع أبدع مما ترون، وجمال باطن أحسن مما تبصرون. فلنزين باطنه أحسن من زينة ظاهره، ولنجعلنه من أعظم آياتنا، نعلمه أسماء كل شئ، مما لا تحسنه الملائكة. فكان التعليم زينة الباطن وجماله، وذلك التصوير زينة الظاهر فى أكمل شئ وأجمله صورة. ومعنى كل ذلك صنيعه تبارك وتعالى فى قبضة من تراب. ثم اشتق منه صورة هى مثله فى الحسن والجمال، ليسكن إليها وتقر نفسه، وليخرج من بينهما من لا يحصى عدده من الرجال والنساء سواء

(٩٩) فصل

ثم لما أراد الله سبحانه أن يذر نسلهما في الارض ويكثره ، وضع فيهما حرارة الشهوة ونار الشوق والطلب ، وألهم كلا منهما اجتماعه بصاحبه ، فاجتمعا على أمر قد قدر . فاسمع الآن عجائب ما هناك : لما شاء الرب تعالى أن يخرج نسخة هذا الانسان منه أودع جسده حرارة ، وسلط عليه هيجانها ، فصارت شهوة غالبية ، فاذا هاجت حرارة الجسد تحللت الرطوبات من جميع أجزاء الجسد ، وابتدأت نازلة من خلف الدماغ ، في عروق خلف الاذنين الى قفا الظهر ، ثم تخرج الى السكيتين . ثم تجتمع في أوعية المنى ، بعد أن طبختها نار الشهوة ، وعقدتها حتى صار لها قوام وغلظ ، وقصرتها حتى ابيضت ، وقدر لها مجارى وطرق تنفذ فيها . ثم اقتضت حكمته سبحانه أن قدر لخروجها أقوى الاسباب المستفرغة لها من خارج ومن داخل . فقيض لها صورة حسنها في عين الناظر ، وشوقه اليها ، وساق أحدهما الى الآخر بسلسلة الشهوة والمحبة ، فحن كل منهما الى امتزاجه بصاحبه ، واختلاطه به ، ليقضى الله أمراً كان مفعولاً . وجعل هذا محل الحرث ، وهذا محل البذر . ليلتقى الماءان على أمر قد قدر . وقدر بينهما تلك الحركات لتعمل الحرارة في تلك الرطوبة والفضلة عملها ، واستخرجها من تحت الشعر والبشر والظفر . لتوافق نسخة الأصل ويكون

الداعي الى التناسل في غاية القوة ، فلا ينقطع النسل . ولهذا لا تجد في منى الاحتلام من القوة ما في منى الجماع ، وإنما هو من فضلة حرارة تذيب الرطوبة ، فتنفذ فيها الطبيعة الى خارج ، من نوع تصور خيال بواسطة الشيطان . كما في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « الرؤيا الصالحة من الله ، والحلم من الشيطان » فان قيل : فهذا اختيار منكم لقول من قال : إن المنى يخرج من جميع أجزاء البدن ، وهذا وإن كان قد قاله كثير من الناس فقد خالفهم آخرون ، وزعموا أنه فضلة تتولد من الطعام ، وهي من أعدل الفضلات . ولهذا صلحت أن تكون مبدأ الانسان ، وهو جسم متشابه الأجزاء في نفسه ، قيل : القول الأول هو الصواب ويدل عليه وجوه : منها عموم اللذة بجميع أجزاء البدن . ومنها مشاكلة أعضاء المولود لأعضاء الوالدين . ومنها أن المشابهة الكلية تدل على أن البدن كله أرسل المنى ، ولولا ذلك لكانت المشابهة بحسب محل واحد . فدل على أن كل عضو أرسل قسطه ونصيبه . فلما انعقد وصلب ظهرت محركاته ومشابهته له . ومنها أن الأمر لو كان كما زعمه أصحاب المقالة الثانية : من أن المنى جسم واحد متشابه في نفسه لم تتولد منه الأعضاء المختلفة المتشكلة بالأشكال المختلفة . لأن القوة الواحدة لا تفعل في المادة الواحدة إلا فعلا واحدا . فدل على أن المادة في نفسها ليست متشابهة الأجزاء . ومنها أن المنى فضلة الهضم الآخر . وذلك إنما يكون عند نضج الدم في العروق

وكونه مستعدا استعدادا تاما لأن يصير من جوهر الأعضاء . وكذلك عقيب استفراغه من الضعف . أكثر مما يحصل من استفراغ أمثاله من الدم . ولذلك يورث الضعف في جوهر الأعضاء الأصلية . فدل على أنه مركب من أجزاء كل منهما قريب الاستعداد لأن يصير جزءا من عضو . ولذلك سماه الله سلالة ، والسلالة فعالة من السل وهو ما يسيل من البدن ، كالبخار ، كما سمي أصله سلالة من طين ، لأنه استلها من جميع الأرض ، كما في جامع الترمذى عن النبي صلى الله عليه وسلم « إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض »

قال أصحاب القول الآخر - وهم جمهور الأطباء وغيرهم : لو كان الأمر كما زعمتم ، وأن المنى يستل من جميع الأعضاء ، لكان إذا حصل منى الذكر ومنى الأنثى في الرحم تشكل المولود بشكليهما معا ، ولكان الرجل لا يلد إلا ذكرا دائما ، لأن المنى قد استل عندكم من جميع أجزائه ، فاذا انعقد وجب أن يكون مثله . وأيضا فإن المرأة تضع من وطء الرجل في البطن الواحد ذكرا وأنثى ولا يمكن أن يقال أن ذلك بسبب اختلاف أجزاء المنى .

قالوا : ولا نسلم عموم اللذة ، لأنها إنما حصلت حال الاندفاع ، بسبب سيلان تلك المادة الحارة جارية على تلك المجارى اللحمية التي لمحتها رخوة ، شبيهة باللحم القريب العهد بالاندمال . إذا سال عليه شيء ، وهو معتدل السخونة . ولو كانت اللذة إنما حصلت بسبب سيلان تلك

المادة لحصلت قبل الاندفاع . قالوا : وأما احتجاجكم بالتشابه المذكور بين الوالد والمولود فالمشابهة قد تقع في الظفر والشعر ، وليس يخرج منهما شيء . وأيضا فالمولود قد يشبه جداً بعيداً من أجداده . كما ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم : ان رجلاً سأل ، فقال : ان امرأتى ولدت غلاماً أسود . قال « هل لك من ابل ؟ » قال : نعم . قال « فما ألوانها ؟ » قال : سود . قال « هل فيها من أورك ؟ » قال : نعم . قال « فأنتى له ذلك ؟ » قال : عسى أن يكون نزع عرق . قال « وهذا عسى أن يكون نزع عرق »

قالوا : ولو كان في المنى من كل عضو أجزاء ، فلا تخلو تلك الاجزاء ، إما أن تكون موضوعة في المنى وضعها الواجب ، أو لا تكون كذلك : فان كانت موضوعة وضعها الواجب كان المنى حيواناً صغيراً ، وإن لم تكن كذلك استحالت المشابهة .

قالوا : وأيضا فان المنى إما أن يكون مركباً على تركيب هذه الاعضاء وترتيبها أولاً لا يكون كذلك . فالاول باطل قطعاً ؛ لان المنى رطوبة سيالة فلا تحفظ الوضع ، والترتيب . وان كانت ثقيلة . فتعين الثاني ، ولا بد قطعاً أن يحال ذلك الترتيب والتصوير والتشكيل على سبب آخر سوى القوة التي في المادة ؛ فانها قوة لا شعور لها ولا ادراك ، ولا تهتدى لهذه التفاصيل التي في الصورة الانسانية ، بل هذا التصوير والتشكيل مستند إلى خالق عليم حكيم قد بهرت حكمته العقول ، ودلت آثار صنعته على كمال أسماؤه وصفاته

وتوحيده . وقد اعترف بذلك فاضلا الأطباء ، وهما بقراط وأفلاطون وأقرا بأن ذلك مستند الى حكمة الصانع وعنايته ، وأنه لم يصدر الا عن حكيم عليم قدير ، ذكره جالينوس عنهما في كتاب رأى بقراط وأفلاطون ، فأبى جهلة الاطباء وزنادقة المتفلسفة والطبائعين الا كفورا . وقد ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم من حديث حذيفة بن أسيد (١) « إن الله وكل بالرحم ملكا يقول : يارب نطفة ، يارب علقة ، يارب مضغة . فما الرزق ؟ فما الأجل ؟ فما العمل ؟ فيقضى الله ما يشاء ، ويكتب الملك » وفي لفظ « يقول الملك الذي يخلقها » أى يصورها باذن الله ، أى يصور خلقه في الأرحام كيف شاء الله ، لا إله الا هو العزيز الحكيم

فقال أصحاب القول الأول : نحن أحق بالتنزيه والتوحيد ، ومعرفة حكمة الخالق العليم وقدرته وعلمه ، وأسعد به منكم . ومن أحال من سفهائنا وزنادقتنا هذا التخليق على القوة المصورة ، والأسباب الطبيعية ، ولم يسندوها الى فاعل مختار عالم بكل شئ ، قادر على كل شئ

(١) أسيد - بفتح الهمز - قال في الاصابة : أخرج له مسلم وأصحاب السنن . والحدِيث في البخارى في باب : واذا قال ربك للملائكة انى جاعل فى الارض خليفة ، من كتاب بدء الخلق - عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال « ان الله وكل فى الرحم ملكا ، فيقول : يارب نطفة ، يارب علقة . يارب مضغة . فاذا أراد أن يخلقها قال : يارب أذكر ؟ يارب أنثى ؟ يارب شقى أم سعيد ؟ فما الرزق ؟ فما الاجل ؟ فيكتب كذلك فى بطن أمه »

لا يكون شيء الا باذنه ومشئته ، والقوة والطبيعة خلق مسخر من خلقه ، وعبد من جملة عبيده ، ليس لها تصرف ، ولا حركة ولا فعل الا باذن بارئها وخالقها - فذلك الذى جهل نفسه وربّه ، وعادى الطبيعة والشرعية . والرب تعالى يخلق ما يشاء ويختار ، ويصور خلقه فى الارحام كيف يشاء ، بأسباب قدرها ، وحكم دبرها . واذا شاء أن يسلب تلك الأسباب قواها سلبها . واذا شاء أن يقطع مسبباتها عنها قطعها ، واذا شاء أن يهيئ لها أسبابا أخرى تقاومها وتعارضها فعل ، فانه الفعال لما يريد . وليس فى كون المني مستلا من جميع أجزاء البدن ما يخرج الحوالة على قدرته ومشئته وحكمته ، بل ذلك أبلغ فى الحكمة والقدرة

وأما قولكم : لو كان المني مستلا من جميع الأعضاء لكان الولد يتشكل بشكلهما معا ، فقد أجاب النبي صلى الله عليه وسلم عن سألته عن ذلك بما شفى وكفى . فى صحيح البخارى من حديث أنس رضى الله عنه قال : بلغ عبد الله بن سلام مقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ، وهو فى أرضه يخترق ، فأتاه ، وقال : انى سائلك عن ثلاث لا يعلمهن الا نبي : ما أول أشراط الساعة ؟ وما أول طعام يأكله أهل الجنة ؟ ومن أى شيء ينزع الولد إلى أبيه ؟ ومن أى شيء ينزع إلى اخواله ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أخبرني بهن آفأ جبريل » فقال عبد الله : ذاك عدو اليهود من الملائكة « أما أشراط الساعة فنار تحترق الناس من المشرق الى المغرب ، وأما

أول طعام يأكله أهل الجنة فزيادة كبد الحوت ، وأما الشبه في الولد فإن الرجل اذا غشى المرأة فسبق ماؤه كان الشبه لها » فقال أشهد أنك رسول الله . فهذا جواب جبريل أمين رب العالمين ، لا جبريل الطبيب . وفي صحيح مسلم من حديث ثوبان عن النبي ﷺ « اذا علا ماء الرجل ماء المرأة أذكر باذن الله . وإذا علا ماء المرأة ماء الرجل آنت باذن الله » وقد يتفق الماآن في الانزال والقدر : وذلك من اندر الأشياء ، فيخلق للولد ذكر كذكر الرجل وفرج كفرج المرأة ، فاذا شاء الله أن يغلب سلالة ماء الرجل على ماء المرأة أو سلالتها أمر ملك الارحام بتصويره كذلك . فان ذلك لا يخل بحكمته ولا يخرق عادته ، ولو خرقها لم يخل بحكمة أحكم الحاكمين وأما منعكم عموم اللذة فشبيهه بالمكابرة ، والمجامع يجد عند الانزال شيئاً قد استل من جميع بدنه وسمعته وبصره وقواه في قالب الرحم . فيحس كأنه خلع قميصاً كان مشتملاً به . ولهذا اقتضت حكمة الرب تعالى في شرعه وقدره أن أمره بالاغتسال عقيب ذلك ، ليخلف عليه الماء ما تحلل من بدنه من ماء . وإذا اغتسل وجد نشاطاً وقوة ، وكأنه لم ينقص منه شيء . فان رطوبة الماء تخلف على البدن ما حللته تلك الحركة من رطوباته ، وتعمل فيها الحرارة الأصلية عملها ، فتمد بها القوى التي ضعفت بالانزال وأما التشابه الواقع بين الظفر والشعر في الوالد والمولود ، ولم يفصل بينهما شيء فما أبردها من شبهة . فان الظفر والشعر تابعان

للاعضاء ، والمزاج الذى وقع فيه التشابه ، فاستتبع تشابه الأصل
تشابه النوع

وأما شبه المولود بالجد البعيد من أجداده فهو من أقوى الأدلة
لنا فى المسألة ، لان ذلك الشبه البعيد لم يزل يتنقل فى الإصلا ب
حتى استقر فى صورة الولد ، وبها حصل الشبه
وأما قولكم : إن تلك الأجزاء لا تخلو إما ان تكون موضوعة
فى المنى وضعها الواجب أولا انى آخره ، فجوابكم انكم ان عنيتم انها
موضوعة بالفعل فليس كذلك ، وان أردتم انها موضوعة بالقوة
فنعم . وما المانع منه ، ويكون المنى حيواناً صغيراً بل كبيراً بالقوة ؟
وبهذا ظهر الجواب عن قولكم : ان المنى رطوبة سيالة لا تحفظ
الوضع والترتيب . وغاية ما يقدر أن ذلك جزء من أجزاء السبب
الذى يخلق الله به الولد ، وجزء السبب لا يستقل بالحكم . فالمستقل
بالإيجاد مشيئة الله وحده ، والاسباب محال الظهور

(١٠٠) فصل

فان قيل : فهذا تصريح منكم بأن المرأة لها منى ، وأن منها احد
الجزئين اللذين يخلق الله منهما الولد . وقد ظن طائفة من الأطباء
أن المرأة لا منى لها .

قيل هذا هو السؤال الذى أوردته أم المؤمنين عائشة رضى
الله عنها ، وأم سلمة رضى الله عنها على النبى صلى الله عليه وسلم

وأجابهما عنه باثبات منى المرأة . ففي الصحيح أن أم
سليم رضى الله عنها قالت : يا رسول الله ، ان الله لا يستحي من
الحق ، هل على المرأة من غسل اذا هي احتلمت ؟ قال « نعم ،
اذا رأت الماء » ، فقالت أم سلمة : أو تحتلم المرأة ؟ فقال « ترأت
يداك ، فبم يشبهها ولدها ؟ » وفيهما عن عائشة رضى الله عنها أن أم
سليم رضى الله عنها سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المرأة
تري في منامها ما يرى الرجل ، هل عليها من غسل ؟ قال « نعم ، اذا
رأت الماء » ، قالت ، فقلت له : افترى المرأة ذلك ؟ فقال رسول
الله صلى الله عليه وسلم « وهل يكون الشبه الا من ذلك ؟ اذا علا
ماؤها ماء الرجل أشبهه الولد أخواله . واذا علا ماء الرجل ماءها
أشبهه أعمامه » هذا لفظ مسلم . وقد ذكر جالينوس التشنيع على
ارسطاليس ، حيث قال : ان المرأة لا منى لها ، فلنحذر هذه المسئلة
طبعاً . كما حررت شرعاً فنقول :

منى الذكر من جملة الرطوبات والفضلات التي في البدن ، وهذا
أمر يشترك بين الذكر والأنثى ، منه رأساً يتخلق الولد ، وبواسطته
يكون الشبه . ولولم يكن للمرأة منى لما أشبهها ولدها .
ولا يقال : ان الشبه سببه دم الطمث . فانه لا يتقدم مع منى الرجل ،
ولا يتحد به وقد أجرى الله العادة بأن التوالد لا يكون الا بين أصليين
يتولد من بينهما ثالث : ومنى الرجل وحده لا يتولد منه الولد لما يمازجه

مادة أخرى من الأثني . وقد اعترف أرباب القول الآخر بذلك
 وقالوا : لا بد من وجود مادة بيضاء لزجة للمرأة تصير مادة لبدن
 الجنين ، ولكن نازعوا : هل فيها قوة عاقدة ، كما في منى الرجل
 أم لا ؟ وقد أدخل النبي صلى الله عليه وسلم هذه المسئلة في
 الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه ، من حديث ثوبان مولاه ، حيث
 سأله اليهود عن الولد ، فقال « ماء الرجل أبيض ، وماء المرأة
 أصفر ، فاذا اجتماعا ، فعلا منى الرجل منى المرأة أذكر باذن الله . وإذا
 علا منى المرأة منى الرجل أنت باذن الله » نعم لمنى الرجل خاصة الغلظ
 والبياض ، والخروج بدفق ودفع . فان أراد من نفى منى المرأة
 انتفاء ذلك عنها أصاب ، ومنى المرأة خاصته الرقة ، والصفرة ،
 والسيلان بغير دفع . فان نفى ذلك عنها خطأ . وفي كل من المائين
 قوة ، فاذا انضم أحدهما الى الآخر اكتسبا قوة ثالثة ، وهى من
 أسباب تكون الجنين ، واقتضت حكمة الخلاق العليم سبحانه
 أن جعل داخل الرحم خشنا كالسفننج ، وجعل فيه طلباً للبنى وقبولا
 له ، كطلب الأرض الشديدة العطش للماء وقبولها له . فجعله طالبا
 حافظاً مشتاقا اليه بالعطش . فلذلك اذا ظفر به ضمه ولم يضيعه ،
 بل يشتمل عليه أتم الاشتمال ، وينضم أعظم انضمام ، لئلا يفسده
 الهواء ، فيتولى القوة والحرارة التى هناك باذن الله ملك الرحم . فاذا
 اشتمل على المنى ولم يقذف به الى خارج استدار على نفسه وصار

كالكرة ، وأخذ في الشدة إلى تمام ستة أيام . فاذا اشتد نقط فيه نقطة في الوسط ، وهو موضع القلب . ونقطة في أعلاه ، وهي نقطة الدماغ . وفي اليمين ، وهي نقطة الكبد . ثم تتباعد تلك النقط ويظهر بينها خطوط حمراء ، إلى تمام ثلاثة أيام آخر ، ثم تنفذ الدموية في الجميع بعد ستة أيام آخر ، فيصير ذلك خمسة عشر يوماً . ويصير المجموع سبعة وعشرين يوماً . ثم ينفصل الرأس عن المنكبين ، والأطراف عن الضلوع ، والبطن عن الجنبين . وذلك في تسعة أيام ، فتصير ستة وثلاثين يوماً . ثم يتم هذا التمييز بحيث يظهر للحس ظهوراً بيناً في تمام أربعة أيام . فيصير المجموع أربعين يوماً تجمع خلقه . وهذا مطابق لقول النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث المتفق على صحته « إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً » واكتفى النبي صلى الله عليه وسلم بهذا الإجمال عن التفصيل ، وهذا يقتضى أن الله قد جمع فيها خلقها جمعاً خفياً ، وذلك الخلق في ظهور خفي على التدريج ، ثم يكون مضعة أربعين يوماً أخرى ، وذلك التخليق يتزايد شيئاً فشيئاً إلى أن يظهر للحس ظهوراً لا خفاء به كله ، والروح لم تتعلق به بعد ، فانها إنما تتعلق به في الأربعين الرابعة بعد مائة وعشرين يوماً ، كما أخبر به الصادق ، وذلك مملاً سبيلاً إلى معرفته إلا بالوحي ، إذ ليس في الطبيعة ما يقتضيه ، فلذلك حار فضلاء الأطباء وأذكىاء الفلاسفة في ذلك ، وقالوا : إن هذا مملاً لا سبيل إلى معرفته إلا بحسب الظن البعيد .

قال من وقف على نهايات كلامهم في ذلك دأب فيه حتى كل ، وهو صاحب الطب الكبير ، فذكر مناسبات خيالية ثم قال : وحقيقة العلم فيه عند الله تعالى ، لا متمع لأحد من الخلق في الوقوف عليه قلت : قد أوقفنا عليه الصادق المصدوق عليه السلام الذي لا ينطق عن الهوى بما ثبت في الصحيحين « إن خلق أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين يوماً ، ثم يكون علقه مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يبعث إليه الملك ، فينفخ فيه الروح . ويؤمر بأربع : يكتب رزقه وأجله ، وعمله ، وشقى أو سعيد »

(١٠١) فصل

ورأيت لبعض الأطباء كلاماً ذكر فيه سبب تفاوت زمن الولادة فأذكره وأذكر مافيه :

قال : إذا تم خلق الجنين في مدة معينة فأنها إذا زاد عليها مثلها تحرك الجنين . فإذا انضاف إلى المجموع مثله انفصل الجنين . قال : فإذا تم خلقه في ثلاثين يوماً ، فإذا صار له ستون يوماً تحرك ، فإذا انضاف إلى الستين مثلاً ، صارت مائة وثمانين يوماً وهي ستة أشهر ، وهي مدة ينفصل لها الحمل . وإذا تم خلقه في خمسة وثلاثين يوماً تحرك لسبعين ، وانفصل لسبعة أشهر ، وإذا تم خلقه لأربعين تحرك لثمانين ، وانفصل لثمانية أشهر . وإذا تم لخمسة وأربعين تحرك لتسعين . وانفصل لتسعة أشهر . وعلى هذا الحساب أبداً

وهذا الذى ذكره هذا القائل يقتضى حركة الجنين قبل الأربعين وهذا خطأ قطعاً . فان الروح انما تتعلق به بعد الأربعين الثالثة ، وحينئذ يتحرك ، فلا تثبت له حركة قبل مائة وعشرين يوماً ، وما يقدر من حركة قبل ذلك فليست حركة ذاتية اختيارية ، بل لعلها حركة عارضة بسبب الأغشية والرطوبات . وما ذكره من الحساب لا يقوم عليه دليل ولا تجربة مطردة ، فربما زاد على ذلك أو نقص منه ، ولكن الذى نقطع به أن الروح لا تتعلق به إلا بعد الأربعين الثالثة ، وما يقدر من حركة قبل ذلك ان صحت لم تكن بسبب الروح . والله أعلم

(١٠٢) فصل

وأما أقل مدة الحمل فقد تظاهرت الشريعة والطبيعة على أنها ستة أشهر وقال تعالى (٤٦: ١٥) وَحَمَلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا (وقال تعالى (٢: ٢٣٣) وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنْسَبَ الرِّضَاعَ) وقال جالينوس : كنت شديد الفحص عن مقادير أزمانة الحمل ، فرأيت امرأة واحدة ولدت فى مائة وأربع وثمانين ليلة . وزعم صاحب الشفاء أنه شاهد ذلك ، وأما أكثره فقال فى الشفاء : بلغنى من حيث وثقت أن امرأة وضعت بعد الرابع من رأس الحمل ولداً قد نبتت أسنانه وعاش .

(١٠٣) فصل

فان قيل : فما سبب الاذكار والايثاث ؟ قيل : الذي تختاره أن سببه مشيئة الرب الفاعل باختياره ، وليس بسبب طبيعي ، وكل ما ذكر أصحاب الطبائع من الأسباب فمتنقض مثل حزارة الرجل ورطوبته ، قالوا : وفساد المزاج أيضا يوجب إيلاد الأناث ، واستقامته توجب الاذكار . وهذا تخليط وهذيان . فليس للاذكار والايثاث إلا قول الله لملك الأرحام ، وقد استأذن « يارب ذكر ، يارب أنثى ، يارب شقى أم سعيد . فما الرزق ، فما الأجل ؟ » والاذكار والايثاث قرين السعادة ، والشقاوة ، والرزق ، والأجل

فان قيل : فتلك أيضا بأسباب ؟ قلنا : نعم ، ولكن بأسباب بعد الولادة ، ولا سبب للاذكار والايثاث قبل الولادة

فان قيل : فما تصنعون بحديث ثوبان الذي رواه مسلم في صحيحه أن يهوديا سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن الولد ، فقال : « ماء الرجل أبيض ، وماء المرأة أصفر ، فإذا اجتمعا ، فعلا منى الرجل منى المرأة أذكر باذن الله ، وإذا علا منى المرأة منى الرجل آنت باذن الله » فقال اليهودي : صدقت ، وانك لنبي . قيل : هذا الحديث تفرد به مسلم في صحيحه . وقد تكلم فيه بعضهم . وقال : الظاهر أن الحديث وهم فيه بعض الرواة ، وإنما كان السؤال عن الشبه وهو الذي سأل عنه عبدالله بن سلام في الحديث المتفق على صحته

فأجابه بسبق الماء . فان الشبه يكون للسابق . فاعل بعض الرواة انقلب عليه شبه الولد بالمرأة بكونه أنثى . وشبهه بالوالد بكونه ذكراً ، لا سيما والشبه التام إنما هو بذلك

وقالت طائفة : الحديث صحيح لامطعن في سنده . ولا منافاة بينه وبين حديث عبد الله بن سلام . وليست الواقعة واحدة ، بل هما قضيتان ، ورواية كل منهما غير رواية الأخرى . وفي حديث ثوبان قضية ضبطت وحفظت . قال ثوبان : كنت قائماً عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجاء خبر من أحبار اليهود ، فقال : السلام عليك يا محمد فدفعته دفعة كاديصرع منها . فقال : لم تدفعني ؟ فقلت : ألا تقول يا رسول الله ؟ فقال اليهودي : إنما ندعوه باسمه الذي سماه به أهله . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن اسمي محمد أ الذي سماني به أهلي » فقال اليهودي : جئت أسألك . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أينفعك شيء إن حدثت ؟ » قال : أسمع بأذني ، فنكت رسول الله صلى الله عليه وسلم بعود معه . فقال اليهودي : أين يكون الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « هم في الظلمة دون الجسر » قال : فمن أول الناس إجازة ؟ قال « فقراء المهاجرين » قال اليهودي : فما تحفتهم حتى يدخلوا الجنة ؟ قال « زيادة كبد الحوت » قال : فما غذاؤهم على أثرها ؟ قال « ينحر لهم ثور الجنة الذي يأكل من أطرافها » قال : فما شرابهم عليه ؟ قال « من عين فيها تسمى سلسيلا » قال : صدقت . قال : وجئت أسألك عن

شئ لا يعلمه أحد إلا نبي أو رجل أو رجلان . قال « أينفك إن حدثتك ؟ » قال أسمع بأذني . قال : جئت أسألك عن الولد . قال « ماء الرجل أبيض ، وماء المرأة أصفر . فإذا اجتمعا ، فعلا مني الرجل مني المرأة أذكر بأذن الله . وإذا علا مني المرأة مني الرجل أنت بأذن الله » قال اليهودي : لقد صدقت ، وإنك لني . ثم انصرف ، فذهب . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لقد سألني هذا الذي سألني عنه ومالي علم به ، حتى أتاني به الله » وأما حديث عبد الله بن سلام رضى الله عنه ، ففي صحيح البخارى عن أنس رضى الله عنه قال : بلغ عبد الله بن سلام مقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ، فأتاه ، فقال : إني سأللك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبي : ما أول أشرط الساعة ؟ وما أول طعام يأكله أهل الجنة ؟ ومن أى شئ ينزع الولد إلى أبيه ، ومن أى شئ ينزع إلى أخواله ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « خبرني آتفا جبريل » فقال عبد الله ذاك عدو اليهود من الملائكة فقال « أما أول أشرط الساعة فنار تحشر الناس من المشرق الى المغرب . وأما أول طعام يأكله أهل الجنة فزيادة كبد الحوت . وأما الشبه فى الواد فان الرجل إذا غشى المرأة فسبقها ماؤه كان الشبه له . وإذا سبقت كان الشبه لها » قال أشهد أنك رسول الله . وذكر الحديث

فتضمن الحديثان أمرين ترتب عليهما الاثران معا ، وأيهما

انفرد ترتب عليه أثره . فاذا سبق ماء الرجل وعلا أذ كر ، وكان الشبه له . وإن سبق ماء المرأة وعلا آنت ، وكان الشبه لها . وإن سبق ماء المرأة وعلا ماء الرجل أذ كر . وكان الشبه لها . ومع هذا كله فهذا جزء سبب ليس بموجب . والسبب الموجب مشيئة الله فقد يسبب بضد السبب ، وقد يرتب عليه ضد مقتضاه ولا يكون في ذلك مخالفة لحكمته ، كما لا يكون تعجيزا لقدرته . وقد أشار في الحديث إلى هذا بقوله « أذ كر وآنت باذن الله » وقد قال تعالى (٤٢ : ٤٩) **لِلّٰهِ مُلْكُ السَّمٰوٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَآثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ الذَّكَوٰرَ ۝٥٠ أُوْزُوْجَهُمْ ذَكَرًا وَإِنَآثًا وَيَجْعَلُ مِّنْ يَّشَآءُ عَقِيْمًا ۗ إِنَّهُٗ عَلِيْمٌ قَدِيْرٌ**) فأخبر سبحانه أن ذلك عائد إلى مشيئته وأنه قديس الذكور فقط ، والإناث فقط . وقد يجمع للوالدين بين النوعين معا ، وقد يخليهما عنهما معا ، وأن ذلك كما هو راجع إلى مشيئته فهو متعلق بعلمه وقدرته . وقد وهب الله آدم الذكور والإناث ، وإسرائيل الذكور دون الإناث . ومحمد **ﷺ** الإناث دون الذكور ، سوى ولده إبراهيم (١) وقال سليمان عليه السلام « لأطوفن الليلة على سبعين امرأة ، تأتي كل امرأة بغلام يقتال

(١) قد ولد للنبي صلى الله عليه وسلم من خديجة من الذكور القاسم وهو أول أولاده ، وبه كان يكنى - وعبد الله والطيب والظاهر . وقيل : إن الطيب والظاهر لقباً لعبد الله . وولده من جاريته مارية إبراهيم . وكلهم ماتوا أطفالا

في سبيل الله فطاف عليهن فلم تلد منهن إلا امرأة واحدة ، جاءت بشق ولد » قال النبي صلى الله عليه « والذي نفسي بيده لو قال إن شاء الله لجاهدوا في سبيل الله فرسانا أجمعون » فدل على أن مجرد الوطء ليس بسبب تام وإن كان له مدخل في السببية ، وأن السبب التام مشيئة الله وحده . فهو رب الأسباب المتصرف فيها كيف شاء ، باعطائها السببية إذا شاء ، ومنعها إياها إذا شاء ، وترتيب ضد مقتضاها عليها إذا شاء . والأسباب هي مجارى الشرع والقدر ، فعليها يجرى أمر الله الكونى والدينى

فإن قيل : فقد ظهر أن الولد من الماءين جميعاً ، فهل يخلق منهما على حد سواء ، أم يكون الولد من ماء الأب ، وبعضه من ماء الأم ؟ قيل : قد بين النبي صلى الله عليه وسلم هذه المسألة بأوضح البيان ، فقال الإمام أحمد في مسنده : حدثنا حسن ابن الحسين حدثنا أبو كريب عن عطاء بن السائب عن القاسم ابن عبد الرحمن عن أبيه عن عبد الله بن مسعود قال : مر يهودى برسول الله ﷺ ، وهو يحدث أصحابه ، فقالت قريش : يا يهودى إن هذا يزعم أنه نبي ، فقال لأسألنه عن شيء لا يعلمه إلا نبي ، فجاء حتى جلس ، ثم قال : يا محمد مم يخلق الإنسان ؟ فقال « من كل يخلق ، من نطفة الرجل ، ومن نطفة المرأة . فأما نطفة الرجل فنطفة غليظة منها العظم والعصب . وأما نطفة المرأة فنطفة

رقيقة ، منها اللحم والدّم » فقام اليهودى فقال : هكذا يقول من قبلك .

(١٠٤) فصل

فان قيل : قد ذكرتم أن تعلق الروح بالجنين إنما يكون بعد الأربعين الثالثة ، وإن خلق الجنين يجمع في بطن أمه أربعين يوماً ثم يكون علقه مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك . وبينتم أن كلام الأطباء لا يناقض ما أخبر به الوحي من ذلك . فما تصنعون بحديث حذيفة بن أسيد الذى رواه مسلم في صحيحه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « يدخل الملك في النطفة بعد ما تستقر في الرحم بأربعين ، أو خمس وأربعين ليلة ، فيقول : أى رب أشقى أم سعيد ؟ فيكتبان ، فيقول : أى رب ، ذكر أو أنثى ؟ فيكتبان ، ويكتب عمله وأثره وأجله ورزقه ، ثم يطوى الصحيفة ، فلا يزداد فيها ولا ينقص » قيل تتلقاه بالقبول والتصديق وترك التحريف ، ولا ينافى ما ذكرناه ، إذ غاية ما فيه أن التقدير وقع بعد الأربعين الأولى وحديث ابن مسعود يدل على أنه وقع بعد الأربعين الثالثة ، وكلاهما حق قاله الصادق صلى الله عليه وسلم . وهذا تقدير بعد تقدير ، فالأول تقدير عند انتقال النطفة الى أول أطوار التخليق التى هى أول مراتب الانسان . وأما قبل ذلك فلم يتعلق بها التخليق . والتقدير الثانى تقدير عند كمال خلقه ونفخ الروح . فذلك تقدير عند أول خلقه وتصويره . وهذا تقدير عند تمام خلقه وتصويره . وهذا أحسن من

جواب من قال : إن المراد بهذه الأربعين التي في حديث حذيفة
الأربعين الثالثة ، وهذا بعيد جداً من لفظ الحديث ، ولفظه يأباه
كل الالباء . فتأمل

فان قيل : فما تصنعون بحديثه الآخر الذي في صحيح مسلم عن
عامر بن واثلة ، أنه سمع عبد الله بن مسعود رضى الله عنه يقول :
« الشقي من شقي في بطن أمه ، والسعيد من وعظ بغيره » فأتى رجلاً
من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يقال له حذيفة بن أسيد الغفاري ،
فحدثه بذلك من قول ابن مسعود ، وقال له : وكيف يشقى رجل بغير
عمل ؟ فقال له الرجل : أتعجب من ذلك ؟ فإني سمعت رسول الله
صلى الله عليه وسلم يقول « إذا مر بالنطفة ثنتان وأربعون ليلة بعث
الله إليها ملكاً فصورها ، وخلق سمعها وبصرها وجلدها ولحمها وعظامها ،
ثم قال : يارب أذكر ، أم أنثى ؟ فيقضى ربك ما يشاء ، ويكتب الملك
بالصحيفة في يده فلا يزيد على أمره ولا ينقص » وفي لفظ آخر في
الصحيح أيضاً : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم بأذني هاتين
يقول « ان النطفة تقع في الرحم أربعين ليلة ، ثم يتسور عليها الملك
الذي يخلقها ، فيقول : يارب أذكر أم أنثى ؟ أسوى أم غير
سوى ؟ فيجعله الله سوياً أو غير سوى ، ثم يقول : يارب مارزقه ؟
وما أجله ؟ وما خلقه ؟ ثم يجعله الله عز وجل شقياً أو سعيداً » وفي
لفظ آخر في الصحيح أيضاً « أن ملكاً موكلًا بالرحم إذا أراد الله أن
يخلق شيئاً بإذن الله لبضع وأربعين ليلة » ثم ذكر نحوه .

قيل : نتلقاها أيضاً بالتصديق ، والقبول ، وتر لك التحريف . وهذا
 يوافق ما أجمع عليه الأطباء أن مبدأ التخليق والتصوير بعد الأربعين
 فان قيل : فكيف التوفيق بين هذا وبين حديث ابن مسعود ،
 وهو صريح في « أن النطفة أربعين يوماً نطفة ، ثم أربعين علقة ،
 ثم أربعين مضغة » ومعلوم أن العلقة والمضغة لا صورة فيهما ، ولا
 جلد ولا لحم ولا عظم . وليس بنا حاجة إلى التوفيق بين حديثه هذا
 وبين قول الأطباء . فان قول النبي صلى الله عليه وسلم معصوم ، وقولهم
 عرضة للخطأ ، ولكن الحاجة إلى التوفيق بين حديثه وحديث حذيفة
 المتقدم ؟ قيل : لا تنافي بين الحديثين بحمد الله ، وكلاهما خارج
 من مشكاة صادقة معصومة . وقد ظن طائفة أن التصوير في حديث
 حذيفة إنما هو بعد الأربعين الثالثة . قالوا : وأكثر ما فيه التعقيب
 بالفاء ، وتعقيب كل شيء بحسبه . وقد قال تعالى (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ
 أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً) بل قد قال تعالى
 (٢٣ : ١٤) فَخَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا
 الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا وهذا تعقيب بحسب ما يصلح
 له الحل ، ولا يلزم أن يكون الثاني عقيب الأول ، تعقيب اتصال
 وظنت طائفة أخرى أن التصوير والتخليق في حديث حذيفة
 في التقدير والعلم . والذي في حديث ابن مسعود في الوجود

الخارجي . والصواب يدل على أن الحد مادل عليه الحديث ، من أن ذلك في الأربعين الثانية ، ولكن هنا تصويران : أحدهما تصوير خفي لا يظهر وهو تصوير تقديرى ، كما تصور حين تفصل الثوب ، أو تنجر الباب ، مواضع القطع والتفصيل . فيعلم عليها ويضع مواضع الفصل والوصل . وكذلك كل من يضع صورة في مادة لاسيما مثل هذه الصورة ، ينشئ فيها التصوير والتخليق على التدريج شيئاً بعد شيء ، لا وهلة واحدة ، كما يشاهد بالعيان في التخليق الظاهر في البيضة

فهيها أربع مراتب : أحدها تصوير وتخليق علمي ، لم يخرج الى الخارج . الثانية مبدأ تصوير خفي يعجز الحس عن ادراكه . الثالثة تصوير يناله الحس ولكنه لم يتم بعد . الرابعة تمام التصوير الذي ليس بعده الانفخ الروح

فالمرتبة الأولى علمية ، والثلاث الأخر خارجية عينية . وهذا التصوير بعد التصوير نظير التقدير بعد التقدير . فالرب تعالى قدر مقادير الخلائق تقدير اعاما قبل أن يخلق السموات والأرض خمسين ألف سنة ، وهنا كتب السعادة والشقاوة والاعمال والارزاق والآجال ﴿ الثاني ﴾ تقدير بعد هذا وهو أخص منه ، وهو التقدير الواقع عند القبضتين ، حين قبض تبارك وتعالى أهل السعادة بيمينه وقال « هؤلاء للجنة » وبعمل أهل الجنة يعملون « وقبض أهل الشقاوة باليد الأخرى وقال « هؤلاء للنار » وبعمل أهل النار يعملون »

﴿ الثالث ﴾ تقدير بعد هذا ، وهو أخص منه عندما يمتنى به ، كما في حديث حذيفة بن أسيد المذكور ﴿ الرابع ﴾ تقدير آخر بعد هذا وهو عندما يتم خلقه وينفخ فيه الروح ، كما صرح به الحديث الذي قبله . وهذا يدل على سعة علم الرب تبارك وتعالى ، وإحاطته بالكميات والجزئيات ، وكذلك التصوير الثاني مطابق للتصوير العلمي ، والثالث مطابق للثاني ، والرابع مطابق للثالث . وهذا مما يدل على كمال قدرة الرب تعالى . ومطابقة المقدور للمعلوم ، فبارك الله رب العالمين وأحسن الخالقين .

ونظير هذا التقدير الكتابة العامة قبل المخلوقات ، ثم كتابة ما يكون من العام إلى العام في ليلة القدر ، وكل مرتبة من هذه المراتب تفصيل لما قبلها وتنوع . وكلام رسول الله صلى الله عليه وسلم يصدق بعضه بعضاً ، ويُفسر بعضه بعضاً ، ويطلق الواقع في الوجود ولا يخالفه . وإنما يخبر بما لا يستقل الحس والعقل بإدراكه ، لا بما يخالف الحس والعقل ، وإنما يعرفه الناس ويستقلون بإدراكه على أمر عيني يتعلق به الإيمان ، أو على حكم شرعي يتعلق به التكليف . والله أعلم

(١٠٥) فصل

فان قيل : أي عضو يتخلق أولاً قبل سائر الأعضاء ؟ قيل : اختلف في ذلك على أربعة أقوال (أحدهما) أنه القلب ، وهو قول الأكثرين (والثاني) أنه الدماغ والعينان ، وهو قول بقراط

(والثالث) السكبد ، وهو قول محمد بن زكريا (والرابع) أنه السرة
وهو قول جماعة من الأطباء

قال أصحاب القلب : لاشك أن في المنى قوة روحية ، بسبب
تلك القوة سعد أن يكون إنساناً ، وحاجته إلى الروح الذي هو
مادة القوى أشد ، فلا بد أن يكون لذلك الروح مجمع خاص ، منه
تنبعث إلى سائر الأعضاء ، فالجوهر الروحي أول شيء ينبعث من المنى ،
ويجتمع في موضع واحد ، ويحيط به ما يتصل إليه ذلك الجوهر
الروحي من جميع الجوانب ، فيجب أن يكون مجمعها هو الوسط ،
وسائر الأجزاء يحيط به ، وذلك الوسط هو القلب

قالوا : ولأن تمام البدن موقوف على الحرارة الغريزية التي بها
البدن ، ولا بد أن يتقدم على ذلك العضو الذي منه القوة الغريزية
التي بها ينمو ، وهو القلب

قالوا : ولأن أفعال القوى إنما تتم بالروح ، وهي لا بد لها من
متعلق تتعلق به ، ولا بد أن يتقدم متعلقها عليها وهو القلب
قالوا : وهذا هو الأليق والأنسب بحكمة الرب تعالى ، فإن القلب
ملك ، والأعضاء جنود له وخدم ، فإذا صلح القلب صلحت جنوده
وإذا فسد فسدت ، وقد أشار النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث
الصحيح إلى ما يرشد إلى ذلك فقال « إن في الجسد مضغة إذا صلحت
صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد ، ألا وهي القلب »
فما أولى هذه المضغة بأن تكون متقدمة في وجودها على سائر

الأعضاء ، وسائرهما تبع لها في الوجود ، كما هي تبع لها في الصلاح والفساد

قالوا : وقد شاهد أصحاب التشريح في المنى عند انعقاده نقطة في وسطه

قال أصحاب الدماغ : شاهدنا الفراخ في البيض أول ما يتكون منها رأسها ، وسنة الله في بروز الجنين أول ما يدومنه إلى الوجود رأسه قال أصحاب الكبد : لما كان المنى محتاجا إلى قوة مغذية تزيد في جوهره حتى يصير بحيث يمكن أن تكون الأعضاء فيها كان أول الأعضاء وأسبقها إليه ، وهو محل القوة المغذية وهو الكبد قال أصحاب السرة : حاجة الجنين إلى جذب الغذاء أشد من حاجته إلى الأقوات وإدراكه ، ومن السرة يجذب الغذاء

وأولى هذه الأقوال القول الأول - فان القلب ومنزلته وشرفه ومحله الذي وضعه الله به يقتضى أنه المبدوء به قبل سائر الأعضاء المتقدم عليها بالوجود . والله أعلم

(١٠٦) فصل

فان قيل : الجنين قبل نفخ الروح فيه ، هل كان فيه حركة واحساس أم لا ؟ قيل كان فيه حركة النمو والاعتناء كالنبات ، ولم تكن حركة نموه واعتدائه بالإرادة ، فلما نفخت فيه الروح انضمت حركة حسيته وإرادته إلى حركة نموه واعتدائه

فان قيل : قد ثبت أن الولد يتخلق من ماء الأبوين ، فهل يتمازجان ويختلطان حتى يصيرا ماء واحدا ، أو يكون أحدهما هو المادة والآخر بمنزلة الأنفحة التي تعقده ؟ قيل هو موضع اختلاف فيه أرباب الطبيعة فقالت طائفة منهم : منى الأب لا يكون جزءاً من الجنين ، وإنما هو مادة الروح السارى في الأعضاء ، وأجزاء البدن كلها من منى الأم . ومنهم من قال بل هو يتعقد من منى الأنثى ثم يتحلل ويفسد قالوا : ولهذا كان الولد جزءاً من أمه . ولهذا جاءت الشريعة بتبعيته لها في الحرية والرق .

قالوا : ولهذا لو نرى فحل رجل على جارية آخر فأولدها فالولد لما لك الأم دون مالك الفحل ؛ لأنه تكون من أجزائها وأحشائها ولحمها ودماغها . وماء الأب بمنزلة الماء الذي يسقي الأرض قالوا : والحس يشهد أن الأجزاء التي في المولود من أمه أضعاف أضعاف الأجزاء التي فيه من أبيه . فثبت أن تكوينه من منى الأم ودم الطمث ، ومنى الأب عاقل له كالأنفحة .

ونازعهم الجمهور وقالوا : إنه يتكون من منى الرجل والأنثى ثم لهم قولان : أحدهما أن يكون من منى الذكر أعضاؤه وأجزاءه ، ومن منى الأنثى صورته . والثاني أن الأعضاء والأجزاء والصورة تكونت من مجموع المائين ، وأنهما امتزجا واختلطا وصار ماء واحدا وهذا هو الصواب ؛ لأننا نجد الصورة والتشكيل تارة إلى الأب ، وتارة إلى الأم . والله أعلم .

وقد دل على هذا قوله تعالى (١٣: ٤٩) يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى) والأصل هو الذكر ، فنه البذر ، ومنه السقي . والأثني وعاء ومستودع لولده ، تربيته في بطنها كما تربيته في حجرها . ولهذا كان الولد للأب حكما ونسبا . وأما تبعيته للأم في الحرية والرق فلا أنه إنما تكون وصار ولدا في بطنها ، وغذته بلبانها ، مع الجزء الذي فيه منها ، وكان الأب أحق بنسبه وتعصيه ، لانه أصله ومادته ونسخته ، وكان أشرفهما دينا أولى به تغليبا لدين الله وشرعه

فان قيل : فهلا طردتم هذا وقتلتم : لو سقط بذر رجل في أرض آخر يكون الزرع لصاحب الأرض دون مالك البذر ؟

قيل : الفرق بينهما أن البذر مال متقوم في أرض آخر ، فهو لما لسه ، وعليه أجرة الأرض ، أو هو بينهما ، بخلاف المني . فانه ليس بمال ، ولهذا نهى الشارع فيه عن المعاوضة . واتفق الفقهاء على أن الفحل لو نزا على رمكة ، كان الولد لصاحب الرمكة

فصل (١٠٧)

فان قيل : فهل يتكون الجنين من ماءين وواطئين ؟ قيل : هذه مسألة شرعية كونية ، والشرع فيها تابع للتكوين . وقد اختلف فيها شرعا وقدرها ، فمنعت ذلك طائفة وأبته كل الآباء ، وقالت : الماء إذا استقر في الرحم اشتمل عليه وانضم غاية الانضمام ، بحيث لا يبقى فيه مقدار رسم رأس ابرة الا انسد ، فلا يمكن انفتاحه بعد ذلك لماء ثان ، لامن الواطئ ، ولا من غيره

قالوا : وبهذا أجرى الله العادة : أن الولد لا يكون إلا لأب واحد ، كما لا تكون الأم إلا واحدة . وهذا هو مذهب الشافعي وقالت طائفة : بل يتخلق من ماءين فأكثر . قالوا : وانضمام الرحم واشتماله على الماء لا يمنع قبوله الماء الثاني . فإن الرحم أشوق شيء وأقبله للمنى

قالوا : ومثال ذلك كمثل المعدة ، فإن الطعام إذا استقر فيها انضمت عليه غاية الانضمام ، فإذا ورد عليها طعام فوَقَّه انفتحت له ، لشوقها إليه قالوا : وقد شهد بهذا القائف بين يدي أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، في ولد ادعاه اثنان ، فنظر إليهما وإلى وقال : ما أراهما إلا اشتراكا فيه . فوافقه عمر وألحقه بهما . ووافقه على ذلك الامام أحمد ، ومالك رضى الله عنهما

قالوا : والحس يشهد بذلك ، كما ترى في جراء الكلبة والسنور ، تأتي بها مختلفة الالوان لتعدد آبائها . وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يسقى ماءه زرع غيره (١) » يريد وطء الحامل من غير الواطئ . قال الامام أحمد : الوطء يزيد في سمع الولد وبصره ، هذا بعد انعقاده

وعلى هذا مسألة فقيهة ، وهى : لو أحبل جارية غيره بنكاح أوزنى

(١) روى احمد وابو داود والترمذى عن رويفع بن ثابت ان النبي صلى الله عليه وسلم

قال يوم حنين « لا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر - الخ »

ثم ملكها ، هل تصير أم ولد ؟ فيها أربعة أقوال ، وهي روايات عن الامام أحمد : أحدها لا تصير أم ولد ؛ لأنها لم تعلق بالولد في ملكه . والثاني تصير أم ولد ؛ لأنها وضعت في ملكه . والثالث إن وضعت في ملكه صارت أم ولد ، وإن وضعت قبل أن يملكها لم تصر ، لأن الوضع والاحبال كان في غير ملكه . والرابع إن وطئها بعد أن ملكها صارت أم ولد ، وإلا فلا . لأن الوطء يزيد في خلقه الولد ، كما قال الامام أحمد : الوطء يزيد في سمع الولد وبصره . وهذا أرجح الأقوال . وقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه مر على امرأة مُبِجَّ على باب فسطاط فقال « لعل سيدها يريد أن يُلِمَّ بها ، لقد هممت أن ألعنه لعنة تدخل معه في قبره . كيف يورثه وهو لا يحل له ؟ » (١) والمُبِجُّ الحامل المقرب ، وقوله « كيف يُورثه » أى يجعله له تركة موروثة عنه ، كأنه عبده ولا يحل له ذلك ، لأنه قد صار فيه جزء من أجزائه بوطئه ، وكيف يجعله عبده ، ولا يحل له ذلك ؟ . فهذا دليل على أن وطء الحامل إذا وطئت كثيرا جاء الولد عبلا ممتلئا ، وإذا هجر وطؤها جاء الولد هزلا ضعيفا . فهذه أسرار شرعية موافقة للأسرار الطبيعية مبنية عليها . والله أعلم .

فان قيل : فهل يمكن أن يخلق من الله ولدان في بطن واحد ؟ قيل :

(١) رواه أحمد ومسلم وأبو داود عن أبي الدرداء أن النبي صلى الله عليه وسلم مر في غزوة على امرأة الخ

هذه مسألة التوأم ، وهو ممكن ، بل وقع ، وله أسباب : أحدها كثرة
المني ، فيفيض الى بطن الرحم دفعات ، والرحم يعرض له عند
الحركة الجارية للمنى حركات اختلاجية مختلفة ، فربما اتفق أن
كان الجاذب للدفعة الأولى من المنى أحد جانبيه ، وللتانية الجانب
الآخر . ومنها أن يبت الأولاد في الرحم فيه تجاويف ، فيكون المنى
كثيراً ، فيغفل أحدها عن فضلة يشتمل عليها التجويف الثانى ،
وهكذا الثالث . قال أرسطو : وقد يعيش للمرأة خمسة أولاد
فى بطن واحد . وحكى عن امرأة أنها وضعت فى أربع بطون
عشرين ولدا . قال صاحب القانون : سمعت بجر جان أن امرأة
أسقطت كيسا فيه سبعون صورة صغيرة جداً . قال أرسطو : وإذا توأمت
بذكر وأنثى فقلما تسلم الوالدة والمولود ، وإذا توأمت بذكرين
أو أنثيين فقسلم كثيرا . قال : والمرأة قد تحبل على الحبل ، ولكن
يهلك الأول فى الأكثر ، فقد أسقطت امرأة واحدة اثنى عشر جنينا ،
حملا على حمل . وأما اذا كان الحمل واحدا أو بعد وضع الأول
فقد يعيشان . والله أعلم

فان قيل : فما السبب المانع للحامل من الحيض غالبا . قال الامام
احمد وأبو حنيفة : إن ما تراه من الدم يكون دم فساد لا حيض .
والشافعى وابن قتيبة قال إنه دم حيض - وهو احدى الروايتين عن
عائشة - فلا ريب أنه نادر بالاضافة الى الأغلب ؟ قيل : دم الطمث
ينقسم ثلاثة أقسام : قسم ينصرف الى غذاء الجنين . وقسم يصعد
الى البدن . وقسم يحبس الى وقت الوضع ، فيخرج مع الولد . وهو

دم النفس . وربما كانت مادة الدم قوية - وهو كثير - فيخرج بعضه لقوته وكثرته . والراجح من الدليل أنه حيض ، حكمه حكمه ، اذ ليس هناك دليل عقلي ولا شرعى يمنع من كونه حيضاً ، واستيفاء الأدلة من الجانبين قد ذكرناه فى مواضع آخر . والله أعلم

فان قيل : فما السبب فى أن النساء الحبالى يشمتقن فى الشهر الثانى والثالث الى تناول الأشياء الغريبة التى لا يعتد بها طبياً ؟

قيل : ان دم الطمث لما احتس فىهن بحكمة قدرها الله ، وهى أن صرفه غذاء للولد ، ومقدار ما يحتاج اليه يسير ، فتدفعه الطبيعة الصحيحة الى فم المعدة ، فيحدث لهن شهوة تلك الأشياء الغريبة

فان قيل : فكيف وضع الجنين فى بطن أمه : قائماً ، أو قاعداً ، أو مضطجعا ؟ قيل : هو معتمد بوجهه على رجليه ، وبراحتيه على ركبتيه ، ورجلاه مضمومتان الى قدميه ، ووجهه الى ظهر أمه . وهذا من العناية الالهية أن أجلسه هذه الجلسة فى المكان الضيق فى الرحم على هذا الشكل . وأيضاً فلو كان رأسه الى أسفل لوقع ثقل الأعضاء الخسيسة على الأعضاء الشريفة ، وأدى ذلك الى تلفه ، ولأنه عند محاولة الخروج اذا انقلب أعاتته على الخروج . فانه اذا خرج أول ما يخرج منه رأسه ، لأن الرأس اذا خرج أولاً كان خروج سائر الأعضاء بعده سهلاً ، ولو خرج على غير هذا الوجه لكان فيه تعويق وعسر .

فان الرجلين لو خرجتا أولاً انعاق خروج الباقي ، وان خرجت الرجل الواحدة أولاً انعاق عند الثانية ، وان خرجتا معاً انعاق عند

اليدين ، وان خرجت الرجلان واليدان انعاق عند الرأس ، فكان يلتوى الى خلف وتلتوى السرة الى العنق فيألم الرحم ، ويصعب الخروج ، ويؤدى الى مرضه أو تلفه

فان قيل : فما سبب الاجهاض الذى يسمونه الطرح قبل كمال الولد ؟

قيل : الجنين فى البطن بمنزلة الثمرة فى الشجرة ، وكل منهما له اتصال قوى بالأم ، ولهذا يصعب قطع الثمرة قبل كمالها من الشجرة وتحتاج الى قوة . فاذا بلغت الثمرة نهايتها سهل قطعها ، وربما سقطت بنفسها ، وذلك لأن تلك الرباطات والعروق التى تدها من الشجرة كانت فى غاية القوة والغذاء ، فلما رجع ذلك الغذاء الى تلك الشجرة ضعفت تلك الرطوبات والمجارى ، وساعدها ثقل الثمرة ، فسهل أخذها . وكذلك الأمر فى الجنين ، فانه مادام فى البطن قبل كماله واستحكامه ، فان رطوباته وأغشيته تكون مانعة له من السقوط ، فاذا تم وكل ضعفت تلك الرطوبات ، وانتهدت الأغشية ، واجتمعت تلك الرطوبات المزلقة فسقط الجنين . هذا هو الأمر الطبيعى الجارى على استقامة الطبيعة وسلامتها . وأما السقوط قبل ذلك فلفساد فى الجنين ، ولفساد فى طبيعة الأم ، أو ضعف الطبيعة ، كما تسقط الثمرة قبل ادراكها لفساد يعرض ، أو لضعف الأصل ، أو لفساد يعرض من خارج ، فاسقاط الجنين لسبب من هذه الأسباب الثلاثة ، فالآفات التى تصيب الأجنة بمنزلة الآفات التى تصيب الثمار

فان قيل فكيف يخرج من الرحم - مع ضيقه - ما هو أكبر منه بأضعاف مضاعفة ؟

قيل : هذا من أعظم الأدلة على عناية الرب تعالى وقدرته ومشيتته . فان الرحم لا بد أن يفتح الانفتاح العظيم جدا . قال غير واحد من العقلاء : ولا بد من انفصال يعرض للمفاصل العظيمة ، ثم تلتئم بسرعة أسرع من لمح البصر . وقد اعترف فضلاء الاطباء وحذاقهم بذلك ، وقالوا : لا يكون ذلك الا بعناية إلهية وتدير تعجز العقول عن ادراكه . وتقر للخلاق العظيم بكمال الربوبية والقدرة

فان قيل : فما السبب في بكاء الصبي حالة خروجه الى هذه الدار ؟
قيل : ههنا سببان : سبب باطن أخبر به الصادق المصدوق . لا يعرفه الاطباء . وسبب ظاهر . فأما السبب الباطن فان الله سبحانه اقتضت حكمته أن وكل بكل واحد من ولد آدم شيطانا ، فشیطان المولود قد خنس ينتظر خروجه ليقارنه ويتوكل به ، فاذا انفصل استقبله الشيطان وطعنه في خاصرته ، تحرقاعليه وتغيظا ، واستقبالا لله بالعداوة التي كانت بين الابوين قديما . فيبكي المولود من تلك الطعنة . ولو آمن زنادقة الاطباء والطبائعين بالله ورسوله لم يجدوا عندهم ما يبطل ذلك ولا يردده . وقد ثبت في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « صياح المولود حين يقع نزغة من الشيطان » وفي الصحيحين من حديثه أيضا

رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مامن مولود يولد إلا نخسه الشيطان ، فيستهل صارخا من نخسه ، إلا ابن مريم وأمه » وفي لفظ آخر « يمسه حين يولد ، فيستهل صارخا من مس الشيطان إياه » وفي لفظ آخر « كل بنى آدم يمسه الشيطان يوم ولادته إلا مريم وابنها » وفي لفظ للبخارى « كل بنى آدم يطعن الشيطان في جنبه بأصبعه حين يولد ، غير عيسى ابن مريم ، ذهب يطعن فطعن في الحجاب » والسبب الظاهر الذى لا تخبر الرسل بأمثاله لرخصه عند الناس ، ومعرفتهم له من غيرهم ، هو مفارقتهم للمألوف والعادة التى كان فيها الى أمر غريب . فانه ينتقل من جسم حار الى هواء بارد ، ومكان لم يألفه ، فيستوحش من مفارقتة وطنه ، ومألفه ، وعند أرباب الاشارات أن بكاءه ارهاص بين يدي ما يلاقه من الشدائد والآلام والمخاوف . وأنشد فى ذلك :

ويبكي بها المولود حتى كأنه * بكل الذى يلقاه فيها يهدد
والا ، فما يبكيه فيها ، وإنها * لأوسع مما كان فيه وأرغد ؟
ولهم نظير هذه الاشارة فى قبض كفهم عند خروجه الى الدنيا ،
وفى فتحها عند خروجه منها ، وهو الاشارة الى أنه خرج اليها مركبا
على الحرص والطمع ، وفارقها صفر اليدين منها . وأنشد فى ذلك :
وفى قبض كف المرء عند ولادة * دليل على الحرص الذى هو مالكة
وفى فتحها عند المات اشارة * الى فرقة المال الذى هو تاركة
ولهم نظير هذه الاشارة فى بكاء الطفل ، وضحك من حوله : أن

الأمر سيبدل ويصير الى ما يبيكى من حوله عند موته ، كما ضحكوا
عند ولادته . وأنشد في ذلك :

وَلَدَتْكَ اذْ وَلَدَتْكَ اُمِّكَ بَا كِيَا * وَالنَّاسَ حَوْلَكَ يَضْحَكُونَ سُرُورَا
فَاعْمَلْ لَعَلَّكَ اَنْ تَكُونَ اِذَا بَكُوا فِي يَوْمِ مَوْتِكَ ضَا حَكَا مَسْرُورَا
ونظير هذه الاشارة ايضاً قولهم : ان المولود حين ينفصل يمد
يده الى فيه ، إشارة الى تعجيل نزوله عند القدوم عليه بأنه ضيف ،
من تمام كرامه تعجيل قراه ، فأشار بلسان الحال الى ترك التأخير
وربما مص أصبعه إشارة الى نهاية فقره ، وأنه بلغ منه الى مص
الأصابع ، ومنه قول الناس ، لمن بلغ به الفقر غايته : فهو يمص أصابعه
وأنشد في ذلك :

ويَهْوِي الى فيه يَمِصُّ بَنَانَهُ يَطَالِبُ بالتَّعْجِيلِ خَوْفَ التَّشَاغُلِ
وَيَعْلَمُهُمْ اَنْى فَقِيرٌ وَلَيْسَ لى مِنَ الْقُوْتِ شَيْءٌ غَيْرَ مَصِّ الْاَنَامِلِ
ونظير هذه الاشارة أنه يحدث بالعجب ممن يظهر من الحدث
ويحدث بين الحاضرين إشارة الى انه من حادث ليس يعصم
يقول : وعندي بعدها أخواتها ومامنكم إلا وذو العرش أرحم
ونظير هذه الاشارة أنه يضحك بعد الأربعين ، وذلك عند
ما يتعقل نفسه الناطقة ويدركها . وفي ذلك قصاص من البكاء الذى
أصابه عند ولادته ، وتأخر بعده ، لى يتأسى العبد اذا أصابته شدة ،
فالفرج كأم يطلبها فى أثرها :
ويضحك بعد الأربعين إشارة الى فرَجٍ وافاه بعد الشدائد

يقول: هي الدنيا، فتبكيك مرة وتضحك أخرى، فاصطبر للعوائد
قالوا: ويرى الاماني بعد ستين يوماً من ولادته، ولكنه ينساها
الضعف القوة الحافظة وكثرة الرطوبات . وفي ذلك لطف به أيضاً
الضعف قلبه عن التفكير فيما يراه

ويرى بعين القلب - اذ يأتي له * ستون يوماً - رؤية الأحلام
لكنه ينساه بعد لضعفه * عن ضبطه في يقظة ومنام

١٠٨ فصل

ولما تكامل للنطفة أربعون يوماً فاستحكم نضجها، وعقدتها حرارة
الرحم استعدت لحالة هي أكمل من الأولى، وهي الدم الجامد
الذي يشبه العلقه، ويقبل الصورة ويحفظها بانعقادها، وتماسك
أجزائها. فإذا تم لها أربعون استعدت لحالة هي أكمل من الحالتين
قبلها، وهي صيرورتها لحماً أصلب من العلقه وأقوى وأحفظ للبخ
المودع فيها، واللحم هو كسوتها، والرباطات تمسك أجزائها وتشد
بعضها بعضاً، والكبد الذي يأخذ صفو الغذاء فيرسله الى سائر
الأعضاء، والى الشعر والظفر، والامعاء التي هي مجارى وصول
الطعام والشراب الى المعدة، والعروق التي هي مجارى منفذه وايصاله
الى سائر أجزاء البدن، والمعدة التي هي خزانة الطعام والشراب
وحافظته لمستحققيه، والقلب الذي هو منبع الحرارة ومعدن الحياة
والمستولى على مملكة البدن، والرئة التي تروح عن البدن وتفيده

الهواء البارد الذى به حياته ، واللسان الذى هو يريد القلب وترجمانه
ورسوله ، والسمع الذى هو صاحب أخباره ، والبصر الذى هو
طليعته ورأئده والكاشف له عما يريد كشفه ، والأعضاء التى هى
خدمه وخوله ، والرجلان تسعى فى مصالحه ، واليد تبطش فى
حوادثه ، والأسنان تفصل قوته وتقطعه ، والعروق توصله الى
أربابه ، والذكر آلة نسله ، وأتشیاه خزانة مادة النسل ، والكبد
للغذاء وقسمته وهى فى الحيوان بمنزلة شرش الشجر والنبات .
تجذب الغذاء وترسله الى جميع الأجزاء ، وآلات الغذاء خدم له ، والقلب
للأرواح الذى به حياة الحيوان ، وآلات النفس خدم له ، والدماغ
معدن الحس والتصور ، والحواس خدم له ، والأشيان معدن التناسل ،
والذكر خدم لها . وهذه الأعضاء هى رأس أعضاء البدن

(١٠٩) فصل

وأما آلات الغذاء فتلاثة أقسام : آلة تقبل الغذاء وتصلحه وتفرقه
وترسله الى جميع البدن . وآلة تقبل فضلاته ، وآلة تعين فى إخراج
ثقله وما لا منفعة فى بقاءه . فالآلات القابلة هى الفم ، والمرئ ،
والبطن ، والكبد ، والعروق الموصلة الى الكبد ، والعروق الموصلة
منها الى البدن

(١١٠) فصل

وأما الآلات القابلة للفضلات ، فالمرارة تقبل ما لطف منها ، والطحال يقبل كشيئها ، والكلى والمثانة يقبلان المتوسط ، والكبد موضوعة في الجانب الأيمن ، وتأخذ يسيراً للجانب الأيسر ، وهذا لحكمة بديعة ، وهى أن القلب في الجانب الأيسر أقرب وهو معدن الحار الغريزى ، فتجنب عنه الكبد قليلاً ، لئلا يتأذى بحرارتها ، وجعل في أوعية الغذاء قوى خادمة له . فالقم مع كونه يقطع الغذاء ويطحنه يحمله ويغيره ، والمرى مع كونه منفذا الى المعدة يغيره تغييراً ثانياً ، والمعدة مع كونها خزانة حافظة له تنضجه وتطبخه وتغيره تغييراً ثالثاً ، وتهضمه ، وتنقى منه ما لا يصلح ، وتخرجه ، وتدفعه الى مخرج الشفل . فان الطعام اذا استقر في المعدة اشتملت عليه وانضمت غاية الانضمام ، ثم أنضجته بحرارتها ، ثم تتولاه الكبد ، وتشتمل عليه ، وتقبله دماً خالصاً ، ثم تقسمه على جميع الأعضاء قسمة عدل ، لا جور فيها ، ولا حيف

ولما كانت المعدة حوض البدن الذى يردّه أجزاء البدن من كل ناحية اقتضت الحكمة الالهية جعلها في وسطه ، وخالص الغذاء يتأدى الى الكبد من شعب كثيرة ، ويجتمع في موضع واحد واسع يسمى باب الكبد ، وجميع العروق التى تتصل بالمعدة والامعاء والطحال تجتمع وترتقى الى باب الكبد ، والمعدة تجذب الموافق ، ويبقى

المخالف المنافى الذى عجزت قوتها عنه . ثم ان الكبد تصفيه
وتمقيه بعد اجتذابه مرة أخرى . وتنقى عنه غير الموافق
وقد أعد الصانع الحكيم سبحانه لتنقية الدم من الكبد ثلاثة
خدام قارهمين قائمين بالمرصاد بلا كسل ولا فتور . وقد وضع كلا
منها فى المكان اللائق به ، ونصبه نصبة بها يكون أمكن من عمله .
ولما استقر الغذاء فى المعدة وطبخته وأنضجته صارت فضلاته ثلاثة :
فضلة كالدردى الراسب . (١) وفضلة كالرغوة والزبد الطافى . وفضلة
مائية ، فجعل كل خادم من هذه الخدام الثلاثة على فضلة لا يتعداها الى
الأخرى ، ليجذبها من مجرى خادم الفضلة الخفيفة الطافية ، وهى
للصفرة المرارة ، نصبها الرب تعالى فوق الكبد ، لان المجتذب هو
الفضلة الطافية ، ومكانها فوق مكان الدردى الراسب . وخادم
الفضلة التى هى كالدردى الراسب الطحال ، ونصبه الخلاق العليم
أسفل من باب الكبد ، حيث كان ما يجتذبه من أسفل ، ولم يكن فى الجانب
الايمن ، لان المعدة قد شغلت ذلك الجانب ، وكان الجانب الايسر خاليا فلم
تعد . فاذنقى الدم من هاتين الفضلتين خدمه الخادم الثالث . وهى الكبد .
وقد بقى أحمر نقي اللون مشرقا نورانيا ، ويصل اليها من عرق عظيم
يسمى الأجوف ثم يوزع من هناك على جهات البدن العليا والسفلى
فى رواضع كثيرة العدد ، ما بين كبير وصغير ومتوسط ، كلها تتصل

بالعرق الأجوف وتنتار منه ، ومادام الدم فى هذا العرق ففيه مائية غير محتاج اليها . لأنها كانت بتركب الغذاء . فلها وصل الى مستقره استغنى عنها . فاحتاج ولا بد الى اخراجها ودفعها ، ولو لم يبادر الى ذلك أضرت به ، فخلق الله سبحانه الكلوتين يمتصان هذه الفضلة بعنقين طويلين ، كالأنبوبتين ، ويفرغانها فى المثانة بعرقين آخرين وضعهما سبحانه أسفل من الكبد قليلا ، حيث يكون أمكن لتخليص المائية ، كما تروق العصارات . وأما المرارة فوضعها الله سبحانه فوق الكبد لأنها بمنزلة السفنجة أو القطنة التى يقطف بها الدهن عن وجه الرطوبات . وأما الطحال فوضعه أميل الى أسفل ، لأنه بمنزلة ما يجتذب الأشياء المصونة اذا رسبت .

(١١١) فصل

اذا تنقى الدم من هذه الفضلات كلها وعملت فيه هذه الخدم بقواها التى أودعها الله فيها هذا العمل ، وأصلحته هذا الاصلاح عمل ملك الأعضاء والجوارح - وهو القلب - فيه عملا آخر ، فقصده بحرارة أخرى ، وهى أقوى من حرارة الكبد

(١١٢) فصل

وجعل سبحانه فى المعدة أربع قوى : قوة جاذبة للبلاءم . وقوة مضجة له . وقوة ممسكة له . وقوة دافعة للفضلة المستغنى

عنه . ورئيس هذه القوى هي القوة المنضجة وسائرها خدم لها .
 وخصت المعدة عن سائر الاعضاء بأن أودع فيها قوة تحس بالعوز
 والنقصان ، وخاصتها . تنبيه الحيوان لتناول الغذاء عند الحاجة .
 وأما سائر الاعضاء فانها تتغذى بالنبات باجتناب الملائم اليها . ولما
 احتاجت المعدة الى قوة وحس بالعوز ولم يكن ذلك الا من
 معدن الحواس وهو الدماغ أتاها روح لعصب عظيم ، فأثبت أكثرها
 في فمها وما يليه و باقيه مستقيما ، حتى بلغ قعرها

فان قيل : فما الحكمة في أن باعد الله سبحانه بين المعدة والقوم وجعل
 بينهما مجرى طويلا وهو المريء ، وهلا اتصلت المعدة بالقوم ،
 واستغنت عن المريء ؟ قيل : هذا من تمام حكمة الخالق ، وفيه منافع
 كثيرة : منها أن يحصل للغذاء تغير ما في طريق المجرى ، فيلطف قبل
 وصوله اليها . ومنها بعده عن آلة التنفس ، لئلا تعوقه وتعوق
 الصوت والكلام ، وأن لا تنقلب المعدة الى خارج عند شدة الجوع
 كما يعرض ذلك للحيوان الشره اذا كان قصير العنق

فان قيل : فلم كانت إلى الجانب الأيسر أميل منها الى الجانب
 الايمن ؟ قيل : ليتسع المكان على الكبد ولا ينحصر
 فان قيل : فهلا كانت مستقيمة في وضعها ، بل مال أسفلها الى
 الجانب الايمن ؟ قيل . ليتسع المكان على الطحال حيث كان أخفض
 موضعا من الكبد

فان قيل : فلم جعلت مستطيلة مدورة ، وجعلت مما يلي الصلب

مسطحة ؟ قيل : لما وضعها الله بين الكبد والطحال جعلها مستطيلة
وكانت مستديرة لتتسع للطعام وللشراب ، وكان أسفلها أوسع
من أعلاها لذلك ، وجعل لها مدخلا وهو المريء ومخرجا يسمى
البواب ، وجعل البواب أضيق من المريء ، لأن ما تبتلعه يكون
أصلب وأخشن مما تخرجه ، فجعل مدخل الداخل أوسع من مخرج
الخارج لانضاجه في المعدة ولينه ولحسك آخر : منها أن لا ينزل منه
الطعام والشراب قبل نضجه ، ولتقوى المعدة على حبسه وليخرج
أولا فأولا ، لادفعة واحدة . والمريء يتسع بالتدرج حتى يبلغ
المعدة ، ولذلك يظن أنه جزء منها . وأما البواب فإن الجزء الضيق منه
يتصل بأسفلها الذي هو أوسعها ثم يتسع على التدرج ليسهل
خروج الفضلة

فصل (١١٣)

والكبد منطبقة على المعدة ، محتوية عليها بزوائدها ، لتسخنها .
والطحال يسكنها من الباب الأيسر ، والصلب يسكنها من خلف ،
والترائب من قدامها . والترائب مؤلفة من طبقتين رقيقتين تنطبق
أحدهما على الأخرى بشحم كثير ، وهو غشاء الامعاء كلها ولباسها
ثم غشى البطن كله بغشاء واحد يقي الاحشاء ، ويمنع من انفتاح
المعدة والامعاء بالرياح ، ويربط جملة آلات الغذاء ، ولم يجعل في
الكبد تجويف ، كتجويف القلب لتحتوى على الدم احتواء ممكن ،

وتحيله احوالة بليغة . وللكبد ثلاث شباك من العروق : شبكة بينها وبين المعدة والامعاء ، وشبكة في مفرعها ، وشبكة في مجذبا . فالشبكة الأولى تجذب الغذاء وتحيله بعد أن أحواله . وفي الشبكة الثانية يصير دما . وفي الشبكة الثالثة يزداد صفاء وترويقا . وللكبد بالقلب والدما اتصال بشظلة من العصب خفية ، كنسج العنكبوت

ولما كانت النفس المعدية بمنزلة حيوان عاد وحشى ، وكل جسم يموت فلا بد أن تتصل به هذه النفس وتغذوه ، بخلاف النفس المفكرة التى محلها الدماغ ، وبخلاف النفس الغضبية التى محلها القلب . فالنفس المفكرة تستعين بالنفس الغضبية على تلك النفس الحيوانية العادية الوحشية - فاقترضت حكمة الخالق سبحانه أن وصل بين محل هذه الانفس الثلاثة ليدعن بعضها لبعض .

ولا تنكر تسمية هذه القوى نفوسا . فليس الشأن فى التسمية ، فأنت تجد فيك نفسا حيوانية تطلب الطعام والشراب ، ونفسا مفكرة سلطانها على التصور والعلم والشعور ، ونفسا غضبية سلطانها على الغضب والارادة ، وتضرب كل واحدة منها فيما جعلت اليه وبعضها عون لبعض . فمحل النفس الحيوانية الكبد . ومحل المفكرة الدماغ . ومحل الغضبية القلب

فصل (١١٤)

وتأمل الحكمة فى أن جعلت صفاقات عروق الكبد أرق من

صفاقات سائر عروق البدن ، لينفذ الى الكبد جوهر الدم بسرعة ،
وهي مع ذلك غير محتاجة الى الوقاية ، لأن الكبد تحوزها بلبحها ،
وإنما وضعت مجارى المرة الصفراء بعد العروق التي تصعد الغذاء من
المعدة ، وقبل العروق التي تأخذ الدم منها ، لان هذا الموضع هو بين
موضع كمال الطبخ ، وبين موضع انتقاله الى العرق الأجوف ، وحيث
يمكن انفصال المرة عن الدم . وجمعت العروق كلها الى عرق واحد
هو الباب ، ثم عادت فتنقسمت في مقعر الكبد ، ثم عادت فجمعت
في مجدها الى عرق واحد ، وهو الأجوف ، لتجيد بقسميها إنضاج
ما تحتوي عليه ، ولئلا ينفذ بسرعة ، وكذلك كل موضع احتيج
فيه الى طول مكث المادة هي بقاءها فيه بطول مسلكها ، وكثرة
تعاريجها ، كما فعل في مجارى المنى ، وشبكة الدماغ . وهذا شأن العروق
الجواذب . وأما العروق الضوارب فبالعكس من ذلك ، فانها جمعت
في مقعر الكبد دون مجدها . لأنه موضع الدم ، وحاجته الى التغذية
بالحرارة ماسة . قال جالينوس : ولا تقع العروق الضوارب في
مجذب يعلم الخالق سبحانه أن جذبه الكبد لانها تتحرك دائماً بمجاورة
الحجاب ، فيقوم لها ذلك مقام حركة العروق الضوارب ، وجعلت
هذه العروق الضوارب رقاقاً لأنها إنما وضعت لترويح الكبد
لا لتغذيتها ، ولا لاتصال روح اليها ، إذ ليس بالكبد حاجة الى
قبول روح حيوانى كثير ، ولا يحتاج لحمها إلا الى غذاء لطيف بخارى

(١١٥) فصل

وأحرز الصانع سبحانه موضع الكبد ووضعها ، بأن ربطها بالمعدة والامعاء كلها بالعروق ، وبالغشاء الممدود على البطن الذى يشد جميعها ، ووصل بهارباطات من جميع النواحي ، وغشاؤها الرابط يتصل بالحجاب برباط قوى ، ورباط الكبد بالحجاب صلب وثيق ، لان الكبد معلقة به ، وهو أصلب من غشاء الكبد لشدة الحاجة الى صلابته ، لانه يحرز الكبد ، والعرق الأجوف متى ناله آفة مات الحيوان ، كما تهلك أغصان الشجرة اذا أصاب ساقها آفة وجعل أرق هذه الرباطات من خلف ، لشده بالعظام . وأغظاه من قدام حيث لا عظام هناك تقيه . وهذا من شدة الأسر الذى قال الله تعالى فيها (٢٨: ٧٦) نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ) شدأو صالهم بالرباطات المحكمة ، وجعل خلقهم بعضه موصولا ببعض . ولما كان الحجاب آلة شريفة للنفس بُوعِدَ من العضوين المجاورين له - وهما المعدة والكبد - بمقدار حاجته ، لئلا يزجماه ويعوقاه عن فعله ، فبوعدت المعدة عنه بطول مجراها

(١١٦) فصل

وأما الطحال : فبعضهم يقول : إنه لا نفع فيه ، وإنما شغل المكان

به لئلا يبقى فارغا ، فيميل أحد شقي البدن بثقل الكبد ، فجعل موازنا للسكبد

قلت : وهذا غلط من وجه ، وصواب من وجه : أما الصواب فمن الحكم العجيبة جعل الطحال في الجانب الأيسر على موازنة الكبد ، لئلا يميل الشق الأيمن بها ، ولا يمكن أن تقوم المعدة بموازنة السكبد ، لأنها دائماً تمتلئ وتخلو . فتارة تكون أخف من السكبد ، وتارة أرجح منها . فيصير البدن مترجحا ، أو يميل الى شق السكبد وقتا ، وإلى شق المعدة وقتا آخر . فجعل الخالق سبحانه الطحال في وزن السكبد ، وجعل المعدة بينهما في الوسط ، لئلا يثقل جانب ويخف جانب آخر عند امتلائها وخلوها . فلما جعلت وسطا لم يختلف وضع البدن باختلافها

وأما الغلط فقولہ : إنه لا منفعة فيه ، وإنما يشغل المسكان لئلا يبقى فارغا ، فإنه - وإن لم يعلم فيه منفعة - لم يكن له أن ينفيها . فإن عدم العلم بالمنفعة لا يكون علما بعدمها ، ولا شيء في البدن خال عن المنفعة ألينة . وفي الطحال من المنافع أنه يجذب الفضلة الغليظة العكرة السوداء من السكبد نوعا ، من جنس العروق كالعنق له . فإذا حصلت تلك الفضلة عنده أنضجها وأحالها . وهو ينضج غليظ الدم وعكره ، كما ينضج قولون غليظ الغذاء ويابسہ ، ويستعمل في فعله العروق الضوارب الكثيرة المبسوثة فيه كلها ، فما نضج واستحال الى طبيعته صار غذاء له ، ومالم يمكن أن ينقلب الى الدم الموافق له قدفه الى

المعدة بعنق آخر من جنس العروق . وانما أمكنه جذب الفضل
الأسود بقوة لحميته ، لأنه رخو متحلل خفيف كالاسفنج . ولما
اتصلت به العروق الضوارب الكثيرة استغنى بها عن انضاج
الفضول السوداء ، ليبقى لحمه خفيفا متحللا . لان دم الشرايين
رقيق لطيف قريب ، طبيعته البخار . فما اغتذى به كان خفيفا كالرئة ،
ولكن الرئة تغتذى بما صفا ورق وأشرق ، وكان أحمر ناريا .
وكذلك الرئة كانت أخف وزنا منه ، وأسخف جرما ، ومائلة الى
البياض . وأما الطحال فيغتذى بماء لطيف من الخلط الاسود المنطبخ
في الشرايين ، فيستريح منه البدن ويغتذى به الطحال . فالطحال
يغتذى بغذاء لطيف من غذاء السكبد ، لانه يرشح اليه من الشرايين
التي صفا فأيهما يحبه جدا (١) ولاجل سواد تلك الفضلة وكونها
عكرة في الاصل ، لم يكن لون الطحال أحمر ولا مشرقا

فأما السكبد فتغتذى بدم غليظ فاضل يرشح اليها من العروق غير
الضوارب ، فليجوده غذاءها كان لونها أحمر ، ولفضلته كانت كثيفة .
فالسكبد تغتذى بدم أحمر غليظ . والطحال بدم أسود لطيف . والرئة بدم
صاف مشرق ، في غاية النضج ، قريب من طبيعة الروح . فجوهر كل
عضو على ما هو عليه غذاؤه ، ملائما له . فالغاذي شبيه بالمغتذى في
طبعه وفعله . وهذا كما أن حكمة الله سبحانه في خلقه فيه جرت حكمته
في شرعه وأمره ، حيث حرم الأغذية الخبيثة على عباده ، لأنهم إذا

اغتذوا منها صارت جزءا منهم ، فصارت أجزاؤهم مشابة لأغذيتهم .
 اذ الغذاء شبيه بالمغتذى ، بل يستحيل الى جوهره . فلهذا كان نوع
 الانسان أعدل أنواع الحيوان مزاجا ، لا اعتدال غذائه . وكان
 الاغتذاء بالدم ولحوم السباع يورث المغتذى بها قوة شيطانية
 سبعية عادية على الناس . فمن محاسن الشريعة تحريم هذه الأغذية
 وأشباهاها ، الا اذا عارضها مصلحة أرجح منها ، كحال الضرورة .
 ولهذا لما أكلت النصارى لحوم الخنازير ، أورثها نوعا من الغلظة
 والقسوة . وكذلك من أكل لحوم السباع والكلاب صار فيه قوتها .
 ولما كانت القوة الشيطانية عارضة ثابتة لازمة لذوات الأنياب من
 السباع حرمها الشارع . ولما كانت القوة الشيطانية عارضة في
 الابل أمر بكسرها بالوضوء لمن أكل منها . ولما كانت الطبيعة الحمارية
 لازمة للحمار حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم لحوم الحمير الأهلية .
 ولما كان الدم مَرَكِبَ الشيطان ومجراه حرمه الله تعالى تحريما لازما
 فمن تأمل حكمة الله سبحانه في خلقه وأمره ، وطبق بين هذا وهذا
 فَتَحَالَه بابا عظيمامن معرفة الله تعالى وأسمائه وصفاته . وهذا هو
 الذي حررنا لبسط القول في هذا المقام الذي لا يكاد يرى فيه الا
 أحد طريقتين : طريق طبيب معترض للوحي مقلد لبقرات ، وطائفة
 قد عبرت عينه على الرسل وما جاءوا به . وهو من قال تعالى فيه
 (٨٣:٤٠) فَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ
 الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ) وطريق من يحدد ذلك كله

ويكذب قائله ، ويظن منافاته للشريعة ، فيجحد حكمة الله تعالى في خلقه ، وابداعه في صنعه ، وكلا الطريقين مذموم ، وسالكه من الوصول الى الغاية محروم . فلا نكذب بشرع الله ، ولا نجحد حكمة الله . وأكثر ما أفسد الناس أنفسهم لم يروا الا طبائعيًا زنديقا ، منحلا عن الشرائع ، أو متساهلا قادحا فيما جرت به حكمة الله ومشيبته في خلقه ، منكرا للقوى والطبائع والاسباب والحكم والتعليل . فاذا أراد الأول أن يدخل في الاسلام صده جهل هؤلاء ومكابرتهم للعقول والحس . واذا أراد الآخر أن يدخل في معرفة الحكم والغايات ، وما أودع الله في مخلوقاته من المنافع والقوى والاسباب ، صده زندقة هؤلاء وكفرهم ، واعراضهم عما جاءت به الرسل ، وقد حهم فيما عندهم من العلم . فيختار دينه على عقله ، ويختار ذلك عقله وما استقر عنده ، بما لا يكابر فيه حسه ولا عقله على الدين . وهذا قد بلى خالق الاطباء والطبائعين فهو عنده أحد أنواع أدلة التوحيد والمعاد وصفات الخالق ، وما اخبرت به الرسل هو من أظهر أدلته ، ولا يزداد الباطن فيه الا ايمانا ، وما أخبرت به الرسل لا يناقض ما جرت به عادة الله وحكمته في خلقه : من نصب الاسباب وترتيب مسبباتها عليها بعلمه وحكمته . فمصدر خلقه وأمره علمه تعالى وحكمته . وآلاء الرب تعالى لا تتعارض ولا تناقض ، ولا يبطل بعضها بعضا . والله أعلم

فصل (١١٧)

والكبد والطحال متقابلان ، والمعدة بينهما . والعروق الضواريب تتصل بها المعدة ، والقلب بمنزلة التنور ، أو بمنزلة أتون الحمام يسخن ماءه ، وله الى كل بيت منفذ ينفذ منه وهج النار اليه . وكذلك الحار الغريزي الذي منبعه من القلب ينفذ في مسالك ومنافذ الى جميع الأعضاء فيسخنها

فصل (١١٨)

وجعلت الأعضاء مسلكا مؤديا ، والمعدة هي الآلة لهضم الغذاء واستمراره ، والامعاء تؤدي ذلك الى الكبد . ولما كانت الامعاء آلة الأداء والاتصال كثرت لفائفها وطولها ، وكانت العروق التي تأتيها من الكبد لا تحصى كثرة ، لينفذ فيها الغذاء أولا فأولا ، وتقضيته يسيرا يسيرا . فلولا تطويل لفائف الامعاء لكان يخرج قبل أخذ خاصيته ، وكان يعرض اليهم بشهوة الا كل دائماً ، وكان الانسان يعدم التفرغ لمصالحه وسائر أعماله ، وكان دائماً مكباً على الغذاء . ولهذا صار الحيوان الذي ليس لامعائه استدارات بل له معي واحد مستقيم ، مكباً على الغذاء دائماً ، عديم الصبر عنه ، كالفيل وأما مالا معائه استدارات فانه اذا فارقه الغذاء أو بعضه في الاستدارة الأولى صادفه في الثانية . فان هوفاته في الثانية صادفه في الثالثة والرابعة والخامسة كذلك . فيمكن صبره على الغذاء . حكمة بالغة

وما ينفذ الى الامعاء يبعث من العروق الضاربة ويأخذ من الغذاء جزءا يسيرا لطيفا . وأما العروق غير الضاربة فهي مجارى الغذاء بالحقيقة ، فأخذت أكثره . وأما العروق الضاربة فجعلت مسلكا للأرواح المنبعثة من القلب ، فاستغنت بقليل الغذاء ، وجعل للقلب وصلة بالامعاء ليحسنها أولا ، ويمدها بقوة الحار باذن خالقه . ثم يأخذ منها الجزء الملائم من الغذاء المستغنى عن فعل الكبد للطاقة جوهره . فان هذا الجزء لو حصل في الكبد لم يؤمن احراقه وفساده فلا ينتفع به القلب ، ثم يأخذ منها عند شدة الحاجة وصدق المجاعة ، فيتعجل ذلك من أدنى المواضع . ولذلك يشاهد من أكل مسبة شديدة (١) يحس بزيادة ونماء في كل أعضائه ، حتى يمر الطعام بالمعدة قبل استقراره فيها . فسبحان من أتقن ما صنع

ولما كانت المعدة آلة هضم الغذاء ، والامعاء آلة دفعه جعل للامعاء طبقتان ، ليقوى دفعها بهما جميعا ، وليكون حرزا لها وحفظا . ولذلك من تعرض له قرحة الامعاء بانجراد أحد الصفاقين يبق الآخر سليما ، وجعلت الامعاء الغلاظ لقذف الثقل ، والرقاق لتأدية الغذاء . والسبب في أن صار الانسان لا يحتاج الى تناول الغذاء دائما كثرة لفائف امعائه . والسبب المانع من قذف الفضول دائما سعة الامعاء الغلاظ التي تقوم لها مقام وعاء آخر ، شبيه بالمعدة في السعة ، كما أن المثانة وعاء للبول كذلك

(١١٩) فصل

ونحن نذكر فصلا مختصرا في هذا الباب ، يجمع شتات ذلك بايضاح
وايجاز إن شاء الله تعالى ، وبه الحول والقوة ، فنقول :

المرىء موضوع خلف الحلقوم ومما يلي فقار الظهر ، وينتهي في
ذهابه الى الحجاب ، وهو مشدود برباطات . فاذا أبعدها الى الجانب
الأيسر واتسع . وذلك المتسع هو المعدة ، وأسفلها يعود مائلا الى
اليمن ، والمعدة مقر طبعه ، وفيها هو المسدف ، منها ويسمونه الفؤاد .
وهذا من غلطهم ، الا أن يكون ذلك اصطلاحا خاصا منهم . والفؤاد
عند أهل اللغة هو القلب . قال الجوهري : الفؤاد القلب . وقال
الاصمعي : وفي الجوف الفؤاد ، وهو القلب . وقد فرق بعض أهل
اللغة بين القلب والفؤاد . فقال الليث : القلب مضغة من الفؤاد
معلقة بالنياط . وقالت طائفة : مسدف القلب . وقال النبي صلى الله
عليه وسلم « جاءكم أهل اليمن أرق قلوبا ، وألين أفئدة (١) » ففرق
بينهما ووصف القلب بالركة والأفئدة باللين . وأما كون فم المعدة
هو الفؤاد فهذا لانعلم أحدا من أهل اللغة قاله . وتأمل وصف النبي

(١) روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي
صلى الله عليه وسلم قال « أناكم أهل اليمن ، هم أرق أفئدة وألين قلوبنا .
الايمن يمان . والحكمة يمانية . والفخر والخيلاء في أصحاب الابل .
والسكينة والوقار في أهل الغنم »

صلى الله عليه وسلم القلب بالرقعة التى هى ضد القساوة والغلظة ،
والفؤاد باللين الذى هو ضد اليأس والقسوة . فاذا اجتمع لين
الفؤاد الى رقة القلب حصل من ذلك الرحمة ، والشفقة ، والاحسان ،
ومعرفة الحق ، وقبوله . فان اللين موجب للقبول والفهم ، والرقعة
تقتضى الرحمة والشفقة . وهذا هو العلم والرحمة . وبهما كمال الانسان
وربنا وسع كل شئ رحمة وعلما . فلنرجع الى مانحن بصدده فنقول :
المعدة مع المرئ ذات طبقتين لطيفتين ، واللحم فى الطبقة الداخلة
أقل . ولهذا يغلب عليها البياض . وهى عصبية حساسة ، وهى فى
الطبقة الخارجة أكثر ، ولهذا يغلب عليها الحمرة ، وهى مربوطة مع
الفقر برباطات وثيقة ، وتنتهى من جهة قعرها الى منفذ هو باب
المعدة ، وبوابها ، يغاق عند اشتماله على الغذاء مدة هضمه . ويقال
لباطن جرم المعدة : خمل المعدة

والامعاء المصارين ، وهو جمع مصران - بضم الميم - وهو جمع
مصير . وسى مصيراً لمصير الغذاء اليه ، والسفلى يقال لها : الاقتاب .
ومنه قوله صلى الله عليه وسلم « فتندلق أقتابُ بطنه » (١) والعليا

(١) روى البخارى ومسلم عن أسامة بن زيد رضى الله عنه قال :
سمعت النبي ﷺ يقول « يؤتى بالرجل يوم القيامة ، فتندلق أقتاب
بطنه ، فيدور بها كما يدور الحمار فى الرحى ، فيجتمع اليه أهل النار .
فيقولون : يا فلان مالك ؟ ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ؟
فيقول : بلى ، كنت أمر بالمعروف ولا آتية ، وأنهى عن المنكر وآتية »

أرق من السفلى ، لما تقدم من الحكمة .

فأعلى الرقاق يسمى الاثنى عشر ، لأن مساحته اثنا عشر إصبعاً ،
ويليه المسمى بالصائم ، لقلة لبث الغذاء فيه ، لا لأنه يوجد أبداً
خالياً كما ظنه بعضهم . فان هذا باطل حساً وشرعاً كما سذكروه .
والثالث المسمى بالرقيق واللفائف ، وهو أطول الأمعاء وأكثرها
تلايف . ولبث الغذاء فيه أطول ، والعروق التي تأتيه من السكبد
أقل . وأما اللذان قبله فمستصبان في طول البدن قصيران ، ويقل لبث
الغذاء فيهما ، وهو في الصائم أقل لبثاً . وهذه الثلاثة تسمى الامعاء
العليا ، والامعاء الرقاق ، وهي كلها في سعة البواب

وأما الدامع ، وهو الأول من الثلاثة السفلى فيسمى الأعور ،
لأنه لا منفذ له ، بل هو كالسكيس يخرج منه ما دخل من حيث دخل .
وحكمته سبحانه أنه يتم فيه ما يعسر هضمه من الأشياء الصلبة ، كما
يتم ذلك في قوائم الطيور . ووضعه في الجانب الأيمن

والخامس المسمى بقولون يتبدىء من الجانب الأيمن ويأخذ
عرضاً الى الأيسر ويحتبس فيه الثفل ، وربما يستقضى ما فيه

والسادس هو الآخر ، وهو المعى المستقيم ، لأنه مستقيم الوضع
في طول البدن ، وهو واسع جداً ، يجتمع فيه الثفل كما يجتمع البول
في المثانة ، وعليه الفضلة المانعة لخروج الثقل بدون الارادة . وقد صرح عن

والاقتاب : الامعاء . واحدها قتب - بكسر القاف - وتنداق : تخرج

النبي ﷺ انه قال « المؤمن يأكل في معي واحد والكافر يأكل في سبعة امعاء (١) » فأطلق على المعدة اسم المعى تغليبا ، ولمشابهتها بالامعاء لتكون كل واحد من الامعاء والمعدة محلا للغذاء . وهذا لغة العرب كما يقولون : القمران ، والعمران ، والركنان اليمانيان ، والشاميان ، والعراقيان (٢) ونظائر ذلك ، ولا سيما فان تركيب الامعاء كتركيب المعدة ، اذ هي مركبة من طبقتين : لحمية خارجة ، وعصية داخلية . والطبقة الداخلة فيها لزوجات متصلة بها لتقيها من حر ألم البراز ، ورداءته ، كشيفة فلا تمسكه ، ولا يتعلق بها شيء منه . ولما كان الكافر ليس في قلبه شيء من الايمان والخير يغتذى به انصرفت قواه ونهمته كلها الى الغذاء الحيواني البهيمي ، لما فقد الغذاء الروحي القلبي . فتوفرت أمعاؤه وقواه على هذا الغذاء ، واستقرغت امعاؤه هذا الغذاء ، وامتلاّت به ، بحسب استعدادها وقبولها ، كما امتلاّت به العروق والمعدة . وأما المؤمن فانه إنما

(١) روى مالك والبخارى ومسلم وابن ماجه وغيرهم عن ابي هريرة : أن رجلا كان يأكل كثيرا . فأسلم ، فكان يأكل أكلا قليلا ، فذكر ذلك الرسول الله ﷺ فقال « ان المؤمن يأكل في معي الخ » واللفظ للبخارى (٢) يعني للشمس والقمر ، ولابن بكر وعمر ، وللركن الذي به الحجر الأسود والذي يليه من ظهر الكعبة . والشاميان هما اللذان بينهما الميزاب ويحاذيان حجر اسماعيل . والعراقيان هما الركن اليماني والذي يليه من الجهة الغربية ، لانهما يحاذقان العراق

يأكل العلف ليتقوى بها على ما أمر به ، فهمته وقواه مصروفة الى أمور وراء الأكل . فاذا أكل ما يغذيه ويقيم صلبه استغنى قلبه ونفسه وروحه بالغذاء الايماني عن الاستكثار من الغذاء الحيواني ، فاشتغل معاه الواحد - وهو قولان - بالغذاء ، فأمسكه حتى أخذت منه الأعضاء والقوى مقدار الحاجة ، فلم يحتاج الى أن يملأ امعاء كلها من الطعام . وهذا أمر معلوم بالتجربة . واذا قويت مواد الايمان ومعرفة الله وأسمائه وصفاته ومحبه والشوق الى لقائه في القلب استغنى بها العبد عن كثير من الغذاء ، ووجد لها قوة تزيد على قوة الغذاء الحيواني . فان كثفت طباعك عن هذا وكنت عنه بمعزل ، فتأمل حال الفرح والسرور بتجدد نعمة عظيمة واستغنائك مدة عن الطعام والشراب مع وفور قوتك ، وظهور الدموية على بشرتك ، وتغذية بالسرور والفرح . ولان نسبة لذلك الى فرح القلب ونعيمه ، وابتهاج الروح بقربه تعالى ومحبه ومعرفة ، كما قيل : لها أحاديث من ذكراك تشغلها * عن الطعام ، وتلهيها عن الزاد وقد قال صلى الله عليه وسلم في الحديث المتفق على صحته « إني أظل عند ربى يطعمنى ويسقيني (١) » وصدق الصادق المصدوق

(١) عن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن الوصال - في الصوم - فقالوا : انك تفعله . فقال « انى لست كأحدكم ، انى أظل الخ » متفق عليه . والوصال : أن يصل الليل بالنهار صوما بدون أن يطعم شيئاً او يشرب عدة أيام

صلوات الله وسلامه عليه . فان المقصود من الطعام والشراب
التغذية المسكنة ، فاذا حصل له أعلى الغذاءين وأشرفهما وأنفعهما
فكيف لا يغنيه عن الغذاء المشترك . وإذا كنا نشاهد أن الغذاء
الحيواني يغلب على الغذاء القلبي الروحي حتى يصير الحكم له ،
ويضمحل هذا الغذاء بالكلية ، فكيف لا يضمحل غذاء البنن عند
استيلاء غذاء القلب والروح ويصير الحكم له ؟ وقد كان صلى الله
عليه وسلم يمكث الأيام لا يطعم شيئاً ، وله قوة ثلاثين رجلاً ،
ويطوف مع ذلك على نسائه كلهن في ليلة واحدة ، وهن تسع نسوة
وهذا المسيح بن مريم صلى الله عليه وسلم حي لم يميت ، وغداؤه من
جنس غذاء الملائكة . وأنت تشاهد المريض يمكث الأيام العديدة
لأياً كلاً ولا يشرب ، لا تشتغل نفسه بمحاربة المرض ومدافقته ،
واكتفاء الطبيعة ببقية الغذاء الذي في الأمعاء والمعدة مدة الحرب ،
فاذا وضعت الحرب أوزارها رأيت شدة طلبه للغذاء . فالتأفف ،
والمحب ، والفرح ، والحزين ، والمستولى عليه الفكر لا تطالبه نفسه
بشيء من الغذاء كالتألى من ذلك

(١٢٠) فصل

والكبد عضو لحمي ، تتخلله عروق رقاق وغلظ ، وعلى الكبد
غشاء عصبي حساس يحيط بها ويتثنى الى غلافه . والكبد هي الأصل
في الغذاء ، وآلات الغذاء خدم لها ومعينات . فان الانسان لما كان

كالشجرة المستقلة جعل له ما يقوم مقام النهر الجارى فى أصول الشجرة يسقيها ، وهو الامعاء . والمعدة بمنزلة العين ، وتجرى منها العروق مجرى السواقى ، وعروق الكبد المتصلة بالامعاء بمنزلة عروق الشجرة المتصلة بأرض الساقية ، تمتص الماء منها وتؤديه الى الشجرة وأغصانها وورقها وثمارها . وهذه العروق تمتص الماء من الطين والثرى . وكذلك عروق الكبد تمتص صفو الماء وخالصة من كلوليته ، وتحيله الى طبيعة الأعضاء ، كما تفعل عروق الشجرة . وشكل الكبد شكل هلالى محدب من ظاهره ، مقعر من باطنه ، وهى تحت الاضلاع الخمس . ولها خمس شعب . يقال لها الزوائد تحتوى على المعدة ، كما تحتوى الكف بأصابعها على الشئ المقبوض . ويقال للشعبة الصغيرة منها خاصة زائدة الكبد ، وفى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم « ان سبعين ألفاً من أهل الجنة يأكلون من زيادة كبد الحوت ، الذى هو أول طعامهم » وهذا يدل على عظم قدر هذه الزائدة . فما الظن بالكبد التى هى زائدته ، فكيف بالحوت الذى حواها ؟

ومقعرها يسمى المورد ، لانه يورد الغذاء من المعدة والامعاء ، ويسمى باب الكبد ، ثم تتشعب هذه العروق من جانبيه بشعب تتصل بالامعاء ، وتسمى الجداول لشبهها بالسواقى الصغار ، وتؤدى الى نقرة عظيمة . ولهذه الجداول أغشية من فوقها ومن تحتها ،

تستدير مع الامعاء العروق المتصلة بها ، وتسمى هذه الأغشية وما تحتويه المرابط

(١٢١) فصل

والعرق الثاني ينقسم في مجذبها الى عروق صغار ، وأصغر منها ، حتى تبلغ غاية الرقة ، ثم تعود وتجتمع أول فأول ، على قياس ما تفرق ، وأخذ من كثرة الى وحدة ، ومن رقة الى غلظ ، حتى يجتمع منها العرق الخارج من الكبد المسمى بالأجوف ، ومنها يتأدى الدم الى البدن كله ، وحين يخرج ينقسم الى قسمين : فيأخذ أحدهما نافذا في الحجاب نحو القلب ، ويسمى الوتين . قال أهل اللغة . الوتين عرق يسقى القلب . قال في الصحاح : الوتين عرق في القلب ، إذا انقطع مات صاحبه . وأصيب وتينه فهو موتون . وقال الواحدى : الوتين نياط القلب ، وهو عرق يجرى في الظهر حتى يتصل بالقلب ، إذا انقطع بطلت القوى ، ومات صاحبه ، وهذا قول جميع أهل اللغة ، وأنشدوا للشماخ :

إِذَا بَلَغَتْنِي وَحَمَلْتِ رَحْلِي * عَرَابَةٌ فَاشْرَقِي بَدَمِ الْوَتَيْنِ
وقال ابن عباس وجمهور المفسرين : هو حبل القلب ونياطه .
وأما الأبر الذي قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم « هذا أوان
(م - ٢٥ تبيان)

انقطاع أبهرى (١) « فقال الجوهري : الأبهر عرق إذا انقطع مات صاحبه ، وهما أبهران يخرجان من القلب ، ثم تتشعب منهما سائر الشرايين . وأنشدوا للأصمعي :

وللقواد وجيب عند أبهره * لدم الغلام وراء الغيب بالحجر (٢)

(١٢٢) فصل

والمرارة موضوعة على الكبد ، ولها مجريان : أحدهما متصل بتقعر الكبد ، يحتذب المرة الصفراء ، والآخر متصل بالأمعاء العليا ، يصب في المرة ليغسلها ويحليها ، ويتصل منه السرب أسفل المعدة ليمزج بالغذاء فيكون فيه معونة على هضمه

(١٢٣) فصل

والقوة التي وكلها الله سبحانه وتعالى بتدبير البدن من أعظم آياته الدالة عليه ، فانها تفعل في الطعام والشراب الواردين عليه أفعالا متنوعة ، من تقطيع ، وتفصيل ، وتمريخ ، وتحليل ، وتركيب . فبدأ ذلك في الفم ، وهو تقطيعه بالأسنان ومضغه واختلاطه بالرطوبات التي فيه ، وانهضامه فيه انهضاما تاما . ثم بعد ذلك عند وروده الى

(١) عن عائشة رضي الله عنها قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في مرضه الذي مات فيه « يا عائشة ما أزال أجد الطعام الذي أكلت نجس » ، وهذا أوان وجدت انقطاع أبهرى من ذلك المم « رواه البخاري (٢) كذا في الاصل ، وليحذر

المعدة تهضمه هضمًا آخر ، ويسمى الهضم الاول ، ويعينها على هضمه ما يحاورها من الأعضاء . فالكبد عن يمينها ، والطحال عن يسارها ، والقلب من فوقها ، والمرى أمامها ، والأمعاء السبل الموصلة اليها ، والعروق الطرق المؤدية منها ، والحرارة النار الطابخة للطعام فيها ، والقوة الهاضمة والجاذبة ، والغاذية ، والدافعة خدم لها . فاذا نهضم الطعام فيها صار كيلوسا شبيها بماء الكشك الشخين ، ثم تنهز صوبه ولطيفه ، فتقذفه العروق الرقاق الشعرية التي هي برقة الشعر وينجذب الى الكبد ، فاذا ورد هذا اللطيف الى الكبد اشتملت عليه بجملة فطبخته وهضمته وأحالتة الى جوهرها ، وصيرته دما . ويسمى هذا الهضم الثاني . ولما كان هذا الانضاج والطبخ يشبهه طبخ القدر علاه شيء كالرغوة والزبد ، وهو الصفراء ، ورسب منه شيء مثل العكر ، وهو السوداء ، وتختلف عن تمام النضج شيء بقي على فجوجته وهو البلغم ، والشيء الذي يصنف ويبقى من ذلك كله هو الدم . فاندفع من الكبد في العرق الأعظم المعروف بالأجوف بعد أن تصفت عنه المائية الى آلة البول ، فيسلك هذا الدم في الأوردة المتشعبة من الأجوف ، ثم في جداول متشعبة من الأوردة ، ثم في سواقي متشعبة من الجداول ، ثم في روافع مشتقة من السواقي ، ثم في عروق رفاق شعرية ، ثم يرشح من أفواها في الأعضاء لتغذى به فتحله الأعضاء وتصيره لجوهرها ، فيصير في اللحم لحماً ، وفي العظم عظما ، وفي العصب عصباً ، وفي الظفر ظفراً ، وفي الشعر شعراً ،

وفي السمع والبصر وآلة الحس كذلك . فتبارك من هذا صنعه في
قطرة من ماء مهين

(١٢٤) فصل

والدم هو الخليط الأصلي والغذاء الحقيقي للبدن ، والمخلف عليه
بدل ما ينقص ويتحلل منه . والاخلاط الآخر كالأبازير والتوابل
وهي صنفان : صنف لطيف ، وهو دم القلب . وغليظ وهو دم
الكبد . ومثله مثل السلطان إذا كان وقورا حليما ساكنا عاشت به
رعيته . وإذا غضب واحتد قتل

(١٢٥) فصل

وأما البلغم فخليط فجع مستعد ، لين ، يستكمل نضجه عند عوز
الغذاء اذ تولته الحرارة الغريزية ، فمضمته وصيرته دما ، فيكون في
المعدة والامعاء ، وفي الكبد عند قصور الهضم ، وفيه من المنفعة أنه
يرطب البدن ويبل المفاصل ، لسلس حركاتها ، ويخالط الدم في
تغذية الأعضاء البلغمية المزاج كالدماع

ولما كانت الأعضاء محتاجة أن يكون قريبا منها لترطيبها لم يجعل
له عضو يختص به ، لاسيما والأعضاء تغتذى به اذا أعوزها الغذاء

فصل (١٢٦)

وأما الصفراء فخليط لطيف حار ، وحاجة البدن اليها في أن تخالط الدم وترقه بلطفها ، وتنفذه في المسالك الضيقة ، ولتعيته في تغذية الأعضاء الحارة اليابسة ، وما ينفصل عنها مما يستغنى عنه يتصفي الى المرارة لتأخذ نصيبها منه ، وما تستغنى عنه المرارة تصبه الى الامعاء ليغسلها عن لطخة الأثقال ولزوجتها ، ولتدفع عضل المعدة فيحس بالحاجة الى التبرز

فصل (١٢٧)

وأما المرارة السوداء فخليط بارد يابس ، وفيه من المنافع أنه ينفذ مع الدم في العروق ليشده ويقويه ويكفيه ويمسكه ويمنعه من سهولة الحرمة عند الحاجة الى ذلك ، ويعينه على تغذية الأعضاء المحتاجة أن يكون في غذائها شيء من السوداء ، كالعظام وما اتصل منه واستغنى عنه يصفي الى الطحال ، فيصفيه الطحال جدا ، ويتغذى به ، ثم يجلب ما يستغنى عنه الطحال الى فم المعدة فيدغدغه بالجووضة التي فيه ، فتتحرك الشهوة ويحس بالجوع ، فتطلب الأعضاء القصوى معلومها وراتبها من الأعضاء التي تليها ، وتطلبه الأعضاء التي تليها من التي تجاوزها . وهكذا حتى ينتهي الطلب الى المعدة . فالجوع طلب الأعضاء القصوى معلومها من الأعضاء الدنيا

(١٢٧) فصل

ولما اقتضت حكمة الرب ، جل جلاله ، وتقدست أسماؤه ؛
ولا إله غيره - حيث كان بدن الانسان مشبها في أحواله بالمدينة -
أن يوجد فيه أعضاء رئيسية تقوم بمصالحها ، كما تقوم رؤساء المدينة
بمصالحها ، وتكون لها بمنزلة الولاية والأمراء ، وأعضاء تكون خادمة
لهذه الأعضاء الرئيسية ، فان الرئيس لا يكون رئيسا إلا بمرءوس ،
وهي : بمنزلة الشرط والجلالوزة (١) والنقباء ، وأن يوجد فيها أعضاء
كالرعية ، وهي قسمان : ماله اتصال بالرؤساء ، وإن لم يكن له اتصال
خدمة ، وماله اتصال له بهم ، بل هو مستقل بنفسه . فالأعضاء
إذا بهذا التقسيم أربعة : أحدها الأعضاء الرئيسية المخدومة . الثاني
الأعضاء المرءوسة الخادمة . الثالث الأعضاء المرءوسة بلا خدمة .
الرابع الأعضاء التي ليست رئيسة ولا مرءوسة

(١٢٨) فصل

والأعضاء الرئيسية إنما استحققت الرياسة لشرفها ، إذ كانت هي
الأصول والمعادن والمبادئ للقوى الأولية في البدن . المضطر اليها في بقاء
الشخص والنوع ، وهي بحسب بقاء الشخص ثلاثة : القلب ، والكبد ،
والدماغ . وبحسب بقاء النوع أربعة : الثلاثة المذكورة ، والأثنان

(١) جمع جلواز - بكسر الجيم وسكون اللام - وهو الشرطى . قاموس

وأما القلب فهو الذى جعله الخلاق العليم قائماً بأمر البدن، لقيام الملك بالرعية، وهو أول عضو يتحرك فى البدن، وآخر عضو يسكن منه. وهو مبدأ جميع الخلق وما يلحقه من صلاح أو فساد يتأدى منه الى غيره من الأعضاء

وأما الكبد فهى العضو التى تقوم لحفظ الحياة، اذ كانت هى التى تملأ الأعضاء بالغذاء لىبقى البدن محفوظاً ما مكن بقاءه
وأما الدماغ فهو العضو القائم بأمر الحس والادراك، وتكميل الحياة، اذ فيه آلات الاحساس التى بها يعرف النافع من الضار، والملائم من المنافر، وبه صارت الحياة نافعة، صالحة، متجاوزة لزينة حياة النبات

وأما الاثنان، فهما اللذان يقومان لحفظ بقاء النوع

(١٣٠) فصل

وأما الأعضاء الخادمة فالرئة، والشرايين الحاملة المؤدية من القلب الحرارة الغريزية والقوى والأرواح الحيوانية، التى بها قوام البدن :

فهذان خادما القلب. والمعدة والأوردة خادمان للكبد. والأوردة تنفذ الدم الغاذى والقوى الى جميع البدن. والكبد خادمة الدماغ. وكذلك الأعصاب التى بها يحصل الحس والحركة

والأشيان يخدمهما الأعضاء المؤدية للبنى ، والمجارى المؤدية عنهما
الى موضع التوالد

(١٣١) فصل

وأما الأعضاء المروسة بلاخدمة ، فهى أعضاء مختصة بقوى لها
طبيعة ، بها يتم تدبيرها ويستقيم أمرها ، ولا يدفع ذلك أنه يقبض عليها
من الأعضاء الرئيسة قوى تمدها باذن الله تعالى كالأذن ، والعين ،
والأنف ، فإن كل واحد منها يقوم بأمر نفسه بما فيه من القوة
الطبيعية التى أعطاها إياها الخالق سبحانه . ولا يتم ذلك إلا بأن
تأتيها قوة حساسة تنزل عليها من الدماغ باذن الله تعالى

(١٣٢) فصل

وأما الأعضاء التى ليست برئيسة ولا مروسة ، فهى التى اختصت بقوى
غريزية فيها من أصل الخلقة فى أول التكوين ، ل يتم بها قوام أمرها ،
وتدبيرها فى جلب المنافع ودفع المضار ، كالعظام والغضاريف
وسائر الأعضاء المتشابهة الأجزاء ، مثل الرباطات ، والأعصاب
والأوتار ، والشرابين ، والأوردة ، والأغشية واللحم . والعظام
كالأساس والاسطوانات ، لبناء هيكل البدن

فان قيل : هل فى العظام قوة الاحساس وحياته أم لا ؟ قيل :
هذا موضع يختلف فيه أرباب الشريعة . فيما بينهم ، وأرباب الطبيعة

فيما بينهم . فقالت طائفة : لاهياة في العظام وان كان فيها قوة النمو والاعتدال .

قالوا : ان الحياة انما هي الروح الحيواني ، ولا حظ للعظام فيه قالوا : ولأن مركب الحياة إنما هو الدم المنيث في العروق والاعصاب واللحم . ولهذا لم يكن للشعر ولا للظفر نصيب من ذلك . ولهذا لم يألم الانسان بأخذه

قالوا : خياة العظام والشعر حياة نمو واعتدال ، وحياة أعضاء البدن حياة نمو واحساس

قالوا : ولهذا قلنا ان العظام لا تتجس بالموت ، لأنها لم يكن فيها حياة تزول بالموت

قالوا : وزوال النمو لا يوجب نجاسة ما فارقه ، بدليل يبس الزرع والشجر

قال آخرون : الدليل على أن العظام تحملها الحياة قوله تعالى (٧٨ : ٣٦) قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ٧٩ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ) والحس يدل على ذلك أيضا . فان العظم يألم ويضرب ويسكن ، وذلك نفس احساسه

قالوا : ولا يمكن انكار كون العظام فيها قوة حساسة تحس بالبارد والحار

قال الآخرون : الاحساس والألم ليس للعظم في نفسه ، وإنما هو لما جاوره من اللحم

قال المنازعون لهم : هذا مكابرة ظاهرة . فان العظم نفسه يألم ، ولا سيما اذا تصدع . ثم ان الأسنان والاضراس تحس بالألم والحار والبارد بأنفسها ، لا بمجاورها من اللحم . ولهذا توسطت طائفة ثالثة ، وقالت : عظام الأسنان خاصة لها الاحساس ، بخلاف سائر العظام . وهؤلاء قد سلموا المسئلة من مكان قريب ، فان الذى دل على احساس الاسنان وحياتها ، هو الدال على حياة سائر العظام . والشبهة التى ذكروها لو صحت لمنعت من احساس الاسنان وأما حديث الطهارة والنجاسة فذاك لأمر آخر وراء الحياة من نجسها بالموت سوى بينها وبين اللحم ، ومن لم ينجسها - وهو الراجح فى الدليل - فذاك لعدم علة التنجيس فيها ، وان الموت ليس بعلة النجاسة ، وانما هو دليل العلة وسببها . والعلة هى احتقان الفضلات فى اللحم ، والعظم يرى من ذلك . والدليل على هذا أن الشارع لم يحكم بنجاسة الحيوان النامى الذى لانفس له سائلة ، لعدم احتقان الفضلات فيه ، فلأن لا يحكم بنجاسة العظم أولى وأحرى . فان الرطوبات التى فى الذباب والعقرب والخنفساء ، أكثر من الرطوبات التى فى العظم .

فصل (١٣٣)

والذى أحصاه المشرحون من العظام فى البدن مائتان وثمانية

وأربعون عظماً ، سوى الصغار السمسميات التي أحكم بها مفاصل الأصابع والتي في الحنجرة . وقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن الإنسان خلق من ثلاثمائة وستين مفصلاً . فإن كانت المفاصل هي العظام فقد اعترف جالينوس وغيره بأن في البدن عظماً صغيراً لم تدخل تحت ضبطهم واحصائهم . وإن كان المراد بالمفاصل المواضع التي تنفصل بها الأعضاء بعضها عن بعض - كما قال الجوهرى وغيره المفصل واحد مفاصل الأعضاء - فذلك أعم من العظام فتأمل . وإن السلاميات المذكورة في الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه من حديث أبي ذرٍّ « يُصْبَحُ عَلَى كُلِّ سَلَامَةٍ مِنْ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ . فكل تسبيحة صدقة ، وكل تحميدة صدقة ، وكل تهليلة صدقة ، وكل تكبيرة صدقة » الحديث (١) فالسلامة العظم ، وجمعه سلاميات فهذا ثلاثة أمور : أعضاء ، وعظام ، ومفاصل . وجعل الله سبحانه العظام أصلب شيء في البدن ، لتكون أسوأ وعمدة في البدن ، إذ كانت الأعضاء كلها موضوعة على العظام ، حتى القلب ، كما سيأتى بيانه إن شاء الله تعالى . وهي حاملة للأعضاء ، والحامل أقوى من المحمول .

(١) تمامه « وأمر بالمعروف صدقة ، ونهى عن المنكر صدقة . ويجزى من ذلك ركعتان يركعهما من الضحى » قال في المرقاة : ولعل وجه تخصيصهما بالأجزاء أنه وقت غفلة أكثر الناس عن الطاعة والقيام بمقام العبودية ولذا فسر الشفيع والوتر بهذه الصورة . والوتر في جوف الليل لكونهما وقت الاستراحة

ولتكون وقاية وجنة أيضا ، كالقحف ، فانه وقاية الدماغ ، وعظام الصدر وقاية له . وجعلت العظام كثيرة لفوائد ومنافع عديدة : منها الحركة ، فان الانسان قد يحتاج الى حركة بعض أجزائه دون بعض . وقد يحتاج الى حركة جزء من عضو

ومنها أنه لو كان على عظم واحد لكان اذا أراد أن يتحرك تحرك بجملته

ومنها أنه كان يتعذر عليه الصنائع والحل والربط

ومنها أنه اذا أصابه آفة عمت جميع البدن ، فجعلت العظام كثيرة

ليكون متى نال بعضها آفة لم تسر الى غيره ، وقام غيره من العظام مقامه في تحصيل تلك المنفعة

ومنها تعذر المنافع التي حصلت بسبب تعدد العظام ، ولولا

كثرتها وتعدد لفات تلك المنافع

ومنها أن من العظام ما يحتاج البدن الى كبره ، ومنها ما يحتاج الى

صغيره ، ومنها ما يحتاج الى مستطيله ، ومنها ما يحتاج الى مجوفه ، ومنها

ما يحتاج الى منحنه ، ومنها ما يحتاج الى مستقيمه . ولا يحصل ذلك الا

بتعدد العظام

ومنها بديع الصنع ، وحسن التأليف والتركيب ، وغير ذلك من الفوائد

ثم شد الخالق بعضها الى بعض بالرباطات والأسر المحكم ، ثم

كساها لحما ، حفظا لها ووقاية . ثم كسى اللحم جلدا ، صونا له

ولما كانت الفضلات تنقسم الى لطيفة وغليظة جعل الله سبحانه

للغليظة منها مجارى تنجذب فيها الى أسفل ، ويخرج منها خروجاً ظاهراً للحس . وأما اللطيفة فهي الفضلات البخارية ، ولما كان من شأنها أن تصعد الى فوق وتخرج عن البدن بالتحليل جعل في العظام العليا منها منافذ . يتحلل منها البخار المتصاعد . فلم تكن تلك المنافذ محسوسة ، لئلا يضعف صوان الدماغ - وهو القحف - بوصول الأجسام المؤذية اليه . فجعل الدماغ مركبة من عظام كثيرة . ووصل بعضها ببعض بوصل يقال لها الشؤون . ومنه قولهم : فلان لم تجمع شؤن رأسه (١)

ويشتمل الرأس بجملة أجزائه على تسعة وخمسين عظماً . وجعل القحف مستديراً تاماً في مقدمه ومؤخره وجانبيه ، بمنزلة غطاء القدر وعظامه ستة ، وهى : عظم اليافوخ . وعظم الجبهة . وعظم مؤخر الرأس . والعظامان اللذان فيهما ثقيا السمع . وفى كل واحد من الصدغين عظامان مصمتان

وعظام اللحي الأعلى أربعة عشر عظماً : ستة منها فى محاجر العينين . واثنان للأنف . واثنان تحت الأنف . وهما المثقوبان الى الفم . واثنان فى الوجنتين . واثنان تحت الشفة العليا

وأما العظم الشبيه بالوتد فهو واحد وهو كالقاعدة للرأس وعظام اللحي الأسفل اثنان : وهما متصلان فى وسط الذقن ،

(١) الشؤون جمع شأن وهو موصل قبائل الرأس . وأصله عرق فى الجبل ينبت فيه النبع اه من القاموس

وبينهما بنيان ، ويتصلان من فوق باللحى الأعلى اتصالاً مفصلياً
والأسنان اثنان وثلاثون ، في كل لحي ستة عشر : أربع ثنيات
وتليها الرباعيات ، وتليها النابان ، ويليهما الأضراس : خمسة من
هنا وخمسة من هنا . والنواجذ أول الأضراس ، وهما ناجدان في
كل ناحية ناجذ . وربما نقصت النواجذ في بعض الأفراد ، وكان
في كل جانب أربعة أضراس

وقد سلم الله غذاء الانسان الى يده ، فتأخذه فتسلمه الى شفتيه
فتسلمه الشفتان الى الانياب والثنايا ، فتفصله ، ثم تسلمه الى
الأضراس ، فتسلمه وتطحنه ، ثم تسلمه الى اللسان والقم ، فيعجنه
ثم يسلمه الى الحلقوم والمرى ، فيسلمه ويوصله الى المعدة ، فتطبخه
وتنضجه ، وتصلحه كما ينبغي ، ثم تسلمه الى الكبد ، فيتسلمه منها ثم
يرسل منه الى كل عضوراته ومعلومه ، ثم تصب قربة الصفراء في
المرارة السوداء في الطحال . والثفل يخرجها عنها كما تقدم بيانه

(١٣٤) فصل

والرأس يقال بالعموم على ما يقله العنق بجملمته ، ويقال
بالخصوص على الفروة . وهي جلدة الرأس حيث منبت الشعر ،
والجمجمة العظم الذي يحوى الدماغ ، وهي مؤلفة من سبع قطع متقابلة
تسمى القبائل ، وتسمى مواضع التآليف شعونا ، ووسط الجمجمة

يسمى الهامة ، وحد الهامة من الجانبين قرن الرأس ، وحد الهامة من المقدم اليافوخ ، ومن المؤخر القمحدوة ، وهي ما يصيب الأرض من رأس المستلقى على ظهره. ولها ثلاث حدود: نقرة القفا ، والقذالان فنقرة القفا حدما من آخر الوسط . والقذالان جانباً النقرة . وقد تقدم تفصيل القبائل السبع .

وسنظهر الجمجمة عما يحيط بها : السمحاق وسطها غشاوتان : إحداهما تلي الجمجمة ، وهو أثخنهما وأصلبهما . والآخر يكتشف الدماغ ويحيط به ويخالطه ، ويقال لكل منهما : أم الدماغ ، ويسميان الأمان ، ومنه الآمة ، والمأمومة التي فيها ثلث الدية ، وهي الجراحة التي تبلغ أم الدماغ ، ويقال لها : تجويف الدماغ وبطن وهي ثلاث بطون . وبين بطنى الدماغ اللذين فى مؤخره ووسطه مجرى فيه قطعة من الدماغ مستطيلة شبيهة بالدودة ، ينسد ذلك المجرى وينفتح بها ، وتحت الدماغ سبلة مبسوطة مؤلفة من عروق ضوارب ، يتولد منها روح نفسانى ينفذ الى البطنين اللذين فى مقدم الدماغ

وفى الدماغ البركة ، والحوض ، والقمع ، والدودة ، والبطون والأغشية ، ومبادئ الأعصاب ، ويحتوى الدماغ على ثلاث خزائن نافذ بعضها الى بعض ، وتسمى بطونا : فالأولى فى مقدمه تنقسم الى قسمين ، والثانية فى وسطه ، والثالثة فى مؤخره . وجوهر

الدماغ مخي متزرد الشكل ، كأنه زرد مجموع . والروح النفساني مثبت في خلل الزرد والدماغ ، مقسوم في طوله لنصفين متضامين ، والتنصيف في مقدم الدماغ أظهر . والغشاء ان يدخلان في فصول الدماغ وتزريده ، والصلب منهما يدخل بطونائين جزءي البطن المقدم فيحجز بينهما ، وتحت مصفى كالبركة تسمى المعصرة ، تصب في العروق الدم المنضج ، وتنبعث في جداول تسقى البطن المقدم ، وتجتمع الى عرقين كبيرين يحملان الدم الى البطن الأوسط والمؤخر ، والبطن الأوسط كدهليز ومنفذ بين المقدم والمؤخر ، وسقفه معقود كالأزج ، والدماغ موضوع طولاً على زائدتين متقاربتين ، فيتماسان ويتباعداً الى الانفراج فيفتح الدهليز ويترأى البطنان المقدم والمؤخر . والجزء المؤخر أخفى تدويراً من المقدم وأصغر زرداً ، وهو كرى الاستطالة ويستدق على التدريج ، حتى يسيل منه النخاع كالجدول من العين

وفي الدماغ مجريان : أحدهما في آخر المقدم . والمؤخر في الأوسط لدفع فضوله ، ويجمعان عند منفذ واحد عميق ، أولهما في الغشاء الرقيق ، والآخر في الغشاء الصلب ، يأخذ الى ضيق كالقمع ولما كان الدماغ مبدأ حركات البدن الى إرادته ولم يكن به حاجة الى الحركة القوية ، فحوط عليه بسور من عظام بخلاف المعدة ، والسكبد والرحم ، وسائر آلات الغذاء ، فانها لما احتاجت الى أن تتسع وتمتلئ بالغذاء فتحمل مرة بعد أخرى ، وأن تعصر الفضول فتخرجها ،

والعظم يمنع من ذلك ، ويكفي فيه الفصل وحده ، فأحيط عليه بسور من عظم

وأما الصدر فانه لما احتاج الى الوثاقة بالعظام وإلى الحركة بالفصل ألف الصدر منهما . وكان البطن أوسع من الصدر ، لما يحل بها من آلات الغذاء ، والتنفس ، والطحال ، والمرى ، وغيرها

فصل (١٣٥)

فاستقبل الآن النظر في نفسك ، وانظر الى المبدأ الأول ، وهو النطفة التي هي قطرة مهيئة ضعيفة ، لو تركت ساعة لبطلت وفست ، كيف أخرجهارب الأرباب من بين الصلب والترائب ؟ وكيف أوقع المحبة والألفة بين الذكور والاناث . ثم قادهما بسلسلة المحبة والشهوة الى الاجتماع . ثم استخرج النطفة من الذكر بحركة الوقاع من أعماق العروق ، وجمعها في الرحم في قرار مكين ، لاتناله يد ، ولا تطلع عليه شمس ، ولا يصيبه هواء ، ثم صرف تلك النطفة طورا بعد طور ، وطبقا بعد طبق ، وغذاها بماء الحيض

وكيف جعل سبحانه النطفة - وهي بيضاء مشرقة - علقه حمراء ، ثم جعلها مضغة . ثم قسم أجزاء المضغة الى العظام ، والأعصاب . والعروق ، والأوتار ، واللحم ، في داخل الرحم في الظلمات الثلاث . ولو كشف لك الغطاء لرأيت التخطيط والتصوير يظهر في تلك النطفة

شيئاً بعد شيء ، من غير أن ترى المصور ولا آله ، ولا قلبه . فهل رأيت مصوراً لا تحس آله ولا تلاقيها ؟

ثم تأمل هذه القبة العظيمة التي قد ركبت على المنكبين ، وما أودع فيها من العجائب ، وماركب فيها من الخزائن ، وما أودع في تلك الخزائن من المنافع ، وما اشتملت عليه هذه القبة من العظام المختلفة الأشكال ، والصفات ، والمنافع ، ومن الرطوبات ، والأعصاب ، والطرق ، والمجاري ، والدماغ ، والمنافذ ، والقوى الباطنة . من الذِّكر ، والفكر ، والتخيل ، وقوة الحفظ . ففيه القوة المفكرة ، والذاكرة ، والمخيلة ، والحافظة . وهذه القوى مودعة في خزائنها ، مسخرة لمصالحها ، يستعملها ، ويستخدمها كيف أراد

فتأمل كيف دور سبحانه الرأس ، وشق سمعه وبصره وأنفه ، وفمه ؟ وكيف ركب كرتة في بطن الأم من ثلاثة وعشرين عظماً ، وخلق تلك العظام على كيفية مختلفة

وتأمل كيف انقلبت تلك النطفة اللينة الضعيفة إلى العظام الصلبة الشديدة ؟

ثم تأمل كيف قدر سبحانه كل واحد من تلك العظام بشكل مخصوص ، بحيث حصل من مجموعها ما لو كان على خلافه لبطلت المنفعة وفات الغرض . ثم ركب بعضها مع بعض بحيث حصل من مجموعها كرة الرأس على هذه الحلقة المخصوصة ولما كان الرأس أشرف الأعضاء الانسانية وأجمعها للقوى ،

والمنافع والآلات والحزائن اقتضت العناية الالهية بأن صين بأنواع
 من الصيانات . وذلك أن الدماغ يحيطه غشاء رقيق . وفوق ذلك
 الغشاء غشاء آخر ، يقال له : السمحاق . ثم فوق ذلك الغشاء طبقة
 لحمية ، وفوق تلك الطبقة اللحمية الجلد . ثم فوق الجلد الشعر . فخلق
 سبحانه فوق دماغك سبع طبقات ، كما خلق فوق الارض سبع
 سموات طباقا . والمقصود من تخليقها الاحتياط في صون الدماغ
 من الآفات . والدماغ من الرأس بمنزلة القلب من البدن
 وهو سبحانه قسمه في طوله ثلاثة أقسام ، وجعل القسم المقدم
 محل الحفظ والتخيل ، والبطن الأوسط محل التأمل والتفكير ،
 والبطن الأخير محل التذكر والاسترجاع لما كان قد نسيه . ولكل
 واحدة من هذه الامور الثلاثة أمر مهم للانسان ، لا بدله منه ، وأنه
 محتاج الى التفهم والتفهم ، ولولم يكن حافظا لمعاني التصورات وصورها
 بعد غيبته لكان إذا سمع كلمة وفهمها شذت عنه عند مجيء الاخرى ،
 فلم يحصل المقصود من الفهم والافهام ، فجعل له ربه وفاطره خزانة
 تحفظ له صور المعلومات ، حتى تجتمع له ، وتسمى القوة التي فيها
 القوة الحافظة ، ولا تتم مصلحة الانسان الا بها . فانه إذا رأى شيئا ، ثم
 غاب عنه ، ثم رآه مرة أخرى عرف أن هذا الذي رآه الآن هو الذي
 رآه قبل ذلك ؛ لأنه في المرة الاولى ثبتت صورته في الحافظة ، ثم
 تتوارى عنه بالحجاب . فلما رآه مرة ثانية صارت هذه الصورة
 المحسوسة مطابقة للصورة المعنوية التي في الذهن ، فحصل الجزم

بأن هذا ذاك . ولولا القوة الحافظة لما حصل ذلك ، ولما عرف أحد
أحداً بعد غيبته عنه . ولذلك اذا طالت الغيبة جدا ، وانمحت تلك
الصورة الأولى من الذهن بالكلية ، لم يحصل له العلم بأن هذا هو الذى
رآه أولاً ، الا بعد تفكير وتأمل

وقد قال قوم : إن محل هذه الصور النفس . وقال قوم : محلها
القلب ، وقال قوم : محلها العقل ، ولكل فريق منهم حجج وأدلة ،
وكل منهم أدرك شيئاً وغاب عنه شئ . اذا الادراك المذكور مفتقر
الى مجموع ذلك ، لا يتم الا به

والتحقيق أن منشأ ذلك ومبدأه من القلب ، ونهايته ومستقره فى
الرأس . وهى المسئلة التى اختلف فيها الفقهاء ، هل العقل فى القلب
أو فى الدماغ ؟ على قولين : حكياروايتين عن الامام أحمد . والتحقيق
أن أصله ومادته من القلب وينتهى الى الدماغ . قال تعالى
(أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَعْلَمَوْا أَنَّهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ
يَسْمَعُونَ بِهَا؟) فجعل العقل فى القلب ، كما جعل السمع بالأذن ، والبصر
بالعين . وقال تعالى (٥٠ : ٣٧) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ)
قال غير واحد من السلف : لمن كان له عقل

واحتج آخرون : بأن الرجل يضرب فى رأسه فيزول عقله . ولولا
أن العقل فى الرأس لما زال . فان السمع والبصر لا يزولان بضرب
اليد أو الرجل ، ولا غيرهما من الأعضاء ، لعدم تعلقهما بهما

وأجاب أرباب القلب عن هذا بأنه لا يمتنع زواله بفساد الدماغ وان كان في القلب ، لما بين القلب والرأس من الارتباط ، وهذا كما

لا يمتنع نبات شعر اللحية بقطع الأئشين ، وفساد القوة بفساد العضو قديكون ، لأنه محلها وارتباطه بها . والله أعلم

وعلى كل تقدير فذلك من أعظم آيات الله وأدلته وقدرته وحكمته ، كيف ترسم صورة السموات والأرض والبحار والشمس والقمر والأقاليم والممالك والأمم في هذا المحل الصغير ؟ . والانسان يحفظ كتباً كثيرة جداً ، وعلومأشئ متعددة ، وصنائع مختلفة ، فترسم كلها في هذا الجزء الصغير ، من غير أن يختلط بعض هذه الصور ببعض ، بل كل صورة منهن بنفسها محصلة في هذا المحل . وأنت لو ذهبت تنقش صوراً وأشكالاً كثيرة في محل صغير لا يختلط بعضها ببعض ، وطمس بعضها بعضاً . وهذا الجزء الصغير تنقش فيه الصور الكثيرة المختلفة والمتضادة ، ولا يبطل منها صورة صورة

ومن أعجب الأشياء أن هذه القوة العاقلة تقبل ما تؤديه اليها الحواس فتجتمع فيها ، ثم تعيد كل حاسة منها فائدة الحاسة الأخرى . مثاله : أنك ترى الشخص فتعلم أنه فلان ، وتسمع صوته فتعلم أنه هو ، وتلمس الشيء فتعرفه ، وتشمه فتعرف أنه هو ، ثم تستدل بما تسمعه من صوته على أنه هو الذي رأيته ، فيخيلك سماع صوته عن رؤيته ، ويقوم لك مقام مشاهدته . ولهذا جواز أكثر الفقهاء شهادة الأعمى وبيعه وشراؤه . وأجمعوا على جواز وطئه امرأته ، وهو

لم يرها قط ، اعتمادا منه على الصوت . بل لو كانت خرساء أيضاً وهو
أطرش جاز له الوطء

وقد جعل الله سبحانه بين السمع والبصر والفؤاد علاقة وارتباطاً
ونفوذاً يقوم به بعضها مقام بعض . ولهذا يقرن سبحانه بينهما
كثيراً في كتابه كقوله (١٧ : ٣٦) إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ
كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا) وقوله تعالى (٤٦ : ٢٦) وَجَعَلْنَا لَهُمْ
سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً) وقوله (١٧٩ : ٧) لَمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ
أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا) وهذا من عناية
الخالق سبحانه بكلال هذه الصورة البشرية ، لتقوم كل حاسة منها
مقام الحاسة الأخرى ، وتفيد فائدتها في الجملة ، لا في كل شيء .

ثم أودع سبحانه قوة التفكير وأمره باستعمالها في مجدي عليه النفع في
الدنيا والآخرة ، فركب القوة المفكرة من شيئين من الأشياء الحاضرة
عند القوة الحافظة تركيباً خاصاً ، فيتولد من بين هذين الشيئين شيء ثالث
جديد لم يكن للعقل شعوره به ، كانت مواده عنده لكن بسبب التركيب
حصل له الأمر الثالث ، ومن هنا حصل استخراج الصنائع ، والحرف ،
والعلوم ، وبناء المدن والمساكن ، وأمور الزراعة والفلاحة ،
وغير ذلك ، فلما استخرجت القوة المفكرة ذلك واستحسنته سلمته
إلى القوة الإرادية العلمية ، فنقلته من ديوان الأذهان إلى ديوان
الأعيان ، فكان أمراً ذهنيًا ، ثم صار وجوداً خارجياً ، ولولا الفكرة
لما اهتدى الإنسان إلى تحصيل المصالح ودفع المفاسد ، وذلك من

أعظم النعم ، وتمام العناية الالهية ، ولهذا لما فقد البهائم والمجانين ونحوهم هذه القوة لم يتمكنوا مما تمكن منه أرباب الفكر . ولما كان استخراج المطلوب بهذه الطريق يتضمن فكرا وتقديرا فيفكر في استخراج المادة أولا ، ثم يقدرها ويفصلها ثانياً كما - يصنع الخياط . يحصل الثوب ثم يقدره ويفصله ثانياً ، قال تعالى عن الوحيد (٧٤ : ١١) ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ١٢ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا ١٣ وَبَنِينَ شُهوْدًا ١٤ وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا ١٥ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ١٦ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لَا يَأْتِنَا غَنِيْدًا ١٧ سَارُهُنَّهٗ صُعُوْدًا ١٨ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ١٩ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ) ففكر سبحانه التقدير دون التفكير ، وذمه عليه دونه . وهذا منزل على مقتضى حال سواه . فانه بالفكر طالب لاستخراج المجهول . وذلك غير مذموم . فلما استخرجه قدر له تقديرين : تقديرا كلياً وتقديرا جزئياً . فالتقدير الكلى أن الساحر هو الذى يفرق بين المرء وزوجه . والتقدير الجزئى أن الذى يفرق بين المرء وزوجه مذموم . فهنا تقدير بعد تقدير . فلماذا كرهه سبحانه وذمه عليه . وأما التفكير فان الفكر طالب لمعرفة الشيء . فلا يذم ، بخلاف من قدر بعد تفكيره ما يوصله الى تحقيق الباطل وابطال الحق . فتأمله

(١٣٦) فصل

ثم انزل الى العين ، وتأمل عجائبها ، وشكلها ، وخلقها ، وايداع النور الباصر فيها . وتركيبها من عشر طبقات ، وثلاث رطوبات . ولكل واحد

من هذه الطبقات والرطوبات شكل مخصوص ومقدار مخصوص
لو لم يكن عليه لاختلت المصاحبة المقصودة . وجعل سبحانه موضع
الابصار في قدر العدسة . ثم أظهر في تلك العدسة قدر السماء والأرض
والجبال والبحار والشمس والقمر . فانظر كيف اتسعت تلك العدسة
أن يرسم فيها ما لانسبة لها اليه ألبتة ؟ وجعل تلك القوة الباصرة في
جزء أسود . فتأمل كيف قام الباصر بهذا الجزء الأسود ؟

وجعل سبحانه الحدقة مصونة بالاجفان ، لتسترها ، وتحفظها ،
وتصقلها ، وتدفع الاقذاء عنها . وجعل شعر الاجفان أسود ليكون
سواده سبباً لاجتماع النور الذي به الأبصار ، ويكون مانعاً من
تفرقه ، ويكون أبلغ في الحسن والجمال

وخلق سبحانه لتحرك الحدقة أربعة وعشرين عضلة ، لو نقصت
واحدة منهن لاختل أمر العين

ولما كانت العين شبيهة بالمرأة - التي انما ينتفع بها اذا كانت في
غاية الصقالة والصفاء - جعل سبحانه الاجفان متحركة الى الانفتاح
والاطباق أبداً باختيار الانسان وغير اختياره ، لتبقى الحدقة نقية صافية
عن جميع الكدورات . وجعل العينين بمنزلة المراتين الصقيلتين
اللتين تنطبع فيهما صور الأشياء الخارجة ، فيتأثر القلب ، ثم يظهر
ما فيه عليهما فيتأثران به . فهما مرآة لما في القلب يظهر فيهما ، ومرآة
لما في الخارج تنطبع صورته فيهما . فالعينان على القلب كالزجاجتين
الموضوعتين في المرأة ، ولذلك يستدل بأحوال العين على أحوال القلب

من رضاه ، وغضبه ، وجهه ، وبغضه ، ونفرتة . ومن أعجب الأشياء أن العين من أطفأ أعضاء البدن ، وهى لا تتأثر بالحر والبرد تأثر غيرها من الأعضاء الكشيفة ، ولو كان الأمر عائداً إلى مجرد الطبيعة لكان ينبغى أن يكون الأمر بالعكس ، لأن الألفط أسرع تأثراً . فعلم أن حصول هذه المصالح ليس هو بمجرد الطبع

١٣٧) فصل

ثم اعدل إلى الأذنين ، وتأمل شقيهما ، وخلقهما ، وإيداع الرطوبة فيهما ، ليكونا عوناً على ادراك السمع ، وجعلها مرة لتمتنع الهوام عن الدخول فى الأذن ، وحوطهما سبحانه بصدقتين يجمعان الصوت ويؤديانه إلى الصماخ . وجعل فى الصدقتين تعريجات ، لتطول المسافة فتتكسر حدة الصوت ولا تلج الهوام دفعة ، بل تكثر حركاتها فيتنبه لها فيخرجها . وجعل العينين مقدمتين والأذنين مؤخرتين ، لأن العينين بمنزلة الطليعة والكاشف والرائد ، الذى يتقدم القوم ليكشف لهم ، وبمنزلة السراج الذى يضىء للسالك ما أمامه . وأما الأذنان فيدركان المعانى الغائبة التى ترد على العبد من أمامه ومن خلفه وعن جانبيه . فكان جعلهما فى الجانبين أعدل الأمور . فسبحان من بهرت حكمته العقول

وجعل للعينين غطاء ؛ لأن مدرك الأذن الأصوات ، ولا بقاء لها ، فلو جعل عليهما غطاء لزال الصوت قبل ارتفاع الغطاء ، فزال المنفعة

المقصودة . وأما مدرك العين فأمر ثابت . والعين محتاجة إلى غطاء يقيها ، وحصول الغطاء لا يؤثر في الإدراك . وقال بعض أهل العلم : عينا الانسان هاديان ، وأذناه رسولان إلى قلبه ، ولسانه ترجمان ، ويده جناحان ، ورجلاه بريدان . والقلب ملك . فإذا طاب الملك طابت جنوده . وإذا خبت خبشت جنوده

فصل (١٣٨)

ثم انزل الى الأنف ، وتأمل شكله وخلقه ، وكيف رفعه سبحانه في وسط الوجنة بأحسن شكل ، وفتح فيه بايين ، وأودع فيهما حاسة الشم ، وجعله آلة لاستنشاق الهواء وإدراك الروائح على اختلافها . فيستشيق بهما الهواء البارد والطيب . فيستغنى بالمنخرين عن فتح الفم أبدا ، ولولا هما لاحتاج الى فتح فيه دائما ، وجعل سبحانه تجويفه واسعا لينحصر فيه الهواء وينكسر برده قبل الوصول الى الدماغ . فان الهواء المستشيق ينقسم قسمين : شطرا منه - وهو أكثره - ينفذ الى الرئة ، وشطرا ينفذ الى الدماغ . ولذلك يضر المزكوم استنشاق الهواء البارد . وجعل في الأنف أيضا اعانة على تقطيع الحروف . وجعل بين المنخرين حاجزا . وذلك أبلغ في حصول المنفعة المقصودة ، حتى كأنهما أنفان بمنزلة العينين ، والأذنين ، واليدين ، والرجلين . وقد يصيب أحد المنخرين آفة فيبقى الآخر سالما . وجعل تجويفه نازلا الى أسفل ، ليكون مصبا للفضلات النازلة

من الدماغ . وستره بسائر أبدى ، لئلا تبدو تلك الفضلات في عين الرأى

تأمل منفعة النفس الذى لو قطع عن الانسان اهلك ، وهو أربعة وعشرون ألف نفس في اليوم والليلة ، قسط كل ساعة ألف نفس وتأمل كيف يدخل الهواء في المنخرين ، فينكسر برده هناك ، ثم يصل الى الحلقوم ، فيعتدل مزاجه ، ثم يصل الى الرئة ، فيصفى فيها من الغلظ والكدرة . ثم يصل الى القلب أصفى ما كان وأعدله ، فيروح عنه ، ثم ينفذ منه الى العروق المتحركة ويتقدم الى أقاصى أطراف البدن ، ثم اذا سخن جدا وخرج عن حد الانتفاع به عاد عن تلك الأقاصى الى البدن ، ثم الى الرئة ، ثم الى الحلقوم ، ثم الى المنخرين ، ثم يخرج ويعود مثله ، وهكذا أبداً . فمجموع ذلك هو النفس الواحد . وقد أحصى الرب عدد هذه الأنفس ، وجعل مقابل كل نفس منها ماشاء الله من الأحقاب في الجحيم ، أو في النعيم . فما أسفه من أضاع ما هذا قيمته في غير شيء .

(١٣٩) فصل

وهو سبحانه جعل القلب أمير البدن ، ومعدنا للحرارة الغريزية ، فاذا استنشق الهواء البارد وصل إلى القلب واعتدلت حرارته ، فيبقى هناك مدة ، فلها سخن واحترق ، واحتاج الى إخراج ودفعه منه ، لم يضيع أحكم الحاكمين ذلك النفس ويخرجه بغير فائدة ، بل جعل

اخرجه سببا لحدوث الصوت . ثم جعل سبحانه في الخنجرة
واللسان والحنك باختلافها الصوت ، فيحدث الحرف ، ثم ألهم
الانسان أن يركب ذلك الحرف الى مثله ونظيره ، فيحدث الكلمة ،
ثم ألهمه تركيب تلك الكلمة الى مثلها ، فيحدث الكلام
فتأمل هذه الحكم الباهرة في اىصال النفس الى القلب لحفظ حياته ،
ثم عند الحاجة الى اخرجه والاستغناء عنه جعله سببا لهذه المنفعة
العظيمة . فتبارك الله أحسن الخالقين

وخلق سبحانه هذه المقاطع والحناجر مختلفة الأشكال ، فكما انه
لا يتشابه صورتان ، كذلك لا يتشابه صوتان من كل وجه ، بل كما
يحصل الامتياز بين الأشخاص بالقوة الباصرة ، فكذلك يحصل
بالقوة السامعة ، فيحصل الامتياز للأعمى والبصير

(١٤٠) فصل

ثم انزل الى الصدر تر معدن العلم ، والحلم ، والوقار ، والسكينة
والبر ، وأضدادها . فتجد صدور العلية تعلو بالبر والخير والعلم
والاحسان ، وصدور السفلة تغل بالفجور والشور ، والاساءة ،
والحسد ، والمكر

ثم انفذ من ساحة الصدر الى مشاهدة القلب تجدملكا عظيما جالسا
على سرير مملكته ، يأمر ، وينهى ، ويولى ، ويعزل . وقد خف
به الأمراء والوزراء والجند ، كلهم في خدمته ، ان استقام استقاموا

وان زاغ زاغوا ، وان صح صحوا ، وان فسد فسدوا . فعليه
المعول ، وهو محل نظر الرب تعالى ، ومحل معرفته ، ومحبه وخشيته ،
والتوكل عليه ، والاناة اليه ، والرضى به ، وعنه ، والعبودية عليه أولا
وعلى رعيته وجنده تبعاً . فأشرف ما فى الانسان قلبه . فهو العالم
بالله ، الساعى اليه ، المحب له . وهو محل الايمان والعرفان ، وهو
المخاطب المبعوث اليه الرسل ، المخصوص بأشرف العطايا ، من
الايمان والعقل . وانما الجوارح أتباع للقلب يستخدمها استخدام
الملوك للعبيد ، والراعى للرعية ، والذى يسرى الى الجوارح من
الطاعات والمعاصى ، انما هى آثاره . فان أظلم أظلمت الجوارح ،
وان استنار استنارت ، ومع هذا فهو بين إصبعين من أصابع الرحمن
عز وجل

فسبحان مقلب القلوب ومودعها ما يشاء من أسرار الغيوب
الذى يحول بين المرء وقلبه ، ويعلم ما ينطوى عليه من طاعته
ودينه ، مصرف القلوب كيف أراد وحيث أراد . أوحى الى قلوب
الأولياء أن أقبل الى ، فبادرت وقامت بين يدي رب العالمين . وكره
عز وجل انبعاث آخرين فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين . كانت
أكثر يمين رسول الله صلى الله عليه وسلم « لَا وَمُقَلِّبِ الْقُلُوبِ »
وكان من دعائه « اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على طاعتك »
قال بعض السلف : لَلْقَلْبُ أَشَدُّ ثَقَلًا مِنَ الْقَدْرِ إِذَا اسْتَجْمَعَتْ

غليانها . وقال آخر : القلب أشد تقلبا من الريشة بأرض فلاة في يوم ريح عاصف

ويطلق القلب على معنيين : أحدهما أمر حسي وهو العضو اللحمي الصنوبري الشكل ، المودع في الجانب الأيسر من الصدر ، وفي باطنه تجويف ، وفي التجويف دم أسود ، وهو منبع الروح . والثاني أمر معنوي ، وهو لطيفة ربانية رحمانية روحانية لها هذا العضو تعلق واختصاص . وتلك اللطيفة هي حقيقة الانسانية .

وللقلب جندان : جنديري بالابصار ، وجنديري بالبصائر . فأما جنسده المشاهد فالأعضاء الظاهرة والباطنة ، وقد خلقت خادمة له لا تستطيع له خلافا . فإذا أمر العين بالانفتاح انفتحت . وإذا أمر اللسان بالكلام تكلم . وإذا أمر اليد بالبطش بطشت . وإذا أمر الرجل بالسعي سعت . وكذا جميع الأعضاء ذلك له تذليلا

ولما خلق القلب للسفر الى الله والدار الآخرة وحصل في هذا العالم ليتزود منه افتقر الى المركب والزاد لسفره الذي خلق لأجله . فأعين بالأعضاء والقوى ، وسخرت له ، وأقيمت له في خدمته لتجلب له ما يوافقه من الغذاء والمنافع ، ويدفع عنه ما يضره ويهلكه ، فافتقر الى جندين : باطن ، وهو الإرادة ، والشهوة ، والقوى وظاهر وهو الأعضاء . فخلق في القلب من الإرادات والشهوات ما احتاج اليه . وخلق له الأعضاء التي هي آلة الإرادة ، واحتاج في دفع المضار الى جندين : باطن ، وهو الغضب الذي يدفع المهلكات ،

وينتقم به من الأعداء . وظاهر وهو الأعضاء التي ينفذ بها غضبه ،
 كالأسلحة للقتال . ولا يتم ذلك الا بمعرفة ما يجلب وما يدفع ،
 فأعين الجند من العلم بما يكشف له حقائق ما ينفعه وما يضره
 ولما سلطت عليه الشهوة والغضب والشيطان أعين بجند من
 الملائكة ، وجعل له محل من الحلال ينفذ فيه شهواته ، وجعل
 بازائه أعداء له ينفذ فيهن غضبه ، فما ابتلى بصفة من الصفات إلا
 وجعل لها مصرفا ومحلا ينفذها فيه ، فجعل لقوة الحسد فيه مصرفا ،
 وهو المنافسة في فعل الخير ، والغبطة عليه ، والمساابقة اليه ، ولقوة
 الكبر مصرفا وهو التكبر على أعداء الله تعالى واهانتهم . وقد قال
 النبي صلى الله عليه وسلم لمن رآه يحتال بين الصفيين في الحرب « انها
 لمشيئة يغيضها الله الا في هذا الموطن » وقد أمر الله سبحانه بالغلظة
 على أعدائه

وجعل لقوة الحرص مصرفا ، وهو الحرص على ما ينفع ، كما قال
 النبي صلى الله عليه وسلم « احرص على ما ينفعك » ولقوة الشهوة
 مصرفا ، وهو الزوج بأربع ، والتسرى بما شاء . ولقوة حب المال
 مصرفا ، وهو انفاقه في مرضاته تعالى ، والتزود منه لمعاده . فحجة المال
 على هذا الوجه لا تدم . ولحجة الجاه مصرفا ، وهو استعماله في تنفيذ
 أوامره ، واقامة دينه ، ونصر المظلوم ، واغاثة الملهوف ، واعانة
 الضعيف ، وقمع أعداء الله . فحجة الرياسة والجاه على هذا الوجه عبادة .
 وجعل لقوة اللعب واللهو مصرفا ، وهو لهوه مع امرأته ، أو بقوسه

حوسمه ، أو تأديبه فرسه . وكل ما أعان على الحق . وجعل لقوة التحيل والمكر فيه مصرفا ، وهو التحيل على عدوه وعدو الله تعالى بأنواع التحيل ، حتى يراغمه ويرده خائسا ، ويستعمل معه من أنواع المكر ما يستعمله عدوه معه . وهكذا جميع القوى التي ركبت فيه جعل لها مصرفا . وقد ركبها الله فيه لمصالح اقتضتها حكمته ولا يطلب تعطيلها ، وإنما تصرف مجاريها من محل الى محل ، ومن موضع الى موضع . ومن تأمل هذا الموضع وتفقه فيه علم شدة الحاجة اليه ، وعظم الانتفاع به

(١٤١) فصل

وجماع الطرق والأبواب التي يصاب منها القلب وجنوده أربعة ، فمن ضبطها وعدلها وأصلح مجاريها وصرفها في محالها اللائقة بها استفاد منها قلبه وجوارحه ، ولم يشمت به عدوه : وهي الحرص ، والشهوة ، والغضب ، والحسد . فهذه الأربعة هي أصول مجامع طرق الشر والخير ، وكما هي طرق الى العذاب السرمدي ، فهي طرق الى النعيم الأبدى . فآدم أبو البشر صلى الله عليه وسلم أخرج من الجنة بالحرص ، ثم أدخل إليها بالحرص . ولكن فرق بين حرصه الأول وحرصه الثاني . وأبو الجن أخرج منها بالحسد ، ثم لم يوفق لمنافسة وحسد يعيده إليها ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم « لا حسد

إلا في اثنتين : رجل آتاه الله مالا وسلطه على كده كته في الحق ،
ورجل آتاه الله القرآن ، فهو يقوم به آناء الليل وأطراف النهار (١) »
وأما الغضب فهو غول العقل ، يغتاله كما يغتال الذئب الشاة ،
وأعظم ما يفترسه الشيطان عند غضبه وشهوته . وإذا كان حرصه إنما
هو على ما ينفعه ، وحسده منافسة في الخير ، وغضبه لله على أعدائه ،
وشهوته مستعملة فيما أيسر له وعونا له على ما أمر به ، لم تضره
هذه الأربعة بل انتفع بها أعظم الانتفاع .

(١٤٣) فصل

وإذا تأملت حال القلب مع الملك والشيطان رأيت أعجب
العجائب ، فهذا يلم به مرة ، وهذا يلم به مرة ، فإذا ألمَّ به الملك حدث
من كتمته الانفساح ، والانشراح ، والنور ، والرحمة ، والاخلاص ،
والانابة ، ومحبة الله ، وإيثاره على ما سواه ، وقصر الأمل ، والتجافي
عن دار البلاء ، والامتحان ، والغرور . فلو دامت له تلك الحالة
لكان في أهنأ عيش وأذو وأطيبه . ولكن تأتيه كمة الشيطان ،
فتحدث له من الضيق ، والظلمة ، والهم ، والغم ، والخوف ،
والسخط على المقدور ، والشك في الحق ، والحرص على الدنيا

(١) رواه البخاري ومسلم عن ابن مسعود . والحد يطلق ويراد
منه تمنى زوال النعمة عن المحسود . وهذا حرام . ويطلق ويراد منه
الغبطة وهي تمنى مثل الذي له . وهذا لا بأس به ، وهو المراد هنا

وعاجلها ، والغفلة عن الله - ماهو من أعظم عذاب القلب .
ثم للناس في هذه المحنة مراتب لا يحصيها إلا الله : فمنهم من
تكون لمة الملك أغلب من لمة الشيطان وأقوى . فاذا ألم به الشيطان
وجد من الألم والضيق ، والحصر ، وسوء الحال بحسب ما عنده
من حياة القلب ، فيسادر إلى طرد تلك اللمة ولا يدعها تستحكم
فيصعب تداركها . فهو دائماً في حرب بين اللمتين ، يدال له مرة ،
ويدال عليه مرة أخرى . والعاقبة للتقوى .

ومنهم من تكون لمة الشيطان أغلب عليه وأقوى ، فلا تزال
تغلب لمة الملك حتى تستحكم ويصير الحكم لها ، فيموت القلب ،
ولا يحس ماناله الشيطان به ، مع أنه في غاية العذاب والضيق
والحصر ، ولكن سكر الشهوة والغفلة حجب عنه الاحساس
بذلك الألم . فاذا كشف أمكنه تداركه بالدواء ، وحسمه ، وان عاد
الغطاء عاد الأمر كما كان ، حتى ينكشف عنه وقت المفارقة للدنيا ،
فتظهر حينئذ تلك الآلام والهموم والغموم والأحزان ، وهى لم
تجدد له ، وإنما كانت كامنة توارىها الشواغل . فلما زالت الشواغل
ظهر ما كان كامناً وتجدد له أضعافه .

(١٤٣) فصل

والشيطان يُلم بالقلب لما كان هناك من جواذب تجذبه ، وهى
نوعان : صفات ، وإرادات . فاذا كانت الجواذب صفات قوى

سلطانة هناك ، واستفحل أمره ، ووجد موطناً ومقرراً ، فتأتى
الأذكار والدعوات والتعوذات كحديث النفس ، لا تدفع سلطان
الشیطان . لأن مركبه صفة لازمة . فإذا قلع العبد تلك الصفات
وعمل على التطهر منها والاعتسال ، بقى للشیطان بالقلب خطرات
ووساوس وکلمات من غير استقرار . وذلك يضعفه ، ويقوى لمة
الملک . فتأتى الأذکار ، والدعوات والتعوذات ، فتدفعه بأسهل شيء
وإذا أردت لذلك مثالا مطابقا : فمثل كلب جائع شديد
الجوع ، وبينك وبينه لحم أو خبز ، وهو يتأملك ويراك لا تقاومه
وهو أقرب منك . فأنت تزجره ، وتصيح عليه ، وهو يأبى إلا
التحوم عليك ، والغارة على ما بين يديك . فالأذکار بمنزلة الصياح
عليه والزجر له . ولكن معلومه ومراده عندك ، وقد قربته عليك
فإذا لم يكن بين يديك شيء يصلح له وقد تأملك فرآك أقوى منه
فأنك تزجره وتصيح عليه فيذهب . وكذلك القلب الخالى عن قوة
الشیطان ينزجر بمجرد الذكر .

وأما القلب الذى فيه تلك الصفات التى هى مركبه وموطنه ، فيقع
الذكر فى حواشيه وجوانبه ، ولا يقوى على اخراج العدو منه . ومصدق
ذلك تجده فى الصلاة ، فتأمل فى الحال وانظر هل تخرج الصلاة
بأذکارها وقراءتها الشیطان من قلبك ، وتفرغه كله لله تعالى بکليته
وتقيمه بين یدى ربه مقبلا بکليته عليه ، يصلى لله تعالى ، كأنه

يراه ، قد اجتمع همه كله على الله ، وصار ذكره ومراقبته ومحبته
والأنس به في محل الخواطر والوساوس أم لا ؟ والله المستعان
وههنا نكتة ينبغي التفطن لها ، وهي ان القلوب الممتلئة بالأخلاق
الردئية . فالعبادات ، والأذكار والتعوذات ، أدوية لتلك الأخلاق
كما يشير الدواء أخلاق البدن . فان لم يكن قبل الدواء وبعده حمية
لم يزد الدواء على إثارته ، وإن أزال منه شيئاً ما . فمدار الأمر على
شيئين : الحمية ، واستعمال الأدوية

(١٤٤) فصل

وأول ما يطرق القلب الخطرة ، فان دفعها استراح مما بعدها ،
وإن لم يدفعها قويت فصارت وسوسة ، فكان دفعها أصعب . فان
بادر ودفعها ، وإلا قويت ، وصارت شهوة . فان عاجلها ، وإلا
صارت ارادة ، فان عاجلها والاصارت عزيمة . ومتى وصلت الى هذه الحال
لم يمكن دفعها ، واقتن بها الفعل ولا بد . وما يقدر عليه مرة بدون
مقدماته . وحينئذ ينتقل العلاج الى أقوى الأدوية ، وهو الاستفراغ
التام بالتوبة النصوح . ولا ريب أن دفع مبادئ هذا الداء من أوله
أيسر وأهون من استفراغه بعد حصوله . ان ساعد القدر وأعان
التوفيق ، وان الدفع أولى به . وإن تأملت النفس بمفارقة المحبوب ،
فليوازن بين فوات هذا المحبوب الأخس المنقطع النكبد المشوب
يالآلام والهموم ، وبين فوات المحبوب الأعظم الدائم الذي لانسبة

لهذا المحبوب إليه ألبته لا في قدره ، ولا في بقاءه . وليوازن بين ألم فوته وبين
 ألم فوت المحبوب الاخرس ، وليوازن بين لذة الانابة والاقبال على الله
 تعالى ، والتنعم بحبه ، وذكره ، وطاعته ، ولذة الاقبال على الرذائل ،
 والأتان والقبائح . وليوازن بين لذة الظفر بالذنب ، ولذة الظفر بالعدو ،
 وبين لذة الذنب ، ولذة العفة ، ولذة الذنب ، ولذة القوة ، وقهر
 العدو ، وبين لذة الذنب ، ولذة ارغام عدوه ، وردة خاسئا ذليلا .
 وبين لذة الذنب ولذة الطاعة التي تحول بينه وبين مراده وبين فوت
 مراده وفوت ثناء الله تعالى وملائكته عليه ، وفوت حسن جزائه
 وجزيل ثوابه ، وبين فرحة إدراكه وفرحة تركه لله تعالى عاجلا ،
 وفرحة ما يثنيه عليه في دنياه وآخرته . والله المستعان
 وهذا فصل جره الكلام في قوله تعالى (وفي أنفسكم أفلا
 تبصرون) أشرنا اليه اشارة . ولو استقصيناه لاستدعى عدة أسفار ،
 ولكن فيما ذكرناه تنبيه على ما تركناه . وبالله التوقيق

فصل (١٤٥)

ولنرجع الى المقصود . ثم قال الله تعالى (وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ
 وَمَا تُوعَدُونَ) أما الرزق ففسر بالمطر ، وفسر بالجنة ، وفسر برزق
 الدنيا والآخرة . ولا ريب أن المطر من الرحمة ، وان الجنة مستقر
 الرحمة . فرزق الدارين في السماء التي هي في العلو . وقوله تعالى :

(وما توعدون) قال عطاء رضى الله عنه : من الثواب والعقاب . وقال الكلبي : من الخير والشر . وقال مجاهد : من الجنة والنار . وقال ابن سيرين : من أمر الساعة

قلت : كون الجنة والخير فى السماء فلا اشكال فيه ، وكون النار فى السماء وما يوعد به أهلها يحتاج الى تبيين ، فاذا نظرت الى أسباب الخير والشر ، وأسباب دخول الجنة والنار ، واقتراق الناس ، وانقسامهم الى شقي وسعيد ، وجدت ذلك كله بقضاء الله وقدره ، النازل من السماء . وذلك كله مثبت فى السماء فى صحف الملائكة ، وفى اللوح المحفوظ ، قبل العمل وبعده . فالامر كله من السماء . وقول من قال : من أمر الساعة : يكشف عن هذا المعنى فان أمر الساعة يأتى من السماء ، وهو الموعود بها . فالجنة والنار الغاية التى لأجلها قامت الساعة . فصح كل ما قال السلف فى ذلك . والله أعلم

(١٤٦) فصل

ثم أقسم سبحانه أعظم قسم بأعظم مقسم به ، على أجل مقسم عليه وأكد الأخبار بهذا القسم ، ثم أكد به بتشبيهه بالامر المحقق الذى لا يشك فيه ذو حاسة سليمة . فقال : (فَوَرَبُّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقُّ مِثْلِ مَا أَنْكُمْ تَنْطِقُونَ) قال ابن عباس رضى الله عنهما : يريد إنه لحق واقع ، كما أنكم تنطقون . وقال الفراء : إنه لحق كما أن

الآدمي ناطق ، وقال الزجاج : هذا كما تقول في الكلام : إن هذا
الحق كما أنك ههنا

قلت : وفي الحديث « إنه لحق كما أنك ههنا » فشيبه سبحانه تحقيق
ما أخبر به بتحقيق نطق الآدمي ووجوده . والواحد منا يعرف أنه ناطق
ضرورة ، ولا يحتاج نطقه الى استدلال على وجوده ، ولا يخالجه
شك في أنه ناطق . فكذلك ما أخبر الله عنه من أمر التوحيد ،
والنبوة ، والمعاد ، وأسمائه ، وصفاته حق ثابت في نفس الأمر ،
يشبه بثبوت نطقكم ووجوده . وهذا باب يعرفه الناس في كلامهم .
يقول أحدهم : هذا حق مثل الشمس . وأفصح الشاعر عن هذا
بقوله :

وليس يصح في الأذهان شيء إذا احتاج النهار الى دليل
وههنا أمر ينبغي التفطن له ، وهو أن الرب تعالى شهد بصحة
ما أخبر به ، وهو أصدق الصادقين ، وأقسم عليه ، وهو أبر المقسمين
وأكدته بتشبيهه بالواقع الذي لا يقبل الشك بوجه . وأقام عليه
من الأدلة العيانة والبرهانية ما جعله معايينا مشاهدا بالبصائر ، وإن
لم يعاين بالابصار . ومع ذلك فأكثر النفوس في غفلة عنه ، لا تستعد
له ، ولا تأخذ له أهبة ، والمستعد له الآخذ له أهبة لا يعطيه حقه
منهم الا الفرد بعد الفرد ، فأكثر الخلق لا ينظرون في المراد من
إيجادهم وإخراجهم الى هذه الدار ، ولا يتفكرون في قلة مقامهم

في دار الغرور ، ولا في رحيلهم وانتقالهم عنها ، ولا الى أين يرحلون ؟
 وأين يستقرون ؟ قد ملكهم الحس ، وقل نصيبهم من العقل ،
 وشملتهم الغفلة ، وغرتهم الاماني التي هي كالسراب ، وخدعهم طول
 الامل ، وكان المقيم لا يرحل ، وكان أحدهم لا يبعث ولا يسئل ،
 وكان مع كل مقيم توقيع من الله : لفلان ابن فلان بالامان من عذابه ،
 والفوز بجزيل ثوابه . فأما اللذات الحسية والشهوات النفسية كيفما
 حصلت فانهم حصلوها ، ومن أي وجه لا تحت أخذوها ، غافلين عن
 المطالبة ، آمنين من العاقبة . يسعون لما يدركون . ويتركون ما هم به
 مطالبون . ويعمرون ما هم عنه مستقلون . ويخربون ما هم اليه صائرون .
 وهم عن الآخرة هم غافلون . ألهتهم شهوات نفوسهم فلا ينظرون
 في مصالحها . ولا يأخذون في جمع زادها في سفرها (٥٩ : ١٩)
 نَسُوا اللَّهَ فَنَسَاهُمْ أَنْفُسُهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ) والعجب كل
 العجب من غفلة من تعد عليه لحظاته ، وتحصى عليه أنفاسه ، ومطايا الليل
 والنهار تسرع به ، ولا يتفكر الى أين يحمل ، ولا إلى أي منزل ينقل ؟
 وكيف تنام العين وهي قرية * ولم تدر في أي المحلين تنزل ؟
 وإذا نزل بأحدهم الموت قلق لخراب ذاته ، وذهاب لذاته ، لا
 لما سبق من جنائياته ، ولا لسوء منقلبه بعد مماته . فان خطرت على
 أحدهم خطرة من ذلك اعتمد العفو أو الرحمة ، وكان يتيقن أن ذلك
 نصيبه ولا بد . فلو أن العاقل أحضر ذهنه ما استحضر عقله ، وسار

بفكره ، وأمعن النظر ، وتأمل الآيات ، لفهم المراد من إيجاده ، ولنظرت عين الراحل إلى الطريق ، ولا أخذ المسافر في التزود ، والمريض في التداوى ، والحازم ما يجوز أن يأتي . فما الظن بأمر متيقن ، كما أنه لصدق إيمانهم وقوة إيقانهم ، وكأنهم يعاينون الأمر ، فأضحت ربوع الايمان من أهلها خالية ، ومعالمه على عروشها خاوية . قال ابن وهب : أخبرني مسلم بن علي ، عن الازاعي ، قال : كان السلف إذا طلع الفجر أو قبله كأنما على رؤسهم الطير مقبلين على أنفسهم ، حتى لو أن حبيبا لأحدهم غاب عنه حينما ثم قدم لما التفت إليه . فلا يزالون كذلك الى طلوع الشمس . ثم يقوم بعضهم إلى بعض . فيتخلفون بأول ما يقتضون فيه أمر معادهم ، وما هم صائرون اليه . ثم يأخذون في الفقه .

(١٤٧) فصل

ومن ذلك قوله تعالى : (٥٠ : ١ ق والقرآن المجيد ٢ بل عَجَبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ) الصحيح أن ق ، ون ، وص ، بمنزلة حم . وألم . وطس : تلك حروف مفرد وهذه متعددة . وقد تقدمت الإشارة الى بعض ما فيها قبل

وهنا قد اتحد المقسم به والمقسم عليه وهو القرآن ، فأقسم بالقرآن على ثبوته وصدقه ، وأنه حق من عنده . ولذلك حذف الجواب ولم يصرح به ، لما في القسم من الدلالة عليه ، ولأن المقصود نفس المقسم به

كما تقدم بيانه ، ثم أخذ سبحانه في بيان عجب الكفار من غير عجب ، بل بما لا ينبغي أن يقع سواء ، كما قال سبحانه (١٠ : ١) أَلَمْ تَرَ أَنَّ آيَاتِ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ٢ أَمْ كُنَّا لِلنَّاسِ عَجَبًا أَمْ وَحِينًا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ) فأى عجب من هذا حتى يقول الكافرون (إِنَّ هَذَا أَسْحَرٌ مُبِينٌ) ؟ وكيف يتعجب من رحمة الخالق عباده ، وهدايته ، وانعامه عليهم بتعريفهم على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم بطريق الخير والشر وما هم صائرون اليه بعد الموت ، وأمرهم ونهيهم ، حتى يقابل ذلك بالتعجب ، ونسبة ما جاء به الى السحر ، لولا غاية الجهل والظلم ، وإن العجب كل العجب قولهم وتكذيبهم كما قال تعالى (١٣ : ٥) وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ)

(١٤٨) فصل

ومن ذلك (٤٣ : ٦ حم والكتاب المبين) وقوله (٣٨ : ١ ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ) وقوله (٣٦ : ١ يس والقرآن الحكيم ٣ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ) والصحيح أن يس بمنزلة حم والهم ، ليست أسماء من أسماء النبي صلى الله عليه وسلم وأقسم سبحانه بكتابه على صدق رسوله ، وصحة نبوته ورسالته فتأمل قدر المقسم به والمقسم عليه . وقوله تعالى (عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

وجوز فيه ثلاثة : أن يكون خبرا بعد خبر ، فأخبر عنه بأنه رسوله وأنه على صراط مستقيم . وأن يكون متعلقا بالخبر نفسه تعلق المعمول بعامله أي أرسلتك على صراط . وهذا يحتاج الى بيان تقدير : المجعولين على صراط مستقيم ، وكونه من المرسلين مستلزم لذلك فاستغنى عن ذكره .

(١٤٩) فصل

ومن ذلك قوله تعالى (والصافات صفاً) أقسم سبحانه بملائكته الصافات للعبودية بين يديه ، كما قال النبي ﷺ لا أصحابه «أَلَا تَصُفُّونَ» كما تصف الملائكة عند ربها ؟ تتمون الصفوف الأول ، وتراصون في الصف « وكما قالوا عن أنفسهم (٣٧ : ١٦٥) وإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ) والملائكة الصافات أجنحتهم في الهواء . والزاجرات الملائكة التي تزجر السحاب وغيره بأمر الله ، (فالتاليات) التي تتلو لكلام الله . وقيل : الصافات الطير : كما قال تعالى (٦٧ : ١٩) أُولَٰم يَرَوْنَ إِلَى الطَّيْرِ فَرَقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ) وقال تعالى (٢٤ : ٤١) والطير صافات) والزاجرات الآيات والكلمات الزاجرات عن معاصي الله ، والتاليات الجامعات لكتاب الله تعالى . وقيل : الصافات للقتال في سبيله ، فالزجرات الخيل للحمل على أعدائه ، فالتاليات الذاكرين له عند ملاقة عدوهم . وقيل : الجامعات الصافات أبدانها في الصلاة ، الزاجرات أنفسها عن معاصي الله . فالتاليات

آياته . واللفظيحتمل ذلك كله ، وإن كان أحق من دخل فيه وأولى الملائكة . فان الاقسام كالديلل والآية على صحة ما أقسم عليه من التوحيد ، وما ذكر من غير الملائكة فهو من آثار الملائكة ، وبواسطةاكان

وأقسم سبحانه بذلك على توحيد ربوبيته وإلهيته ، وقرر توحيد ربوبيته . فقال (إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ . رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ) من أعظم الأدلة على انه إله واحد . ولو كان معه إله آخر لكان الاله مشاركا له في ربوبيته ، كما شاركه في إلهيته . تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا . وهذه قاعدة القرآن يقرر توحيد الالهية بتوحيد الربوبية ، فيقرر كونه معبودا وحده بكونه خالقاً رازقا وحده . وخص المشارق ههنا بالذكر اما لدالاتها على المغارب ، إذ الأمر ان المتضايقان كل منهما يستلزم الآخر ، وإما لكون المشارق مطالع الكواكب ومظاهر الأنوار . وإما توطئة لما ذكر بعدها من تزيين السماء بزينة الكواكب ، وجعلها حفظا من كل شيطان . فذكر المشارق أنسب بهذا المعنى وأليق . والله تعالى أعلم

(١٥٠) فصل

ومن ذلك قوله في قصة لوط عليه السلام ، ومراجعتة قومه له (١٥ : ٧٠) قالوا أَوَلَمْ نُنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ ؟ ٧١ قال هُوَ لَاءِ بَنَاتِي إِنْ

كُنْتُمْ فَأَعْلَيْنَ ٧٢ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ) أَكْثَرُ
 الْمُفْسِرِينَ مِنَ السَّلَفِ وَالْخَلْفِ - بَلْ لَا يَعْرِفُ عَنِ السَّلَفِ فِيهِ نَزَاعًا ، أَنْ
 هَذَا قَسَمٌ مِنَ اللَّهِ بِحَيَاةِ رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . وَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ
 فَضَائِلِهِ أَنْ يَقْسِمَ الرَّبُّ عِزَّ وَجَلَّ بِحَيَاتِهِ . وَهَذِهِ مِزْيَةٌ لَا تَعْرِفُ لغيرِهِ .
 وَلَمْ يُوَافِقِ الزَّمَخْشَرِيُّ عَلَى ذَلِكَ ، فَصَرَفَ الْقِسْمَ إِلَى أَنَّهُ بِحَيَاةِ لُوطَ
 وَانْه مِنْ قَوْلِ الْمَلَائِكَةِ ، فَقَالَ : هُوَ عَلَى إِرَادَةِ الْقَوْلِ ، أَيْ قَالَتْ
 الْمَلَائِكَةُ لِلُّوطَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : لَعَمْرُكَ : إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ
 يَعْمَهُونَ . وَلَيْسَ فِي اللَّفْظِ مَا يَدُلُّ عَلَى وَاحِدٍ مِنَ الْآمِرِينَ ، بَلْ ظَاهِرُ
 اللَّفْظِ وَسِيَاقُهُ إِنَّمَا يَدُلُّ عَلَى مَا فُهِمَهُ السَّلَفُ لِأَهْلِ التَّعْطِيلِ وَالْإِعْتِزَالِ .
 قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا : لَعَمْرُكَ ، أَيْ وَحْيَاتِكَ ، قَالَ : وَمَا
 أَقْسَمَ اللَّهُ تَعَالَى بِحَيَاةِ نَبِيِّ غَيْرِهِ . وَالْعَمْرُ وَالْعُمَرُ وَاحِدٌ . إِلَّا أَنَّهُمْ
 خَصُّوا الْقِسْمَ بِالْمَفْتُوحِ لِأَثْبَاتِ الْأَخْفِ ، لِكَثْرَةِ دَوْرَانِ الْخَلْفِ
 عَلَى أَسْنَتِهِمْ . وَأَيْضًا فَإِنَّ الْعَمْرَ حَيَاةٌ مُخْصُوصَةٌ . فَهُوَ عَمْرٌ شَرِيفٌ
 عَظِيمٌ أَهْلٌ أَنْ يَقْسِمَ بِهِ ، لِمِزْيَتِهِ عَلَى كُلِّ عَمْرٍ مِنْ أَعْمَارِ بَنِي آدَمَ . وَلَا
 رَيْبَ أَنَّ عَمْرَهُ وَحْيَاتَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ أَعْظَمِ النِّعَمِ وَالْآيَاتِ
 فَهُوَ أَهْلٌ أَنْ يَقْسِمَ بِهِ . وَالْقِسْمُ بِهِ أَوَّلَى مِنَ الْقِسْمِ بغيرِهِ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ (١)

(١) هَذَا أَمَّا هُوَ فِي قِسْمِ اللَّهِ تَعَالَى بِهِ ، لَا فِي قِسْمِ الْخَلْقِ وَحَلْفِهِمْ
 بِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَبغيرِهِ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ . فَإِنَّ هَذَا مِنْ أَعْظَمِ الْحُرَمَاتِ
 فَفِي الْحَدِيثِ الْمُتَّفَقِ عَلَيْهِ عَنْ ابْنِ عَمْرٍ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَمِعَ

وقوله تعالى (يعمهون) أى يتجبرون . وانما وصف الله سبحانه اللوطة بالسكرة ، لان سكرة العشق مثل سكرة الخمرة ، كما قال القائل :
سكران : سكرهوى ، وسكر مدامة * ومتى إفاقة من به سكران ؟

(١٥١) فصل

ومن ذلك قوله تعالى (٤ : ٦٥) فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِي شَجَرِ بَيْنِهِمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا) أقسم سبحانه بنفسه المقدسة قسما مؤكدا بالنبي قبله على عدم إيمان الخلق حتى يحكموا رسوله فى كل ما شجر بينهم من الأصول والفروع واحكام الشرع واحكام المعاد وسائر الصفات وغيرها ، ولم يثبت لهم الايمان بمجرد هذا التحكيم حتى ينتفى عنهم الحرج ، وهو ضيق الصدر ، وتشرح صدورهم لحكمه كل الانشراح وتنفسح له كل الانفساح ، وتقبله كل القبول . ولم يثبت لهم الايمان

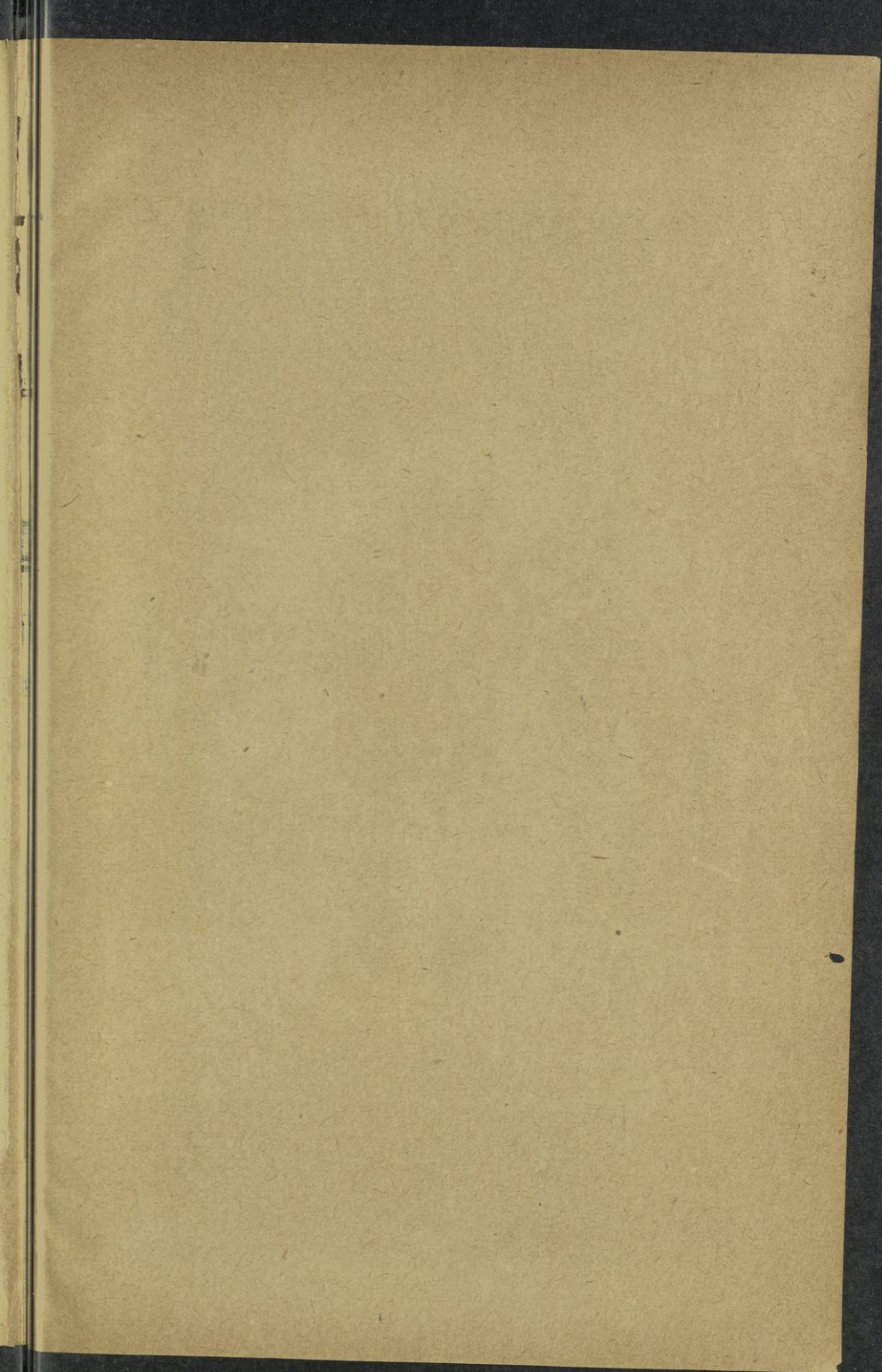
عمر وهو يحلف بأبيه ، فقال « إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم . فمن كان حالفا فليحلف بالله أو ليصمت » وفى رواية للترمذى أن ابن عمر سمع رجلا يقول : لا والله الكعبة : فقال : لا تحلف بغير الله ، فأنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « من حلف بغير الله فقد كفر وأشرك » قال الترمذى : حسن . وصححه الحاكم . وورد مثل هذا عن ابن مسعود وقال ابن مسعود : لأن أحلف بالله كاذبا أحب الى من أن أحلف بغيره صادقا

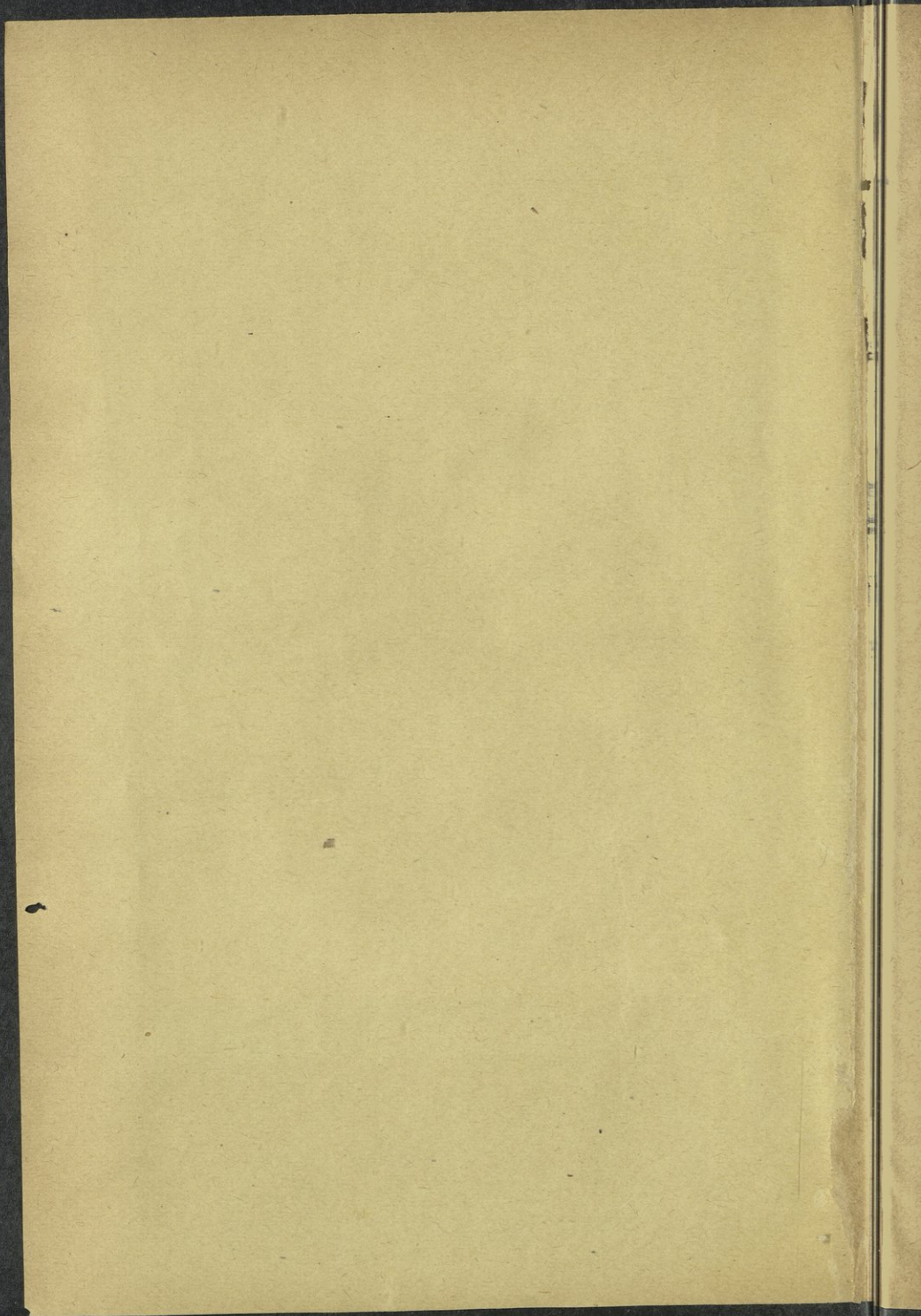
بذلك أيضا حتى ينضاف اليه مقابلة حكمه بالرضى والتسليم ، وعدم المنازعة وانتفاء المعارضة والاعتراض . فهنا قد يحكم الرجل غيره وعنده حرج من حكمه ، ولا يلزم من انتفاء الحرج الرضا والتسليم . والانتقياد اذ قد يحكمه وينتفى الحرج عنه في تحكيمه ، ولكن لا ينقاد قلبه ولا يرضى كل الرضى بحكمه . والتسليم أخص من انتفاء الحرج . فالحرج مانع ، والتسليم أمر وجودى ، ولا يلزم من انتفاء الحرج حصوله بمجرد انتفائه . اذ قد يتبقى الحرج ويبقى القلب فارغا منه ومن الرضى به والتسليم له . فتأمل

وعند هذا يعلم أن الرب تبارك وتعالى أقسم على انتفاء إيمان أكثر الخلق . وعند الامتحان تعلم هل هذه الأمور الثلاثة موجودة في قلب أكثر من يدعى الاسلام أم لا ؟ والله المستعان وعليه التكلان ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم .

وصلى الله على سيدنا محمد خاتم النبيين . وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا الى يوم الدين . والحمد لله رب العالمين

وكان الفراغ من طبعه في يوم الاحد الرابع من شهر المحرم مفتتح السنة الثانية والخمسين بعد ثلاثمائة والالف من هجرة أشرف الخلق وخاتم الرسل سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم وذلك بمطبعة الشاب النشيط محمد أفندى عبد اللطيف حجازى . زاده الله توفيقا واحسانا





[illegible]

297.207:1136tA:c.1
ابن قيم الجوزية، أبو عبد الله محمد بن
التتايان في أقسام القرآن
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01003305

American University of Beirut



297.207

I136tA

General Library

